ايران من الداخل

فهمي هويدي

هذه الطبعة الرابعة

تخرج هذه الطبعة الرابعة من الكتاب ، فى عالم مختلف عن ذلك الذى صدرت فى ظله الطبعات الثلاث الأولى . اختلفت إيران ذاتها ، واختلف مناخ العلاقات العربية الإيرانية ، والوضع الإقليمى فى مجمله . بذات القدر ، فقد اختلف الوضع الدولى على إطلاقه ، بعد ما حل « الوفاق » محل الحرب الباردة ، وجرى تفكيك الاتحاد السوفيتى ، سواء كإمبراطورية أو كمشروع سياسى يقوم على نظرية جرى التنصل منها وإنكارها . ولو أن ذلك المتغير الأخير حدث منذ عشر سنوات مثلا ، أى فى مستهل الثورة الإيرانية ، لتغير الكثير فى تاريخ إيران ذاتها . لأن انفراد الولايات المتحدة الأمريكية بالهيمنة العالمية فى المواجهة مع إيران ، كان لابد أن يفرز نتائج مختلفة تماما عن تلك التى حدثت فى ظل التوازن بين القطبين الأمريكى والسوفيتى . وهو ما كان أحد الأسباب الرئيسية التى أسهمت فى تقييد حدود الضغط الأمريكى على إيران ، ومن ثم ، فى إطالة عمر الثورة الإيرانية وتأمينها ، وهى مازالت بعد وليدة .

وقت صدوره ، كانت الكتابة المحايدة عن إيران نوعا من المغامرة أو السباحة ضد التيار ، لأنها كانت بمثابة تجاوز للإشارات الحمراء التى كانت تغمر طريق العلاقات العربية الإيرانية الذى جرى تلغيمه آنذاك . وهو ما أشرت إليه فى مقدمة الطبعة الأولى ، التى مازالت مثبتة فى مستهل الكتاب .

لكن الذى لم أقله فى حينه ، أن محاولة تجنب الألغام فى ظل المناخ المتوتر الذى خيم على المنطقة وقت صدور الكتاب ، هذه المحاولة تركت بصماتها على أسلوب تناول الموضوع ، تحديدا على بعض المواقف المسجلة فيه . إذ اقتضى الأمر أن يجرى ذلك التناول بأكبر قدر من الاحتياط والحذر . وقد التزمت فيه بما تعلمته من خبرة العمل الصحفى المستقل ، حيث أدركت أن المرء إذا لم يكن بمقدوره فى ظل ظروف معينة أن يعلن الحقيقة كلها ، كما ينبغى ، فلا بأس من أن يقدم لقارئه بعض الحقيقة ، أيا كان قدر ذلك البعض . لكن المهم فى كل الأحوال ألا يغالط

المرء نفسه – ضميره فى الواقع – ليزيف الحقيقة أو يتستر عليها . إذ أنه فى هذه الحالة لن يرتكب جرم « الشيطان الأخرس » وإنما سيقع فيما هو أسوأ ، حيث يصبح شيطانا فصيحا ، حيث لن يكتفى بالسكوت على الحق ، وإنما سيتورط فى الترويج للباطل .

النموذج الأوضح على ذلك فى الكتاب ، هو الموقف من الحرب العراقية الإيرانية إذ فى غمرة الانحياز العربى إلى جانب العراق آنذاك ، كان من المحظور الإشارة إلى أن العراق هو الذى بدأ الحرب ضد إيران ، وأقل ما كانت تتعرض له المطبوعات التى تشير إلى هذه الحقيقة ، هو المصادرة فى العديد من العواصم العربية « المؤازرة » للعراق .

حدث ذلك معى عندما فرض السياق أن أتعرض لموضوع الحرب . فى الفصل التاسع الذى جاء تحت عنوان « الخيار الكربلائى » . فى ذاك الفصل واجهت المأزق ، حيث كان من السخف أن أتحدث عن حرب لا إشارة فيها إلى المعتدى . وكان من المستحيل أن أؤكد حقيقة أن العراق هو المعتدى . ولم يكن واردا أصلا أن أدعى – مع الآخرين ! – أن إيران هى المعتدية .

عندئذ وجدت المخرج فى إثبات عبارة ملفوفة تشير إلى الحقيقة ولا تذكرها صراحة . وكان نص تلك العبارة التى أوردتها فى مستهل الفصل هو : « لقد حاولت جاهدا ألا أتطرق لمسألة الحرب ، لأسباب عديدة ، بينها أننى لا أقر الذى قامت به العراق فى الابتداء (كنت أقصد العدوان) ، كما أننى لا أقر الذى ذهبت إليه إيران فى الإنهاء أو الانتهاء (إشارة إلى رفض طهران لوقف إطلاق النار فى الوقت المناسب). وكان ظنى أن أى هدف مرجو من الحرب ، هو أقل بكثير من الثمن الذى دفع ولايزال يدفع فيها . وفضلا عن هذا وذاك ، فإن المعلن فى القضية بات مكررا ومحفوظا لدى الجميع ، وغير المعلن لن يجد له سبيلا عبر المعالجات الصحفية أو أبحاث الدارسين ، وربما لا ينبغى أن يكون هذا هو سبيله ».

لقد اعتبرت أن عرض الموقف على ذلك النحو ، هو الحد الأدنى الذى يستريح له ضميرى المهنى ، فضلا عن أنه يمثل الحد الأقصى لما يمكن أن يقال فى صدد تلك النقطة الدقيقة ، وفى ظل تلك الظروف بالغة الصعوبة .

نعم ، أعلنت الحقيقة الكاملة فيما بعد ، فى أعقاب الغزو العراقى للكويت فى أغسطس ١٩٩٠ وتحسن العلاقات العربية الإيرانية . إذ صار الجميع يجهرون بما ظل مكتوما طيلة أكثر من عشر سنوات ، ويندّدون صراحة بمختلف « جرائم » النظام العراقى ، وفى مقدمتها العدوان على « أشقائنا المسلمين » فى إيران ، لكننى لم أعتبر ذلك من قبيل الشجاعة أو الإنصاف للحق أو للحقيقة . وقلت فى أكثر من محفل ومقام إن الشجاعة فى الحق لا تحتسب عندما تظهر الإشارات الخضراء ، ولكنها تختبر عندما يتطلب الأمر اختراق الإشارات الحمراء !– ففى الأولى يتم العبور بالمجان ، أما فى الثانية فتجاوز الخط له ثمنه وتكلفته .

ورغم أنى أعتبرها أمانة لا شجاعة ، إلاّ أننى عندما تأملت الموقف قلت : إذا كانت الحقيقة فى مسألة العدوان فى الحرب العراقية الإيرانية قد ظلت محجوبة عن الناس فى خطابنا الإعلامى والسياسى طيلة عشر سنوات ، فكم من الحقائق الأخرى المهمة لاتزال فى طور الخفاء والكتمان ؟ وكم من الخطايا يرتكبها الإعلام بحق الناس ، عندما يلوِّن الحقائق ويطوعها لتخدم الأجواء – ولا أقول الأهواء – السياسية المتقلبة ؟

● ●

لا مجال هنا لرصد ما تغير فى إيران ذاتها ، لأن ما تغير بعد وفاة آية الله الخمينى فى عام ١٩٨٩ أكبر من أن يعالج هنا ، وإنما يحتاج إلى كتاب آخر ، أرجو أن يعيننى الله على إخراجه . إذ نحن الآن بصدد حقبة جديدة فى مسيرة الثورة الإسلامية ، يشبهها البعض بمرحلة ما بعد « البريسترويكا » فى الاتحاد السوفيتى . غير أنى أعتبر ذلك من قبيل الاستباق والتسرع فى الحكم ، لأن التغير فى الاتحاد السوفيتى مسَّ الأصول فى العقيدة الشيوعية ، وكان بمثابة تراجع عن الالتزام بالعديد من تلك الأصول . أما المتغيرات التى شهدتها إيران منذ نهاية الثمانينات وبداية التسعينات فإنها انصبت على الفروع دون غيرها ، حتى النصف الثانى من عام ١٩٩١ على الأقل ، وانحصرت فى أساليب العمل السياسى ، بينما ظل الالتزام بأصول وأساسيات الدولة الإسلامية باقيا لم يمس .

ربما كان متعذرا أن نحدد الآن كافة ملامح الحقبة المستجدة ، إذ هى مازالت تحت التشكيل ، خصوصا وأنها بدأت تتبلور بعد رحيل الإمام الخمينى . ومع ذلك فربما كان بوسعنا أن نرصد بعض الذى ظهر من ملامح حتى نهاية العام ١٩٩١ ، وهو يتمثل فيما يلى :

□ محاولة الانتقال من مرحلة الثورة إلى مرحلة الدولة ، وهو ما انعكس بوضوح على لغة الخطاب السياسى وعلى العديد من الإجراءات والقرارات التى اتخذت . إذ بينما كان خطاب الحقبة الأولى يوجه فى شق منه إلى الشعوب والجماعات ، خصوصا المتمردة منها ، فإنه فى الحقبة الثانية صار يركز على الأنظمة والحكومات ، وبدا واضحا أن طهران أشد حرصا على تعامل الدولة الإيرانية مع الدول الأخرى .

على صعيد الإجراءات والقرارات فربما كان أبرزها تلك المحاولات المستمرة الرامية إلى بسط سيطرة السلطة على كافة المؤسسات فى البلاد . وهو ما تمثل بوجه أخص فى إلحاق قوات حرس الثورة بوزارة الدفاع وإخضاعها لقواعد وسلم الانضباط العسكرى ، وفى ضم لجان الثورة « الكوميتات » إلى وزارة الداخلية ، وتحويل الجهازين من مراكز قوى مستقلة وناشزة ، إلى أدوات خاضعة لسلطة الحكومة .

□ هذا التطور استصحب متغيرا آخر ، تمثل فى إعادة ترتيب الأولويات . فقد كان المهم فى المرحلة الأولى سياسيا وثوريا بلا منازع ، بينما أصبح فى المرحلة الثانية اقتصاديا فى المقام الأول . وبينما كانت طهران تعج طيلة الثمانينات بممثلى حركات التحرر والرافضين والمتمردين وممثلى المستضعفين فى أنحاء العالم ، إذا بها منذ مطلع التسعينات تستقبل أفواجا من رجال الأعمال من مختلف بقاع الأرض . لم يختف الأولون بطبيعة الحال ، ولكن وجودهم صار أقل ، بينما انضاف إليهم الآخرون .

ولئن كانت ظروف الحرب هى التى فرضت التركيز على الإعمار والتنمية فى المرحلة الراهنة ، إلاّ أننا نعتبر ذلك سببا أول وليس أوحد ، أعنى أن المتغير السياسى ، وليس العسكرى وحده ، كان له دوره المهم فى التركيز على التنمية ، خصوصا وأننا نتحدث عن بلد كبير تجاوز تعداد سكانه ٥٥ مليونا ، لا يغطى احتياجاته مورد واحد كالنفط ، وإنما يحتاج إلى تنمية شاملة لينهض ويستمر ، فما بالكم لو أنه تطلع إلى « دور » فى المنطقة من أى نوع .

□ فى هذا السياق ، فقد بدا واضحا أن القيادة الإيرانية الراهنة تسعى إلى التعايش والتوافق مع المعادلة الدولية ، فى حين كانت قيادة الحقبة الأولى تنطلق من رفض المعادلة الدولية والاشتباك معها . وهو تطور يكتسب أهميته من مصادفة توقيته . حيث استفاد الموقف الأول من ظروف الحرب الباردة بين المعسكرين والنظام العالمى القائم على توازن القطبين الأمريكى والسوفيتى ، بينما قدر للموقف الثانى أن يبرز مع الانتقال من الحرب الباردة إلى الوفاق الدولى وظهور بوادر نظام دولى جديد يقوم على القطب الواحد - الأمريكى - بصورة نسبية .

□ وبينما اجتمعت المرجعية الدينية مع المرجعية السياسية - متمثلة فى شخص الإمام الخمينى - فى الحقبة الأولى فإن الحقبة المستجدة قامت على فك الارتباط بين المرجعيتين . حيث ظلت المرجعية الدينية فى قم ، كما كانت فى الماضى ، وأصبح القائد الحالى ، السيد على خامنئى ، رمزا سياسيا فى طهران ، بأكثر منه مرجعا دينيا ، باعتباره لم يبلغ بعد مرحلة الاجتهاد فى السلم الفقهى المتعارف عليه فى الحوزة العلمية . وكان ذلك إعلانا عن انتقال الثورة الإسلامية من مرحلة القيادة الاستثنائية الأولى ، إلى مرحلة القيادة الطبيعية القائمة حاليا .

□ فى الحقبة الأولى ، مرحلة القيادة الاستثنائية ، كان الإمام الخمينى هو مركز القوة الأكبر ، وبالتالى فقد غدت سلطات الدولة الأخرى ، وبخاصة السلطة التنفيذية فى الموقف الأضعف . وبغياب الإمام ، واستخلافه بقيادة السيد خامنئى التى لاتستند إلى المرجعية الدينية ، استعادت سلطات الدولة قوتها ، ومن ثم أقدمت السلطة التنفيذية على بسط سلطانها وتعزيز مكانتها .

□ فى المرحلة الأولى كان ثمة صراع ملحوظ بين رأسى السلطتين التنفيذية (السيد على خامنئى رئيس الجمهورية آنذاك) ، والتشريعية (حجة الإسلام هاشمى رفسنجانى رئيس مجلس الشورى) ، وهو صراع يشير إليه الكتاب فى مواضع عدة ، ويعكس نوعا من الانقسام داخل سلطة الدولة . لكن المرحلة الثانية شهدت التئام جناحى السلطة ، الأمر الذى أفرز اتفاقا بين القطبين فى مواجهة جماعات وتيارات التشدد الأخرى .

هكذا بدت إيران فى عام ١٩٩١ ، أى بعد مضى اثنى عشر عاما على الثورة . ولست أشك فى أن قارىء هذا الكتاب سيفاجأ بالتباين الكبير بين تلك الصورة الموجزة التى مررنا بها توا ، وتلك المفصلة بين دفتيه .

وهو تباين ملىء فى دلالته بالدروس والعظات ، وجدير فى موضوعه بالبحث والتدقيق ، خصوصا من جانب الساعين إلى التغير ، وفى مقدمتهم دعاة المشروع الإسلامى .

إن استيعاب تلك الحقبة الثانية من عمر الثورة الإسلامية الإيرانية ، لايتأتى إلاّ عبر القراءة المتأنية لعناصر الحقبة الأولى التى هى موضوع هذا الكتاب .

وما توالى طباعته مرة بعد أخرى إلاّ شهادة تدل على تعطش كثيرين لمتابعة تلك التجربة الإيرانية المثيرة للجدل ، التى مازالت تهز وجدان الأمة ، وتحرك أشواقها نحو غد أفضل وأقوم .

فهمى هويدى

أغسطس ١٩٩١

تقـــديم

ليست قضية هذا الكتاب هى الدفاع عن الثورة الإيرانية ، أو إدانتها وإتهامها . وإنما قضيته الأساسية وهدفه الأول هو محاولة فهم الذى يجرى هناك ، من خلال الاتصال المباشر والجهد الميدانى ، ودون وصاية أو وساطة . فقد أزعم أن سلوكنا العام تجاه الحدث الإيرانى فريد فى بابه ، لا هو مسبوق ولا هو ملحوق . وأزعم أن هناك قراراً ضمنياً برفض أى نوع من المعرفة أو الفهم الموضوعى والمحايد لمجريات ذلك الحدث الكبير ، الذى هز العالم فى عام ١٩٧٩ . وقد رتب هذا الرفض حالة من الخصام والقطيعة ، لا للسياسة الإيرانية ولا لرموزها ، ولكن للمغلومات المتعلقة بمجمل الوضع الإيرانى ، من مصادرها الطبيعية . الأمر الذى عزلنا بالكامل عن إدراك الحقيقة فى أى جانب من جوانب الواقع الذى استجد بعد الثورة .

الغريب فى الأمر أن الحدث الذى عزلنا أنفسنا عنه وخاصمناه يتصل بصميم الجسم الإسلامى الذى نحن جزء منه ، وواقع فى قلب الظاهرة الإسلامية التى لفتت كل الأنظار ، فضلا عن أنه يمثل أول محاولة لإقامة دولة إسلامية ، بعد إلغاء الخلافة العثمانية قبل أكثر من ستين عاما . ناهيك عن كونه ثورة زلزلت أحد عروش الطغيان وأركانه فى العالم الثالث .

بكل المقاييس ، فإن الحدث يهمنا ، سواء باعتباره شأنا إسلاميا ، أو بحسبانه زلزالا شهده عالم المستضعفين الذى ننتمى إليه . وفى أضعف الإيمان ، لأنه يجرى وراء ظهورنا ، وقد يكون له تأثيره البالغ على مصالحنا ومصائرنا .

برغم ذلك كله ، فإننا ـ ببساطة مذهلة ـ أدرنا ظهرنا له ، وأغلقنا الباب دونه . ولو أن هذا الموقف الرافض للمعرفة أبقانا بعيدا عن مؤثرات الحدث ، السلب فيها أو الإيجاب ، لوجدنا مبررا للخصام . ولربما قبلناه كارهين . ولكنه سلمنا فى نهاية الأمر إلى السلطان الإعلامى للمربع المعادى للثورة ، ولفقراء العالم الثالث ، وللإسلام والمسلمين . وأحسب أن أحدا لا يجادل فى أن هذا المربع ـ الغربى والأمريكى بوجه أخص ـ كانت له جراحه الغائرة ، وكان له ثأره المبيّت . وكانت له حساباته العديدة التى ظل حريصا على أن يصفيها ، مع الثورة الإيرانية ، التى قوضت أحد دعائم هيمنته ونفوذه ، واهانته وازدرت به فى أكثر من مناسبة .

وإلى حد كبير ، فقد نجحت الآلة الإعلامية الجبارة ، ذات القدرة الفائقة على تشكيل الأعماق وغسيل المخ ، فى قلب الصورة الإيرانية بالكامل فى الوعى العام . واستثمرت فى ذلك أخطاء إيرانية يتعذر تبريرها أو الدفاع عنها ، إضافة إلى هزال الإعلام الإيرانى وعجزه ، وطوق الحصار المحكم الذى فرض على الثورة الإيرانية ، بعد أشهر قليلة من نجاحها .

كانت نتيجة ذلك ومحصلته أن أصبحت المسألة الإيرانية مدرجة فى قوائمنا السوداء على المستوى الرسمى . وأن غسيل المخ الإعلامى حوَّل إيران إلى قرين للشر المطلق . حتى باتت الصورة العامة المستقرة عنها فى الأذهان قاتمة وكئيبة ، تبعث على النفور من إيران ، ومن الثورة ، بل وربما من أى تطبيق إسلامى أيضا . تحولت تلك الانطباعات إلى « مُسلَّمات » وثوابت ، وإلى لغة فى الخطاب ومنهج فى الرؤية . حتى بات الكلام المحايد عن إيران صوتا نشازا ، بل نوعا من الخروج عن النص المعتمد . وعند البعض صار مثل هذا الكلام خروجا عن الانتماء القومى والعربى ، وعند آخرين أصبح يصنف خروجا عن الانتماء المذهبى ، « والصراط » المستقيم .

□

لأسباب عديدة ، موضوعية وشخصية ، قدر لى أن أتابع الحدث الإيرانى ، وأن أظل على صلة به ، منذ نجاح الثورة فى شهر فبراير ٧٩ ، وحتى شهر فبراير ١٩٨٦ ، الذى أعقبته مرحلة وضع اللمسات الأخيرة فى هذا الكتاب .

لقد كانت فكرة الثورة الإسلامية فى مواجهة الطاغوت ، عنصر جذب تتعذر مقاومته بالنسبة لى ، ولكل مهتم بالعمل الإسلامى ، بل لكل معنى بقضية تحرر المستضعفين من ربقة الاستعمار والاستبداد . وشاءت المقادير أن أكون غير بعيد عن مسرح الحدث عندما تفجرت الثورة فى إيران . كنت أؤدى عملى الصحفى بالكويت ـ فى مجلة « العربى » ـ على مسافة ٤٠ دقيقة بالطائرة من طهران ، بل كنت أقيم فى حى تسكنه أغلبية شيعية ، هو منطقة « بنيد القار » . وقد كان هذا العامل الجغرافى ظَرْفا مواتيا للغاية سواء للاتصال المباشر ببعض العناصر وثيقة الصلة بالثورة ، أو للإطلاع المبكر على كافة أدبيات ومطبوعات انتفاضة الفقهاء والفقراء ، التى كانت تصل إلى الكويت بطرق مشروعة أو غير مشروعة . إذ كانت بعض كتب آية الله الخمينى ـ مثلا ـ توزع منذ بداية الثورة ، وعلى أغلفتها عناوين مغايرة ، لأشخاص آخرين . ومن خلال هذه المطبوعات عرفت لأول مرة أسماء ، مثل على شريعتى ومطهرى وبهشتى وطالقانى ، وغيرهم .

هذا الإتصال ، وفرَّ لى مكانا على أول طائرة مدنية هبطت فى مطار مهراباد بطهران ، بعد نجاح الثورة . وهى التى استأجرها شيعة الكويت لتقل وفدا ذهب إلى عاصمة الثورة ليهنىء الإمام بنجاحها ، وبالعودة من باريس ، وكان الذى تولى تنظيم هذه الرحلة ، هو السيد « المهرى » ، مندوب آية الله الخمينى فى الكويت ، بمعاونة شاب إيرانى ، له زوجة فلسطينية ، اسمه الدكتور على شمس أردكانى ، الذى كان من زعماء الطلبة فى طهران ، وهرب من السافاك إلى الولايات المتحدة ، حيث حصل على شهادة الدكتوراه ، والتحق أستاذا بمعهد الكويت للأبحاث العلمية . وقد قدر لهذا الشاب أن يكون بعد أشهر قليلة أول سفير للثورة الايرانية لدى الكويت ، ولدى العالم الخارجى ، ثم سفيرا متجولا لها فيما بعد ، وأحد المساعدين الرئيسيين لوزير الخارجية .

عبر القنوات التى تيسرت أثناء الزيارة ، وبمساعدة عديد من الأخوة الإيرانيين ، انفتحت لى أبواب شجعتنى على متابعة البحث فى مختلف جوانب الواقع الإيرانى ، طوال السنوات التالية ، حيث أتيح لى أن أقوم بخمس زيارات لإيران ، تمت آخرها فى شهر فبراير ١٩٨٦ .

وهذا الكتاب هو ثمرة ذلك الجهد الذى بدأته فى سنة ١٩٧٩ ، والذى أزعم

أنه أرهقنى أكثر مما أرهقنى عمل آخر ذهنى أو ميدانى ، قمت به طوال سنوات عملى الصحفى الثلاثين . ذلك أن التعرف على القسمات الحقيقية للواقع الذى استجد بعد الثورة بمعزل عن الخطاب الدعائى أو الحماسى ، يظل مهمة غاية فى المشقة والصعوبة . ليس فقط لأن « الحقيقة » صعبة المنال فى مجتمع ما زالت تتلاطم فيه التيارات والتوجهات ، إضافة إلى كونه مجتمعا باطنيا بطبيعته وتاريخه ، ولكن أيضا لأن عقدة التوجس من الأجانب راسخة فى الوعى الإيرانى الرسمى . وربما كان لهم العذر فى ذلك ، إزاء الأساليب الشيطانية التى اتبعها أعداء الثورة والمتآمرين عليها من كل جانب ، وهم بغير عد أو حصر .

لقد قضيت فترات متقطعة على مدى تلك السنوات الست أجمع مادة هذا الكتاب ، وأعدت صياغة مخطوطته ثلاث مرات فى ضوء المعلومات التى كانت تتوافر عندى ، والصور التى كانت تتغير ، فى أعقاب كل زيارة كنت أقوم بها لطهران . واكتشفت بعدما انتهيت من المخطوطة الثالثة ، أن فهم السياق الإيرانى الراهن يظل متعذرا بغير إطلالة على التاريخ ، تتيح للقارىء أن يعرف معانى ومدلول كلمات مثل الولاية والمرجع والشيعة الأثنا عشرية والإمام ونائبه ، والغيبة الصغرى والكبرى ، وغير ذلك من العناوين والمصطلحات التى قفزت إلى لغة الخطاب ، وأخذت مكانها بعد نجاح الثورة الإيرانية .

بعد هذا « الاكتشاف » ، الذى دلنى عليه بعض الأصدقاء ممن قرأوا المدونات المبكرة ، كان علىّ أن أضيف فصوله التى تصدرت الكتاب ، واستعنت فى ذلك بالمراجع العربية التى عثرت على بعضها فى مكتبات قم ، وزودنى ببعضها الآخر من أعرف من أهل العلم فى بيروت وبغداد ، بينما عثرت على مصادر أخرى فى دار الكتب المصرية .

وإذ اقتنعت بأهمية وضع تلك الشحنة من المعلومات فى مدخل الكتاب ، وتصورت أنها يمكن أن تؤدى وظيفة « القاطرة » التى تشد بقية العربات فى الإتجاه الصحيح ، فقد أرّقنى وأثار مخاوفى أن يتصور قارىء يهم بمطالعة الكتاب أنه بحث فى تاريخ إيران ، أو تاريخ المذهب ، أو حتى تاريخ الثورة . وتمنيت أن أضع أمام ذلك القارىء كل ما أستطيعه من وسائل التنبيه ولفت النظر لكى يستبعد من خاطره مثل هذا الاحتمال . فليس الكتاب كذلك بكل تأكيد . وما كان لى أن

ألقى بنفسى فى خضم التاريخ ، إلا بعدما أدركت أن فهم الحاضر الإيرانى يتعذر بدون استيعاب الماضى . وعنّ لى ، خطأ أو صوابا ، أن الكثير من مفاتيح الحاضر كامن فى الماضى ، وأن وضع اليد على تلك المفاتيح هو مطلب مهم لحسن الفهم وموضوعية التناول وصواب الاستقراء .

□

مع ذلك ، فلست أزعمَ بأى حال أن الذى عرضته بين دفتى الكتاب هو صورة الحقيقة فى إيران ، وإنما غاية ما يمكن أن يوصف به ، أنه القدر الذى بلغته فى التعرف على الحقيقة . ولابد أن تكون الحقيقة أكبر مما حصلت . ولا أستبعد أن يكون بعض ما سجلت يحتاج إلى إضافة أو تعديل أو حتى نسْخ ، ليصبح أكثر تعبيرا عن تلك الحقيقة . وحسبى فى كل ما فعلت وسطرت ، أننى بذلت غاية الجهد ، وأننى نقلت ما سمعت وما رأيت ، بالقدر الذى أملك من الأمانة والصدق .

يتصل بذلك أن هناك أوجها للحقيقة لم أتعرض لها على الإطلاق ، أو تعرضت لها بإشارات أقل من حجمها الطبيعى . ولعل الجوانب الاقتصادية هى أبرز مثل على ذلك . إذ قصر جهدى عن ملاحقة المتغيرات التى طرأت على هذه الجوانب الحيوية ، من زراعة وصناعة ونفط ، وهو قصور شمل مجال الإعمار الذى تنهض به وزارة مستقلة تحمل اسم « جهاد البناء » ، تصب جهدها كله فى الريف والمناطق المحرومة ، حيث وعاء المستضعفين ومحيطه . وعذرى فى ذلك ـ غير محدودية الجهد ـ أننى لم أطمح فى أن يكون الكتاب شاملا لكل المتغيرات التى شهدتها الساحة الإيرانية ، وإنما حاولت أن أرسم فيه صورة « للكيفية » التى تمت بها تلك المتغيرات .

غير أن ثمة أمورا أخرى يهمنى أن أضعها أيضا بين يدى القارىء من البداية :

■ الأمر الأول : يتعلق بإنحياز شخصى لى ، لا أخفيه ولا أنكره ، لكل ما هو إسلامى . فأنا مع راية الإسلام حيث رفعت ، وعلى أرضه حيث كانتْ ، وفى ركبه حيث ذهب . قد تكون لى اعتراضات وتحفظات ، أو حتى معارك

وخصومات، لكنها تظل ـ فى جميع الأحوال ـ من داخل البيت ، وليس من خارجه .

- الأمر الثانى : يتعلق بالتجربة الإسلامية فى إيران . التى أحسب أنها ليست هى الإسلام الأوحد ، ولا هى بالضرورة النموذج الأفضل أو الأمثل . والذين يتصورونها كذلك ، فى إيران أو فى خارجها ، يبالغون أو يغالطون . تجربة إيران صيغة واجتهاد فى تطبيق الإسلام . هى أولا ، وليدة لا تزال فى المهد أو فى المبتدأ . وهى ثانيا ، لابد أن تصيب وتخطىء بحكم الحداثة وبحكم الطبيعة البشرية . وهى ثالثا ، لا تصادر غيرها من التطبيقات لا فى الحاضر ولا فى المستقبل . وكل ما تفرزه تلك التجربة ، إضافة أو خصما ، محسوب على رصيدها ذاته . ولا ينبغى أن يحسب على الإسلام بأى حال . وإنما ينبغى أن يحاسب بمعايير الإسلام ومبادئه وتعاليمه . ويقاس الخطأ فيه والصواب بمقدار البعد أو القرب من تلك المبادىء والتعاليم .

- الأمر الثالث : يتعلق بمنهج الرصد والفهم والتقييم ، الذى أرجو أن يتجاوز مدرسة التصنيف إلى أبيض وأسود ، وأسلوب « مع » أو « ضد » ، الذى عفا عليه الزمن ، وأصبح يعبر عن سذاجة فى التفكير وتغافل عن تعقيدات الأشياء التى أفرزتها حقائق العصر . إذ ليس من الضرورى أن تكون مع الشىء كله أو ضده كله ، فقد تتفق مع جانب وترفض جانبا آخر . فضلا عن أنه إذا تم الاتفاق فى البعض أو الكل حول السؤال « ماذا ؟ » . فقد تتعدد الإجابة على السؤال « كيف ؟ » أو « متى ؟ » . وعلى سبيل المثال ، فإننا قد نتفق على ضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية ، لكننا قد نختلف كثيرا حول كيف تطبق ، وما الذى ينبغى أن نبدأ به فى التطبيق ، ومتى يكون ذلك . وفى التجربة الإيرانية أحسبنى مع « ولاية الفقيه » ، لكننى اختلف فى تعريف « الفقيه » . وأنحاز إلى فكرة التوسع فى تعريف الكلمة ، بحيث لا يكون الوصف مقصورا على المتخصصين فى العلوم الشرعية وحدهم ، وإنما يصبح شاملا لكل من حَسُنَ إسلامه من المتخصصين فى العلوم الدنيوية أيضا . فضلا عن أن لى أكثر من تحفظ على ممارسة الولاية فى موقع السلطة التنفيذية ، وهكذا .

- الأمر الرابع : يتصل بأهمية التفرقة بين محاولة فهم الحقائق أو المواقف ،

وبين تأييدها . ذلك أنى تعرضت فى بعض فصول الكتاب للظروف والملابسات أو المبررات التى أحاطت بعديد من الوقائع والأحداث . وما قصدت بهذا العرض أن أقنع القارىء بسلامة تلك التصرفات ، وإنما أردت أن أضعه فى موقف المدرك لتلك الملابسات ، التى اتخذ الطرف الإيرانى قراره فى ضوئها ، وتصرف بوحى منها . وتركت له ـ بعد أن يفهم ـ حرية تأييد القرار أو معارضته أو الإعذار فيه ، مسألة التعذيب فى السجون نموذج واضح لذلك ، فرغم أن أحدا لا يختلف حول إدانة هذا السلوك ، إلا أننى حاولت أن أتقصى الملابسات الاجتماعية والتاريخية التى أفرزت تلك النتيجة المؤسفة ، التى تجرح سمعة أية ثورة ، إسلامية أو غير إسلامية .

□

ثمة درس بالغ الأهمية يعنينا فى تجربة الثورة الإيرانية ، خلاصته أن الثورة عانت الكثير من جراء عدم توافر الكوادر الواعية الملتزمة بخطها ، المعبرة بأمانة عن مُثُل الإسلام وقيمه . وأن تحمل مسئولية السلطة فى ظل ذلك الوضع ، كان له مردود سلبى لا ينكر ، وثمنه الباهظ الذى اقتطع من رصيد الثورة ذاتها .

هذا الموقف يعكس أزمة حقيقية وحادة تواجه العمل الإسلامى المتنامى فى كل مكان ، إذ تصادر له فرصة النمو الطبيعى التى تمكنه من صياغة الواقع بالصورة التى ينشدها ، شأنه فى ذلك شأن أى تيار سياسى يسعى إلى التغيير بالأساليب الشرعية والديمقراطية . وفى الوقت ذاته ، فإنه يواجه بألف مأخذ ومطعن ، ويورط نفسه فى مشاكل لا قبل له بها ، إن قفز إلى السلطة واستولى عليها دفعة واحدة ، بغير ترتيب وإعداد كافيين .

إن استيعاب هذا الدرس أمر يهم الجميع ، وقبل الجميع أصحاب القرار وأهل السلطة والسلطان ، الذين بيدهم فتح قنوات التعبير والمشاركة فى صناعة الحاضر والمستقبل ، وبمقدورهم سد المنافذ وإحكام الصنابير ، وتهيئة المسرح لمختلف احتمالات الأنفجار غير المحسوب !

أخيرا ، فلابد أن أقرر بأن نشر هذا الكتاب قد يعد نوعا من السباحة ضد التيار ، إضافة إلى كونه موقفا يعبر عن الإلتزام باحترام الحقيقة ، واحترام القارىء

أيضا . وهو ما ينبغى أن يحسب لمركز الأهرام للترجمة والنشر ، الذى رحب بنشر الكتاب دون أن يتبنى أو يقر بعض ما احتواه ، وربما كانت له تحفظات على هذا البعض أو ذاك .

وفى ظل المناخ السائد ، فقد لا أبالغ كثيرا إذا قلت أن إعداد الكتاب احتاج إلى كثير من الجهد وقليل من الجسارة ، أما نشره فقد احتاج إلى الكثير من الجسارة ، وربما القليل من الجهد .

وما كان لجهد الذى كتب أن يرى النور ، بغير جسارة الذى نشر . وما كان لكل ذلك أن يقع بغير مشيئة الله وأمره وتوفيقه .

وبعد أن تحققت المشيئة ونفذ الأمر ، فليس لى من أمل سوى أن يحظى الكتاب بالقبول والرضا ، عند الله قبل الناس !

فهمى هويدى

الفصل الأول

قبل أن يرفع الستار

عندما اجتاز « السيد » سوق الحويش بالنجف الأشرف ، فى خريف عام ١٩٦٥ م ، ودخل إلى مسجد « الشيخ الأنصارى » . كانت العيون تتطلع إليه بقدر كبير من الترقب والفضول . وإذ باشر مهمته كإمام للمصلين ، وشرع فى إلقاء دروسه على طلاب الحوزة العلمية ، فان آخر ما توقعه منه سامعوه ، أن يبدأ مهمته كفقيه ومعلم بمحاضرات فى باب « البيع » ، من كتاب « المكاسب » للشيخ مرتضى الأنصارى(١) .

لم تكن المفاجأة فى طبيعة الدرس ، فهو مما اعتادت عليه الأسماع فى الحوزة . إذ أن « المناهج » لم تتغير منذ قرون . منذ نزح إلى النجف « شيخ الطائفة » أبو جعفر الطوسى (٣٨٥ ـ ٤٦٠ هـ) وقرر أن يقيم معقلا للفقه الشيعى بجوار « حضرة » الامام على بن أبى طالب ، وذلك بعد أن احترقت مكتبة الشيعة ، التى ضمت عشرة آلاف كتاب ، فى كرخ بغداد . منذ ذلك الوقت المبكر ، منتصف القرن الحادى عشر الميلادى أو الخامس الهجرى ، نمت الحوزة ، وكانت الدروس الفقهية فيها تبدأ بالسياق الشائع والمعروف حتى عند أهل السنة . كتاب العبادات يدرس أولا ، ويستهل بفقه الطهارة . ثم تأتى بعد ذلك المعاملات التى كانت تدرس فى كتاب « المكاسب والمتاجر » ، وتستهل بدراسة « البيع » .

لا الدرس كان مفاجئا ، ولا كان الكتاب أو مؤلفه . فالشيخ الأنصارى الذى اقترن المسجد باسمه . رجل له مقامه المتميز عند الشيعة ، ليس فقط باعتباره فقيها جليلا ، ولكن أيضا بحكم كونه أول « مرجع تقليد » فى العصر الحديث ، تولى قيادة المرجعية فى ستينات القرن الماضى(٢) .

---

(١) على إسلامى ـ مقدمة كتاب الحكومة الاسلامية ، الذى أصدرته المكتبة الاسلامية الكبرى بطهران .

(٢) Religion and Politics in Iran- Edited by Nikki Keddie-Imami Jurisprudence and the Role of Ulama-Juan R. Cole-P.40.

على طريق التمرد جاء

المفاجأة الحقيقية تمثلت فى أن يقع اختيار « السيد» على ذلك الموضوع ليبدأ به دروسه فى النجف . « لقد كنا نتوقع منه ثورة علمية فى دروس الحوزة . . كنا نتوقع منه أن يبدأ بتدريس فصل الجهاد فى الاسلام ، لا باب البيع فى كتاب المكاسب ، حسب النسق المعروف فى حوزاتنا العلمية » . . هكذا قال أحد الدارسين الذين استمعوا إلى السيد فى محاضراته الأولى بجامع الشيخ الأنصارى(٣) .

لقد عرفت النجف اسم روح الله الموسوى بن مصطفى فى سياق مختلف عن ذلك الذى قدم به نفسه من خلاله ، فى بداية دروسه بجامع الشيخ الأنصارى . إذ سمع طلاب الحوزة باسمه ، خلال السنوات الأربع السابقة ، مرتبطا بمختلف صور التحدى والشغب والتمرد . لم يكن تمرد السيد مقصورا على نظام الشاه وحده ، ولكنه كان يعد كذلك متمردا على تقاليد الحوزة وأركانها . بمعنى أنه لم يكن متمردا سياسيا فقط ، ولكنه كان متمردا أيضا من الناحية الفكرية والفقهية .

ورغم أن الجسور ظلت مفتوحة دائما بين مراكز الشيعة الإثنى عشرية فى العراق وإيران . ورغم أن النجف الأشرف كانت بمثابة نقطة الالتقاء بين الجميع ، فضلا عن أنها تعد من الناحية التاريخية « الجامعة الكبرى » التى خرجت فقهاء الشيعة حتى ستينيات القرن الحالى . رغم هذا وذاك ، فان « السيد » لم يكن وافدا عاديا على حوزة النجف . وإنما جاء اليها منفيا من قبل نظام له جبروته وهيلمانه ، هو النظام الشاهنشاهى .

ثمة حالة « نفى » سابقة فى العشرينيات تعيها الذاكرة الشيعية ، كان اتجاهها عكسيا ، أى من النجف إلى إيران . حدثت عندما أفتى فقهاء الشيعة باعلان الجهاد ضد احتلال الانجليز للعراق فى عام ١٩١٤ ، ثم أفتوا ببطلان الانتخابات وعدم شرعية الحكومة الموالية للانجليز فى عام ١٩٢٠ . عندئذ لم تجد سلطات

---

(٣) أنظر تقديم على إسلامى لكتاب الحكومة الاسلامية ـ الصفحة الأولى .

الاحتلال مفرا من نفى مجموعة كبيرة من أولئك العلماء (حوالى ٢٥) كان فى مقدمتهم فقهاء كبار مثل السيد أبو الحسن الأصفهانى ، والشيخ النائينى والشيخ الخالصى[٤] .

كانت قد مرت حوالى ٤٠ سنة بين الحادثتين ، اختلفت خلالها أمور كثيرة . فقد كان مناخ الستينيات ذروة المواجهة مع قوى الاستعمار وأذنابه ، وكانت الجماهير معبأة ومشحونة وجاهزة للانفجار ، بعد أن تتابعت حلقات الثورة فى المنطقة . فقد انفجر الموقف فى سوريا سنة ١٩٤٩ ، وتزلزل عرش الشاه بعد تأميم نفط إيران على يد محمد مصدق سنة ١٩٥٢ ، وقامت ثورة يوليو فى مصر سنة ١٩٥٢ ، وتتابعت بعدها الثورات فى العراق واليمنَين ، الشمالى والجنوبى ، والجزائر ، وهو ما ارتبط بظهور منظمة « فتح » الفلسطينية .

فى هذا المناخ قدم السيد روح الله إلى النجف وقد سبقته خطاباته العاصفة ضد الشاه ، وتدوى فى جنبات الحوزة الساكنة عباراته الرافضة للنظام ولكل رموزه وممارساته .

الرحلة من كشمير إلى « خمين »

عندما وصل إلى النجف الأشرف كان قد جاوز الستين من العمر . وكانت المدينة تمثل فى وعيه نقطة تجمع لحشد من المشاهد ذات القسمات الغائرة فى الأعماق . فى الوعى العام ، فكونها مرقد لحضرة الامام على يعطيها مهابة ومغزى خاصا . لكن الوعى الخاص أعنى .

ففى تربة النجف الأشرف دفن أبوه السيد مصطفى الموسوى الذى قتله رجال الشاه رضا خان فى سنة ١٣٢٠ هـ ، بعد مولده ـ الابن ـ بأربعة أشهر فقط . وفى حوزة النجف تلقى أبوه علومه فى عصر الميرزا محمد حسن الشيرازى ، المرجع

---

(٤) مقابلة خاصة مع الدكتور محمد فاضل الجمالى رئيس وزراء العراق الأسبق تمت فى يوليو ١٩٨٥ .
وأنظر أيضا بحث وميض نظمى « شيعة العراق والقومية العربية » ـ مجلة المستقبل العربى ـ عدد أغسطس ١٩٨٢ ص ٨٢ .

الأكبر صاحب فتوى التبغ الشهيرة (١٨٩١ م) التى أنهت الشاه ناصر الدين القاجارى سياسيا ، حتى انتهى الأمر بقتله بعد ذلك (عام ١٨٩٦ م)[٥] .

بالاضافة إلى ذلك ـ وقبله ـ كانت النجف الأشرف هى المكان الذى قصده جده ، بعدما أبعدته السلطات البريطانية القابضة على الهند ، من موطنه فى كشمير[٦] . كان الجد ، السيد أحمد الهندى ابن السيد دين على شاه ، شخصية مشاغبة فى أسرة استقرت بتلك الولاية ، تتصل بنسب بعيد بآل البيت . من سلالة موسى (الكاظم) ابن الامام جعفر الصادق ، ولذا لقب أبوه (بالموسوى) .

كان الإبعاد فى بدايات القرن التاسع عشر . وكانت النجف هى مركز الشيعة الامامية ، فاختارها السيد أحمد الهندى لتكون مقرا له . وبعدما أقام هناك بعض الوقت ، إذا بجماعة من بلدة « خمين » الايرانية تصل إلى النجف لزيارة حضرة الامام على ، على رأسها أحد وجهاء خمين ، اسمه يوسف خان . التقى الرجل بالسيد أحمد الهندى النازح من كشمير ، فدعاه للاقامة فى بلدته خمين ، وهو « السيد » الذى تحرص الأسر على تكريمه وكسب وده ، حفاوة بآل البيت . هناك ، تزوج السيد أحمد الهندى من شقيقة يوسف خان . سكينة خانوم ، أو السيدة سكينة . أثمر الزواج ثلاث بنات وولداً اسمه مصطفى ، الذى أنهى دروسه الفقهية فى مدينتى النجف الأشرف وسامراء ، وعاد إلى خمين ليتزوج من هاجر آقا ، ابنة الحاج ميرزا أحمد مجتهد الخونسارى . ومنها انجب ثلاثة أبناء قبل أن يقتل فى شهر ذى الحجة ١٣٢٠ هـ (١٩٠٠ م) . وكان الأبناء الثلاثة هم : مرتضى ، ونور الدين ، وروح الله .

مرتضى لا يزال حيا (حتى منتصف عام ١٩٨٦) وعمره ٩٢ عاما ، ويعرف باسم آية الله بسند يده ، (معناها المحمود بالفارسية) وهو يقيم فى بيت أخيه روح

(٥) يرفند ابرهيميان ـ خلفيات وعوامل الثورة الدستورية ١٩٠٦ ـ بحث فى كتاب إيران ١٩٠٠ ـ ١٩٨٠ ، الصادر عن مؤسسة الأبحاث العربية فى بيروت ص ٤٤ .

(٦) روى لى جانبا من قصة النزوح من كشمير إلى إيران ، السيد حسين الخمينى حفيد الامام ، فى لقاء معه بطهران ، تم فى ديسمبر ١٩٨٤ ـ ثم فصلها آية الله بسنديده الشقيق الأكبر للامام ، أثناء لقائى معه بمدينة قم فى يونيو ١٩٨٥ .

الله ببلده قم ، بعدما نزح اليها من خمين ليشغل البيت فى أعقاب نفى أخيه إلى الخارج .

نور الدين ، لا يعرف عنه الكثير ، باستثناء أنه لم يواصل دراسته الفقهية ، وانفصل عن ذلك المسار تماما . وانتقل إلى طهران ليعمل موظفا مدنيا فى وزارة العدل . حيث اشتغل بالخبرة القانونية ، وكان يعرف باسم « السيد الهندى » وقد مات قبل الثورة بخمس سنوات ، عن عمر تجاوز السبعين .

أما ثالثهم - روح الله - فقد اختار « المصطفوى » لقبا له ، وعرف فيما بعد باسم آية الله روح الله الموسوى بن مصطفى بن أحمد الموسوى الخمينى .

من سلالة جد هندى نفاه الانجليز من كشمير ، وأب قتله الشاه رضا خان ، جاء روح الله إلى النجف - منفيا - على طريق الشغب والتمرد والثورة .

كان « السيد » قد بدأ رحلة المنفى بتركيا ، حيث أمضى بعض الوقت فى « أنقره » ومنها انتقل إلى « بورصة » التى استقر فيها ، إلى أن سُمِحَ له بمغادرة تركيا إلى العراق فى أكتوبر عام ١٩٦٥ . فى تركيا كان احساسه بالغربة عميقا ، فقد كان بعيدا عن جماهيره التى اعتاد أن يخاطبها منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاما . فضلا عن أنه كان محاصرا من قبل جهازى الأمن الايرانى والتركى . والتعاون الوثيق بينهما مشهود ومعروف . إذ كان يلازمه حيث ذهب واحد من رجال « السافاك » . لهذا السبب ، فقد انصرف السيد فى تركيا إلى تأليف كتابه الذى ضم فتاواه واجتهاداته الفقهية ، وصدر لاحقا فى جزءين بعنوان « تحرير الوسيلة » .

قبل إبعاده عن إيران ، كان روح الله الموسوى قد نجح فى تفجير سخط الجماهير وغضبها على الشاه ونظامه . كما نجح فى كسر الاطار التقليدى الذى وضعت فيه حوزة قم . وتجاوز الحدود الصارمة التى رسمت لها لكى تظل مركزا علميا محافظا ، وأحالها إلى خلية ثورية ملتهبة .

باختصار ، فان آية الله الخمينى كان قد تجاوز « الخط الأحمر » - إذا صح التعبير - منذ بداية الستينيات . وقاد مواجهة الحوزة والشارع للنظام الشاهنشاهى ، التى بلغت الذروة بالصدام الدائر الذى وقع بين شرطة الشاه وطلاب المدرسة

الفيضية فى « قم » وهو ما عرف بعد ذلك باسم « مذبحة ١٥ خرداد » بالتقويم الفارسى (٥ يونيو ١٩٦٣)(٧) . ثم تلاحقت حلقات الصدام وصور التحدى ، التى استخدم فيها النظام كل وسائل القمع والتخويف والارهاب ، ثم لجأ فى نهاية الأمر إلى إبعاد الخمينى من البلاد ، فى عملية نفى مفاجئة إلى تركيا تمت فى شهر نوفمبر من عام ١٩٦٤ .

الارهاصات : فدائيان إسلام

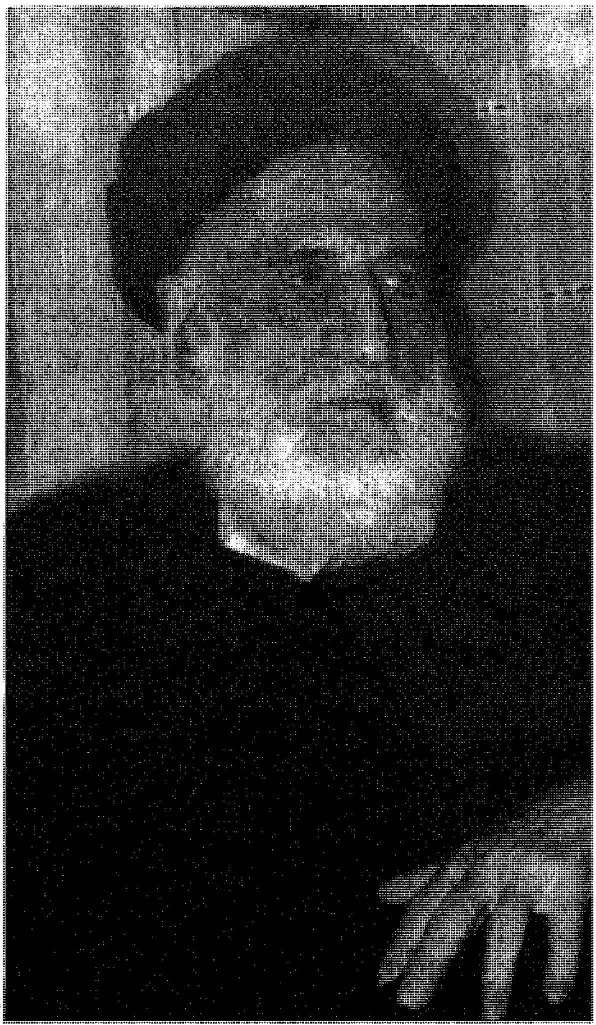
كانت المؤسسة الدينية تؤرق الشاه ، الذى فشل فى احتوائها أو تطويقها طيلة سنوات حكمه . ومنذ توليه السلطة فى الأربعينيات ، كان على رأس المرجعية الشيعية رجل زاهد ، عازف عن المشاركة فى الحياة السياسية ، هو آية الله حسين البروجردى (١٨٧٥ ـ ١٩٦١ م) . وكان كل اهتمامه منصبا على شئون المرجعية ، وفى مقدمتها عملية جمع الزكاة والخمس(٨) ، التى تشكل الدعامة الأساسية لموارد الطائفة ، والعنصر الجوهرى فى تثبيت استقلال الفقهاء وتعزيز قوتهم . كما شغل بتنشيط العلاقة مع الايرانيين المقيمين فى الخارج . وبالسعى للتقريب بين السنة والشيعة . وهو ما دفعه إلى تبادل الخطابات مع مشيخة الأزهر فى القاهرة ، ولجنة التقريب بين المذاهب ، التى كان الشيخ عبد المجيد سليم شيخ الأزهر ـ وقتئذ ـ وكيلا لها .

ورغم أن هذا هو الاطار الذى كان يتحرك فيه البروجردى ، إلا أنه ظل يواجه بضغوط قوية من جهتين : قاعدة « الطائفة » التى كانت تنمو فى داخلها أسباب التمرد والرفض ازاء السياسة الاستبدادية للنظام الشاهنشاهى ، ثم الفساد وتزايد النفوذ الأجنبى والقمع المتزايد للنظام ، الذى أصبح سمة له ، خاصة بعد انهيار حركة مصدق وعودة الشاه فى أغسطس ١٩٥٣ ، ليقبض على السلطة مرة ثانية فى

---

(٧) أعتبر يوم ١٥ خرداد هو بدء الثورة الاسلامية ، وأصبح من المناسبات التى يحتفل بها وتعطل فيها الدوائر بعد الثورة .

(٨) خمس الأرباح ، نسبة تفرض لآل البيت ، الذين لهم فى الزكاة ، اعتمادا على النص القرآنى « واعلموا أن ما غنمتم من شىء فإن لله خمسه وللرسول ، ولذى القربى » ـ الأنفال (٤١) وهى تدفع إلى الإمام إن كان ظاهرا ، وإلى نائبه المجتهد العادل ، إن كان غائبا .



آية الله السيد مرتضى بسنديدة
الشقيق الأكبر لآية الله الخمينى



اية الله حسين البروجردى
مرجع الشيعة الاكبر حتى سنة ١٩٦١

طهران . وازاء تلك الضغوط القادمة من القاعدة والقمة ، كان يتعذر على آية الله البروجردى أن يقف موقف الصمت أو الحياد .

فما أن أطلت الخمسينيات ، حتى ظهرت فى الساحة منظمة « فدائيان إسلام » بقيادة أحد الفقهاء الشبان ، نواب صفوى ، معلنة الكفاح المسلح ضد الشاه وبطانته ، فى صحيفتها الشهيرة « منشور برادرى » - نشرة الاخوة - وكتابها الأساسى « بيان فدائيان إسلام » ، أو دليل الحقائق . فى ذلك الكتاب الذى طبع سنة ١٩٥٠ ، يقول نواب صفوى صراحة : إيران ببركة الحكومة الخائنة ، إنتشر فيها الفقر والمرض والجهل ، وها هم أبناء الشعب يصرخون ويستغيثون ، ولكن الحكومة الظالمة ورجالها اللصوص لا يسمعون أصواتهم [ص ١٣] - أيها

المجرمون الخونة ، إيران دولة إسلامية ، وأنتم لصوص وغاصبون للحكومة الاسلامية[ص ٤٢] . .

وفى آخر الكتاب يصرح نواب صفوى ويحذر : « إلى أعداء وغاصبى الحكومة الاسلامية ، الشاه والسائرين فى ركابه . إذا لم تطبقوا الاسلام وقوانينه ، فبعون الله سنحطمكم ، وتشكل الحكومة الاسلامية الصالحة ، لتطبيق الاسلام فى كل أنحاء البلاد » [ص ٨٨] .

ولم تكتف المنظمة بالبيانات ، وانما قامت بتصفية عديد من رموز النظام جسديا ، فقتلت أحمد كسروى الذى قاد حملة للتشهير بالاسلام ، باسم التجديد ، وقام بحرق بعض الكتب الدينية ، وهزير وزير البلاط والعقل المدبر لأعمال الشاه ، والجنرال رزم آراء ، رئيس الوزراء الذى عارض تأميم النفط . وأطلق أحد رجالها الرصاص على حسين علاء رئيس الوزراء المسئول عن اشتراك إيران فى حلف بغداد [السنتو] ، وكان آخر الضحايا حسن على منصور ، رئيس وزراء الشاه الذى أحيا معاهدة الامتيازات الأجنبية ، فقتله أحد أعضاء فدائيان إسلام ، واسمه صادق أمانى(٩) .

اعتبرت منظمة فدائيان اسلام عدواً لدودا للنظام ، الذى كثف حملة البحث عن قادته . وكان زعيمها نواب صفوى وهو من السادة ذوى العمائم السوداء قد قضى فى السجن عشرين شهرا ، ثم غادره فى سنة ١٩٥٣ ، وسافر فى جولة عربية شهد خلالها المؤتمر الاسلامى فى القدس ، وزار مصر ، ثم عاد إلى طهران ليواصل العمل السرى ضد الشاه . وقد آواه فى طهران هو ورفاقه من قادة المنظمة ، لبعض الوقت ، أحد الفقهاء المناضلين الذين سيلمع اسمهم فيما بعد ـ آية الله طالقانى ـ ولكنهم تركوا بيته بعدما شعروا أنه تحت المراقبة ، وقدر لهم أن يقعوا فى قبضة رجال الأمن بعد ذلك ، وقد أعدموهم جميعا فى سنة ١٩٥٥ ، وعلى رأسهم نواب صفوى ، واخوانه : محمد واحدى ، وعبده خدائى وخليل طهمسبى (قاتل رزم آراء)(١٠) . . مما أصاب نشاط المنظمة بالشلل ، وقضى عليها فى حقيقة الأمر .

(٩) السيد هادى خسرو شاهى ـ العودة إلى القرآن ـ ص ٢٨ .
(١٠) المصدر السابق ص ٢٨ .

لم تكن حركة فدائيان إسلام منسوبة إلى المؤسسة الدينية ، بقدر نسبتها إلى الشباب الوطنى المسلم ، ولكن الاقدار شاءت أن يظهر فى الساحة تجمع جديد باسم « علماء الدين المناضلين » أو « روحانيان مبارز » - فى وقت أفول نجم فدائيان إسلام ، أى عقب سقوط حكومة مصدق ، وفى ظل الصدمة التى عاشتها الجماهير بعد الاحباط الذى أصيبت به نتيجة فشل محاولة إقصاء الشاه وبطانته .

كان التجمع الجديد للفقهاء تعبيرا عن حاجتهم إلى إيجاد صيغة للمشاركة فى العمل السياسى ، خارج اطار المرجعية الدينية ، أو بالتوازى معها ، فضلا عن أن تجربة مصدق أثبتت أن الليبراليين واليسار لم يحققوا الآمال التى عقدت عليهم ، لسبب أو آخر ، الأمر الذى دعا الاسلاميين لكى يخوضوا الميدان كقوة نضالية وسياسية لم تختبر .

لم يستقبل النظام المحاولة بالترحيب ، بطبيعة الحال ، فدفع برجاله لتطويقها . وبدا أمام الناس أن العلماء انقسموا إلى فريقين : فريق يعمل لصالح البلاط ، على رأسه آية الله بهبهانى ، وهو من ذيول النظام ، وكانوا يسمون أنفسهم « جماعة الخميس » ، ويعقدون اجتماعاتهم ليلة كل جمعة فى مقر بهبهانى . وبالمقابل كانت هناك « جماعة الأربعاء » التى تضم علماء الدين المناضلين حقا ، وعلى رأسهم آية الله طالقانى ، وسيد ضياء الدين سيد جوادى ، وجلال نائينى وآخرون . ودارت بين الجماعتين حرب غير معلنة ، الأولون يحاولون جذب المؤسسة الدينية فى صف البلاط بحجة انقاذ البلاد من الشيوعية . والآخرون يرون فى موقف مصدق ، وفى التجربة الديمقراطية ، وفى ربط الدين بالمجتمع ، حلا جذريا لما تواجهه إيران من مشاكل . وقامت جماعة الأربعاء بنشر فتاوى آية الله نائينى عن علماء الدين ذوى الصلة بالبلاط ووجوب طردهم من المؤسسة الدينية ، وأعادوا نشر كتاب الشيخ نائينى حول ولاية الفقيه (الذى سنتعرض له فيما بعد) . وقد شجع هؤلاء آية الله البروجردى لكى يحدد موقفه مما يجرى ، فأصدر فتاوى يدين فيها علماء البلاط ، وأعلن معارضته للشاه علنا فى قم سنة ١٩٥٨[١١] . وعندما أرسل اليه الشاه يستفتيه فى بعض بنود الثورة البيضاء ، مثل رأى الاسلام فى منح المرأة حق التصويت ، كان رد البروجردى : أخبرنى

(١١) د. ابراهيم الدسوقى شتا - الثورة الايرانية : الصراع ، الملحمة ، النصر ص ١٢٠ .

يا جلالة الشاه ، ألا يزال حق التصويت للرجال قائما فى هذه المملكة ؟ . . وعندما استفتاه فى الاصلاح الزراعى أجاب : إن الدول التى طبقت الاصلاح الزراعى ، كانت قد قامت بتغيير النظام الحاكم تغييرا جذريا ، أولا ، ثم أقدمت على الاصلاح الزراعى(١٢) ، (ربما يقصد تجربة مصر بعد ثورة ١٩٥٢) .

الشاه : محاولة للاختراق لم تنجح

فى الوقت ذاته ، فقد سعى الشاه أكثر من مرة إلى التودد للمؤسسة الدينية . ومنذ عودته إثر انقلاب ١٩٥٣ ، فانه ظل يقوم بمحاولات متصلة ليضفى مظهرا إسلاميا على شخصه وعلى نظام حكمه . وهو ما انعكس على زياراته للأماكن المقدسة فى إيران (خاصة قبر الإمام الرضا فى مشهد) ، وعلى رعايته لمجموعة قليلة من العلماء يتزعمهم آية الله بهبهانى والدكتور حسن إمامى إمام جمعة طهران ، التى كانت تقام على نطاق ضيق فى أحد مساجد العاصمة . وبلغ هذا التودد مدى دفع الشاه فى عام ١٩٦١ إلى إيفاد رئيس وزرائه على أمينى لزيارة آية الله الكاشانى ـ الذى كان قد انقلب على مصدق ـ فى المستشفى . ونشر خبر الزيارة فى جميع الصحف ، مع صورة لرئيس الوزراء وهو يقبل يد الكاشانى(١٣) . ولمزيد من استرضاء المؤسسة الدينية فان وزارة على أمينى التى شكلت فى العام ذاته ، ضمت نائبا لرئيس الوزراء للشئون الدينية ، ولأول مرة فى التاريخ الدستورى الايرانى .

وقد تصور أن فرصته لاحت عندما توفى البروجردى فى آخر سنة ١٩٦١ ، مما ترك فراغا فى قيادة المرجعية ، حرص الشاه على أن يبادر إلى ملئه بمرشح يزكيه ، كان هناك عديد من الفقهاء الذين تتقارب أعمارهم قد برزوا فى فترة الأعوام العشرين التى قضاها البروجردى فى صدارة المرجعية . جميعا كانوا من

---

(١٢) المصدر السابق ص١٢٣ ـ نقلا عن مصادر أخرى .

(١٣) حامد الغار ـ بحث بعنوان « دور العلماء المعارض للسياسة الايرانية » ـ فى كتاب إيران ١٩٠٠ ـ ١٩٨٠ ص ١٨٩ ـ وقد ذكر الأستاذ محمد حسنين هيكل أنه تم العثور فى وثائق قصر المرمر (قصر الشاه) بعد الثورة على تقرير تضمن ٧ نصائح وجهت إلى الشاه بعد الانقلاب عليه ، كان من بينها دعوته إلى الاهتمام البالغ بالشئون الدينية ، والحرص على صلاة الجمعة مرة كل أسبوع فى مسجد مختلف ـ مدافع آيات الله ـ ص ٩٢ .

مواليد آخر القرن الماضى وبدايات القرن الحالى . فى النجف كان هناك السادة : محسن الحكيم وأبو القاسم الخوئى والشيرازى ثم الشهروردى . وفى قم : كان آية الله السيد كاظم شريعتمدارى ، والسيد محمد رضا كلبايكانى ، والسيد روح الله الخمينى ، والسيد مرعشى نجفى ، وفى مشهد : كان آية الله محمد هادى ميلانى . وفى طهران : كان آية الله الخونسارى . . وهكذا .

من بين هؤلاء اختار الشاه السيد محسن الحكيم ، وبعث إليه ببرقية عزاء فى وفاة البروجردى . وكانت البرقية إشارة فهمها الجميع ، وإن لم تحدث أثرها المطلوب . ويبدو أن الشاه فضل أن يختار للمرجعية فقيها عربيا من النجف ـ من خارج إيران ـ ليقلص من الدور الذى يمكن أن تقوم به « قم » ، وليمنع نشوء مركز للسلطة الدينية فى داخل إيران(١٤) ليتفرغ لمواجهة القوى السياسية الأخرى فى طهران التى كان قد عزم على تصفيتها ، منذ عاد فى أعقاب انقلاب ١٩٥٣ .

لم يكن الشاه يستطيع أن يفعل شيئا أكثر من إرسال برقية ، محملة بالايماءات والتلميحات . فقد انتهى العصر الذى كان الشاه هو الذى يعين لشيعة البلاد « الصدر » أو شيخ الإسلام ، كما كان يفعل الصفويون والقاجار (فى الفترة ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر) . صارت المرجعية الدينية مؤسسة مستقلة لا سلطان لأى حكومة عليها . لذلك فإن رغبة الشاه لم تتحقق ، فلا نصب السيد محسن الحكيم مرجعا أعلى فى مكان البروجردى ، ولا شغل الموقع من الأساس ، منذ ذلك الحين وإلى الآن . ليس فقط من باب التجاهل لرغبة الشاه ، ولكن لأن آيات الله الكبار الذين خلفهم البروجردى ، كانوا ـ أيضا ـ ذوى أحجام متقاربة ، وهذا هو الاعتبار الأهم ، ولم يتوفر بينهم فى ذلك الحين من يمكن اعتباره مرجعا أعلى ، يتجاوز قامات الآخرين .

لذلك فإن نفوذ السيد الحكيم كمرجع للتقليد ، منذ ذلك الحين وحتى وفاته عام ١٩٧٠ ، ظل محصورا فى إيران ومنطقة الخليج بينما ظل عدد مقلديه محدودا فى داخل إيران .

---

(١٤) حامد الغار ـ دور العلماء ـ ص ١٨٩ .

كلمة الشارع : رستاخيز - رسواخيز !

وبينما شهدت بداية الستينيات ذلك الفراغ فى قيادة المرجعية الشيعية ، فإن المسرح السياسى الايرانى كان يعيش فراغا مماثلا ، من جراء عدة عوامل أهمها :

- اتجاه الشاه إلى إتباع سياسة تصفية العناصر والتيارات السياسية التى عارضته ووقفت إلى جوار الدكتور محمد مصدق ، فى مواجهته الشهيرة للشاه وأسرته عام ١٩٥٢ . وتلك كانت المهمة الأساسية التى أنيطت بجهاز الشرطة السرية (الساواك) الذى أنشأه الشاه فور عودته إلى طهران عام ١٩٥٣ . (الكلمة اختصار لعبارة « سازمان اطلاعات وأمنيت كشور » - أى منظمة المخابرات وأمن الدولة .

- الانشقاق الكبير الذى حدث داخل الجبهة الوطنية ، مما أدى إلى تخلى آية الله الكاشانى عن الدكتور مصدق ، بسبب اشراك حزب تودة الماركسى فى الحكومة ، وكانت تلك خطوة بإتجاه انفصال الاسلاميين عن العلمانيين . وهو ما مهد لانشاء حركة تحرير إيران ، التى أسسها أصحاب التوجه الاسلامى فى رموز الجبهة ، وفى مقدمتهم المهندس مهدى بازركان وآية الله طالقانى .
- الضربات المتلاحقة التى أصابت اليسار الايرانى ، ممثلا بحزب توده الماركسى . إذ تم اعتقال أعداد ضخمة من أعضائه بعد عودة الشاه ، قدرتهم مصادر الحزب بحوالى ٥٠٠٠ عضو ، بينهم ٤٠ أعدموا ، و ١٤ ماتوا تحت التعذيب ، وأكثر من ٢٠٠ حكم عليهم بالسجن المؤبد[١٥] .

من تلك الضربات أيضا ، ذلك الانشقاق الذى حدث فى حزب توده عقب النزاع السوفيتى الصينى (عام ١٩٦٣) ، بحيث بات هناك فصيل موال للسوفييت وآخر موال للصين ، وثالث موال لألبانيا .

وفضلا عن هذا وذاك ، فإن التأييد الذى لقيه الشاه من جانب السوفييت ثم الصينيين كان له تأثيره السلبى على اليسار داخل إيران . إذ أضعف ذلك من رصيد اليسار بين الجماهير ، ويدد الثقة فى مصداقية تلك الفصائل بمختلف اتجاهاتها ،

---

(١٥) يرفند ابرهيميان - القوى السياسية فى الثورة الايرانية - من كتاب إيران (١٩٠٠ - ١٩٨٠) ص ١٢٥ .

فضلا عن أن الجماهير لم تنس لحزب توده موقفه الغريب والمدهش فى عام ٥١ عندما عارض تأميم النفط ، لكيلا يصبح قرار التأميم عقبة أمام مطلب السوفييت فى الحصول على امتياز نفط أذربيجان فى الشمال ، الذى كانت تطمع فيه موسكو دائما .

إلى جانب ذلك الفراغ فى الساحتين الفقهية والسياسية ، الدينية والدنيوية إذا صح التعبير ، فقد كان المسرح الداخلى الايرانى يشهد فى الوقت ذاته تحولات أخرى ذات أهمية بالغة ، نستطيع أن نرصد أبرزها فيما يلى :

ـ لأن الشاه فى عودته إلى العرش كان مدينا للمخابرات المركزية الأمريكية بالدرجة الأولى ، وهو ما لم يعد سرا ، فإن ارتباطه بالمخططات الأمريكية تزايد منذ عام ١٩٥٣ . إذ تضخمت أعداد المستشارين الأمريكيين ، عسكريين ومدنيين ، حتى وصل عددهم إلى أربعين ألفا . وصدر قانون يمنحهم حصانة قضائية خاصة . واعترف الشاه بإسرائيل عام ١٩٦١ ، وإن اكتفى بتبادل العلاقات القنصلية معها ، بديلا عن الدبلوماسية ، خشية رد الفعل من جانب الرأى العام الاسلامى الايرانى .

ـ نتيجة لتزايد إيرادات النفط ، تضاعفت الاستثمارات وتعددت مشروعات التنمية الاقتصادية ، التى وسعت من رقعة الانتاج وزادت من الدخول . فبينما كانت الايرادات النفطية فى عام ١٩٥٣ أقل من ٣٤ مليون دولار ، فإن حوالى ثلاثة مليارات دولار أنفقت على خطة التنمية الثانية (٥٥ ـ ١٩٦٢) . وفى مقابل ١٠ ملايين دولار أنفقت على التسليح فى الفترة من ١٩٤١ إلى ١٩٥٣ ، فإن ٧٠٠ مليون دولار أنفقت على الغرض ذاته بين عامى ١٩٥٣ ، ١٩٦٦[١٦] . ذلك غير مظاهر البذخ المبالغ فيه التى بدأت تطرأ على حياة الارستقراطية الايرانية ، الأسرة المالكة ومن حولها ، مما أدى إلى التسابق على بناء القصور الفاخرة ، وإقامة أحواض السباحة المصنوعة من الذهب الخالص . فضلا عن الحفلات الماجنة والرحلات الملكية الباذخة ، والمهرجانات الضخمة (وصلت تكلفة الاحتفال عام ١٩٧٢ بمرور ٢٥٠٠ عام على الحكم الملكى فى إيران ، الذى عرف باسم مهرجان برسوبوليس ، إلى ١٢٠ مليون دولار) .

(١٦) المصدر السابق ص ١٢١

ـ أدى هذا التطور ، الذى كرسه ما سمى بالثورة البيضاء (انقلاب سفيد) ١٩٦٣ ، إلى تحويل المدن الايرانية ، وطهران فى مقدمتها ، إلى مناطق « جذب بشرى » بحيث وفد إليها مئات الألوف من أبناء الأقاليم والعمال الزراعيين والقرويين العاطلين . إذ بدا واضحا أن هدف التنمية ، وهدف الثورة البيضاء ، هو خلق قطاع صناعى لصالح الأثرياء والاستثمارات الغربية ، الأمر الذى يصب فى المدن ، ويؤدى إلى تفريغ الريف . وقد بلغ عدد الذين نزحوا إلى المدن فى الفترة من ١٩٦٢ إلى ١٩٧٢ حوالى ثلاثة ملايين نازح(١٧) . كان نصيب طهران منهم أكثر من ثلاثة أرباع مليون شخص . وهؤلاء تمركزوا حول العاصمة فى ٤٤ حيا سكنيا فقيرا (لاحقا لعب هؤلاء دورا هاما فى مسار أحداث الثورة ، وتلك التى تتابعت بعد ذلك) .

ـ فى الوقت ذاته ، حاول الشاه أن يحسن صورته أمام الناس ، وأمام العالم الخارجى ، عن طريق إقامة هياكل سياسية وهمية توحى بشكل الممارسة الديمقراطية فأنشأ حزبين توأم هما : « مردم » أى الشعب ، و « مليون » أى الوطنيون . وهو الذى سمى فيما بعد « إيران نوين » أى إيران الجديدة . ونَصَّب اثنين من رجاله على رأس الحزبين ، إقبال واسد الله علم رئيس وزرائه لاحقا ، وهى الخطوة التى لم يأخذها الشاه ذاته مأخذ الجد . فلجأ فيما بعد ، سنة ١٩٧٥ ، إلى إلغاء الحزبين ، واستبدالهما بحزب واحد باسم « رستاخيز ملت » أى البعث الشعبى . وأعلن أن من لا ينضم إلى حزبه إما عميل أو خائن ، وعليه إما أن يغادر البلاد أو يدخل السجن . . وهو ما أثار الجماهير ودفعها إلى السخرية المرة من الشاه ومن حزبه « رستاخيز » ، فأطلقت فى طهران على صحيفة الحزب التى حملت اسمه ، كلمة واحدة ضمنها خلاصة رأيه هى : « رسوا خيز » ، ومعناها « منبع الفضيحة »(١٨) .

ـ كانت مرحلة « الانفتاح على الغرب » التى بدأها نظام الشاه فى عام ١٩٦٠ ، مصدرا إضافيا لاستفزاز المشاعر الاسلامية ، إذ لم تقف خطى الالتحاق بالغرب عند حدود شراء المعدات العسكرية والمصانع ، واستقدام أفواج

---

(١٧) المصدر السابق ص ١٠٥ ـ

(١٨) د. ابراهيم الدسوقى شتا ـ الثورة الايرانية ـ الصفحات ٢٠ ـ ٢٤

المستشارين الأجانب ، العسكريين وغيرهم ، فضلا عن مختلف الممارسات وطموحات الارستقراطية الايرانية التى كان التغريب محورها . لكن الخطى تواصلت فى إتجاه تكريس نمط الحياة الغربية بأسوأ ما فيه . فقد كانت هناك قناة تليفزيونية أمريكية خالصة لا تذيع إلا الأفلام والبرامج الأمريكية مما يستفز أى مجتمع مسلم . أو أى مجتمع شرقى . وطبقا للاحصاءات التى عرفت بعد الثورة ، فقد كان فى طهران ٨٦ ناديا للاجتماعات الرخيصة ، و٨ صالونات لعرض البرامج الخليعة ، و ٧ مدارس لتعليم الرقص . وبلغ عدد الحانات فى العاصمة وحدها ٢٠٧٥ حانة ، تبيع الخمور المحلية العادية ، فضلا عن ٨٢ متجرا لبيع الخمور الأجنبية الراقية .

وطبقا لسجلات الشرطة ، فإن محاضر فتح محلات النساء وإدارة بيوت الدعارة عير المرخصة - أى خارج حى الدعارة الرسمى فى العاصمة - وصلت إلى ١٨٧٦ حالة فى السنوات الخمس التى سبقت الثورة ، أما عدد مدمنى الأفيون فى إيران ، فقد وصل إلى مليون شخص فى سنة ١٩٧٢ ، علما بأن الشخصية التى كانت تدير تجارة الأفيون فى إيران كانت شقيقة الشاه : أشرف بهلوى .

وكانت مدينة شيراز - جنوب شرق إيران - تشهد سنويا مهرجانا عالميا للفن والثقافة ، المجون سمته الأساسية ، حتى أن شوارع المدينة الاسلامية العتيقة شهدت فى سنة ١٩٧٧ عرضا مسرحيا عاريا لفرقة أجنبية ، أثار ذهول الجماهير وعمق من سخطهم(١٩) .

- لجأ الشاه إلى بعض التصرفات التى عمقت من سخط الجماهير وأثارت العلماء بصورة متزايدة ، ففضلا عن اعترافه بإسرائيل ، الذى أعتبر بمثابة صدمة مهينة وجارحة للمشاعر الاسلامية ، فقد ازداد اعتماد الشاه على البهائيين والماسونيين واليهود . وكان إلغاء التقويم الهجرى واستبداله بالتقويم الشاهنشاهى - المجوسى فى الواقع - خطوة استاء منها الجميع . لقد قدم ذلك الاجراء باعتباره علامة على مجيىء حضارة عظيمة جديدة كما ذكر إعلام الشاه . إذ قفز التقويم مرة واحدة من العام ١٣٩٥ هجرية ، إلى العام ٢٥٣٥ . وفى الوقت

(١٩) من تقرير نشرته مجلة « الوحدة الاسلامية » التى تصدر بالعربية فى طهران - عنوانه - « الفساد الأخلاقى فى زمن الطاغوت » - عدد ٦٢ - فبراير ١٩٨٥ .

ذاته رفع البرلمان سن الزواج للفتيات من ١٥ إلى ١٨ ـ وللفتيان من ١٨ إلى ٢٠ . وأصدرت وزارة العدل تعليمات إلى القضاة لكى يتشددوا أكثر فى تطبيق قانون حماية الأسرة الصادر فى عام ١٩٦٧ ، الذى كان يهدف إلى الحد من تعدد الزوجات والطلاق . كما أصدرت وزارة التعليم العالى أوامرها إلى الجامعات بعدم تسجيل النساء اللاتى يرتدين الشادور[٢٠] .

ومما أثار المخاوف والشكوك ، تلك الرسالة التى نشرتها صحيفة « اطلاعات » فى عددها ١٥٥٧٥ تحت عنوان « رسالة من المجوس إلى الشاه » . وتضمنت الرسالة : أن المجتمع المجوسى فى جميع أنحاء العالم ، يشكر الشاهنشاه آريامهر . ويرى من واجباته رد الجميل ، لأنه لم يأت غيره ، منذ هجرة المجوس من إيران ، من أحيا الثقافة المجوسية ، وحفظ التاريخ المجوسى بإخلاص[٢١] . . كانت هذه الرسالة ، مع غيرها من الاشارات ، تعنى عند الناس أمرا واحدا ، هو : أن الوجه الاسلامى لإيران فى خطر .

ـ ثم كانت القاصمة ، عندما نشرت صحيفة « كيهان » شبه الرسمية فى سبتمبر ١٩٦١ ، قرارا لرئيس الوزراء أسد الله علم ، يتناول بالتعديل قانون المجالس المحلية . وأهم ما فى التعديل أنه ألغى القسم على القرآن الكريم عند الترشيح لتلك المجالس ، على أن يحل محله أى كتاب سماوى آخر « معترف به » كما ألغى شرط الاسلام بين المرشحين . وفى حركة خبيثة ومكشوفة ، أعطى التعديل للنساء حق الترشيح والتصويت فى المجالس المحلية . ووجه الخبث هنا أن النظام أخرج التعديلات على هذا النحو دفعة واحدة ، حتى إذا عورض قرار إلغاء القسم على المصحف ـ وهو ما كان متوقعا من جانب الفقهاء ـ فإن رفضهم سيقدم للجماهير باعتباره معارضة لخطوة ترشيح النساء وإعطائهن حق التصويت ، ويشهر بهم من جراء ذلك ، ثم يطبق القانونان معا[٢٢] .

كانت هذه الخطوة سببا فى تفجير الموقف فى قم ، وظهور اسم روح الله الموسوى الخمينى على مسرح الأحداث لأول مرة . .

---

(٢٠) يرفند ابرهيميان ـ أسباب ثورة ١٩٧٨ ـ بحث فى كتاب إيران ١٩٠٠ ـ ١٩٨٠

(٢١) دروس فى الجهاد والرفض للإمام الخمينى ـ ص ٣٢٩ .

(٢٢) د. شتا ـ الثورة الايرانية ٢٢٣ .

الفصل الثانى

عندما تكلم «السيد» من قم

أهم ما فى أحداث خريف ١٩٦١ ، ليس فقط أنها أسفرت عن إلغاء القوانين التى جرحت الشعور الاسلامى ، ولكن أنها استدعت قم إلى قلب الميدان السياسى ، فى صف المعارضة للنظام ، وأنها كانت بمثابة الميلاد السياسى للرجل الذى شغل الدنيا والناس فيما بعد : روح الله الموسوى الخمينى .

فعقب نشر القوانين ، اجتمع أركان حوزة قم فى بيت آية الله حائرى لبحث الأمر . وقرروا إرسال برقية إحتجاج إلى الشاه ، وبعد أسبوعين من اللغط والترقب ، رد الشاه بأنه أحال الأمر إلى رئيس الوزراء . وإزاء ذلك فقد اجتمع آيات الله مرة ثانية ، واتفقوا على إرسال برقية أخرى إلى رئيس الوزراء بعث بها روح الله الخمينى ، حذره فيها من مغبة مخالفة الاسلام والدستور ، وقال « أحب أن أذكركم بأن علماء إيران والاعلام والمراكز الدينية وسائر المسلمين لن يسكتوا عما يخالف الشرع ، ولن يعترفوا بأى أمر يخالف الاسلام بحول وقوة من الله تعالى »[1] .

كانت هذه هى المرة الأولى التى يبرز فيها اسم روح الله الموسوى خارج قم ، ويتردد الاسم فى الأوساط السياسية ، وفى مختلف الحوزات (مراكز التجمعات الدينية) مرتبطا بتلك البرقية شديدة اللهجة التى ذاع أمرها فى أنحاء إيران . توالى بعد ذلك إرسال برقيات وعرائض الاحتجاج التى كان يبلغ بعضها ستة أمتار بسبب كثرة التوقيعات إلى الشاه ورئيس الوزراء . واتسعت دائرة المعارضة ، وأخذ آيات الله زمام المبادرة ، فدعوا إلى مؤتمر شعبى فى المسجد الأعظم بقم ، كان فى مقدمة خطباته ذلك الاسم الصاعد : روح الله الموسوى .

ومرة ثانية أرسل الخمينى برقيتين إلى الشاه ورئيس وزرائه ، ولأول مرة تحدث الخمينى عن السيطرة الأجنبية على إيران ، واتهم رئيس الوزراء بأنه وقف

---

(١) د . إبراهيم الدسوقى شتا - الثورة الإيرانية - ص ١٢٤ .



صورة عمرها نصف قرن « لحجة الاسلام الخمينى » مع زملاء الحوزة العلمية فى قم وهم من اليمين إلى اليسار حجة الاسلام : نصر الله خلخالى ، أحمد لواسانى ، الخمينى ، أحمد زنجانى ، أديب طهرانى .

علنا ضد الاسلام والقرآن وعواطف الأمة ، وأنه أراد أن يستبدل الأوستا (كتاب الزرادشت) والانجيل بالقرآن الكريم . وأن هذا لن يحدث طالما بقى فى إيران عالم دين واحد . طبعت البرقيتان ووزعتا فى أنحاء إيران ، وبدأت الجماهير الغاضبة تتجه إلى الرجل الذى برز فى ساحة النزال معارضا ومتحديا النظام وقراراته التى جرحت المشاعر الاسلامية ، وذهب الخمينى إلى أبعد من ذلك ، فأصدر بيانا قال فيه صراحة : « أننى بحكم مسئوليتى الشرعية أعلن الخطر المحدق بشعب إيران والمسلمين فى العالم ، ان القرآن الكريم والاسلام معرضان للسقوط فى قبضة الصهيونية التى ظهرت فى إيران فى صورة طائفة البهائية . . . »[٢] .

وبينما الصمت والتسويف الحكومى مستمرين ، كانت موجات الغضب تتدافع حتى طرحت فكرة إعلان الاضراب العام ، وقبل أن ينفجر غضب الجماهير ، اجتمع مجلس الوزراء وقرر إلغاء القوانين التى أصدرها رئيس الوزراء أسد الله علم . . وهدأت العاصفة التى استمرت خمسين يوما ، استطاعت قم خلالها أن تثبت حضورها فى ساحة المقاومة ، كما استطاع روح الله الخمينى أن يشق طريقه بجدارة إلى مقدمة الصفوف .

(٢) المصدر السابق ص١٢٦ .

رحلة « حاجى أغا » من خمين

كان روح الله قد استقر به المقام فى المدينة المقدسة ، بعدما أنهى شوط الدراسة وأصبح على أبواب مرحلة الاجتهاد . فى « خمين » تعلم القراءة والكتابة على يد الميرزا محمود ، وواصل تعليمه فى بلدته تحت رعاية اثنين من الفقهاء هما ، ملا قاسم والشيخ جعفر . وأتقن الخط وتدرب عليه فى بيت الأستاذ حمزة المحلاتى . وعند أخيه مرتضى (بسنديده لاحقا) تعلم النحو ، والصرف[3] .

من خمين نزح إلى مدينة « أراك » ، التى كانت تضم حوزة علمية اشتهرت بأساتذتها وشيوخها الأجلاء . على رأسهم كان الشيخ عبد الكريم الحائرى اليزدى (والد آية الله الحائرى الحالى) الذى قدر له أن يكون المعلم الأكبر لروح الله . وارتبط به ، حتى أنه عندما قرر الشيخ عبد الكريم أن ينقل الحوزة فى أراك إلى بلدة قم بالقرب من قبر « السيدة المعصومة » ،[4] ليؤسس حوزتها التى ازدهرت فيما بعد ، فإن روح الله لم يتردد فى الانتقال معه ، ضمن تلاميذه الآخرين . وهناك أقام فى مدرسة « دار الشفاء » الدينية ، إلى أن مات الشيخ الحائرى ، فقدر لتلميذه روح الله أن يأخذ مكانه ضمن مدرسى الحوزة ، وهو بعد لم يتجاوز السابعة بعد العشرين من عمره .

فى العام الهجرى ١٣٤٧ ، بدأ روح الله دروسه فى الفلسفة على طلاب المدرسة الفيضية . ومنها انتقل إلى تدريس العلوم الأخلاقية . فى العام التالى ، وسع من نطاق دروسه حتى شملت الفقه والأصول ، واستمر يلقى محاضراته فى هذا الموضوع على طلاب الحوزة طوال ١٥ عاما (حتى سنة ١٣٨٣ - ١٩٦٣ م) . بعد ذلك أصبح يلقى فى الحوزة ما يسمى بدرس « الخارج »[5] ، وهى محاضرات إضافية فى الفقه والأصول ، تلقى على الذين أكملوا دراسة الكتب المتعارف عليها . وهم الذين نطلق عليهم فى جامعاتنا وصف « طلاب الدراسات العليا » .

---

(٣) لمحات فى حياة الإمام الخمينى - من إصدارات وزارة الإرشاد الإسلامى بطهران ص ١٥ .

(٤) هى السيدة فاطمة بنت الإمام موسى الكاظم (سابع أئمة الشيعة الأثنى عشرية) وحفيدة الإمام جعفر الصادق . ويقال أنها قدمت من المدينة المنورة للقاء شقيقها الإمام الرضا ، لكنها مرضت وماتت فى ذلك المكان .

(٥) دروس فى الجهاد والرفض للإمام الخمينى - ص ٢٢ و ٢٣ .

في تلك الفترة كان تلاميذه يطلقون عليه لقب « حاجى أغا » أو السيد الحاج ، إذ كان قد جمع بين كونه سيدا من سلالة الرسول ، وحاجا إلى بيت الله فى مكة . وفى زمانه كان الحج شيئا فريدا يميز صاحبه ، فقد كان عدد الذين يسافرون إلى مكة والمدينة قليلا ، وكانت الكثرة تستعيض عن ذلك بزيارة الأماكن المقدسة عند الشيعة ، فى كربلاء والنجف ومشهد . وكان البعض ممن يزورون تلك الأماكن ينسبون إليها ، ولذا فقد انتشرت بين الشيعة ألقاب « الكربلائى » و « النجفى » و « مشهدى » ، أما الذين يحجون إلى مكة والمدينة فقد كان ينظر إليهم بقدر من الاكبار والاحترام ، ولا ينادون إلا بلقب « حاجى » .

حتى بداية الستينيات بدا حاجى أغا واحدا من النمط التقليدى لفقهاء الحوزة . كانت كتبه ورسائله تتناول موضوعات عادية مثل : مصباح الهداية - شرح على « دعاء السحر » أربعون حديثا - حاشية على « فصوص الحكم » للقيصرى - حاشية على « مفتاح الغيب » - أسرار الصلاة أو معراج السالكين - رسالة فى الطلب والإرادة - حاشية على « رسالة شرح حديث رأس الجالوت » للقاضى سعيد - آداب الصلاة - الرسائل (فى جزءين) - دراسات حول قاعدة لا ضرر ولا ضرار ، الاستصحاب والتعادل ، الترجيح والاجتهاد والتقليد والتقية - كتاب الطهارة (ثلاثة مجلدات) تهذيب الأصول (فى أصول الفقه)[٦] . . وهكذا .

لم تكن توحى تلك الكتابات المبكرة بأن صاحبها سيكون له شأن ، لا فى عالم الحوزة ، ولا فى عالم السياسة . نستثنى من ذلك إشارات تكشفت لاحقا فى كتابه المنشور بالفارسية « كشف الأسرار » . منها قوله عن السيد حسن المدرس ، الفقيه الذى دخل البرلمان معارضا للشاه فى العشرينيات ، أن أمثاله « يجب أن يقفوا على رأس السلطات التشريعية والقضائية - لم يشر إلى السلطة التنفيذية - حتى تخرج البلاد من حالتها المزرية » .

وتعقيبا على محاولات رضا شاه الأب ارغام النساء على رفع الحجاب فى عام ١٩٣٦ إتباعا لخطى كمال أتاتورك فى تركيا ، فإن السيد كتب يقول فى مؤلفه ذاك : إن تلك الحكومة ما هى إلا حكومة ظالمة ، وأن التعاون معها إن هو إلا تعاون مع الكفر[٧] .

---

(٦) المصدر السابق - ص ٢٢ و ٢٣ .

(٧) كشف الأسرار للإمام الخمينى ص ٢٣٤ - ٢٣٩ .

منذ بداية الستينات تبلور الوجه الآخر فى شخصية روح الله الخمينى ، وشيئا فشيئا تحول حاجى أغا ، ذلك السيد الطيب والهادىء ، إلى « بت شكن » ، وهو الوصف الذى أطلق عليه عندما برز دوره كفقيه أعلن تحديه للنظام والشاه ، ومعناها بالعربية « محطم الأصنام » . إذ يذكر له أنه منذ بدأ خطابه السياسى ، لم يخاطب الشاه بلقب « صاحب الجلالة » ، كما كان يفعل غيره من الفقهاء ، فضلا عن أهل السياسة .

فتاوى فى الفقه السياسى

دخل الخمينى إلى المعترك من باب الفقه السياسى . ومنذ وطئت قدماه الساحة ارتبط الدين بالوطن عنده[8] ، وفتح باب الفتوى الذى ظل مغلقا على المسائل العبادية وعلاقة الناس بالله ، وأطل منه على مختلف القضايا السياسية والاجتماعية والثورية . أى علاقة الناس بالناس ، والشعب بالحكومة ، والدولة بالعالم الخارجى . . وكانت هذه لغة جديدة فى الخطاب الدينى ، فى قم ، وفى إيران كلها .

وقد عبر فى نفسه أصدق تعبير ، عندما سمعه طلاب المدرسة الفيضية يقول لهم ذات يوم فى عام ١٩٦١ ، كلاما اتسم بجرأة غير عادية ، ولم تألفه أسماعهم من قبل . إذ قال أمامهم : لست من المعممين الذين يرغبون دوما فى القعود والانشغال بالتسبيح . كما أنى لست قسيسا أقوم أيام الأحد ببعض الطقوس ، وأمضى بقية الأيام راهبا لا تعنينى شئون الناس .

سمعوه أيضا يقول : علينا أن ننهض ونجاهد ولا نسكت عن الحق . وكيف نسكت وما زال المستعمر عن طريق وكلائه المحليين يعبث بأحكام الله ، ويبدلها واحدا تلو الآخر .

ثم يقول : من العار أن نسكت على هذه الأوضاع ، ونبدى جبنا أمام الظالمين المارقين ، الذين يريدون النيل من كرامة الدين والقرآن وشريعة الإسلام

---

(٨) د . إبراهيم الدسوقى شتا ـ الثورة الإيرانية ـ ص ٢٠٧ .

الخالدة . . . إنهضوا للثورة والجهاد والإصلاح ، فنحن لا نريد الحياة فى ظل المجرمين[٩] .

لم تنته سنة ١٩٦١ إلا والخمينى قد ثبت حضوره فى قم ، وعلى المسرح السياسى الإيرانى ، إذ ألقى خطابا شهيرا له فى شهر ديسمبر من ذلك العام دعا فيه الشاه إلى الالتزام بالدستور ، وانتقد مختلف ممارسات النظام ، ثم لوح بأن الشعب مستعد لما هو فوق التظاهر وما هو أبعد من الإضراب ، وأنه شخصيا مستعد لحمل كفنه بين يديه لكى يتحقق للشعب استقلاله وللإسلام بقاؤه . . وفى ختام خطابه نصح الشاه قائلا : « إن الشعب لا يموت ، وينبغى أن تسير الدولة على الجادة . وإذا لم يسمع الشاه ونظامه ، فسيعرف من الذى سيموت »[١٠] .

لكنه لم يكتف بالدروس والخطب التى كان يلقيها . بل استخدم أيضا « سلاح الفتاوى » فى التصدى لممارسات نظام الشاه . فضمن كتابه « توضيح المسائل » فتاواه فى هذا الصدد . وأدرجها تحت عنوان « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » . إذ اعتبر أن ذلك الواجب الشرعى ينبغى أن يؤدى أولا فى مواجهة الظلم والظالمين . من هذا الباب دخل وألقى فتاواه ، التى كانت بمثابة ألغام مبثوثة فى الشارع السياسى ، انفجرت على التوالى فيما بعد . .

فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كتب يقول :

- مسألة ٢٧٩٣ : إذا حدثت بدعة فى الإسلام مثل المنكرات التى ترتكبها الحكومة باسم دين الإسلام القويم ، فالواجب خصوصا على علماء الإسلام إظهار الحق وإنكار الباطل . ولما كان سكوت العلماء الأعلام يوجب هتك حرمة العلم وإساءة الظن بعلماء الإسلام ، فالواجب إظهار الحق بأى نحو ممكن حتى ولو كانوا يعلمون أنه لا يؤثر .
- مسألة ٢٧٩٤ : لما كان سكوت العلماء من المحتمل أن يجعل المنكر معروفا والمعروف منكرا فالواجب على العلماء إظهار الحق وليس السكوت جائزا .

---

(٩) دروس فى الجهاد والرفض ص ٣٤-٣٦ .

(١٠) د . شتا - ص ١٢٨ .



آية الله الخمينى يلقى دروسه فى بداية الستينيات أمام الجالسين فى فناء المدرسة الفيضية بقم .. وهى المدرسة التى خرجت منها شرارة التمرد على الشاه .

- مسألة ٢٧٩٥ : إذا كان سكوت العلماء يسبب تقوية الظالم أو جرأته على سائر المحرمات ، فمن الواجب إظهار الحق حتى ولو لم يكن لإظهاره تأثير فعلى .
- مسألة ٢٧٩٦ : لما كان سكوت علماء الاسلام يمكن أن يدفع الناس إلى إساءة الظن بهم وإتهامهم بممالأة جهاز الجبار ، فمن الواجب إظهار الحق وإنكار الباطل حتى وإن علموا أن هذا لا يقف فى وجه الظلم ، وأن موقفهم لن يؤثر فى القضاء على الظلم .
- مسألة ٢٧٩٧ : إذا كان دخول بعض العلماء الأعلام فى معية الظلمة يسبب دفعهم إلى الوقوف ضد المفاسد والمنكرات فلهم ذلك إلا إذا كان فى الأمر مفسدة أخرى أهم مثل تزلزل عقائد الناس أو انعدام ثقتهم فى العلماء ، فلا يجوز لهم فى هذه الحالة الدخول فى معية الظلمة .

■ مسألة ٢٧٩٨ : لا يجوز للعلماء والأئمة إدارة المدارس الدينية من طرف الدولة وإدارة الأوقاف ، لأنهم فى هذه الحالة يتقاضون مرتباتهم ويتقاضى طلاب العلوم الدينية مرتباتهم إما من الناس أو من الأوقاف أو من الحكومة ، حتى ولو كان الوقف مدرسة ، لأن تدخل الدولة فى هذه الأمور وأمثالها مقدمة لهدم أساس الإسلام ، وقد نفذ هذا فى كل الدول الإسلامية أو هى بسبيلها إلى تنفيذه .

■ مسألة ٢٧٩٩ : لا يجوز لطلاب العلوم الدينية دخول المؤسسات الحكومية التى أسست تحت اسم مدارس دينية ، والتى تتدخل فيها الدولة وأخذتها من القائمين بها أو جعلت القائمين بها تحت سلطانها ، وما تعطيهم إياه من إدارة الأوقاف أو بموافقتها حرام .

■ مسألة ٢٨٠٠ : لا يجوز لطلاب العلوم الدينية دخول المدارس التى يديرها بعض المعممين والأئمة من قبل الحكومة أو بإشارة منها ، لأن البرامج الدراسية فيها إما أنها من طرف الحكومة ، أو من طرف هذا الصنف من المديرين الذين أجازهم عمال الدولة ، ففى هذه البرامج وضعت خطة لمحو آثار الاسلام وأحكام القرآن الكريم .

■ مسألة ٢٨٠١ : ينبغى على المسلمين والمتدينين الإعراض عن أولئك الذين دخلوا فى كسوة أهل العلم ثم التحقوا بهذه المؤسسات التى أسست بتدبير من الحكومة وعليهم ألا يختلطوا بهم ، وأن يصموهم بعدم العدل ، ولا تجوز صلاة الجماعة خلفهم ، كما أن الطلاق فى حضورهم باطل ، ولا ينبغى أن يعطى لهم سهم الامام وسهم آل البيت ، فإذا حدث لا يسقط من ذمتهم وإذا كانوا من الوعاظ لا ينبغى أن يدعوا للوعظ ، وعلى الناس ألا يشتركوا فى مجالس تقيمها الدولة لهؤلاء من أجل ترويج الباطل وشرح برامج تخالف الإسلام .

■ مسألة ٢٨٠٢ : فى تصدى هذا الصنف من المعممين وهم عمال الظلمة مفاسد عظيمة سوف تتضح نتائجها بالتدريج ، ولهذا لا ينبغى على المسلمين أن يهتموا بالأعذار التى يقدمونها لتبرير اشتراكهم ، وعلى العلماء الأعلام أن

يخرجوهم من مراكزهم الدينية وألا يختلطوا بهم ، وعلى كافة العلماء الأعلام وطلاب العلوم الدينية والخطباء المحترمين وسائر الطبقات المطلعة على دسائس الأجانب أن يبّصروا بهؤلاء الفاسقين وأن يحذروا الناس من شرورهم .

إعلان الحرب على اللاشرعية

وهناك نوع آخر من الفتاوى حاول بها الخمينى أن يبطل مفعول القوانين التى أصدرتها الحكومة بواسطة المؤسسات التشريعية التى تتبعها ، من هذه الفتاوى على سبيل المثال :

- مسألة ٢٨٣٥ : إن القوانين التى صدق عليها ويصدق عليها المجلسان بأمر عملاء الأجانب ـ خذلهم الله تعالى ـ والتى تخالف صراحة القرآن الكريم وسنة الرسول هى قوانين ملغاة من وجهة نظر الاسلام ولا قيمة لها قانونيا ، وعلى المسلمين الاعراض عن الآمر بها والمصدِّق عليها بكل طريقة ممكنة ، وعليهم ألا يعاملوهم أو يختلطوا بهم ، فهم مجرمون والعامل بآرائهم عاص وفاسق .
- مسألة ٢٨٣٦ : إن القانون الذى صدق عليه المجلسان أخيرا بأمر من عملاء الأجانب باسم قانون الأسرة،من أجل هدم أحكام الإسلام وإفساد أسس الأسرة المسلمة ، غير قانونى وغير شرعى ومخالف لأحكام الإسلام . ومن أمر به أو صوّت عليه مجرم فى نظر الإسلام ، والنساء اللائى طلقن من قبل المحكمة طلاقهن باطل ، والنساء المتزوجات اللائى يتزوجن مرة ثانية زانيات ، ومن يتزوج بهن عن علم زانٍ ويستوجب الحد الشرعى وأولادهن أولاد غير شرعيين لا يرثون ، وتجرى عليهم كل أحكام أولاد الزنا ، لأن المحكمة هى التى تطلق مباشرة أو تأمر الزوج بالتطليق .
- مسألة ٢٨٣٧ : على العلماء الأعلام أيدهم الله تعالى أن يعترضوا بشدة على أمثال هذه القوانين التى لا قيمة لها فى نظر الإسلام والقانون ، لا أن يستعطفوا المجرمين الأصليين ويتظلموا من المكلفين بتنفيذ أوامر أعداء

الإسلام لأن هذا النحو من الطلب والتظلم وتوجيه الجرم إلى الموظفين الصغار يسبب تطهير المجرم الأصلى وتبرئته وجرأته على هدم الأحكام الالهية ، وعلى كافة المسلمين أن يقاوموا هذه القوانين التى تهدد دينهم ودنياهم وأسرهم وتأخذ بناتهم إلى التجنيد وتضيع جهود الأنبياء العظام والأولياء الكرام صلوات الله عليهم هدرا ، عليهم أن يظهروا كراهتهم لهذه القوانين وألا يعملوا بها وعليهم الدفاع عن أحكام الإسلام بكل وسيلة ممكنة حتى لا يبْتَلوا ـ لا قدر الله ـ بالمستقبل الأسود المخيف الذى يهدف إليه عملاء الاستعمار ـ خذلهم الله تعالى ـ للإسلام والمسلمين .

أشهر الخمينى سلاح الفتاوى أيضا فى وجه الأجانب والمستعمرين والصهاينة ، ومما أفتى به فى هذا الصدد ، ما يلى :

- مسألة ٢٨٢٦ : إذا هجم العدو على بلاد المسلمين ، فمن واجب كل المسلمين الدفاع عنها بكل وسيلة ممكنة من بذل للروح والمال ، ولا حاجة هناك لإذن من حاكم الشرع فى هذا الأمر .
- مسألة ٢٨٢٧ : إذا خاف المسلمون أن يكون الأجانب قد رسموا خطة للاستيلاء على بلادهم سواء عن طريق مباشر أوعن طريق عملائهم فى الداخل والخارج ، فمن الواجب عليهم الدفاع عن بلادهم بأى وسيلة ممكنة .
- مسألة ٢٨٢٨ : إذا رسمت خطة ما داخل بلد إسلامى تهدف بسط سيطرة الأجانب عليه فعلى المسلمين العمل لإحباطها بكل الطرق الممكنة .
- مسألة ٢٨٢٩ : إذا كان يخشى سيطرة الأجانب على بلاد إسلامية عن طريق توسيع نفوذهم السياسى أو الاقتصادى ، فمن الواجب على المسلمين الدفاع بكل وسيلة ممكنة لقطع أيدى الأجانب سواء مباشرة أو من قبل عملائهم فى الداخل أو الخارج .
- مسألة ٢٨٣٠ : إذا كان يخشى أن يسيطر الأجانب سيطرة سياسية أو اقتصادية عن طريق العلاقات السياسية بين دولهم والدول الإسلامية ، فعلى المسلمين أن يُظْهِروا عداءهم لذلك بأية طريقة ممكنة ، وعليهم أن يلزموا الدول الإسلامية بقطع هذه العلاقات .

■ مسألة ٢٨٣١ : إذا خشى على سوق المسلمين من لطمة اقتصادية عن طريق العلاقات التجارية مع الأجانب ، ويمكن أن تؤدى إلى الاستعمار التجارى أو الاقتصادى ، فمن الواجب قطع كل صنف من هذه العلاقات وتحريم هذا النوع من التجارة .

■ مسألة ٢٨٣٢ : إذا كانت إقامة أية علاقة سواء سياسية أو تجارية بين احدى الدول الإسلامية والأجانب مخالفة لمصلحة الإسلام والمسلمين ، فمثل هذا النوع من العلاقات ليس جائزا ، وإذا أقدمت عليها دولة ما ، فعلى سائر الدول الإسلامية أن تلزمها قطع هذه العلاقات .

■ مسألة ٢٨٣٣ : إذا كان بعض رؤساء الدول الإسلامية أو بعض النواب فى المجلسين سببا فى بسط نفوذ الأجانب سياسيا أو اقتصاديا أو عسكريا بما يخالف مصالح الإسلام والمسلمين ، فهو معزول لهذه الخيانة من المنصب الذى هو فيه مهما كان هذا المنصب ، ولو فرض أنه نُصِّب فى هذا المنصب عن طريق شرعى ، وعلى المسلمين عقابه بأية طريقة ممكنة .

■ مسألة ٢٨٣٤ : لا تجوز إقامة علاقات تجارية وسياسية مع بعض الدول التى هى أداة فى يد الاستعمار مثل إسرائيل ، وعلى المسلمين الاعتراض على هذا النمط من العلاقات على أى شكل ممكن ، والتجار الذين يتعاملون مع إسرائيل وعملاء إسرائيل خونة للإسلام والمسلمين وأداة لهدم أحكام الإسلام ، وعلى المسلمين أن يقطعوا علاقاتهم مع هؤلاء الخونة ، سواء فى شكل دولة أو تجار . وعليهم إلزامهم بالتوبة ، وقطع علاقاتهم مع هذا الصنف من الدول .

محطم الأصنام فى مواجهة الشاه

مرة ثانية ، انفجر الموقف فى قم ، وعلا نجم الخمينى فى سماء المدينة ، عندما أعلن الشاه أنه سيجرى استفتاء حول بنود ثورته البيضاء ، وحدد يوم ٢٦ يناير موعدا لذلك الاستفتاء . فانبرى « بت شكن » ـ محطم الأصنام ـ منددا بتلك الثورة ومبادئها ، وأصدر فتوى بتحريم الاشتراك فى الاستفتاء . الأمر الذى كان بمثابة تحد جديد ، ابتلعه النظام فى صمت ، ورغم أن نتيجة الاستفتاء كانت معلومة

سلفا . إلا أن السلطة بررت موقف الخمينى ، وتجاهلت ما يجرى فى قم ، إلى حين . لكن صوت الخمينى لم يهدأ ، فعندما اقتربت احتفالات رأس السنة الإيرانية ، أعلن « بت شكن » أن علماء الدين لن يحتفلوا بالمناسبة فى ذلك العام . وأصدر بيانا قال فيه « اننى أعلن هذا العيد يوم حداد ، لكى أنبه المسلمين إلى الخطر المحدق بإيران والإسلام . . ولا أرى حلا إلا أن تتنحى هذه الحكومة المستبدة ، لتحل محلها حكومة متمسكة بتعاليم الإسلام تهتم بالأمة الإيرانية » .

لم يكن مثل هذا الكلام مما يصدر عن قم ، أو يحتمله نظام الشاه . فجاء الرد بعد عدة أشهر ، - فى مارس ١٩٦٣ - يوم الاحتفال باستشهاد الامام جعفر الصادق . وبينما كان مجلس العزاء منعقدا فى المدرسة الفيضية ، حيث اعتاد الخمينى أن يلقى دروسه ، وبينما الألوف القادمة من أنحاء البلاد تشارك فى المناسبة الدينية ، إذا بجند الشاه يهجمون ويوسعون الجميع ضربا وتنكيلا ، كان الهجوم مفاجئا ، فى مكانه وتوقيته وشراسته . إذ أن المدارس الدينية تعد حرما آمنا ينبغى ألا تدوسه أقدام الجند ، والمناسبة أجل من أن تنتهز فرصة للضرب والقمع ، والقسوة كانت أشد مما توقعه الجميع[١١] .

أثار الهجوم فزعا وغضبا لا حدود لهما ، واتجهت الأنظار إلى الخمينى ، الذى هب قائلا : إن النظام كلما تمادى فى جرائمه ، فضح نفسه أكثر ، وهذا نصر عظيم للإسلام والمسلمين .

وكان علماء الدين فى أنحاء إيران يراسلون الخمينى ويعلنون تأييدهم له . وكانت ردوده عليهم تطبع وتوزع على الناس ، ليعرفوا حقيقة الجرم الذى حدث فى المدرسة الفيضية .

وخلال الأسابيع التالية لم يتوقف الخمينى عن فضح نظام الشاه ، والتنديد بجريمة مدرسة الفيضية إلى أن حل أول محرم (شهر يونيو) ، الذى خرج فيه الحسين مناديا « الموت بشرف خير من الحياة بذلة » . وما أن بدأ الشهر حتى أصدر روح الله فتواه التاريخية بتحريم « التقية » ، وأذاع بيانا إلى كل العلماء يدعوهم فيه ألا يلوثوا منابرهم بالمهادنة ، وأن يجعلوا منها مراكز تفضح النظام . وقال : « إن التقية حرام ، وإظهار الحقائق واجب مهما كانت النتيجة . ولا ينبغى

(١١) المصدر السابق ص ١٣٠ .

على فقهاء الاسلام استعمال التقية فى المواقف التى تجب فيها التقية على الآخرين . إن التقية تتعلق بالفروع ، لكن حينما تكون كرامة الإسلام فى خطر ، وأصول الدين فى خطر ، فلا مجال للتقية والمداراة . إن السكوت هذه الأيام تأييد لبطانة الجبار ومساعدة لأعداء الإسلام(١٢) .

مضت الأيام الأولى من شهر محرم ومجالس العزاء تعمق السخط على الشاه ، حتى حل اليوم العاشر الذى ترقبه الجميع ، وتوافدت الألوف إلى قم لتستمع إلى ما يقوله الخمينى . وكعهدهم به منذ بزغ نجمه ، وقف معلنا التحدى السافر لرأس النظام ، وقال : نحن نعيش عصر عاشوراء ، إشارة إلى الجرائم التى ارتكبها يزيد بن معاوية بحق الامام الحسين وأهله ، وإسقاطا على ممارسات الشاه ضد طلاب الدراسات الدينية فى قم . ثم واصل هجومه على الشاه قائلا : اننى أحذرك أيها الملك من مغبة تلك الأعمال والأساليب . . وأنا أريد أن يشكر الناس ربهم إذا قرر أسيادك (فى الغرب) إبعادك عن البلاد . . اننى أرى مصيرك كمصير أبيك (الذى نحاه البريطانيون عن العرش وأبعدوه إلى جنوب أفريقيا فى عام ١٩٤١) .

وفى خطبته ، فجر الخمينى بوضوح قضية علاقة الشاه بإسرائيل وتساءل : ماهى العلاقة التى تربط الشاه بإسرائيل ، حتى تحذرنا أجهزة الأمن من انتقادهما ؟ هل الشاه هو إسرائيل بنظر أجهزة الأمن ؟ . . . هل هو (عندهم) يهودى وصهيونى ؟(١٣) .

فى اليوم التالى (١١ محرم ـ ١٤ خرداد) انفجرت المظاهرات فى العاصمة وفى مختلف أنحاء إيران . وتصدى الجند للمتظاهرين وطاردوهم فى المساجد . ثم ألقى القبض على الخمينى ، ونقل من قم إلى طهران ، وعندما انتشر الخبر صبيحة اليوم التالى (١٥ خرداد) انفجر بركان السخط ، وخرجت المظاهرات مرة ثانية تندد بالنظام وتهتف لأول مرة « الموت للشاه » . وبقدر شدة الغضب ، كان عنف الرد ، الذى استخدم فيه الجيش والشرطة والساواك ، وكان عدد القتلى الذين سقطوا فى مذبحة ١٥ خرداد ، ١٥ ألف شخص ، حسب تقديرات الحكومة

---

(١٢) المصدر السابق ص ١٣٢ .

(١٣) دروس فى الجهاد والرفض ـ ص ٥٥ ـ ٥٨ .


FOR ALL THE
MAJOR LEAGUE
SEBALL RESULTS
TAKE THE
HRAN JOURNAL

TEHRAN JOURNAL

kravan says millions of rials brought here to foment trouble

ASSER BEHIND IRAN RIOTS

My position stronger than ever, says Shah

AGENT CONFESSES PART

kovsky's first day in space

FARS IS NORMAL: ARIANA

CONDEMN AGAINST TRIBESMEN

Africans issue ultimatum to I.L.O. conference

U.S.-Japan submarine pact triggers protests

CURFEW REDUCED

LATEST

الصفحة الأولى من صحيفة طهران جورنال (عدد ١٦ يونيو ١٩٦٣) وعنوانها الرئيسى يقول إن عبد الناصر وراء مظاهرات إيران ـ وعلى الصفحة صورة عميل المخابرات المصرية الذى قالت الصحيفة أنه حمل أموالا لمحركى « الشغب » .



الخميني بين بعض تلاميذه ، بعد الافراج عنه ، في سنة ١٩٦٣ ، وعودته إلى قم .

الرسمية ، أما المعتقلون من المتظاهرين ودارسى الحوزة فى قم ، والسياسيين فى طهران ، فقد كانوا بغير حصر .

الطريف فى الأمر أن الصحف الإيرانية خرجت يوم ٦ يونيو وهى تعلن نبأ خروج المظاهرات ، مشيرة إلى أن الذين حركوها هم بعض التابعين لرجال الدين ، ومن بينهم « مستر خمينى » ، كما ذكرت الصحيفة « تهران جورنال » على صفحتها الأولى ، التى وصفت المتظاهرين بأنهم « خونة » ثم توالت البيانات الرسمية التى أشارت إلى أن قادة المظاهرات قبضوا أموالا بملايين الريالات جاءت من « الخارج » .

وبعد عشرة أيام ـ فى يوم ١٦ يونيو ـ أذيع أن الرئيس جمال عبد الناصر وراء

مظاهرات ٥ خرداد ، وأن عميلا للمخابرات المصرية اسمه محمد الغيزى ، اعترف بذلك بعدما ألقى القبض عليه(١٤) .

قضى الخمينى شهرين فى السجن بطهران ، ثم نقل بسبب ضغوط العلماء والرأى العام إلى حيث حددت إقامته فى أحد أحياء العاصمة (حى قيطرية) . لكنه لم يلبث أن أفرج عنه فى ٥ أبريل ، وأعيد إلى قم مرة ثانية ، بعد غيبة عنها استمرت حوالى عشرة أشهر .

بعد عشرة أيام بالضبط ، كان الخمينى يلقى خطبة فى المسجد الأعظم بالمدينة المقدسة ، رد فيها على مختلف الاتهامات التى نسبت إلى الفقهاء خلال فترة غيابه ، وخاصة إتهامهم بالرجعية ، وكان مما قاله للشاه : هل إذا نصحناك بألا تكون عبدا مملوكا للأجانب نتهم بالرجعية ؟ . . وإذا قلنا لا تعقد ميثاقا مع إسرائيل ، قلت إنكم رجعيون . . وإذا انتقدنا إرسال طائرة خاصة من طهران إلى هولندا لشراء الزهور لأحد ضيوف النظام ، اتهمنا أيضا بالرجعية . . ثم تساءل : من الرجعيون إذن ، نحن أم أنتم ؟(١٥) .

على الوتيرة ذاتها ظلت خطب الخمينى تتلاحق ، حتى أجاز البرلمان قانون الحصانة للأمريكيين ، الذى صدر باسم « الكابيتولاسيون » ، وأسماه الخمينى قانون العار ، فدعا إلى اجتماع شعبى كبير فى مدينة قم يوم ٢٦ أكتوبر (١٩٦٤) . واستهل خطابه قائلا : إنا لله وإنا إليه راجعون لقد ضاق صدرى منذ اليوم الذى سمعت فيه بعض الأخبار السياسية (الأخيرة) . . ثم ردد عبارة ابن الأثير التى وصف بها دخول التتار بغداد ، فى مؤلفه « الكامل » فى التاريخ ، إذ قال : يا ليتنى مت قبل هذا ، وما شاهدت ذلك العار ، فليس لإيران بعد اليوم عيد . لقد حولوا العيد إلى مأتم . لقد باعونا وباعوا استقلالنا .

ثم قال : لو أن أحدا دهس كلبا أمريكيا بسيارته فإنه سيكون عرضة للتحقيق والملاحقة القضائية ، حتى ولو كان ذلك الشخص هو الشاه نفسه ، أما لو دهس

---

(١٤) تهران جورنال ـ عددا ٦ و ١٦ يونيو ١٩٦٣ .

(١٥) دروس فى الجهاد والرفض ص ٦٩ .



الخميني في طريقه إلى المنفى ، وقد وضع في سيارة الساواك التي حملته إلى المطار

طباخ أمريكي شاه إيران نفسه أو أي رجل من كبار الشخصيات ، فلا يمكن ملاحقته قضائيا . . لماذا هذا العار ؟؟ .

وقال أن هناك مؤامرة خطرة تحاك خلف الستار . وقد تواطأ المتآمرون على إسدال الحجب الكثيفة على تفاصيلها . ونصبوا لنا الشباك . . ماذا بقي من الشر لم يفعلوه بعد .

وسط انفعال الجماهير وصيحاتها المجلجلة بهتاف « الله أكبر » تعالى صوت الخميني وهو يستصرخ : يا رجال الإسلام أنقذوا إسلامكم . يا علماء النجف هبوا لكرامة دينكم . يا علماء قم إنهضوا فإن الإسلام في خطر . أيتها الشعوب الإسلامية ، يا زعماء ورؤساء المسلمين ، النجدة ، النجدة[١٦] .

(١٦) المصدر السابق ص ١٠٩ .

وفى ختام خطبته الملتهبة قال : إننا لا نعد هذا القانون الذى وافقوا عليه قانونا ، ولا نعد هذا المجلس مجلسا (يعنى البرلمان) . ولا تلك الحكومة حكومة ، لأنهم خانوا الوطن .

بعد أسبوع من إلقائه تلك الخطبة ، لم يكن أمام السلطة ، التى جربت معه الاعتقال ولم يرتدع ، سوى أن تقرر نفيه خارج إيران . وهذا ما حدث فى صبيحة يوم الرابع من نوفمبر ١٩٦٤ إذ حمل على أول طائرة متجهة إلى أنقرة فى تركيا .

صوت نشاز بين الفقهاء والسياسيين :

عندما أقلعت به الطائرة كان نجم الخمينى قد ذهب بعيدا فى العلو والصعود ، فضلا عن أنه بدا شديد التميز والتفرد عمن حوله . إذ كان ـ بحق ـ طائرا يغرد خارج سربه ، بل خارج كل الأسراب المحلقة فى السماء الإيرانية آنذاك .

كان الخمينى قد تبنى الدعوة إلى الثورة على الشاه ، وبات يصوب سهام نقده الصريح والجارح إلى رأس النظام مباشرة . فتجاوز بذلك كل الأطروحات المعروضة فى المسرح السياسى الإيرانى ـ تجاوز موقف الحوزة ، وكل التيارات السياسية القائمة ، اليسار قبل اليمين .

فى ذلك الوقت ـ عام ١٩٦٤ ـ لم تكن إيران قد شهدت معارضة للنظام بلغت هذا المدى فى الدعوة إلى التغيير . يستثنى من ذلك حسين فاطمى وزير خارجية مصدق الذى دعا إلى إقامة جمهورية فى إيران ، وأعدمه الشاه بعد عودته فى عام ١٩٥٣ . أما التنظيمات المسلحة التى عرفتها إيران داعية إلى الثورة على النظام والإطاحة به ، فقد برزت فى أواخر الستينيات (٦٩ ـ ١٩٧١) ، وأهمها : فدائيو خلق ـ ومجاهدو خلق ـ ومجموعة المجاهدين الماركسيين التى عرفت لاحقا باسم « بيكار »[١٧] .

القوتان السياسيتان الأكبر اللتان كان لهما وجود على المسرح السياسى (حركة تحرير إيران وحزب تودة) كانت كل منهما أضعف من أن تتحدى النظام

(١٧) برفند ابرهيميان ـ حركة حرب العصابات (١٩٧١ ـ ١٩٧٧) ـ بحث فى كتاب إيران ١٩٠٠ ـ ١٩٨٠ ـ ص ١٣٢ .

من جذوره . سواء بسبب الانشقاقات التى أصابت كلا منهما ، أو بسبب الضربات التى سددها نظام الشاه إليها ، أو بسبب المنطلقات السياسية لهما ، وإن انسحب ذلك بالدرجة الأولى على حركة تحرير إيران . فقد كانت حركة إصلاحية ليبرالية من البداية . أما حزب تودة ، فإن ارتباطه بالخط السوفيتى أدى إلى تغليبه توازنات لعبة المصالح السياسية على دوره المفترض كحزب طليعى ثورى ، مما كان سببا فى تشرذمه وإنفراطه ، وخروج دعاة الخط الثورى منه ، واحدا تلو الآخر[١٨] . (بينما كان عدد أحزاب اليسار ثلاثة فقط فى عام ٦٣ ، ٦٤ ، فإن فصائل اليسار الإيرانى وصل عددها بعد الثورة « عام ١٩٧٩ » إلى ٢٤ فصيلا) .

جبهة الفقهاء ، وكانت تصنف ، كقاعدة ، فى مربع الإصلاحيين . وقد ظلت هذه الصورة مستقرة طوال فترة مرجعية آية الله البروجردى ، منذ بداية الأربعينات ، وحتى بداية الستينيات ، ومنذ ذلك الحين وحتى قيام الثورة ، وبعدها ، فإن الموقف الأساسى للمراجع فى قم ظل ملتزما بحدود الإصلاح الدستورى ، الذى يمكن أن يعارض فى بعض الأمور ، لكنه يستبعد فكرة الثورة على النظام ، ناهيك عن تولى السلطة ومباشرة الحكم .

على رأس هذا المربع فى قم وقف آية الله كاظم شريعتمدارى ، ومعه آية الله كلبايكانى وآية الله مرعشى نجفى . هؤلاء كانوا من دعاة الإلتزام بالمبادىء التى طرحها دستور ١٩٠٦ ، الذى أيدته الأغلبية الساحقة من فقهاء الشيعة فى إيران والعراق . ونصت مادته الأولى على أن دين الدولة الرسمى هو الإسلام ، وأن الجعفرية (الشيعة الاثنى عشرية) هو مذهبها ، ومذهب رئيسها . كما نصت مادته الثانية على تشكيل مجموعة من الفقهاء ، ستة أشخاص ، لهم الحق فى مناقشة أى قانون ورده إذا كان مخالفا للشريعة الإسلامية .

كان الإلتزام بالمادة الثانية من الدستور ـ التى لم تنفذ ـ هو أقصى ما تطالب به المؤسسة الدينية . وقد أعلن ذلك صراحة آية الله شريعتمدارى فى بيان أصدره فى العام الأول للثورة .

---

(١٨) المصدر السابق ـ ص ١٣٧ ـ ١٥٠ .

لهذا السبب ، فقد كان صوت الخمينى نشازا فى المعزوفة السائدة ، بين السياسيين وبين الفقهاء فى آن واحد . وبين الباحثين فى تلك الفترة من يذهب إلى أن ذلك الموقف المتسم بالجرأة الزائدة من جانب الخمينى ، جعل الآخرين ـ كبار الفقهاء فى الواقع ـ يحرصون على أن يحتفظوا « بمسافة » بينهم وبينه ، حتى بدا معزولا عن أولئك « الآخرين » ، فى حوزة النجف[١٩] .

لقد كانوا حريصين على أن يبتعدوا عنه بمقدار حرصهم على الابتعاد عن المعترك السياسى .

مع ذلك ، فإن الإنصاف يقتضينا أن نقول : إن الخمينى ليس أول « طائر » من نوعه « غرد » بعيدا عن سربه ، وأن اقتضتنا الدقة أن نقرر بأنه أول طائر يذهب إلى ذلك المدى الذى بلغه ، من حيث أنه لم يكتف بالمعارضة فقط ، ولم يدع إلى الثورة فقط ، ولكنه فى نهاية المطاف ، أقام الدولة أيضا .

---

(١٩) AZAR TABARI: THE ROLE OF THE CLERGY IN IRAINIAN POLITICS
RELIGION AND POLITICS IN IRAN - P. 64.

الفصل الثالث

من التصالح إلى المواجهة

منذ « تشييع » إيران رسميا فى بداية القرن السادس عشر الميلادى ، قدر لها أن تصبح « مختبرا » تبلور فيه الفكر السياسى الشيعى ، بحيث انتقل من حيز الدعوة إلى صيغة المؤسسة الدينية ، أو المرجعية ، وأخيرا إلى مرحلة الدولة .

لقد ازدهر الفقه الشيعى وتبلور فى عصر البويهيين (القرن العاشر الميلادى) رغم أنهم كانوا من الشيعة الزيدية ، وليس الأثنى عشرية[1] . وكانت دولتهم قد امتدت إلى وسط إيران . وظل ازدهاره مستمرا أيضا فى عصر السلاجقة (القرنان الحادى والثانى عشر) . وكان تعاطفهم مع الشيعة الأثنى عشرية ظاهرا . وفى هذين العصرين كان فقهاء الشيعة على علاقة وثيقة بالسلطة ، حتى أن الخليفة الناصر (السلجوقى) - ١١٧٨ - ١٢٢٥ م - كان يعاونه عدد من الوزراء الشيعة ، كما أن الوزير الشيعى ابن العلقمى ، لعب دورا هاما فى العصر العباسى الثانى ، أبان عهد الخليفة المستعصم[2] .

ورغم الأهمية البالغة لتلك المرحلة ، التى أفرزت « أمهات » كتب الفقه الشيعى ، والتى تعد بحق مرحلة « التنظير » للمذهب ، بعد أن اجتاز مرحلة « التأسيس » على يد الإمام جعفر الصادق (٨٠-١٤٨ هـ) ، حتى ارتبط المذهب باسمه وصار يطلق عليه « الجعفرى » ، فضلا عن الأثنى عشرى . رغم هذا وذاك ، فإن بداية القرن السادس عشر ستظل نقطة تحول هامة فى تاريخ المذهب . ففى يوم مشهود من عام ١٥٠١ م حمل الشاه إسماعيل الصفوى سيف إمام الزمان ، وتوجه إلى المسجد الكبير بمدينة تبريز - أكبر مدن بلاد فارس آنذاك - وهناك أعلن خطيب الجمعة على المصلين قرار الملك بأن يصبح المذهب الشيعى

---

(١) هم اتباع الامام زيد بن على حفيد الامام الحسين ، وقد ولد فى الربع الأخير من القرن الهجرى الأول ، ورفض المضى على طريق شقيقه محمد الباقر الامام الخامس لدى الشيعة الأثنى عشرية ، فى مهادنة الأمويين ، فخرج على الخليفة هشام بن عبد الملك ، وأسس مذهبه القائم على « الخروج » والتصدى للحكام الظلمة .

(٢) SAID AMIR ARJOMAND – LEGITIMATE DOMINATION IN SHIITE IRAN – P. 68 - 69

الجعفرى هو المذهب الرسمى للمملكة وأن تضاف إلى الأذان على الفور عبارة « أشهد أن عليا ولى الله »(٣) .

كانت أغلبية سكان البلاد من السنة . وكذلك كان العلماء بطبيعة الحال ، فمن تلك المناطق خرج الإمام أبو حنيفة ، والبخارى صاحب الصحيح وأكبر محدثى السنة وسيبويه إمام النحويين ، والجوهرى صاحب كتاب الصحاح فى اللغة ، وأبو عبيدة وواصل بن عطاء من أشهر المتكلمين ، والفيروز أبادى صاحب القاموس المحيط فى اللغة ، والزمخشرى أقدم المفسرين . . وغيرهم ، وغيرهم . . وكلهم كانوا من أعلام أهل السنة(٤) . بل أن ياقوت الحموى صاحب « معجم البلدان » ذكر عن مدينة أصفهان ، قلعة الشيعة ومركزها فى العصر الصفوى أنها كانت مسرحا دائما للصراع بين الشافعية والحنفية من أهل السنة(٥) .

وإزاء ذلك ، فقد كان طبيعيا أن يواجه الوضع الجديد بمشكلة ندرة المصادر التى تعرف بالمذهب الشيعى . إذ يذكر أنه لم يكن يوجد فى تبريز كلها من كتب الشيعة سوى نسخة واحدة من كتاب « قواعد الإسلام » للفقيه الشيعى ابن مطهر الحلى (توفى سنة ١٣٢٥ م - ٧٢٧ هـ) . ولهذا السبب فقد أضطر الملك إلى استقدام دعاة من فقهاء الشيعة العرب للتبشير بالمذهب .

وهكذا شاءت الأقدار أن يتخذ قرار تشييع إيران ، ملك من قبيلة تركمانية ، وأن يعم قراره « بلاد فارس » بأسرها ، وأن يقوم بالتنفيذ ويتحمل عبء المسئولية عرب ، قدِّر عددهم بحوالى ١٢٠ داعية ، من جبل عامل (فى لبنان) ، والكرك (الأردن) والقطيف (الجزيرة العربية) ، والبحرين(٦) .

منذ ذلك الحين ، وحتى قامت الثورة ، كانت قد تتابعت على إيران العصر

---

(٣) SAID AMIR ARJOMAND – THE SHADOW OF GOD AND THE HIDDEN IMAM P. 109 .

(٤) آية الله مطهرى - الاسلام وإيران - ترجمة محمد هادى اليوسفى - من اصدارات منظمة الاعلام الاسلامى بطهران - حـ ١ ص ١١١

(٥) ياقوت الحموى - معجم البلدان - حـ ٤ ص ٣٥٦ .

(٦) LEGITIMATE DOMINATION IN THE SHIITE IRAN P. 89

الحديث ثلاثة عهود : الصفويون (١٥٠١ - ١٧٢٢ م) ثم القاجار (١٧٩٥ - ١٩٢٥ م) ثم أسرة بهلوى (١٩٢٥ - ١٩٧٨ م) .

أول مواجهة بين الفقهاء والسلطان

اتسم العصر الصفوى بالاستبداد والقهر والتعصب ، الذى عانى منه أهل السنة والمتصوفة ، فضلا عن أن الصفويين لم يترددوا فى أن يلعبوا دور أداة قوى الاستعمار العالمى آنذاك ، التى استغلتهم فى ضرب الدولة العثمانية وإنهاكها ، خاصة وأن قيام الدولة الصفوية توافق تاريخيا مع مرحلة التوسع العثمانى فى أوروبا ، بقيادة السلطان سليم الأول(٧) .

كان العصر الصفوى فى حقيقته إمتدادا لعصور الإنحطاط فى التاريخ الإسلامى . ولذا فإن من بين مفكرى الشيعة الكبار من يتبرأ من كل ممارساته ، ويميز بين التشيع الصفوى ، والتشيع العلوى . ومن أبرز هؤلاء الدكتور على شريعتى الذى ينسب أكثر البدع التى أدخلت على المذهب الشيعى إلى تلك المرحلة ، كما أنه يصف التشيع الصفوى بأنه « تشيع متغرب »(٨) .

فى تلك المرحلة الصفوية ، كانت العلاقة قوية بين فقهاء الشيعة والسلطة ، حيث قامت - كقاعدة - على الولاء والطاعة . ولذلك ما يبرره ، فقد كان أولئك الفقهاء مستجلبين من الخارج بواسطة السلطة ، وكان الملك هو الذى يعين المسئول عن النشاط الدينى ، وكان يطلق عليه لقب « صدر الممالك » ، وكانت الصدر وظيفة معروفة فى البلاط العثمانى المجاور . والأهم من هذا وذاك أن السلطة كانت صاحبة الفضل فى فرض المذهب بالمملكة التى توحدت حديثا ، وهو ما كان موضع إمتنان الفقهاء بطبيعة الحال .

---

(٧) NIKKI KEDDIE – ROOTS OF REVOLUTION – AN INTERPRETIVE HISTORY OF MODERN IRAN – P. 12 .

(٨) كرس د. على شريعتى كتابه الضخم « معرفة الاسلام » - أو إسلام شناسى بالفارسية لتحليل أحداث التاريخ الاسلامى وتطور الفكر الشيعى - أنظر كتاب فاضل رسول « هكذا تكلم على شريعتى » (دار الكلمة ببيروت) ص ٥٠٥ وما بعدها .

مع ذلك ، فإن المصادر التاريخية تذكر واقعة تصادم واحدة فى تلك الفترة وتصفها بأنها « أول مواجهة بين الفقهاء والسلطان فى التاريخ الشيعى الحديث » و « أول اختبار لقوة التشيع السياسى » . حدث ذلك فى عصر الشاه عباس (العظيم) - ١٥٨٧ - ١٦٢٩ م ، عندما اصطدم به أحد الفقهاء - الملا أحمد أردبيلى - فى مناسبة ما ، فذكره بأن قوته وعرشه لا يقومان على حق إلهى ، ولا على كفاءة من جانب ملوك أسرته ، ولكنها تستند إلى نيابة عن الإمام الغائب . وإذا أخل بشروط الثقة المطلوب توافرها فيمن يباشر تلك النيابة ، فللعلماء حق تنحيته عن منصبه(٩) .

تعد تلك الواقعة أحد مؤشرات تنامى دور فقهاء الشيعة ، الذى ظل فى إطار الإشراف والتوجيه ، فى حين أنها تعكس ضمنيا الإقرار بشرعية السلطة ، من حيث كونها نيابة عن الإمام الغائب .

ويعد الملا أردبيلى ، فى حقيقة الأمر ، أحد واضعى دعائم المؤسسة الدينية الشيعية المستقلة عن الدولة ذات النفوذ الواسع بين الأتباع . ففى شرحه للقرآن الذى أسماه « زبدة البيان » دعا صراحة إلى ضرورة تقليد العامة للمجتهدين(١٠) وهو ما اعترض عليه عدد آخر من الفقهاء الكبار فى مقدمتهم الشيخ الكلينى صاحب الكافى والشيخ المفيد ، ولكن وجهة نظر أردبيلى هى التى سادت فيما بعد ، ولعبت دورا بالغ الأهمية فى تكريس دور الفقهاء وبناء تلك المؤسسة المستقلة .

بعد ذلك ، فى منتصف القرن السابع عشر ، كانت المرجعية أو القيادة الدينية قد تبلورت واستقرت فى « أصفهان » وظهر عدد من الفقهاء الكبار الذين تبنوا الدعوة إلى ضرورة ممارسة دور أكبر فى توجيه المجتمع . ليس فقط فى النواحى العقيدية والثقافية ، ولكن فى النواحى السياسية أيضا . وكان فى مقدمة هؤلاء الملا محمد باقر المجلسى صاحب « بحار الأنوار » الذى يعد من أمهات كتب الشيعة(١١) .

(٩) . HAMID ALGAR – THE ROOTS OF THE ISLAMIC REVOLUTION P. 15

(١٠) THE SHADOW OF GOD P. B9

(١١) THE ROOTS OF THE ISLAMIC REVOLUTION P. 16

وفى بدايات القرن الثامن عشر ، كان الحكم الصفوى قد ضعف وتضعضع ، بعدما تزايد الصراع على السلطة ، حتى بلغ عدد المتنافسين على الملك ١٣ فردا من الأسرة الصفوية ، مما كان طبيعيا معه أن يزداد دور المؤسسة الدينية الوليدة ويشتد عودها . وهكذا ، فإنه عندما سقطت الدولة الصفوية أمام هجوم الأفغان فى عام ١٧٢٢ ، كان دور الفقهاء قد اختلف إلى حد كبير ، فبينما كان الفقهاء هم يد السلطان وأعوانه ، فى البداية ، إذا بالستار يسدل على العصر الصفوى ، وللفقهاء سلطان مستقل يتطلع إلى بسط نفوذه على الدولة بأسرها .

ميلاد المؤسسة الدينية

بعد سقوط الصفويين ، عاشت إيران أكثر من نصف قرن فى ظل الفوضى والحروب المحلية ، حتى استولى القاجار على السلطة فى عام ١٧٩٥ ، وبدأوا عهدا جديدا شهد ميلاد الدور السياسى الفعال للمؤسسة الدينية .

ورث القاجار جميع مساوىء الدولة الصفوية ، التبعية للغرب والاستبداد الداخلى ، والتعصب المذهبى ، ومواصلة المعارك مع الدول الإسلامية الأخرى . وفى عهدهم زاد التدخل الاستعمارى ، وخسرت إيران المزيد من أراضيها وثرواتها الوطنية . حيث باع الملوك القاجاريون مصالح البلاد لقاء أثمان بخسة ، يواصلون بها حياة البلاط المتفسخة[١٢] .

وكان طبيعيا أن يبدأ العهد بعلاقات عادية بين الفقهاء والسلطة ، ذهبت إلى حد محاولة القاجار استخدام المؤسسة الدينية غطاء لملكهم ولتبرير استبدادهم . ولكن استمرار ذلك الوضع كان متعذرا ، أمام تزايد استبداد السلطة ، وإيغال القوى الاستعمارية فى نهب إيران ، ومع تبلور الوعى الشعبى المناهض للنفوذ الأجنبى .

وحدثت مواجهة صريحة بين السلطة والفقهاء فى عشرينيات القرن التاسع

---

(١٢) هكذا تكلم على شريعتى ص ١٥

عشر . عندما احتل الروس المقاطعات الشمالية من إيران واستسلم القاجاريون لشروط روسيا القيصرية . ولم يتصدوا للاحتلال الأجنبى . فتحرك الفقهاء بقيادة السيد محمد المجاهد ، ونظموا فى سنة ١٨٢٦ حركة لمقاومة الاحتلال الروسى . وبينما أعلنوا الجهاد ، فإنهم اتهموا الشاه فتح على بالتخاذل والاستسلام . وهددوا بتنحيته عن العرش إذا لم يعلن الحرب على روسيا .

حاول الروس إقناع الفقهاء بوقف المعارك ، لكنهم فشلوا . فأرسلوا وفدا إلى الشاه فتح على الذى اضطر للاستجابة لرأى الفقهاء ـ بعد تهديدهم إياه ـ فخاض الحرب مع أمرائه . وعندئذ كان رد الشاه على المندوب الروسى هو : إننى أعلم أن مصلحة الدولة فى السلم ، وفى مصالحتكم ، لكن مصلحتنا الوطنية تضطرنا لتأييد رجال الدين والمقاومة التى نظموها .

انتزع الملك مبادرة المقاومة من أيدى الفقهاء . ولكن إيران هزِمَت أمام الروس ، واضطرت إلى توقيع معاهدة « تركما نشاى » ـ سنة ١٨٢٨ ـ التى كرست الاحتلال الروسى لخمس مقاطعات إيرانية ، هى التى تسمى اليوم بالجمهوريات الآسيوية فى الاتحاد السوفيتى .

بعد ذلك قاد الفقهاء مرة أخرى انتفاضة شعبية ضد الأجانب . فبعد أن أعطت تلك المعاهدة حقوق الحصانة للرعايا الروس . وبعدما ازداد النفوذ الروسى فى البلاد ، وأصبحت السفارة الروسية « دولة داخل الدولة » مضى الفقهاء يعبئون المشاعر الوطنية ضد ذلك الوضع . وقد حدث أن اعتدى بعض الروس على عدة فتيات مسلمات فى عام ١٨٢٩ ، فانعقد أثر ذلك اجتماع كبير للفقهاء وجهوا فيه إنذاراً إلى الشاه كى يوقف الروس عند حدهم . وعندما لم تجد محاولاتهم نفعا قادوا الجماهير إلى السفارة الروسية لإحتلالها . وأدىَ ذلك إلى قتل السفير و ٣٧ من أعضاء السفارة ، مما دفع البلاط الملكى وبعض الفقهاء الذين ارتبطوا به إلى شن حملة على أولئك الفقهاء الذين قادوا الهجوم على السفارة . واتهموهم بأنهم ورّطوا البلاد فى حرب خاسرة وألقوا عليهم تبعة هزيمة عام ١٨٢٨ م[١٣] .

فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ترسخت تبعية إيران وإزدادت حدة

(١٣) المصدر السابق ص١٥ ، ١٦

التنافس الاستعمارى على نهبها . وكان ناصر الدين شاه القاجارى (١٨٤٨ - ١٨٩٦ م) يواصل إعطاء الامتيازات للشركات الأجنبية دون حدود ، حتى سمى عهده « عهد الامتيازات » .

وقد حدث فى عام ١٨٧٩ ، أن منح البارون « جوليوس دى رويتر » - مؤسس وكالة الأنباء البريطانية المعروفة - حق احتكار لمدة ٥٠ عاما ، لكافة مصادر التعدين والاتصالات بإيران . فقاد الفقهاء حملة واسعة للاحتجاج على تلك الاتفاقية والدعوة إلى إلغائها . وإزاء الضغط الشعبى الكبير ، تراجع الشاه وألغى الامتياز .

فتوى تحريم التبغ

لكن عصر الشاه ناصر الدين شهد مواجهة أكثر خطورة وأهمية بينه وبين المؤسسة الدينية ، ممثلة فى مرجع الشيعة الكبير . الميرزا محمد حسن الشيرازى .

فقد كانت حياة الشاه الباذخة تكلفه الكثير ، وفى ثالث سفرة له إلى بريطانيا عام ١٨٩٠ ، وقع مع أحد البريطانيين « الميجور تالبوت » امتيازا أعطى بموجبه حق استثمار التبغ لمدة ٥٠ عاما ، مقابل ١٥ ألف جنيه استرلينى للحكومة الايرانية ، وربع أرباح الشركة سنويا .

وما أن بدأت الشركة تشترى محصول التبغ بأسعار بخسة ، وتبيع تبغها المصنع بأسعار عالية ، حتى سرت النقمة بين الفلاحين ، وانفجر غضب الجماهير الذين لم يكن خافيا عليهم تزايد سلطان الشركات الأجنبية فى ايران . فثار أهالى تبريز ، وقاموا بتمزيق إعلانات الشركة ، ومنعوا الأجانب من دخول المدينة .

وفى شيراز - منطقة التبغ الرئيسية - دعا الفقهاء إلى مقاومة امتياز التبغ مقاومة مسلحة ، مما أدى إلى إبعاد أحد فقهاء المدينة من رفاق السيد جمال الدين الأفغانى (الأسد آبادى) ، هو « فال اسيرى » . وفى أصفهان طالب الفقيه « النجفى » باعلان العصيان المدنى - وأمر بتقسيم واردات التبوغ على فقراء المدينة ، كما قام أحد التجار باحراق ١٢ ألف كيس من التبغ بعد القاء النفط

عليها . وفى طهران ، قاد العلماء الانتفاضة ، وفى مقدمتهم الميرزا حسين الاشتيانى . وكتب علماء المدينة رسالة مفصّلة إلى الميرزا الشيرازى ، مرجع الشيعة آنذاك الذى كان مقيما فى سامراء بالعراق ، وفى الرسالة شرحوا الموقف فى ايران ، واستفتوه فيما يمكن عمله ، كما اقترحوا عليه تحريم التبغ(١٤) .

فى الوقت ذاته ، حمل « فال أسيرى » رسالة مماثلة من جمال الدين الأفغانى الذى كان مقيما بالبصرة فى ذلك الحين ، إلى الميرزا الشيرازى فى مقره بسامراء .

استغرق الأمر سنة وخمسة أشهر ، بعد توقيع اتفاق التبغ ، حتى تكشفت طبيعة الاتفاقية ، وتبلور الموقف الشعبى وتحرك الفقهاء إلى أن نقلت الصورة إلى الميرزا الشيرازى فى أعقاب تلك المدة ـ تحديدا فى ١٩ ذى الحجة سنة ١٣٠٨ هـ ـ أرسل الميرزا الشيرازى برقية إلى الشاه ناصر الدين يحذره من الاستمرار فى العمل بالاتفاقية المجحفة بحقوق المسلمين . ولكن أمر البرقية ظل سرا ، وتوجه السفير الايرانى فى بغداد إلى الميرزا الشيرازى ليشرح له الموقف . ولكنه ظل على رأيه فى ضرورة وقف العمل بالاتفاقية ، وكرر تحذيره من استمرارها(١٥) .

وازاء استمرار موقف الشاه على ما كان عليه ، فان الميرزا الشيرازى أصدر فى عام ١٨٩١ فتواه التاريخية التى قال فيها : التدخين الآن حرام وبمثابة محاربة لإمام الزمان (الإمام الغائب) .

سرى نبأ التحريم بسرعة فى إيران ، ووزعت نسخ خطية من الفتوى فى أنحاء البلاد . فأخذت النسوة يحطمن غلايينهن ، ويتلفن ما فى بيوتهن من تبغ ، وأقبل الرجال على التسابق فى جمع ما لديهم من غلايين وتبغ واحراقها فى الميادين العامة ، وأغلقت محلات بيع الدخان أبوابها . وفى قصر الشاه ناصر الدين نفسه قام الخدم باتلاف التبغ ، وتحطيم مجموع الغلايين الثمينة التى

---

(١٤) عباس على عميد زنجانى ـ الثورة الاسلامية فى إيران ـ فى مطبوعات وزارة الارشاد الاسلامى بطهران ص ٣١

(١٥) المصدر السابق ص ٣٢

يملكها . ولما طلب الشاه إحضار غليونه ذات صباح ليدخن ـ كعادته ـ أجابه الخادم : لقد حطمنا الغلايين واتلفنا التبغ يا سيدى . عندئذ دهش الشاه وتساءل كيف يحدث ذلك ولماذا لم يستشيروه ؟ فاجاب الخدم : أن ما أفتت به الشريعة ، لا ضرورة لسؤال السلطان فيه ![16] .

فشلت مساعى البلاط للحيلولة دون انتشار حكم التحريم وتثبيته . ولم يجد شيئا قرار الشاه بابعاد الميرزا حسين الاشتيانى ، أبرز علماء طهران ، بل زاد ذلك من نقمة الشعب ، الذى كان قد توقف تماما عن تعاطى الدخان طوال ٥٥ يوما ، التزاما بفتوى التحريم .

لم يجد الشاه مفرا من إلغاء الاتفاق وسحب كل امتيازات شركة « تالبوت » وابلاغ رئيسها بذلك فى عام ١٨٩٢ ، على لسان نائب الملك .

وقد ظلت هذه الواقعة بمثابة نقطة سوداء فى سجل الشاه ناصر الدين ، الذى دفع حياته فى نهاية الأمر ثمنا لسياسة الاستسلام للنفوذ الغربى . وكانت نهايته فى عام ١٨٩٦ ، عندما قتله أحد تلاميذ الأفغانى بعدة رصاصات أطلقها عليه[17] .

وسجلت فتوى التبغ فى تاريخ إيران ، باعتبارها تتويجا لدور المرجعية الشيعية ، وإعلانا لا تنقصه البلاغة عن ثباتها وقوة نفوذها . وهو النفوذ الذى مكن فقيها تابعا فى سامراء بالعراق ، من أن يشل حركة الشاه فى إيران ويرغمه على التراجع علنا ، بفتوى صغيرة من سبع كلمات !

تنبيه الأمة وتنزيه الملّة

بعد مقتل ناصر الدين شاه ، تولى الملك مظفر الدين ، أو الشاه مظفر الدين ، الذى حاول أن يستفيد من تجربة سلفه المرة ، فدعا إلى تبنى سياسة ليبرالية جديدة . فى ذلك الوقت ـ آخر القرن التاسع عشر ـ كانت الأقطار الغربية

---

(١٦) طلال مجذوب ـ العرش للملوك والسلطة للأئمة ـ ملف النهار العربى والدولى عدد ١٩ ـ ٢ ـ ١٩٧٩ .

(١٧) يرفند ابرهميان ـ خلفيات وعوامل الثورة الدستورية ـ (بحث فى كتاب إيران ١٩٠٠ ـ ١٩٨٠) ص ٤٤

تزحف على أرجاء العالم الاسلامى ، الذى كان فى منتهى تدهوره وضعفه ، بينما كان الغرب فى ذروة قوته . وكما مرت تركيا بتجربة « التنظيمات » فان قضية الدستور ، أو « المشروطية » كانت أبرز ما طرح فى الساحة الايرانية ، مع تلك النسائم الليبرالية التى هبت فى بداية حكم مظفر الدين شاه .

ولأن القاجار كان لهم موقفهم المتحفظ من الفقهاء والمؤسسة الدينية ، ربما شعورا منهم بأن الفقهاء ينازعونهم السلطان فى البلاد ، فان الوزير المسئول عن الاصلاحات التى سعى اليها مظفر الدين شاه أعلن بصورة حاسمة معارضته « تدخل الفقهاء فى شئون الدولة »[١٨] ، وكانت تلك إشارة لاتجاه السلطة إلى إبعاد الفقهاء عن موقفهم المتقدم الذى اكتسبوه فى الخريطة السياسية للبلاد ، بالإضافة إلى أن كلامه كان محملا برياح أخرى « علمانية » من الطراز الذى هب فى تركيا على يد كمال أتاتورك وتياره .

فى تلك الظروف طرحت القضية الدستورية . وجاءت المبادرة الأولى من « المجلس العام للأحرار » الذى تكون فى عام ١٩٠٢ من بعض الدعاة الإسلاميين (جمال الدين الواعظ ، وميرزا نصر الله -ملك المتكلمين) ، مع بعض الشخصيات الوطنية والليبرالية الأخرى[١٩] . وما لبثت الدعوة أن لقيت تأييد قطاعات عديدة من المثقفين ، لكنها اكتسبت ثقلا خاصا بعدما وقف إلى جانبها الفقهاء والتجار بوجه أخص ، وهما أقوى مؤسستين فاعلتين تتمتعان بالاستقلال عن السلطة .

بحكم موقعهم بين الجماهير وبحكم موقفهم المعارض للسلطة ، تصدر الفقهاء الدعوة الدستورية ، وكان من مقدمة هؤلاء ثلاثة من علماء النجف هم : الملا محمد كاظم خراسانى ، والملا عبد الله مازاندارانى والحاج ميرزا حسين خليلى طهرانى . وبينما وقف أحد كبار الفقهاء فى إيران ، الشيخ فضل الله نورى ، إلى جانب القضية الدستورية فى البداية ، إلا أنه انتقل إلى معارضتها ،

---

(١٨) حامد الغار- دور العلماء المعارض فى السياسة الايرانية المعاصرة (إيران ١٩٠٠ - ١٩٨٠) ص ١٨٠

(١٩) فاضل رسول - هكذا تكلم على شريعتى ص ١٧

تخوفا من تكرار تجربة كمال أتاتورك فى إيران ، وتوجسا من إتجاهات الليبراليين الايرانيين الذين دعوا إلى اقتباس الدساتير الغربية . ومما قاله فى هذا الصدد : إن هذا الدين (الاسلام) معروف بالعدل والشورى . . لماذا (إذن) نقلد الدستور الأجنبى ونجلب نسخا جاهزة من الدستور من باريس وانجلترا ؟ . . وقوله : « إن هؤلاء باستخدامهم كلمات مغرية مثل العدالة والشورى والحرية ، يريدون خداع المسلمين وجذبهم إلى الالحاد . وتحت شعار الحرية المزعومة يريدون الترويج للفساد وإباحة المنكرات وشرب الخمر ، وغيرها من الأعمال المنافية للاسلام ، حتى يترك الناس الشريعة والقرآن »[٢٠] .

كان الشيخ فضل الله نورى من دعاة هيمنة الشريعة الاسلامية وجعلها قانونا للدولة لا لبس فيه . بينما كان الرأى السائد فى حوزة النجف ـ معقل الفكر الشيعى آنذاك ـ أن التطبيق السليم للشريعة مستحيل خلال اختفاء الامام عن الانظار . لكن رأيا ثالثا ظهر فى الساحة يدعو إلى العمل على الحد من الأعمال القمعية التى تقوم بها السلطة ، إلى أن يعود الامام الغائب إلى الظهور للعيان .

كان علماء النجف الثلاثة : خراسانى ومازاندارانى وطهرانى ، فى مقدمة أصحاب ذلك الرأى الثالث . وشكلت فتاواهم المؤيدة للدستور دفعة قوية للحركة . ولكن أهم تنظير لهذا الموقف صدر عن الشيخ محمد حسين نائينى (١٨٦٠ ـ ١٩٣٦) الذى أصدر فى تلك الظروف كتابه الشهير « تنبيه الأمة وتنزيه الملة » وهو الكتاب الذى يعد وثيقة نادرة تعبر عن النظرية السياسية الشيعية . فضلا عن أنه يعد منذ صدوره فى أوائل القرن الحالى ، وإلى الآن ، المنطلق الأساسى لموقف الأغلبية الساحقة من فقهاء الشيعة .

فى كتابه ذاك ، طرح الشيخ نائينى تصوره على النحو التالى : فى غيبة الامام المعصوم ، فان أفضل وسيلة لتجنب انحراف السلطة هى إلزام الحاكم بدستور يحدد حقوق وواجبات الدولة ، ثم انشاء مجلس يضم « الاذكياء والحكماء فى البلاد الذين يضمرون الخير للشعب » ، من أجل الاشراف على تطبيق الدستور ومراقبة أعمال الدولة . ويجب ألا يتضمن الدستور أية مواد تتعارض والاسلام .

(٢٠) عباس زنجانى ـ الثورة الاسلامية فى ايران ص ٣٥

كما يجب أن يضم المجلس من بين أعضائه « عددا من المجتهدين » الذين يراقبون التزام قوانينه بالاسلام .

وقال الشيخ نائينى وهو يعزز موقفه ، إن منع الحكم المطلق من خلال وضع دستور وانشاء مجلس شعبى ، هو فريضة دينية ، على الرغم من اختفاء الامام عن الانظار ومن انسحاب الشرعية فى الوقت ذاته من المستوى الدنيوى .

ورغم أن الفقه الشيعى يعتبر أن أى حكم فى غيبة الامام هو بمثابة اغتصاب لسلطانه مما يجرح شرعيته ، إلا أن الشيخ نائينى عالج هذه النقطة بذكاء بالغ لصالح الحكم الدستورى . فقال أن الحاكم الظالم الذى لا يقيد بدستور أو مجلس شعبى (برلمان) يغتصب أمرين فى آن واحد . حق الامام الغائب ، وحرية الناس . أما الحاكم الذى يقيد بالدستور والمجلس الشعبى فهو يغتصب حق الامام وحده ، بينما يؤمن حريات الناس . ولذا فيجبُ أن يظل حكمه هو المفضل ، طالما أن غيبة الامام مستمرة[٢١] .

تراكمات السخط الشعبى

بينما كانت القضية الدستورية تتفاعل على المستويين الفقهى والشعبى ، تلاحقت أحداث داخلية زادت من سخط الجماهير ازاء النفوذ الأجنبى فى البلاد . من ذلك أن الروس حصلوا فى عام ١٩٠٥ على امتياز بنك الاقراض الروسى . وشرعوا فى إنشاء البنك على أرض كانت تحتوى على خرائب مدرسة دينية ومقبرة اسلامية مهجورة . ولكن خطيبا لأحد المساجد هاجم المشروع . وظل يحدث الناس عن نعال الروس التى ستطأ رفات الموتى المسلمين ، وكيف ستقوم مؤسسة تتعامل بالربا مكان خرائب المدرسة الدينية ، فما كان من الجماهير إلا أن اندفعت نحو البناء ، وخلال ساعتين كان قد تم هدم كل ما بنى منه واضطرت الحكومة إلى دفع ٢٠ ألفا من التومانات تعويضا للروس .

فى العام ذاته وقعت فى أيدى الفقهاء صورة لأحد الأجانب ، المسيو « ناوس » البلجيكى الذى كان مديرا لجمارك إيران ، وهو يرتدى ثياب فقيه فى

---

(٢١) حامد الغار - دور العلماء المعارض ص ١٨٤

حفلة تنكرية اقامتها احدى الجاليات الأجنبية بطهران . فاحتجوا على هذا العمل الذى اعتبروه سخرية منهم . واعتصموا فى ساحة العاصمة . وانضم إليهم ألوف المواطنين ، مما اضطر الحكومة إلى الاستجابة لمطلبهم وطرد المدير البلجيكى من خدمتها .

وازاء تزايد النقمة على السلطة وعلى الأجانب ، أعلن الفقهاء فى الشهر الأخير من عام ١٩٠٥ اعتصامهم فى ضريح الشاه عبد العظيم ـ ببلدة الرى قرب طهران ـ حتى يتحقق مطلبهم بطرد الأجانب وتحقيق العدالة بالبلاد (كان هذا هو التعبير المبدئى عن الدستور) وإنضم إليهم المواطنون الذين قدر عددهم بعشرة آلاف . وتوقفت المعاملات فى غيابهم وأضرب التجار تضامنا معهم . مما أضطر الشاه إلى إصدار مرسوم ملكى (دستخط) بإنشاء مجلس مشورة ومحاكم عدلية . فعاد العلماء إلى طهران ، وسط استقبال حافل من جانب الجماهير .

ولما مضت عدة أشهر دون أن ينفذ شىء من قرار الشاه خرجت مظاهرات الاحتجاج فى طهران يوم ١١ يوليو ١٩٠٦ ، واصطدم المتظاهرون بالشرطة ، فسقط فى المعارك ٦٥ قتيلا ، وعمد العلماء إلى التجمع فى مسجد شاه بطهران ، وحاصرتهم الشرطة وقطعت عنهم الماء والغذاء . وبعد أربعة أيام سمحت لهم بالهجرة . فغادروا طهران إلى قم يوم ١٦ يوليو واعتصموا فى مسجدها وسميت تلك الرحلة « بالهجرة الكبرى »[٢٢] .

فى تلك الفترة ، سرت شائعات بأن القاجار كانوا منخرطين فى الجيش الأموى بكربلاء (الذى حاصر الامام الحسين ثم أجهز عليه) . وقيل أن الخنجر الذى استخدم لقطع رأس الامام الحسين موجود فى حوزة حاكم طهران ، علاءالدولة[٢٣] . وشهدت عملية الحصار وقطع المياه عن المعتصمين بمسجد شاه ، بأنها تكرار لما فعله الأمويون بالحسين . واستخدمت قرينة على انتماء القاجار إلى سلالة الأمويين ، مما ضاعف من غضبة الجماهير وعمق من سخطها ورفضها للسلطة القاجارية .

---

(٢٢) طلال مجذوب ـ ملف العرش للملوك والسلطة للأئمة .

(٢٣) حامد الغار ـ ص ١٧٧

استخدم الفقهاء كل أسلحة الضغط المادية والمعنوية ، مما أرغم الشاه مظفر الدين ، أخيرا ، على اصدار القرار الذى طال انتظاره . وهو « فرمان مشروطيت » الذى أذيع فى ١٥ أغسطس عام ١٩٠٦ وبصدوره أصبحت إيران لأول مرة فى تاريخها المعاصر ، دولة ذات حكم دستورى . فتشكلت لجنة من العلماء وبعض الشخصيات الوطنية والليبرالية ، وبعض أعضاء الحكومة ، وقامت بصياغة قانون الانتخابات ، وتشكل البرلمان ، وصدر الدستور الذى نص على أن يكون مذهب الشيعة الإمامية هو المذهب الرسمى للدولة ، وكانت الدولة العثمانية ـ الخصم السنى ـ تلتزم بالمذهب الحنفى . كما نص على تشكيل لجنة العلماء الذين يتولون مراقبة التزام القوانين بالشريعة الاسلامية .

وكانت تلك الخطى فى مجموعها بمثابة انجازات وانتصارات أحرزها الفقهاء مما عزز رصيدهم الشعبى وعمق من دورهم على المسرح السياسى الايرانى .

لمع اسم السيد حسن المدرس فى التجربة البرلمانية ، حيث انتخب لمجلس الفقهاء الخمسى ، الذين أناط بهم الدستور مهمة مراقبة التزام القوانين بالشريعة الاسلامية وحين التحق بالبرلمان فى دورته الثانية ، كان قد مضى حوالى ١٧ شهرا على حصار البرلمان وضربه بالمدفعية من قبل جنود الشاه محمد على ، الذى خلف أباه مظفر شاه ، وأراد أن يهدم كل ما بنى على صعيد الحياة الدستورية . ولكن ثورة الجماهير اضطرت الشاه إلى الهرب إلى روسيا القيصرية فى عام ١٩٠٩ . فقرر الثوار خلعه وتولية ابنه الصغير أحمد على العرش ، واعيدت الحياة النيابية مرة ثانية . وعندما بلغ الصبى سن الرشد ، وتولى الحكم فى عام ١٩٢١ ، قام قائد حامية طهران على رضا خان بانقلاب استولى فيه على السلطة ، إلى أن خلع الملك الشاه من العرش سنة ١٩٢٥ ، وأصبح رضا خان هو الملك الرسمى الذى أسس حكم أسرة بهلوى فيما بعد .

كان السيد حسن المدرس هو صاحب المقولة التى اشتهرت عنه : ديننا عين سياستنا ، وسياستنا عين ديننا . والهدف من سياستنا هو ديننا .

وكان يتزعم المعارضة بالمجلس ، حيث برز معه فى العشرينيات الدكتور

محمد مصدق ، الذى قدر له أن يلعب دورا هاما فى الحياة السياسية الايرانية مع بداية الخمسينيات .

قدم السيد المدرس نفسه فى المجلس باعتباره معارضا للسلطة ، وعدوا صلبا للهيمنة الأجنبية على إيران ، ولسياسات انجلترا بوجه خاص ، التى تزايد تدخلها فى الشئون الداخلية للبلاد . وكان العلامة المدرس قد أدرك فى وقت مبكر أن بريطانيا تريد أن تخلق بطلا قوميا مزيفا فى إيران ، لتنصبه على العرش . وكان هذا « البطل » الذى حاول الانجليز صنعه هو رضا خان . فتصدى الرجل لهذه المحاولة بكل ما امتلك من قوة وتأثير ووجه النقد أكثر من مرة إلى حكومته التى مهدت لاستيلائه على العرش . وفى الدورة الرابعة للبرلمان كان قد تم عزل أحمد شاه ، وانتصرت سياسة انجلترا فى تنصيب رضا خان مكانه ، فظل السيد المدرس على موقفه من رفضه لديكتاتوريته وتحديه لسلطانه . وبسبب ذلك تعرض للاغتيال أكثر من مرة . ولم يسترح رضا خان إلا بعد أن أرسل اليه بعض رجاله فى بلدته « كاشمر » حيث كان يقيم ، فقاموا بخنقه وهو فى السبعين من عمره ، بينما كان صائما(٢٤) .

فى مرحلة ما بعد الثورة الدستورية أيضا برزت أسماء رجال مثل ميرزا كوجك خان ، الذى كان أحد طلاب العلوم الدينية ، ثم صار أحد كبار الزعماء الوطنيين فى إيران . وهو أول من شكل حزبا اسلاميا ، باسم « إتحاد إسلام » إذ كان متأثرا بدعوة جمال الدين الأفغانى إلى الجامعة الاسلامية ، وكانت له علاقة ببعض تلاميذ الأفغانى فى تركيا .

ضم الحزب خليطا من الفقهاء والتجار ، وكان مركزه فى شمال إيران . حيث نظم منذ سنة ١٩١٦ حركة مسلحة فى الغابات ضد الحكومة ، التى أثارت ممارساتها السخط فى أنحاء البلاد(٢٥) .

بعد ذلك شهدت مناطق أذربيجان حركة وطنية مسلحة ، قادها الشيخ محمد الخيابانى ، الذى كان من رجال الحركة الدستورية ، حيث نظم الفقهاء فى

---

(٢٤) الثورة الاسلامية فى إيران ص٣٨

(٢٥) هكذا تكلم على شريعتى ص١٨

منطقته . وارتكز على المساجد فى بث دعوته إلى ضرورة العودة للاسلام الأصيل . وكان فى ذلك معارضا شجاعا وقويا لكل من الاستبداد والفساد السياسى ثم للنفوذ الأجنبى المستشرى فى البلاد ، الذى كانت اتفاقية ١٩١٩ الايرانية البريطانية تجسيداً له(٢٦) .

غير أن الدور السياسى للفقهاء فى إيران تعرض لحالة من الانحسار النسبى فى عهد رضا خان ، الذى حكم البلاد بدكتاتورية مطلقة ، بالحديد والنار حقا ، مستخدما الجيش والقوى الأجنبية التى جاءت به ودعمته . وهو ما أصاب مختلف القوى الوطنية والسياسية الأخرى بحالة من الانكماش والضمور .

ولم تنهض الحركة الوطنية ، ولم يتحرك الركود المخيم على المسرح السياسى الايرانى ، إلا بعد أن خلعه الحلفاء ـ البريطانيون بالأخص ـ عام ١٩٤١ ، عندما أثيرت من حوله شكوى تتعلق باحتمال اتصاله بهتلر ، إبان الحرب العالمية الثانية التى كانت رحاها دائرة آنذاك .

فى تلك المرحلة ، برز اسم آية الله الكاشانى عام ١٩٤٧ ، كداعية إلى مقاومة الاحتلال الاسرائيلى لفلسطين ، وكان قد عاد من النجف الأشرف إلى طهران فى عام ١٩٤٦ فقيها مسيَّسا . وقدر للكاشانى أن يقوم بدوره الهام إلى جوار الدكتور محمد مصدق فى تأميمه للنفط وصراعه مع الشاه عامى ٥١ ، ٥٢ . لكنه اختلف مع مصدق وتخلى عن مسيرة الثورة على الشاه ، بسبب إتجاهه نحو العلمانية . وهو ما تلقاه الكاشانى باعتباره انفصالا عن الاسلام ، وانزلاقا فى الطريق نحو الشيوعية . مما دعاه إلى اتهام مصدق « بخيانة الاسلام »(٢٧) .

برزت أيضا حركة فدائيان إسلام ، ثم تجمع علماء الدين المناضلون الذين سبقت الإشارة اليهم ولمع اسم آية الله طالقانى ، سواء بين العلماء المناضلين ، أو بين مؤسسى حركة تحرير ايران مع المهندس مهدى بازركان . وكان طالقانى هو الذى سعى إلى اعادة طبع كتاب الشيخ نائينى « تنبيه الأمة وتنزيه الملة » الذى نفدت طبعته الأولى سنة ١٩٠٩ ، وكتب له مقدمة دعا فيها إلى أهمية دور الفقهاء فى الحياة السياسية والعامة .

(٢٦) المصدر السابق ص ١٩

(٢٧) صحيفة اطلاعات الايرانية ـ عدد ١٢ أكتوبر لسنة ١٩٥٢

- بالإضافة إلى ذلك ، فقد شهدت طهران سلسلة من الندوات والمحاضرات التى كان محورها : كيفية إسهام الفقهاء فى الحياة السياسية ، والأسس الفقهية التى تدعم التيار الداعى لذلك الإسهام ، فى مقابل حجج الداعين إلى العزوف عن التورط فى ذلك المسار . وكانت صحيفة « جوفتارى ماه » محاضرة الشهر - تنشر على الناس تلخيصا لتلك المحاضرات أولا بأول (٢٨) .

فى ذلك السياق ، ظهر آية الله روح الله الخمينى وجاء دوره - كما قلنا - بمثابة نقطة تحول ليس فقط فى الحياة السياسية لايران ، ولكن أيضا فى مسار الفقه الشيعى الأثنى عشرى - الذى كان مبدأ الانخراط فى قضايا السياسة أمرا خلافيا بين علمائه . أما الذهاب إلى حد قلب السلطة وإقامة الدولة ، فقد كان يعد انتهاكا لتقاليد المذهب ، وبدعة مرفوضة ومذمومة !

□ □

(٢٨) AZAR TABARI - SHIITE CLERGY IN IRANIAN POLITICS P. 64

الفصل الرابع

دم الحسين الذى أريق

لقد ظل العمل السياسى منذ قرون محورا لجدل طويل وعميق فى الفكر والفقه الشيعيين . وهنا تنبغى التفرقة بين ثلاث مراحل فى التاريخ الشيعى :

- مرحلة اجتماع الإمامة مع الزعامة (بمعنى الخلافة أو القيادة السياسية) - وهى التى تبدأ بتولى الامام على الخلافة فى سنة ٣٥ هـ وتنتهى بمصرع ولده الحسين على يد يزيد بن معاوية فى سنة ٦١ هـ .
- فى المرحلة التالية انفصلت الإمامة عن الزعامة ، حيث بقيت الامامة فى آل البيت بينما انتقلت الزعامة إلى غيرهم من الأمويين والعباسيين ، وهى تمتد من إمامة على بن الحسين زين العابدين (المتوفى سنة ٩٤ أو ٩٥ هجرية (٧١٢ - ٧١٣ م) إلى اختفاء الامام الثانى عشر محمد المهدى (ولد فى سنة ٢٥٥ هـ - وليس معروفا تاريخ اختفائه بالضبط) .
- المرحلة الثالثة بدأت بغيبة الامام الثانى عشر ، وبها فقد الشيعة الرمزين معا . إذ لم يعد لسلالة الحسين ، التى انحصرت فيها القيادة أى دور فى الإمامة أو الزعامة ، منذ ذلك الحين وإلى الآن .

طوال تلك الفترة ، التى استمرت أكثر من ١١ قرنا ، ظلت أسئلة عديدة حول « مصير » الشيعة مثارة بين طبقات الفقهاء وأجيالهم ، وكان أهم تلك الأسئلة هى : من يتولى القيادة ؟ وكيف ؟ وهل يجوز أن تقوم للشيعة دولة أم لا ؟ وهكذا .

لم تكن هناك مشكلة فقهية فى مرحلة اجتماع الامامة مع الزعامة ، فقد كان الشكل الأمثل للقيادة قائما ، رغم الملابسات المأساوية التى أحاطت به . ولكن النهاية المفجعة للامام الحسين أحدثت جروحا عميقة فى الضمير الشيعى . وإن ظلت تنزف إلى الآن ، إلا أنه كان لها تأثيرها المباشر على مواقف الأئمة الذين تتابعوا بعده فيما اعتبرناه مرحلة ثانية فى التاريخ الشيعى .

أئمة وليسوا زعماء أو حكاما

فى تلك المرحلة كانت السمة المشتركة بين الأئمة هى العزوف عن الخوض فى الصراعات السياسية ، واعتبار الامامة شيئا أكبر وأرفع من السلطة ، من حيث أنها قيادة روحية ورسالية ، وليست بالضرورة ، زعامة سياسية أو زمنية .

فعلى بن الحسين زين العابدين ، رابع أئمة الشيعة (بعد الامام على والحسين والحسن) قُتل جده الامام على وعمره سنتان . وقتل أبوه فى كربلاء وله ٢٣ سنة ، ورأى الناس يبايعون يزيدا ويداه ملطختان بدم أبيه الشهيد ،وعاصر ضرب الكعبة بالمجانيق ، كما عاصر الحجاج فى حكمه الجائر للعراق ، وشهد مختلف التطورات التى أغرقت ديار الاسلام فى بحر من الدماء . فاندفع إلى اعتزال الدنيا ، والانقطاع إلى البكاء على أرحامه وإخوانه ، وما آل إليه حال المسلمين . حتى اعتبر « أول إمام اتخذ من الزهد المطلق منهجا لحياته فلا يشارك فى حرب أو نقاش ولا يتدخل فى أمر من الأمور »[1] . وكان مسالما للأمويين حتى روى الزهرى عنه أنه « كان من أفضل أهل بيته ، وأحسنهم طاعة ، وأحبهم إلى (الخليفة الأموى) عبد الملك بن مروان[2] » . وقد سمى « السجّاد » لكثرة سجوده ، وثمة أدعية عديدة منسوبة إليه ، جمعت فى كتاب يتداوله الشيعة منذ قرون ، باسم « الصحيفة السجادية » .

الامام الخامس محمد الباقر (٥٧ - ١١٩ هـ - ٦٧٦ - ٧٣٧ م) ، ورث الزهد عن أبيه ، وانقطع للعبادة والزهد والعلم وسمى الباقر عملا بالنبوءة المنسوبة إلى النبى ﷺ والتى رواها الصحابى جابر بن عبد الله الأنصارى ، الذى كان من شيعة الامام على ، وفيها قال : « سمعت رسول الله يقول : إنك ستدرك رجلا منى اسمه اسمى ، وشمائله شمائلى ، يبقر العلم بقرا »[3] .

وفى عهده خرج شقيقه زيد بن على بن الحسين على الاطار الذى وضعت فيه إمامة الشيعة الاثنى عشرية . وحمل سلاحه مع بعض صحبه ممن أيدوه فى

---

(١) د. كامل مصطفى الشيبى - الصلة بين التصوف والتشيع - ص ١٤٨ .
(٢) تذكرة الحفاظ للذهبى - جـ ١ ص ٧٤ .
(٣) أصول الكافى للكلينى ص ١٢٥ .

الخروج على إمام الشيعة محمد الباقر ، وعلى سلطان الزمان ، الخليفة هشام ابن عبد الملك ، وقاتله حتى قتل فى سنة ١٢٢ هـ . وهو الذى أسس فيما بعد أكثر فرق الشيعة تسيّسا وثورية (الزيدية) . وكانت مقولته الشهيرة : « ما كره قوم قط حر السيوف إلا ذلوا » بمثابة حجر كبير ألقاه فى البحر الشيعى المسالم فى زمانه . ولذا فإن بعض الزيدية لا يعتبرون الباقر إماما لأنه آثر التقية على الخروج ، فضلا عن أن منهم من يعتبره إمام علم وليس إمام دعوة[٤] .

الامام السادس جعفر الصادق (٨٠ ـ ١٤٨ هـ ـ ٦٩٩ ـ ٧٦٥ م) تفرغ للعلم وخدمته وكرس جهده فى تأسيس المذهب . وقال فيه الشهرستانى : وهو ذو علم غزير فى الدين وأدب كامل فى الحكمة ، وزهد فى الدنيا وورع تام فى الشهوات . وقد أقام بالمدينة يفيد الشيعة المنتمين إليه ، ويفيض على الموالين له أسرار الحكمة . ثم دخل العراق وأقام بها مدة ، ما تعرض للإمامة قط ، ولا نازع أحدا فى الخلافة[٥] . وكان يرى الامامة علمية وروحية ، ليس من جوهرها السياسة والمادة . وقال عنه الكلينى : أنه يرى للأئمة منزلة روحية سامية تقترب من منزلة النبوة[٦] ، ونقل عنه أنه كان يوصى شيعته فى عهد المنصور ويقول لهم : عليكم بالطاعة والصمت ، فإنكم فى سلطان من مكرهم لتزول منه الحيال[٧] .

الامام السابع موسى بن جعفر (الكاظم) (١٤٨ ـ ١٨٣ هـ ـ ٧٦٥ ـ ٧٩٩ م) كان رجلا مسالما جنى عليه شك الرشيد فى احتمال منازعته الخلافة ، فأمر بحبسه ، فى حين أنه كان صورة أخرى من على زين العابدين فى زهده وفى معاملته . إذ كان يرد الاساءة بالاحسان . وكان يقول : ما أهان الدنيا قوم قَط ، إلا هنأهم الله وبارك فيها لهم ، وما أعزها قوم قط إلا بغضهم الله فيها . وكان له اتصال وثيق بالصوفية حتى يذكر المجلسى فى « جامع الأنوار » أن شقيق البلخى ، المتصوف الأشهر المتوفى سنة ١٩٤ هـ ، كان من تلاميذه ، وله الرواية أيضا عنه[٨] .

(٤) د. أحمد محمد صبحى ـ الزيدية ـ ص ١٥٦ .
(٥) الملل والنحل للشهرستانى ـ جـ ١ ص ٢٧٣ .
(٦) أصول الكافى ص ٦٥ .
(٧) د. محمد جواد مغنية ـ الشيعة والحاكمون ص ١٤٨ .
(٨) المصدر السابق ص ٢٢٤ ـ نقلا عن « طرائف الحياة » جـ ٢ ص ١٣٣ .

علی بن موسی الرضا ، ثامن الأئمة (١٥٣ ـ ٢٠٣ هـ ـ ٧٧٠ ـ ٨١٨ م) ولی الإمامة عشرين سنة وكان فی الربع الأخير منها وليا لعهد المأمون ، نكاية منه فی عمومته العباسيين ، الذين شجعوا الأمين على خلع المأمون وكان مشتغلا بالعلم كجده وأبيه . كما اشتغل بالتصوف حتى كانت له صلة وثيقة بمعروف الكرخی ، المتصوف الشهير . ويذكر الحاج معصوم على أن الامام الرضا كان صاحب طريقة ، وأن « معروفا (الكرخی) أخذ الفيض عن حضرة إمام العالمين وقطب دائرة الامكان ، علی بن موسی الرضا عليهما السلام ، ومنه تعلم الطريقة ، وعنه تسلم منصب مشيخة المشايخ » .

قال عنه الجاحظ : هذا الامام « كان لابس الصوف طول عمره ، على سعة أمواله وكثرة ضياعه وغلاله »(٩) .

مات الرضا مسموما كما يرى أكثر المؤرخين . وخلفه ابنه محمد الجواد ، وله من العمر سبع سنوات . وحالت حداثة سنه ووفاته المبكرة فی الخامسة والعشرين دون الاستفادة من علمه . وجاء بعده ابنه الهادی وله من العمر ست سنين الذی لم تكن ظروفه أفضل كثيرا من ظروف أبيه إذ كانت علاقته بالعلم أوثق من علاقته بالسياسة وقيل أنه كان فی أكثر أيامه سجين داره لا يفارقه حتى يتجنب أذی بنی العباس . وبعد وفاته تولى الامامة ابنه الحسن العسكری ، الذی كان فی العشرينيات من عمره واستمر إماما مدة ست سنوات فقط حتى توفی فی عام ٢٦٠ هـ ، عن ٢٨ عاما ، ولم يبرز له دور فی أی اتجاه . أما آخر الأئمة الاثنی عشر ـ ابنه المهدی ـ فقد ولد فی عام ٢٥٥ هجرية ، ولم يره أحد ، فی غيبته الصغرى ـ عندما كان له ٤ نواب ـ أو فی الغيبة الكبرى التی بدأت بوفاة آخر وكلائه (علی بن محمد السمری سنة ٣٢٩ هـ) .

ضد الخروج وضد الثورة

لا يشكل التمرد أو الثورة أياً من قسمات المرحلة الثانية فی التاريخ الشيعی ، منذ ما بعد استشهاد الامام الحسين وإلى اختفاء الامام الثانی عشر ،

(٩) شرح نهج البلاغة لأبی الحديد ـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم جـ ١٥ ص ٢٧٣ .

محمد المهدى . وليس يعنى ذلك بالضرورة أن الأئمة الذين تتابعوا فى تلك الفترة كانوا مستسلمين للأوضاع القائمة أو راضين عنها . فالمصادر التاريخية تشير إلى أن بينهم من كان ناقدا لتلك الأوضاع ، فضلا عن أن أكثرهم اعتبروا خلفاء تلك الأزمنة مغتصبين لحق آل البيت فى الامامة .

فينقل عن الامام على بن الحسين (السجّاد) أنه وجه اللوم إلى محمد ابن مسلم الزهرى على سكوته أمام الظلم وتبريره أعمال الظالمين ، وهو الفقيه الذى لا ينبغى أن يتيح للسلطان أن يستخدمه لصالحه .

وينقل عن الامام الصادق أنه كان يوجه انتقادات شديدة للخليفة العباسى أبو جعفر المنصور ، حتى كان الرجل يحس بالاثم والحرج ويقول : والله لقد ضاقت علىّ الأرض برحبها .

كذلك يروى عن الامام موسى الكاظم أنه كان يرى التعاون مع حكومة هارون الرشيد حراما ، لما اتسم به من عسف . ولما سأله الرشيد عن رأيه فى أحد القصور التى بنيت فى عهده ، فإن الامام رد قائلا : هذه دار الفاسقين(١٠) .

فى هذا الاطار كانت حدود حركة الأئمة ، الذين ظلت مأساة نهاية الامام الحسين ماثلة فى أذهانهم ، الأمر الذى دفعهم إلى تجنب الصدام مع السلطة ، وإيثار « التقية » حتى لا يواجهوا مصيرا يهدد وجودهم ـ ورسالتهم ـ بالزوال ، إذا ما تعرضوا لتجربة « إبادة » مماثلة لتلك التى تعرض لها الحسين . وإن ظلوا مقتنعين بأنهم الأحق والأولى بالخلافة ، وأن الآخرين اغتصبوا حقهم المكتسب والموروث .

وثمة رواية شائعة فى كتب الفقه الشيعى محملة بهذا المعنى ، نقلها « عمر بن حنظلة » عن الامام جعفر الصادق ، وفيها يقول :

سألت أبا عبد الله ، عن رجلين من أصحابنا بينهما منازعة فى دَيْن أو ميراث فتحاكما إلى السلطان ، وإلى القضاة ، أيحل ذلك ؟ .

رد الامام جعفر قائلا : من تحاكم إليهم فى حق أو باطل فإنما تحاكم إلى

---

(١٠) الثورة الاسلامية ص ١٤ ، ١٥ .

الطاغوت وما يحكم له فإنما يأخذ سحتا ، وإن كان حقا ثابتا له ، لأنه أخذه بحكم الطاغوت وما أمر الله أن يكفر به . وقرأ قول الله تعالى : « يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به » .

سأله حنظلة : فكيف يصنعان ؟

قال : ينظران من كان منكم ممن قد روى حديثنا ، ونظر فى حلالنا وحرامنا ، وعرف أحكامنا ، فليرضوا به حكما . فإنى قد جعلته عليكم حاكما . فإذا حكم بحكمنا ولم يقبل منه ، فإنما استخف بحكم الله ، وعلينا رد ، والراد علينا راد على الله . وهو على حد الشرك بالله[11] .

ظلت قضية العلاقة بالسلطة أحد الخلافات الجوهرية بين الشيعة الزيدية والجعفرية أو الاثنى عشرية . بل انه من البداية لم يكن هناك ما يبرر خروج الامام زيد بن على بن الحسين على إمامة أخيه محمد الباقر ، سوى تلك النقطة على وجه التحديد : الموقف من السلطة الظالمة ، وهل تواجه بالسكوت والتقية أم بالخروج والتحدى ؟ .

وفى تقديم الطبعة المتداولة فى إيران للصحيفة السجادية ، المنسوبة إلى الامام على زين العابدين ، إشارة واضحة إلى هذا المعنى . ففى سياق حوار سجلته المقدمة بين متوكل بن هارون ويحيى بن زيد بن على ، نفهم أنه جرى بعد مقتل الامام زيد ، يقول يحيى الابن : قد كان عمى محمد بن على عليه السلام (يقصد محمد الباقر) أشار على أبى بترك الخروج (على الخليفة الأموى هشام ابن عبد الملك) وعرفه ان هو خرج وفارق المدينة ، ما يكون إليه مصير أمره . أى أن القتل سيكون مصيره .

ثم يمضى يحيى بن زيد فى إيضاح الفرق بين موقف أبيه زيد ، وعمه الباقر ، فيقول : إن الله عز وجل أيد هذا الأمر بنا ، وجعل لنا العلم والسيف ، فجمعا لنا . وخُصَّ بنو عمنا (سلالة الباقر - الاثنا عشرية) بالعلم وحده (دون السيف) .

عندئذ رد متوكل : إنى رأيت الناس إلى ابن عمك (الامام) جعفر عليه السلام أميل منهم إليك وإلى أبيك (الامام زيد) .

(11) وسائل الشيعة للحر العاملى - جـ 18 الحديث 4 ص 3 .

قال يحيى بن زيد : إن عمى محمد بن على وابنه جعفرا عليهما السلام دعوا الناس إلى الحياة ، ونحن دعوناهم إلى الموت[١٢] (إشارة إلى أن الامامين الباقر وجعفرا كانا من دعاة مهادنة السلطة . بينما كان الامام زيد من دعاة الخروج على الظلم بالسيف) .

وأوردت مقدمة الصحيفة السجادية مقولة عن الامام جعفر الصادق ، يفهم منها عدم استحباب الخروج بما يجلبه من مغبة وضرر . ونصها هو : ما خرج ولا يخرج منا أهل البيت إلى قيام قائمنا أحد ، ليدفع ظلما أو ينعش حقا ، إلا اصطلمته البلية . وكان قيامه زيادة فى مكروهنا وشيعتنا (ص ١٧) .

بهذا التراث الرافض للسلطة القائمة ، الجانح إلى مسالمتها تجنبا لشرورها ، المبلل بدم الحسين ودموع الثكالى من آل البيت ، أُسْدِلَ الستار على المرحلة الثانية من تاريخ الشيعة . وهى التى انتهت بتوقف مسيرة الأئمة ، وترك « الطائفة » بغير إمامة أو زعامة ، منذ زمن الغيبة وإلى الآن . أى منذ أكثر من أحد عشر قرنا .

« الولاية » بديلا عن الخلافة

تقدم الفقهاء لشغل الموقع الخالى فى قيادة « الطائفة » ونجحوا فى تصميم نسيج عبقرى مكنهم من الحفاظ على مسيرة المذهب وولاء الاتباع . وكانت « الولاية » هى الصيغة التى ابتكرها فقهاء الشيعة لتحل محل الخلافة[١٣] وكانت « المرجعية » صيغة موازية لفكرة الحكومة ، وكان « التقليد » تحقيقا لمعنى الانتماء ، مما سنتعرض له لاحقا . أدى ذلك إلى صيانة « الطائفة » من التشرذم والاندثار . وهو المصير الذى لقيته بعض فرق الشيعة الأخرى ، مثل إخوان الصفا والراوندية والكيسانية . مع ذلك فقد ظلت قضية الامامة والزعامة الشرعية مُثَارة ، وظلت أسئلة أخرى عديدة تتردد فى ساحة الفكر الشيعى . . ما هى حدود الامامة ؟ وما هى حدود الزعامة ؟ . . وما الذى يعد التزاما بالمذهب ، وما الذى يعد خروجا عليه وتجاوزا لتعاليمه ؟ .

(١٢) صحيفة كاملة سجادية « الطبعة الفارسية » ص ٦ .

(١٣) د. ابراهيم الدسوقى شتا ـ الثورة الايرانية ، الجذور والأيديولوجية ص ٣٢ .

تعددت الاجابات على تلك الأسئلة ، مما أفرز اختلافا فى مواقف الفقهاء إزاء قضايا العمل السياسى ، من مبدأ الاسهام فيه إلى صيغة هذا الاسهام ومداه . إذ لم يكن عزوف الفقهاء عن السياسة أو الانخراط فيها تعبيرا عن ميول شخصية ، بقدر ما كان ذلك تجسيدا لمدارس فقهية وتيارات تتفاعل فى الحوزة منذ عدة قرون .

وكما عرف الفقه السنى أهل الرأى ، ممثلين فى الأحناف ، وأهل الحديث ممثلين فى الحنابلة ، فإن تقسيما مشابها ظهر فى الفقه الشيعى حيث برزت مدرستان أساسيتان عرفتا باسم الاخباريين والأصوليين .

تبلورت المدرستان فى القرن السابع عشر ، وبينما ظهر قبل ذلك عدد من فطاحل الفقهاء يتحدثون عن « الاجتهاد » ـ كان العلامة الحلّى المتوفى سنة ١٣٢٦ م أول من استخدم الكلمة فى الفقه الشيعى ـ ويعطون أنفسهم حق الافتاء فيما يستجد على الناس من أمور .

وكان فى مقدمة هؤلاء ثلاثة من الفقهاء عاصروا حكم البويهيين ، هم : الشيخ المفيد ، والشيخ مرتضى ، والشيخ الطوسى ، غير أنه فى بداية القرن السابع عشر تصدى لهذا التيار الملا محمد أمين استرابادى (المتوفى سنة ١٦٢٦)[١٤] ومن بعده شيخ الاسلام فى مشهد ، الحر العاملى (المتوفى سنة ١٧٠٨ م) ، ومؤلف الكتاب الشهير ، « وسائل الشيعة »[١٥] . اعترض الاثنان مع فقهاء آخرين على أطروحات الأصوليين ، الذين أعطوا أنفسهم حق الاجتهاد ، وقالوا أن « الفقه » عند الشيعة هو فقط ما صدر عن الأئمة من « أحاديث » وتعاليم . وأنه ليس لأحد أن يعطى لنفسه صلاحيات هى من صميم اختصاص الأئمة المعصومين . الأمر الذى اعتبر الاجتهاد فى ظله نوعا من الانتهاك لصلاحيات الأئمة .

وبناء على ذلك فإن الاخباريين اتخذوا موقف المعارضة من مختلف الخطوات التى تمت فى إتجاه إقامة المرجعية وتوسيع اختصاصها ، فيما سمى لاحقا «بالولاية » . فمرجع التقليد رمز لما يعترضون عليه إذ يعد المجتهد الأول

(١٤) RELIGION AND POLITICS IN IRAN - P. 36

(١٥) THE SHADOW OF GOD - P. 145

الذى يرون فى دوره انتهاكا لحقوق الأئمة . كما وقفوا ضد الخوض فى المعترك السياسى ، بالمعارضة أو التمرد أو الثورة ، ناهيك عن إقامة الدولة .

ألزم الاخباريون أنفسهم بثلاثة أمور : معارضة « بدعة » الاجتهاد ، اكتفاء « بالأحاديث » المروية عن الأئمة ـ ففى تجاوز الحدود التى رسمها الأئمة لأنفسهم من حيث كونهم مرشدين روحيين ورساليين وليسوا زعماء سياسيين ـ الابقاء على الأمر الواقع كما هو دون تغيير بانتظار عودة الامام الغائب الذى سيعيد الحق إلى نصابه .

ولسنا نبالغ إذا قلنا بأن الاخباريين كانوا أكثر التزاما من غيرهم بتراث المذهب وتقاليده المستقرة منذ عهد الأئمة (المرحلة الثانية فى التاريخ الشيعى) . بل قد نقول أنهم كانوا أكثر صدقا وأمانة من غيرهم فى التعبير عن تجربة الأئمة فى تلك المرحلة .

ومع ذلك فلسنا نبالغ إذا قلنا إن الأصوليين تجاوزوا بالفعل حدود المذهب وتقاليده وتراثه ، لكنهم ارتكزوا فى مواقفهم على قواعد الاسلام وتعاليمه والاجتهادات الأخرى التى نمت خارج المذهب ، واستوعبها المجْرَى الإسلامى العريض . ذلك أنه إذا كان الاسلام هو الأصل بينما المذهب فرع ، فكل ما فعله الأصوليون هو أنهم تعلقوا بالأصل واستندوا إليه ، فدعموا الفرع وغذوه بجرعات قوية ومنشطة ، بحيث أصبح أكثر صحة وعافية . فضلا عن أنهم باتوا الأكثر صدقا فى التعبير عن روح الاسلام . وبالتالى فإنهم صاروا الأقرب إلى تجربة الأئمة فى المرحلة الأولى (من الامام على إلى الامام الحسين) .

وإذا كان مسار الأحداث قد رجح كفة الأصوليين ، حيث استقرت مرجعية التقليد ، واتسعت دائرة المجتهدين ، وذهب بعض الفقهاء إلى حد المشاركة فى المعترك السياسى ، إلا أننا نستطيع أن نلمح فصيلين داخل تيار الأصوليين :

■ الأول يسلم باستحالة إقامة تطبيق سليم للشريعة فى ظروف غيبة الامام ، ولكنه يدعو إلى المشاركة فى الحياة السياسية بالقدر الذى يقلص من شرعية النظام القائم إلى الحد الأدنى الذى لا مفر منه . وكان هذا هو موقف الشيخ نائينى فى كتابه « تنبيه الأمة » الذى لقى ترحيبا طيبا فى الحوزة عند صدوره فى بدايات القرن الحالى . وهو لا يزال موقف أغلبية مراجع الحوزة إلى الآن .

■ الفصيل الثانى يتجه إلى توسيع دائرة الممارسة بحيث يقيم الفقهاء الدولة الاسلامية ، رغم استمرار غيبة الامام .

وكان روح الله الموسوى الخمينى من أصحاب هذا الرأى ، الذى جهر به بعد أن قطع شوطا فى تقديمه لكتاب « المكاسب » للشيخ مرتضى الأنصارى . إذ عندما انتهى من عرض باب البيع ، تطرق إلى جوهر المعاملات ودور الفقهاء فيها ، الأمر الذى أتاح له أن يطرح تصوره المفصل لقضية « ولاية الفقيه » وهو ما شد انتباه مستمعيه من طلاب الحوزة ، الذين كانوا يتحلقون حوله فى مسجد الشيخ الأنصارى بالنجف ، منتظرين منه الكثير .

□ □

الفصل الخامس

نهاية عصر الانتظار

خلال ١٨ يوما كان آية الله الخمينى قد بسط قضيته أمام مستمعيه فى حوزة النجف الأشرف ، وحدد هدفه بوضوح لا لبس فيه . إذ ظلت محاضراته فى الفترة من ١٣ ذى القعدة إلى أول ذى الحجة عام ١٣٨٩ هـ (١٩٦٥ م) ترتكز على محورين أساسيين هما :

أولا : أنه لا بديل عن تشكيل حكومة إسلامية .

ثانيا : أن تلك مسئولية ينبغى أن ينهض بها الفقهاء .

وكان طبيعيا أن يرد على مقولات الداعين إلى انتظار الامام الغائب ، الذى سيقهر الظلم ويقيم العدل ، فطرح على مستمعيه مجموعة من الأسئلة . إذ قال : قد مر على الغيبة الكبرى لإمامنا المهدى أكثر من ألف عام . وقد تمر ألوف السنين قبل أن تقتضى المصلحة قدوم الامام المنتظر . فى طول هذه المدة المديدة ، هل تبقى أحكام الإسلام معطلة ؟ . . القوانين التى صدع بها نبىّ الإسلام ﷺ وجهه فى نشرها وبيانها وتنفيذها طيلة ثلاثة وعشرين عاما ، هل كان كل ذلك لمدة محدودة ؟ هل حدد الله عمر الشريعة بمائتى عام مثلا ؟ (حتى اختفاء الامام الثانى عشر) . . هل ينبغى أن يخسر الاسلام من بعد الغيبة الصغرى كل شىء ؟ . . إن الذهاب إلى هذا الرأى أسوأ فى نظرى من الاعتقاد بأن الاسلام منسوخ . فلا يستطيع أحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقول : أنه لا يجب الدفاع عن ثغور الوطن أو أنه يجوز الامتناع عن دفع الزكاة أو الخمس ، أو يقول بتعطيل القانون الجزائى فى الاسلام[1] .

وهو يعزز دعوته ، اتخذ من « الخُمس » مثلا ، فقال أن هذه النسبة التى تُفرض لحساب آل البيت من أرباح المسلمين ، تنفق فى تسيير شئون الدولة الاسلامية ثم تساءل : هل نلقى بهذه الثروة الواسعة فى البحر ؟ أو ندسها فى التراب حتى ظهور الحجة ؟ أو نوزعها على ٥٠ أو ٥٠٠ ألف هاشمى (من

---

(١) الحكومة الإسلامية - من منشورات المكتبة الإسلامية بطهران ص ٢٦ .

آل البيت) ؟ . . وإذا دفع إليهم (كل) هذا المال ، أليس يذهلهم ويحيرهم ؟ على اعتبار أن حق الهاشميين فى الخمس إنما هو بمقدار ما يحتاجون إليه بقصد واعتدال - (ص ٣٠) .

فى موضع آخر من محاضراته ، عاد يتساءل : فى عهد الغيبة لا يوجد نص على شخص معين يدير شئون الدولة ، فما هو الرأى ؟ . . هل تترك أحكام الاسلام معطلة ، أم نرغب بأنفسنا عن الاسلام ؟ ، أم نقول إن الاسلام جاء ليحكم قرنين من الزمان فحسب ، ليهملهم بعد ذلك ؟ (ص ٤٨) .

الفقهاء حكام على الملوك

لم يكف الخميني عن حث مستمعيه على التحرك ، والانتقال من حالة الانتظار إلى « المبادرة » ، فكرر كلامه بصيغة أخرى ، وقال : نحن مكلفون بحفظ الاسلام . وهذا من أهم الواجبات ، ولعله لا يقل أهمية عن الصلاة والصوم . وهذا هو الواجب الذى أريقت فى سبيل أدائه دماء زكية . . لا تقولوا ندع ذلك حتى ظهور الحجة عليه السلام (الامام المهدى) فهلا تركتم الصلاة بانتظار الحجة ؟ لا تقولوا كما قال البعض : ينبغى إشاعة المعاصى كى يظهر الحجة . بمعنى أن الفواحش إذا لم تنتشر ، فإن الحجة لن يظهر (ص ٦٦) .

والعمل ؟ . .

بوضوح أجاب على السؤال : على الفقهاء العدول أن يتحينوا هم الفرص وينتهزوها ، من أجل تنظيم وتشكيل حكومة رشيدة يراد بها تنفيذ أمر الله وإقرار النظام العادل (ص ٥٤) .

. . « أخرجوا من عزلتكم (الخطاب لطلاب الدراسات الدينية) وأكملوا برامجكم الدراسية والارشادية واركبوا الصعاب فى سبيل ذلك . وخططوا للحكومة الاسلامية » . (ص ١٣٤) .

إن « النضال من أجل تشكيل حكومة توأم الايمان بالولاية » (ص ٢٠) .
ينبغى للفقهاء أن يعملوا فرادى أو مجتمعين من أجل إقامة حكومة شرعية

تعمل على إقامة الحدود وحفظ الثغور وإقرار النظام . وإذا كانت الأهلية لذلك منحصرة فى فرد ، كان ذلك عليه واجبا عينيا . وإلا فالواجب كفائى . وفى حالة عدم إمكان تشكيل الحكومة ، فالولاية لا تسقط . لأن الفقهاء قد ولّاهم الله . ويجب على الفقيه أن يعمل بموجب ولايته قدر المستطاع . فعليه أن يأخذ الزكاة والخمس ، والخراج والجزية ، لينفق كل ذلك فى مصالح المسلمين . وعليه إن استطاع أن يقيم حدود الله (ص ٥٢) .

« كاد الاسلام يندرس فى أذهان بعض السادة الأجلاء . . إلى حد حمل البعض على تفسير قول الامام على : « الفقهاء أمناء الرسل » بأن ذلك يعنى الأمانة فى حفظ المسائل وتفسير القرآن والحديث . . هل هذه هى الأمانة ؟ . . أليس على الأمين المؤتمن أن يحفظ أحكام الاسلام ، ويحرسها من الاهمال والتعطيل ؟ » (ص ٧٣) .

وهو يدعم دعوته وموقفه ، ساق الحجج التالية :

■ مجموعة القوانين لا تكفى لاسعاد البشر ، ولكنها تحتاج إلى سلطة لتنفيذها لذا فإن الله عز وجل قد جعل فى الأرض - إلى جانب مجموعة القوانين - حكومة وجهاز تنفيذ وإدارة . والرسول ﷺ كان يترأس جميع أجهزة التنفيذ فى المجتمع الاسلامى . إضافة إلى مهام التبليغ والبيان وتفصيل الأحكام والأنظمة . . ومن بعد الرسول كانت مهام الخليفة لا تقل عن مهامه عليه السلام . . إذ لم يكن تعيين الخليفة لبيان الأحكام فحسب ، وإنما لتنفيذها أيضا (ص ٣٠ و ٣٢) .

■ ولأن المجتهدين هم خلفاء الرسول ، وهم حصون الاسلام فإن إقامة الاسلام وحمايته من أهم واجباتهم « الفقهاء العدول هم وحدهم المؤهلون لتنفيذ أحكام الاسلام وإقرار نظمه ، وإقامة حدود الله ، وحراسة ثغور المسلمين « فقد » فوض إليهم الأنبياء ما فوَّض إليهم وائتمنوه على ما اؤتمنوا هم عليه . فهم يجبون الضرائب لينفقوها فى مصالح المسلمين وهم يصلحون كل فاسد من أمور المسلمين » (ص ٧٠) .

■ الفقهاء اليوم حجة على الناس . كما كان الرسول ﷺ حجة عليهم . وكل ما كان يناط بالنبى ، فقد أناطه الأئمة بالفقهاء من بعدهم . فهم المرجع فى جميع الأمور والمشكلات والمعضلات . وإليهم قد فوضت الحكومة ولاية الناس وسياستهم والجباية والانفاق . وكل من يتخلف من طاعتهم ، فإن الله يؤاخذه ويحاسبه على ذلك (ص ٨٠) .

■ استنادا إلى نص الآية « فإن تنازعتم فى شىء ، فردوه إلى الله والرسول . . » فإن القرآن يأمرنا برد كل القضايا ، حقوقية كانت أم جزائية (مدنية أو جنائية) إلى الرسول باعتباره رئيس الدولة . . ومن بعده الأئمة ، ومن بعدهم الفقهاء العدول (ص ٨٥) .

■ لا ينبغى أن يساء فهم ما تقدم . فيتصور أحد أن أهلية الفقيه للولاية ترفعه إلى منزلة النبوة أو منزلة الأئمة . فهذا الكلام لا يدور حول المنزلة أو المرتبة ، وإنما يدور حول الوظيفة العملية (ص ٥٠) .

ومن الايضاحات التى عرضها فى محاضراته حول كيفية تشكيل الحكومة وطبيعتها ، قوله :

■ علينا أن نسعى بجد لتشكيل الحكومة . . ونبدأ عملنا بالنشاط الدعائى ونتقدم فيه . ففى كل العالم على مر العصور كانت الأفكار تتفاعل عند مجموعة من الأشخاص ثم يكون تصميم وتخطيط ، ثم بدء العمل ، ومحاولة لنشر هذه الأفكار وبثها من أجل إقناع الآخرين تدريجيا . ثم يكون لهؤلاء نفوذ داخل الحكومة يغيرها على النحو الذى تريده تلك الأفكار . . أو يكون هجوم من الخارج لاقتلاع أسسها وإحلال حكومة قائمة على هذه الأفكار محلها (ص ١١٩) .

■ حكومة الاسلام ليست مطلقة وإنما هى دستورية . لا بالمعنى الدستورى المتعارف عليه الذى يتمثل فى النظام البرلمانى أو المجالس الشعبية . وإنما هى دستورية بمعنى أن القائمين بالأمر يتقيدون بالقرآن والسنة . ومن هنا كانت الحكومة الاسلامية هى حكومة القانون الالهى . . والفرق بينها وبين غيرها

من الحكومات الدستورية أن سلطة التشريع فى ظل الحكومة الاسلامية محصورة بالله عز وجل . وليس لأحد أيا كان أن يشرع ، أو أن يحكم بغير ما أنزل الله . لذلك استبدل الاسلام بالمجلس التشريعى مجلسا آخر للتخطيط ، يعمل على تنظيم سير الوزارات فى أعمالها وفى تقديم خدماتها فى جميع المجالات (ص ٤٢) .

■ من المسلم به أن « الفقهاء حكام على الملوك » وإذا كان السلاطين على جانب من التدين فما عليهم إلا أن يصدروا فى أعمالهم وأحكامهم عن الفقهاء . وفى هذه الحالة فالحكام الحقيقيون هم الفقهاء . ويكون السلاطين مجرد عمال لهم (ص ٤٦) .

■ الحاكم الأعلى (الفقيه) يحيط بجميع الأحكام الاسلامية ويكتفى المبعوثون والمرسلون والعمال والولاة بالعلم بما يتصل بمهمتهم من أحكام وتشريعات . ويرجعون فيما لا يعلمون إلى مصادر التشريع المرسومة لهم . . وعلى الحاكم أن يتحلى بأقصى حد من كمال العقيدة وحسن الأخلاق ، مع العدل والنزاهة . . فرأى الشيعة فيمن يحق له أن يلى الناس معروف منذ وفاة رسول الله ﷺ وحتى زمان الغيبة . فالامام عندهم فاضل عالم بالأحكام والقوانين ، وعادل فى إنفاذها (ص ٤٧) .

■ علينا أن نستفيد من ذوى الاختصاص العلمى والفنى ، فيما يتعلق بالأعمال الادارية والاحصائية والتنظيمية ، أما ما يتعلق بالادارة العليا للدولة ، ويشئون بسط الرعاية وتوفير الأمن وإقرار الروابط الاجتماعية العادلة ، والقضاء والحكم بين الناس بالعدل ، فذلك ما يختص به الفقيه (ص ١٣٣) .

من الانطباعات التى يخرج بها قارىء تلك المحاضرات ما يلى :

١ ـ الانطلاق من مبدأ الولاية المطلقة للفقيه ، واعتباره الحاكم الأعلى « بمفهوم أن الفقيه هو من أحاط بالعلوم الشرعية وجميع الأحكام الاسلامية » .

٢ ـ عدم وضوح كيفية ممارسة الفقيه للولاية ، هل يقود التنفيذ ويراقبه . أم يباشره بنفسه . تثير هذه النقطة عبارات مثل : الحكام الحقيقيون هم الفقهاء ،

والسلاطين عمال لهم ، فضلا عن إشارات بهذا المعنى فى كتاب آية الله الخمينى « كشف الأسرار » الذى صدر فى الأربعينيات ، وفيه يقول : عندما نقول بأن يؤول الحكم للفقهاء ، فلا نعنى أن الشاه والوزراء والجنود والموظفين سيكونون جميعا من الفقهاء ، ولكننا نقترح ما يلى : يمكننا أن نشكل مجلسا مكونا من الفقهاء العدول ، الذين يقومون بانتخاب « سلطان عادل » يطيع شرع الله(٢) .

٣ ـ بنفس القدر فإن الشكل الدستورى للدولة لم يكن قد تبلور لديه بعد ، يتمثل ذلك فى مقولة إلغاء المجلس التشريعى (البرلمان) والاكتفاء بمجلس للتخطيط يعمل على تنظيم سير الوزارات .

٤ ـ لم تكن قضية التغيير بالثورة هى الاحتمال الوحيد ، ولا كانت الاحتمال الأرجح وهو ما يتضح من الفقرة الخاصة بتشكيل الحكومة ، والتدرج فى النشاط الدعائى لاقناع الآخرين . « ثم يكون لهؤلاء نفوذ داخل الحكومة يغيرها » .

٥ ـ الخطاب بشكل عام ، موجه باعتباره تبشيرا بدعوة منوط حملها « بأجيال الغد » لكى « نتعمق بعزم وثبات وروح مثابرة لا سبيل لليأس والقنوط إليها . . وسيوفقون بإذن الله إلى التوصل إلى تشكيل الحكومة » ـ ص ١١٧ ـ « ونحن لا نتوقع أن تؤتى تعليماتنا وجهودنا كلها فى زمن قصير لأن ترسيخ دعائم الحكومة الاسلامية يحتاج إلى وقت طويل وجهود مضنية » . . وإذ كان نشاطنا لا يؤتى ثماره إلا فى جيل غير جيلنا فذلك لا ينبغى أن يثبط عزائمنا ـ « وكثير من الحركات والنهضات أخذت شكلها النهائى بعد تمهيدات قد ترجع فى بعض الأحيان إلى ما قبل ٢٠٠ أو ٣٠٠ من السنين » . ص (١٢٩ ـ ١٣٠) ـ كان مجرد التبشير بالفكرة والترويج لها هو الهدف ، ولم يكن يخطر على البال أن قائل تلك الكلمات ستحمله الأقدار مسئولية ترجمتها إلى حقيقة واقعة ، وتبعة قيادة الدولة بعد التبشير بالفكرة .

تستطيع العين الفاحصة أن تعثر على ملاحظة هنا أو هناك فى مجموعة الأفكار التى طرحها الخمينى على طلاب حوزة النجف فى منتصف الستينيات . ويستطيع المرء أن يجد أكثر من تبرير لما قد نراه ـ الآن ـ من ثغرات فى تلك

(٢) نقلا عن RELIGION AND POLITICS IN IRAN P. 62

الأفكار ، أو عدم نضج كاف لبعضها . فالرجل كان يطرح « فكرة » ، ولم يكن يقدم « صياغة » لنظرية متكاملة .

الفكرة هي الأهم ، وما عدا ذلك فكله تفاصيل وجزئيات تتفاوت فى الأهمية . وأخطر ما فى الفكرة الكلية التى تمحورت حولها تلك المحاضرات هى أنها كانت دعوة صريحة إلى الشيعة لإنهاء عصر انتظار الغائب ، بالشروع فى إقامة الدولة والحكومة ، وأخذ زمام المبادرة فى التطبيق الاسلامى . وإن شئنا أن نصوغ الموقف بصورة أدق ، لا تتعارض مع عقائد الشيعة الأمامية ، فقد نقول أن محاضرات آية الله الخمينى تضمنت دعوة إلى إنهاء عصر الانتظار السلبى والانتقال إلى عصر الانتظار الايجابى .

تلك الدعوة اكتسبت أهميتها البالغة ليس فقط من مضمونها الخطير من الناحية المذهبية ، ولكن أيضا من توقيت طرحها ، ذلك أن أهمية دور القائد أو الزعيم قد تكون فى أنه ظهر فى أوانه ، واستطاع أن يجسد الاجابة التاريخية على الأسئلة المصيرية المطروحة على زمانه ، بصورة تعبر عن أمل الجماهير وطموحاتها .

والدعوة إلى إقامة الحكومة الاسلامية جاءت فى وقت كانت أوضاع الشيعة الامامية فيه قد استقرت واستوت ، من الناحية الهيكلية والتنظيمية . وكانت إيران تعيش فراغا سياسيا كبيرا ، من جراء سياسة القمع والتصفية التى انتهجها الشاه ثم أنها كانت أيضا تعيش فى ظل حالة من السخط والغضب الجماهيرى ، ظلت تتزايد يوما بعد يوم . وإلى جانب ذلك كله ، بل وقبله ، فإن ممارسات الشاه التى استفز بها الضمير المسلم أعطت انطباعا بأن الأمر أجل وأخطر . فالمسلمون فى إيران لم تعد مشكلتهم أنهم يعيشون فى ظل حاكم جائر أو طاغية ، ولكنهم باتوا يشعرون أن الاسلام ذاته أصبح فى خطر (بعد نزوع الشاه إلى إحياء العصبية الفارسية والاهتمام بالتقاليد المجوسية ، وإلغاء التقويم الهجرى ، وتزايد نفوذ البهائيين والماسونيين فى الدولة) .

فى تلك الظروف ظهر آية الله الخمينى فى النجف ليقدم الحل البديل : حكومة إسلامية فى ظل ولاية الفقيه .

ولاية الفقيه بين التاريخ والاعتقاد

لم يكن الامام الخميني هو أول قائل بولاية الفقيه ، ولا كان أول ساع لأن تعطى الولاية صلاحيات الامامة ووظائفها . وأن ظل له الفضل في أنه اقتحم الساحة بالفكرة في الظرف التاريخي المناسب . ثم وضع الترجمة المباشرة للولاية من حيث أنها باتت « إمارة » أو حكومة الفقيه .

لقد كانت ولاية الفقيه هي الصيغة التي طرحت لتملأ الفراغ القائم في قمة الهرم الشيعي . فبعد ذهاب الزعامة واختفاء الامامة ، تقدم الفقهاء ليشغلوا موقع القيادة . وكانت الأحاديث النبوية والمقولات الأخرى المنسوبة إلى أئمة الشيعة ، والتي تبجل العلماء وتحملهم مسئوليات كبرى في المجتمع الاسلامي ، خير معين على ترشيحهم للدور القيادي المفترض .

ضاعف من الحاجة إلى ضرورة شغل الموقع القيادي للشيعة الامامية اعتباران : أحدهما فقهي والآخر تاريخي .

من الناحية الفقهية فإن الامامة تعد عندهم من أركان الاعتقاد ، وليست من الفروع كما هي عند أهل السنة . بل إن قضية الامامة هي أهم ما يميز الشيعة الامامية عن غيرهم من فرق الشيعة الأخرى ، أو من أهل السنة . إذ أن الامامية تعتقد أن الله سبحانه لا يخلي الأرض من « حجة على العباد ، من نبي أو وصي ، ظاهر مشهور أو غائب مستور »[٣] هي عندهم منصب الهي يختاره الله بسابق علمه كما يختار النبي ، ويأمر النبي بأن يَدُل الأمة عليه . . ويعتقدون أن الله أمر نبيه بأن ينص على الامام علي وينصبه علما للناس . وأن الامامة استمدت بالنص حتى الامام الثاني عشر محمد المهدي المنتظر . فالفقيه الشيعي عبد الحسين الأميني ذكر في كتابه « الغدير » ـ ١٢ جزءا ـ أن حديث الرسول : من كنت مولاه فعلي مولاه ، وأدر الحق معه حيث دار ، رواه ١٢٠ صحابيا و ١٨٤ من التابعين و ٣٦٠ من أئمة الحديث .

وفي بحث شيعي آخر أن الأئمة الاثني عشر « أشير عليهم بدلالات

(٣) محمد الحسين آل كاشف الغطاء ـ أصل الشيعة وأصولها ـ ص ١٣٦ .

مختلفة ، وضوحا وتلميحا وتلويحا وتصريحا فى ١٠٠ نص قرآنى و ١٢٠ حديثا صريحا »[٤] .

إزاء هذا العمق الاعتقادى البعيد للإمامة ، بات أمرا بالغ الشذوذ أن تظل الشيعة الامامية بغير قيادة طوال ١٢ قرنا . وأن يظل ذلك الموقع بالغ الأهمية شاغرا إلى أجل لا يعلم مداه إلا الله . ولم يكن هناك غير الفقهاء بديلا لحل هذا المشكل وسد تلك الثغرة .

ومن الناحية التاريخية فإن كتب تاريخ الشيعة تشير إلى أن الامام الثانى عشر ، محمد المهدى ، اختفى فى غيبة صغرى قبل غيبته الكبرى ، وأن أربعة فقهاء تولوا النيابة عنه فى قضاء شئون الشيعة هم : عثمان بن سعيد ، ثم ابنه المعروف بالشيخ الخلانى (المتوفى سنة ٣٠٤ هـ) ثم الحسين بن روح النوبختى (توفى سنة ٣٢٦ هـ) ثم على بن محمد السمرى (ت ـ ٣٢٩ هـ) .

ووقوع تلك النيابة عن الامام ، فضلا عن النصوص العديدة التى أعطت الفقهاء مقاما ومسئوليات خاصة فى توجيه المسلمين ، حسم الأمر لصالح الدور الفعال للفقهاء ومهد التربة لظهور فكرة الولاية ، وتناميها .

فى الاطار التاريخى أيضا ، فإنه كان عسيرا على الشيعة الامامية أن تستمر مسيرتهم طوال ١٢ قرنا بغير دولة لهم (عند مثقفى الشيعة الامامية لم يكن الصفويون ولا القاجار ولا عرش بهلوى دولا للشيعة ، ولكنها كانت دولا مدنية ظالمة حملت اسم الشيعة ـ وحكمتهم ـ ولم تكن لها علاقة بالتشيع الحقيقى) .

الشيعة الزيدية ، أتباع زيد بن على زين العابدين ، أقاموا ثلاث دول بين القرنين الثانى والرابع الهجريين . الأدارسة فى المغرب ، والزيدية والهادوية فى اليمن ، والزيدية الناصرية فى الديلم وطبرستان (قرب بحر قزوين شمال إيران حاليا) . الشيعة الاسماعيلية ، أتباع اسماعيل بن جعفر الصادق أقاموا الدولة العبيدية فى شمال أفريقيا والدولة الفاطمية فى مصر .

---

(٤) الشيخ محمد اليحفوفى ـ من بحث بعنوان « أولو الأمر عند المذاهب الإسلامية » قدم إلى مؤتمر أئمة الجمعة والجماعة الذى عقد بطهران عام ٨٤ ـ ص ٣٤٣ من كتاب المؤتمر .

أما الشيعة الإمامية ففى غيبة دولة حقيقة لهم ، لم يكن أمامهم سوى أن يحتموا بالفقهاء ، ليؤدى هؤلاء دور الدولة بالنسبة إليهم .

تاريخيا ، فإن الفقيه الشيعى كان له دور أكبر من مجرد كونه مرشدا روحيا ، إذا صح التعبير . تجاوزت مهمته حدود الفتوى بما هو حلال ، وما هو حرام ، إلى دور المتلقى للزكاة والخمس ، مما وضعه فى موقف سمح له بأن يكون وثيق الصلة بالحياة الاقتصادية للمجتمع ، ووثق من علاقة الفقهاء بالتجار ، المصدر الأهم وأصحاب النصيب الأوفر فى دفع الزكاة والخمس . ولكن الأهم من ذلك أن الدفع المباشر للفقهاء وضع بذرة النمو الاقتصادى المستقل لهم فى مواجهة الدولة . وكان هذا الاستقلال الاقتصادى من أهم عوامل إقامة المؤسسة الدينية ذاتها ، ثم تحقيق الاستقلال السياسى للمؤسسة ولهؤلاء الفقهاء .

كانت الأوقاف هى الضمان التقليدى لاستقلال الفقهاء عند السنة والشيعة . ولذا سعت بعض الدول إلى احتواء المؤسسة الدينية ـ وضربها أحيانا ـ عن طريق السيطرة على تلك الأوقاف وفرض إشرافها عليها . ساعد على ذلك أنها ـ كقاعدة ـ أعيان مرصودة ومرئية . أما ريع الزكاة والخمس فقد كان من العسير على الحكومات أن تبسط سلطانها عليه . لأنه حصيلة مبادرات أفراد بالملايين تتعذر ملاحقتها فضلا عن مصادرتها .

ساعد على تعميق دور الفقهاء أن رصيد الشيعة التاريخى فى التشريد والاضطهاد والملاحقة إضطرهم للجوء إلى ما نسميه الآن بالتنظيمات السرية ، التى تفاوتت درجة إتقانها ، وخطورتها أحيانا ، من فرقة شيعية إلى أخرى . وإلى الآن ، فإن الاسماعيلية تحيط هيكلها التنظيمى بسرية بالغة ، وتلزم الأتباع بعدم البوح بأى من أسرار الطائفة . وقد كان مبدأ « التقية » ، الذى أخذت به فرق الشيعة ، أحد الصياغات التى لجأوا إليها لتوفير غطاء شرعى للكتمان ، بحيث يظهر المرء غير ما يبطن .

ورغم أن الشيعة الأثنى عشرية تجاوزت تلك الحدود ، إذ لم يعد فى ممارسات أتباع المذهب سر ، لا على المستوى العبادى ولا على المستوى التنظيمى ، إلا أنه منذ عصور الملاحقة والتشرد ظل الفقهاء يقومون بدور ضباط أو مراكز الاتصال بين أتباع المذهب .

من ناحية أخرى فإن الفقهاء اكتسبوا دورا هاما ـ ولا يزالون ـ فى مناطق الأقليات الشيعية ، فى الخليج والجزيرة العربية بوجه أخص ، ليس فقط لأن تلك طبيعة الأقليات حيث وجدت . ولكن أيضا لأن الشيعة فى تلك المناطق ظلوا يعانون من الاضطهاد حتى عهد قريب . وظل الفقهاء هم رموز الاستمرار وحصون المذهب .

فى إيران ، حيث الأغلبية الساحقة شيعية ، كان لهم دور أكبر إذ يظل الفقهاء فى بلدان العالم الإسلامى الناطقة بغير العربية يلعبون دورا بارزا ، من حيث أنهم ـ كقاعدة ـ سبيل الناس إلى المعرفة الدينية . إذ أن منابع تلك المعرفة عربية فى الأساس ، ولا يتاح الاتصال بها إلا للفقهاء دون غيرهم . يعزز من تلك المكانة أن العاطفة الدينية فى تلك البلدان البعيدة عن قلب العالم الإسلامى ، حميمة وجيشة إلى درجة تفوق عواطف الكثيرين فى أنحاء العالم العربى .

لهذه الأسباب فى مجموعها استقر وضع الفقهاء كمؤسسة دينية ظل دورها يتنامى إلى الحد الذى باتت معه قضية إقامة الحكومة والدولة سياقا طبيعيا . فمن دور بارز فرضته الظروف التاريخية ، إلى نشاط متعدد الاتجاهات فى الأمور العبادية والمعاملات المالية إلى تثبيت العلاقة بين الفقهاء والأتباع بصيغة « التقليد » الذى أصبح واجبا على أولئك الأتباع ، بحيث يبطل عمل العامى ـ فى غير الضروريات ـ إذا صدر من غير تقليد ، لواحد من الفقهاء الأحياء ، أو الأموات(٥) . ثم إلى تأسيس المرجعية وتثبيت دورها كقيادة ، سواء تجسدت فى مرجع واحد ، أو مراجع عدة .

هذه الخطى الهامة ، تم إنجازها تدريجيا فى الفترة ما بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر . وبعد جدل طويل بين مدرستى الأصوليين والإخباريين ، رجحت فيه كفة الأصوليين ، وإن لم يلق الإخباريون أسلحتهم فيها بعد . غير أن القضية لم يحسمها جدل الفقهاء وحده ، ولكن المسار التاريخى لعب دوره الفاعل أيضا . فقد كان الأصوليين فى مجرى التاريخ ، بينما حاول الإخباريون أن يقفوا ضده . أيضا فإن تمذهب الدولة العثمانية كدولة سنية التزمت بالفقه الحنفى ، كان

---

(٥) زبدة الأحكام للإمام الخمينى ـ من مطبوعات منظمة الإعلام الإسلامى بطهران ص٣ .

له رد فعله على الجانب الشيعى . وإذا كان هذا التمذهب قد تبلور بعد قيام الدولة الصفوية فى بداية القرن السادس عشر ، إلا أنه أحدث مردوده على صعيد المؤسسة الدينية ، وغير هذا أو ذاك ، فإن حملة تكفير الشيعة ، التى ما زالت مستمرة إلى الآن ، بالأخص من جانب بعض السلفيين ، كان لابد أن تعكس على الجانب الآخر قدرا أكبر من التماسك وقدرا مماثلا من السعى إلى تثبيت الكيان الذى تهدده تلك الحملات .

ولاية الفقيه : الميلاد والمنشأ

ثمة اختلاف فى المصادر الشيعية حول نشوء أو ميلاد فكرة ولاية الفقيه . فهناك رأى يتبناه بعض فقهاء الشيعة فى لبنان ، يرى أن الفكرة ولدت فى « جبل عامل » ، وأن الأب الشرعى لها هو الشيخ محمد بن مكى الجزينى ، المتوفى فى سنة ٧٦٨ هـ - ١٣٦٦ م .

وفيما يذكر الشيخ جعفر المهاجر - من فقهاء الشيعة اللبنانيين - فإن ابن مكى ينتسب إلى قرية « جزين » العاملية ، ونشأ فى بيت علم وفقه . ثم واصل دراسته العلمية فى « الحلة » بالعراق ، التى كانت أهم المراكز العلمية الشيعية آنذاك ، ومنها انتقل إلى بغداد فمصر ومكة والمدينة . وخلال رحلته فإنه حقق لنفسه شهرة علمية ممتازة ، ووصف بأنه أفقه جميع فقهاء الآفاق ، وأنه شيخ الشيعة والمجتهد فى مذهبهم .(٦) .

وبعد عودته إلى جزين ، فإنه سعى إلى تنشيط الحركة العلمية فيها ، وتولى الإشراف على تخريج جيل من الفقهاء كان لهم دور كبير فيما بعد . وأثناء مقامه هناك ، فإنه ألف كتاب « اللّمعة الدمشقية » - الذى يعد إلى الآن أحد مراجع الثقافة الشيعية - وفيه ذكرت لأول مرة عبارة « نائب الإمام » . وهى عبارة أصبح لها مالها فى الثقافة الشيعية . حتى يذكر الشيخ المهاجر فى هذا الصدد « أن التشيع قد أفلح على يد محمد بن مكى الجزينى فى ملء فراغ السلطة ، الذى استمر فترة تزيد على أربعة قرون ، أى منذ الانتهاء العملى لفترة الإمامة » .

---

(٦) كتب الشيخ جعفر المهاجر بحثه عن ولاية الفقيه ، فى تقديمه للطبعة اللبنانية من كتاب الإمام الخمينى « الحكومة الإسلامية » التى أصدرتها دار القدس للنشر .

وهو يضيف أن الفكرة لقيت النجاح السريع الذى تستحقه ، وانتشرت انتشار البرق فى المراكز الشيعية ، حتى أن على بن المؤيد ، ملك خراسان الشيعى ، أرسل يستقدمه إلى خراسان ، ليشرف على أسس دولته الشيعية العتيدة هناك ، التى ضاعت فيما بعد فى الطوفان التيمورى (هجوم التتار بقيادة تيمور لنك) . ولكن ابن مكى آثر أن يبقى فى وطنه . واكتفى بتسليم رسول الملك كتابه « اللمعة الدمشقية » ، مقترحا أن يكون دستور الدولة الشيعية الجديدة .

قتلت السلطة المملوكية فى دمشق الشيخ ابن مكى سنة ٧٦٨ هجرية ، وظلت فكرته فى نيابة الإمام أو ولاية الفقيه مدفونة فى كتابه الشهير ، وإن عاشت فى المحافل الفقهية الشيعية باعتبارها مجرد فكرة علمية لا أكثر .

وبعد حوالى قرن ونصف قرن ، قدر للشاه إسماعيل الصفوى أن يوحد أرض إيران ، ويعلن سيادة المذهب الشيعى الجعفرى عليها ، مما جذب فقهاء الشيعة من جبل عامل والبقاع ، الذين حملوا معهم فكرة ولاية الفقيه ، التى غرسها ابن مكى ، والتى ظلت تتفاعل فى أوساط فقهاء الشيعة بإيران ، حتى بلغت ما بلغته فيما بعد .

غير أن المصادر الإيرانية لا تشير إلى دور الشيخ محمد بن مكى الجزينى ، وتركز على أن الولاية المطلقة للفقيه تنسب إلى فقيه آخر اسمه الشيخ أحمد النراقى ـ لا يزال مجهولا لدى كثيرين ـ ولا يعرف عنه سوى أنه من مواليد قرية نراق بكاشان (فى إيران) ، وأنه تلقى علومه فى النجف الأشرف وكربلاء ، حيث نال مرتبة عظيمة فى الفقه والأصول . ثم عاد إلى كاشان ليعلم ويؤلف إلى أن توفاه الله فى سنة ١٢٤٥ هجرية (حوالى ١٨٢٠ م) ، فدفن فى الصحن العلوى بالنجف الأشرف .(فى العراق) .

(من مفارقات الأقدار أن يكون أبرز تلاميذ الشيخ النراقى ، هو ذات الرجل الذى جلس الإمام الخمينى فى صحن مسجده فيما بعد ليلقى دروسه حول ولاية الفقيه : الشيخ مرتضى الأنصارى) .

وإذ لا نستبعد أن يكون الشيخ النراقى قد استقى فكرة نيابة الإمام أو ولاية الفقيه من كتاب « اللمعة الدمشقية » لابن مكى ، إلا أنه لا خلاف على أن الشيخ

النراقى له الفضل فى صياغة الفكرة وتفصيلها ، وإن نسبت صياغة العنوان إلى الشيخ ابن مكى الجزينى .

جعل الشيخ النراقى من « ولاية الفقيه » عنوانا لأحد فصول كتابه « عوائد الأيام » وشرح فكرته بقوله : والمقصود هنا بيان ولاية الفقهاء ، الذين هم الحكام . فى زمان الغيبة ، والنواب عن الأئمة ، وأن ولايتهم هل هى عامة فيما كانت الولاية فيه ثابتة لإمام الأصل أم لا ؟ . . أى هل يباشر صلاحيات ووظائف الإمام الغائب أم لا ؟ .

وهو يقدم الإجابة عن السؤال قال : « إنى قد رأيت المصنفين يحولون كثيرا من الأمور إلى الحاكم فى زمن الغيبة ، ويولونه فيها ، ولا يذكرون عليه دليلا . ورأيت بعضهم يذكرون أدلة غير تامة . . وكذلك نرى كثيرا من المحتاطين من أفاضل العصر وطلاب الزمان ، إذا وجدوا فى أنفسهم قوة الترجيح والاقتدار على التفريع يجلسون مجلس الحكومة ويتولون أمور الرعية ، فيفتون لهم فى مسائل الحلال والحرام ، ويحكمون بأحكام لم يثبت لهم وجوب القبول عنهم ، كثبوت الهلال ونحوه . ويجلسون مجلس القضاء والمرافعات ، ويجرون الحدود والتعزيرات . . . ويقيمون الأخماس ويؤجرون الأوقاف العامة ، إلى غير ذلك من لوازم الرئاسة الكبرى . ونراهم ليس بيدهم فيما يفعلون دليل ولم يهتدوا فى أعمالهم إلى سبيل . بل اكتفوا بما رأوا وسمعوا من العلماء الأطياب . فيفعلون تقليدا بلا اطلاع على فتاويهم ، فيهلكون ويهلكون . أذن الله لهم أم على الله يفترون . . فرأيت أن أذكر فى هذه العائدة الجليلة وظيفة الفقهاء وما فيه ولايتهم ، ومن عليه ولايتهم على سبيل الأصل « الكلية »(٧) .

ثم استعرض الشيخ النراقى مجموعة من النصوص المنسوبة إلى النبى ﷺ وإلى غيره من أئمة الشيعة منها على سبيل المثال :

- ما رواه الإمام على عن النبى ﷺ إذ قال : اللهم أرحم خلفائى . قيل يا رسول الله ومن خلفاؤك ، قال : الذين يأتون بعدى ، ويروون حديثى وسنتى .

(٧) نشرت مجلة التوحيد الصادرة باللغة العربية فى طهران بحث ولاية الفقيه للشيخ أحمد النراقى فى عدديها الثالث والرابع لسنة ١٩٨٣ ، مع تعليق للسيد محسن الحسنى الأمينى .

ـ قوله عليه السلام : الفقهاء أمناء الرسل ، ما لم يدخلوا فى الدنيا . قيل يا رسول الله ، وما دخولهم فى الدنيا ؟ قال : إتباع السلطان ، فإن فعلوا ذلك فاحذروهم على دينكم .

ـ حديث آخر منسوب إلى النبى ﷺ يقول فيه : افتخر يوم القيامة بعلماء أمتى ، فأقول : علماء أمتى كسائر الأنبياء من قبلى .

ومن النصوص الأخرى المنسوبة إلى الأئمة ، التى تعتبر فى الفقه الشيعى أحاديث وجزءا من السنة : العلماء ورثة الأنبياء ـ العلماء أمناء ـ الفقهاء حصون الإسلام كحصن سور المدينة لها ـ منزلة الفقيه فى هذا الوقت كمنزلة الأنبياء فى بنى إسرائيل .

ـ الملوك حكام على الناس ، والعلماء حكام على الملوك (وهو نص صادر عن الإمام جعفر الصادق ، ويشكل ركيزة أساسية فى دعوى ولاية الفقيه ، والملاحظ أن العبارة استخدمت بنصها فى محاضرات الإمام الخمينى وسياق حديث الشيخ النراقى عن الولاية) ـ . . وأما الحوادث الواقعة ، فارجعوا فيها إلي رواة أحاديثنا ، فإنهم حجتى عليكم ، وأنا حجة الله عليهم .

ـ . . ينظر أن من كان منكم قد روىٰ حديثنا ، ونظر فى حلالنا وحرامنا ، وعرف أحكامنا ، فليرضوا به حكما ، فإنى قد جعلته عليكم حاكما .

وبعد أن أورد الشيخ النراقى ١٩ دليلا ، خرج منها بنتيجتين هامتين هما :

ـ كل ما كان للنبى والأئمة ، الذين هم سلاطين الزمان وحصون الإسلام فيه الولاية وكان لهم ، فللفقيه أيضا ، إلا ما أخرجه الدليل من إجماع أو نص أو غيرها .

ـ أن كل فعل متعلق بأمور العباد فى دينهم أو دنياهم ، ولابد من الإتيان به ، ولا مفر منه إما عقلا أو عادة ، من جهة توقف أمور المعاد أو المعاش لواحد أو جماعة عليه ، وإناطة انتظام أمور الدين أو الدنيا به . . أو . . . أو . . أو . . ، فهو وظيفة الفقيه ، وله التصرف فيه والإتيان به .

وبعد أن وضع هاتين القاعدتين ، قدم الشيخ النراقى بيانا بوظائف الفقهاء التى منها :

ـ الإفتاء ، فلهم ولايته ، وعلى الرعية وجوب إتباعهم فى فتاواهم وتقليدهم فى أحكامهم .

ـ القضاء ، إذ لهم ولاية القضاء والمرافعات ، وعلى الرعية الترافع إليهم وقبول أحكامهم .

ـ تطبيق الحدود والتعزيرات ، وقد ذكر أن فقهاء الشيعة اختلفوا فى ثبوت ولايتها للفقيه . ثم قال أنه يؤيد الرأى القائل بثبوت هذه الولاية أيضا للفقهاء .

ـ الولاية على أموال اليتامى ، بمعنى جواز تصرف الفقيه الجامع الشرائط فيها ، ونفوذ بيعه وشرائه ومعاملاته ، استثناء من قاعدة عدم جواز التصرف فى مال الغير .

ـ الولاية على أموال المجانين والسفهاء ، والغائبين عن ديارهم .

ـ الولاية على الأنكحة (عقود الزواج) .

ـ التصرف فى أموال الإمام من نصف الخُمس ، والمال المجهول مالكه ، ومال من لا وارث له .

مغنية : الفقيه أضعف من المعصوم

هذه الدعوة المبكرة إلى شمول ولاية الفقيه لكل أمور الدين والدنيا ، المعاد والمعاش ، ولكل صلاحيات الإمام ، لقيت صداها لدى الإمام الخمينى ، الذى تبنى الفكرة ، وظل يروج لها وينادى بتحقيقها . وفى محاضراته على طلاب حوزة النجف ، فإنه استدل مرتين برأى الشيخ النراقى ، مما يشير إلى أنه كان على دراية به ، إن لم يكن قد تأثر بأفكاره .

ولئن مرت بهدوء دعوة الشيخ النراقى إلى الولاية المطلقة للفقيه ، سواء لأن كتابه لم يلق اهتماما عاما بحكم قدمه أو بطبيعة العصر الذى صدر فيه ، أو لأنه كان مجرد رأى واجتهاد فقهى ، إلا أن الأمر لم يكن بهذه السهولة فيما بعد ، عندما دخلت الدعوة فى صلب كيان الدولة . ينطبق ذلك أيضا على سلسلة المحاضرات التى ألقاها آية الله الخمينى حول ولاية الفقيه فى النجف خلال فترة الثمانية عشر يوما . إذ أنها لم تثر الانتباه إلا بعد حوالى عشر سنوات من القائها ، عندما بدأت

الثورة ضد الشاه تتبلور ، وبدأ يتكشف تدريجيا دور الإمام الخميني في قيادتها .

لم تلق الدعوة ترحيبها من أركان المرجعية الشيعية . وبينما انتقد السيد الخوئي في النجف فكرة الولاية المطلقة ، والدعوة إلى إقامة الدولة انطلاقا منها ، وسجل اعتراضاته وتحفظاته في رسالة بعنوان « أساس الحكومة الإسلامية » ، إلا أن أعلى صوت في رفض تلك الدعوة صدر من لبنان . ففي السنة الأولى للثورة (عام ١٩٧٩) نشر الفقيه الشيعي البارز الشيخ الدكتور محمد جواد مغنية كتاباً بعنوان « الخميني والدولة الإسلامية » ، انتقد فيه بوضوح مبدأ التوسع في ولاية الفقيه .

وأهمية كتاب الدكتور مغنية تكمن في أن شبهة الأسباب الشخصية في موقفه الرافض لصيغة الولاية غير واردة . فالرجل ليس مرجعا يدافع عن مصالحه أو مكانته الأدبية ، وإن ظل فقيها كبيراً له احترامه ومقداره . ولذا فقد نستطيع أن نقرر بضمير مطمئن أن منطلقات موقفه موضوعية بحتة . فضلا عن أنه يذكر له أنه منذ لاحت بوادر الثورة ، وهو شديد التأييد والحماس لها ، ولشخص الإمام الخميني .

حدد الدكتور مغنية موقفه في الكتاب على النحو التالي[٨] :

■ عن الدولة الإسلامية قال : أنها لا تعني سيطرة الشيوخ على الحكم ، واحتكارهم لسلطان السياسة ، وإنما تعني أن الشريعة الإسلامية هي الإطار والعيار لقوانين الدولة وتصرفاتها . فكل ما يتفق وهذه الشريعة يجب تنفيذه ولا يجوز الطعن فيه . وما ثبت تعارضه يحكم ببطلانه وإلغاء آثاره (ص ٢٠) .

■ في تعريف الولاية قال : السلطة على أمور معينة (بواسطة الفقيه المجتهد العادل في زمن غيبة المعصوم) . . والأصل عدم ولاية أي إنسان على آخر إلا ما خرج بآية محكمة أو رواية قائمة . . وقد ثبت بالإجماع والنص الواضح أن للمجتهد العادل ولاية الفتوى والقضاء ، وعلى الأوقاف العامة وأموال

---

(٨) د. محمد جواد مغنية ـ الخميني والدولة الإسلامية ـ من مطبوعات دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٧٩ .

الغائب وفاقد الأهلية ، مع عدم الولاية الشخصية ، وارث من لا وارث له . وعلى الممتنع فى بعض الحالات . . والتفصيل فى كتب الفقه (ص ٦٠) .

« . . وقد اختلفوا ، هل للفقيه ولاية على غير ذلك ؟ (ص ٦٠) .

فى رده على السؤال قال : أن ولاية الإمام المعصوم تعم وتشمل أمور الدين والدنيا ، بما فيها رياسة الدولة وتنفيذ الأحكام . . فهل تنتقل (تلك الولاية) إلى الفقيه بعد غيبته ؟ . .

هنا قال الدكتور مغنية : فى رأينا أن ولاية الفقيه أضعف وأضيق من ولاية المعصوم ، وأن الأولى لا تتعدى الأشياء التى أشرنا إليها ، وقوفا على القدر المتيقن من النص والإجماع .

ثم أضاف : قال الإمام الخمينى فى كتابه « الحكومة الإسلامية » ما معناه ، لا فرق بين ولاية المعصوم وولاية المجتهد العادل من حيث العموم والشمول . (وإن) منزلة المعصوم أرفع من منزلة المجتهد ، غير أن وظيفتهما واحدة حتى فى السلطة والإمارة (ص ٦١) .

وعقب على هذه النقطة بقوله : إن التفاوت فى المنزلة يستدعى التفاوت فى الآثار لا محالة . ومن هنا كان للمعصوم الولاية على الكبير والصغير ، حتى على المجتهد العادل . ولا ولاية للمجتهد على البالغ الراشد . . ما ذلك إلا لأن نسبة المجتهد إلى المعصوم ، تماما كنسبة القاصر إلى المجتهد العادل (ص ٦٢) .

استشهد الدكتور مغنية بآراء لبعض الفقهاء ، فى مقدمتهم الشيخ مرتضى الأنصارى تلميذ الشيخ النراقى ، والذى أطلق اسمه على المسجد الذى كان يلقى فيه الإمام الخمينى دروسه بالنجف ، وقد سجل الشيخ الأنصارى رأيه ذلك فى « المكاسب » أول كتاب عرضه الخمينى على تلاميذه فى الحوزة .

من كتاب المكاسب ، أورد الدكتور مغنية النص التالى : لا دليل على وجوب طاعة الفقيه كالإمام . وربما يتخيل من أخبار واردة فى شأن العلماء أنهم كالأئمة ، مثل (القول) بأن العلماء ورثة الأنبياء ، وأمناء الرسل ، وأنبياء بنى إسرائيل ، ومجارى الأمور بيد العلماء بالله ، الأمناء على حلاله وحرامه ، وغير ذلك ، لكن الإنصاف بعد ملاحظة سياقها أو صدورها أو ذيلها ، يقتضى الجزم

بأنها فى مقام البيان لوظيفة الفقهاء . من حيث نشر الأحكام الشرعية . لا كون الفقهاء كالنبى والأئمة « صلوات الله عليهم » فى كونهم أولى الناس فى أموال الناس . فلو طلب الفقيه الزكاة والخمس من المكلف ، فلا دليل على وجوب العطاء إليه شرعا . . وبالجملة ، فإقامة الدليل على وجوب طاعة الفقيه الإمام ، إلا ما خرج بالدليل ، دونها خرط القتاد (ص ٦٣) .

. . وقال الميرزا النائينى فى كتاب « منية الطالب » : لا إشكال فى ثبوت منصب القضاء والإفتاء للفقيه فى عصر الغيبة . . وإنما الإشكال فى ثبوت الولاية العامة . . واستدلوا على ثبوتها للفقيه بالأخبار الواردة فى شأن العلماء ، ولكنك خبير بعدم دلالتها على المدعى . أما قول النبى ﷺ علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل ، فلعل هذا التنزيل من حيث تبليغ الأحكام . وأما مجارى الأمور بيد العلماء ، والعلماء ورثة الأنبياء ونحو ذلك ، فمن المحتمل قريبا أن المراد بالعلماء هنا الأئمة عليهم السلام كما فى الخبر المعروف « مداد العلماء كدماء الشهداء » .

. . وفى « بلغة الفقيه » للسيد محمد بحر العلوم : لا شك فى قصور الأدلة عن إثبات أولوية الفقيه بالناس ، كما هى ثابتة للأئمة عليهم السلام (ص ٦٤) .

وعقب الدكتور محمد جواد مغنية على ذلك بقوله : **دولة الإسلام . . دستورها وطريقها الوحيد هو كتاب الله وسنة نبيه . ولا يختلف فى ذلك اثنان من المطالبين بقيام هذه الدولة . إنما الكلام فى سيادة الدول ، وهل هى للفقهاء والمجتهدين بالخصوص ، ولا يسوغ لغيرهم القيام بشئونها ، أو يسوغ ذلك لغير المجتهدين ، على ألا يتجاوزوا حدود الشريعة تماما ، كما هو شأن المقلد الملتزم ؟ . . ذهب إلى الأول من ساوى بين ولاية المعصوم والفقيه من حيث العموم والشمول ، وإلى الثانى من فرق بينهما (ص ٦٤) .**

وأضاف : **نحن نجنح إلى أن اختيار رجال الدولة فى العصر الراهن بيد المسلمين المحكومين ، لا بيد الفقهاء خاصة ، لأن ولاية الفقيه أضعف وأضيق من ولاية المعصوم . . وعليه ، يسوغ أن يتولى أمر الدولة غير المجتهدين ، على أن تتفرغ طائفة من الإختصاص بالشريعة الإسلامية ، وتصوغ قوانين تخضع للكتاب والسنة صياغة واضحة ، وقريبة إلى الأذهان والأفهام (ص ٦٥) .**

وختم الدكتور مغنية تعقيبه بقوله : إذا ساغ للشيخ محمد عبده أن يقول ، قد تجد فى أوروبا مسلمين بلا إسلام ، وفى البلاد الإسلامية إسلام بلا مسلمين ، ساغ لغيره أن يقول أيضا : أية دولة أحسنت العمل فهى مسلمة ، حتى ولو كان رجالها من غير الفقهاء . وإن أساءت ، فما هى من الإسلام فى شىء ، حتى لو تخرج أعضاؤها من النجف أو الأزهر !

وأياً كانت وجاهة وقوة الحجج سواء التى ساقها الدكتور مغنية ، رحمه الله ، أو تلك التى ما زالت تتردد فى أرجاء الحوزة ، من قبل أعوان وتلاميذ المراجع الآخرين ، فإن التطور المتلاحق للأحداث لم يدع مجالا للأخذ والرد ، والاختيار بين الولاية المطلقة أو الولاية المقيدة .

لقد حسم الأمر منذ بداية الثورة لصالح الإمام الخمينى ، ودعاة ولاية الفقيه . أصبح هؤلاء فى السلطة والآخرون خارج السلطة ، وبمضى الوقت تعمق الخلاف وتحول إلى خصومة ، فيما يبدو ، وصنف الآخرون فى مربع أعداء الثورة ، بل على رأس هؤلاء الأعداء . حتى بات أشهر هتاف يتردد الآن بإيران - فى صلاة الجمعة بالأخص - يقول : مرك بر ضد ولاية فقيه (الموت لمعارضى ولاية الفقيه) . مرك بر أمريكا . مرك بر شوروى (الاتحاد السوفيتى) . مرك بر منافقين (مجاهدو خلق الذين بات يشار إليهم بوصف المنافقين) . مرك بر إسرائيل ! .

□ □

الفصل السادس

قتم فى البدء وفى المنتهى

تظل قم هى « المفتاح والقفل » فى إيران ما بعد الثورة . صحيح أن السلطة انتقلت إلى طهران ، وأن رموز الحكم من الفقهاء نزحوا إلى العاصمة تباعا منذ الأشهر الأولى لعام ١٩٧٩ ، إلا أن مركز الثقل الحقيقى ظل فى قم ، لم يغادرها ، بل أن انتقال الامام إلى شمالى طهران (حى جمران) لم يبعده كثيرا عن المدينة المقدسة ، فأركانه ورجاله هناك ، فى مقدمتهم آية الله حسين منتظرى الرجل الثانى وساعده الأيمن ، وآية الله على المشكينى ، رئيس مجلس الخبراء ، والرجل الثالث فى سلم القيادة ، وساعده الأيسر ، إن جاز الوصف . فضلا عن أن « خط » الامام ، مفتوح على « قم » طوال ٢٤ ساعة فى اليوم ، عبر الذاهبين والعائدين الذين لا يكفون عن الحركة فى الاتجاهين ، وعبر الهواتف التى لا تكف عن الرنين هنا وهناك .

لا يغير من الموقف كثيرا أن تكون قم « قضاء » يتبع لواء طهران . فهى مفارقة تعكس التناقض الذى يحدث أحيانا بين التاريخ والجغرافيا . فواقع الأمر هو أن واجهة السلطة فقط هى المرئية والمرصودة فى طهران . أما العقل والقلب فلا يزالان فى قم . والذين يقصدون طهران ، ويجهدون أنفسهم على أبوابها وفى دروبها ليفقهوا حقيقة ما يجرى فى إيران ، يخاطبون الوجه والواجهة ، لا أكثر . وما لم يصلوا إلى قم ، فانهم يظلون بعيدين عن محيط العقل ونبضات القلب .

وقد كنت واحداً من هؤلاء ، الذين عندما حطوا رحالهم فى طهران ، اعتبروها نهاية الرحلة إلى إيران الثورة . ثم كنت أحد الذين طافوا بأرجاء العاصمة على مكاتب كبار المسئولين فى مختلف مؤسسات الدولة وسلطاتها التى نعرفها ، من تنفيذية وتشريعية وقضائية . وكنت أحسب انى بذلك آتى البيوت من أبوابها . متصوراً أنه ما دامت هناك عاصمة معتمدة ، فمن الطبيعى أن يتركز فيها الثقل السياسى . وطالما أن هناك حكومة شرعية فلابد أن تكون هى السلطة العليا . فضلا عن أنه إذا كان للبلد رئيس ، فلا نزاع فى كونه الرأس وصاحب السلطان ، وربما أيضا الصولجان وكل الهيلمان !

لاحقاً اكتشفت أنى طرقت الباب الخطأ ، وأنى انتهيت من حيث كان على أن أبدأ . وتنبهت إلى أننى كنت أسير تجربة العالم الذى نعيشه « والسلطات » التى نتعامل معها ، غير مدرك ، بالقدر الكافى ، خصوصية التجربة الإيرانية ، التى ما زالت تطرح نفسها باعتبارها شيئا يختلف عما نعرفه ونألفه .

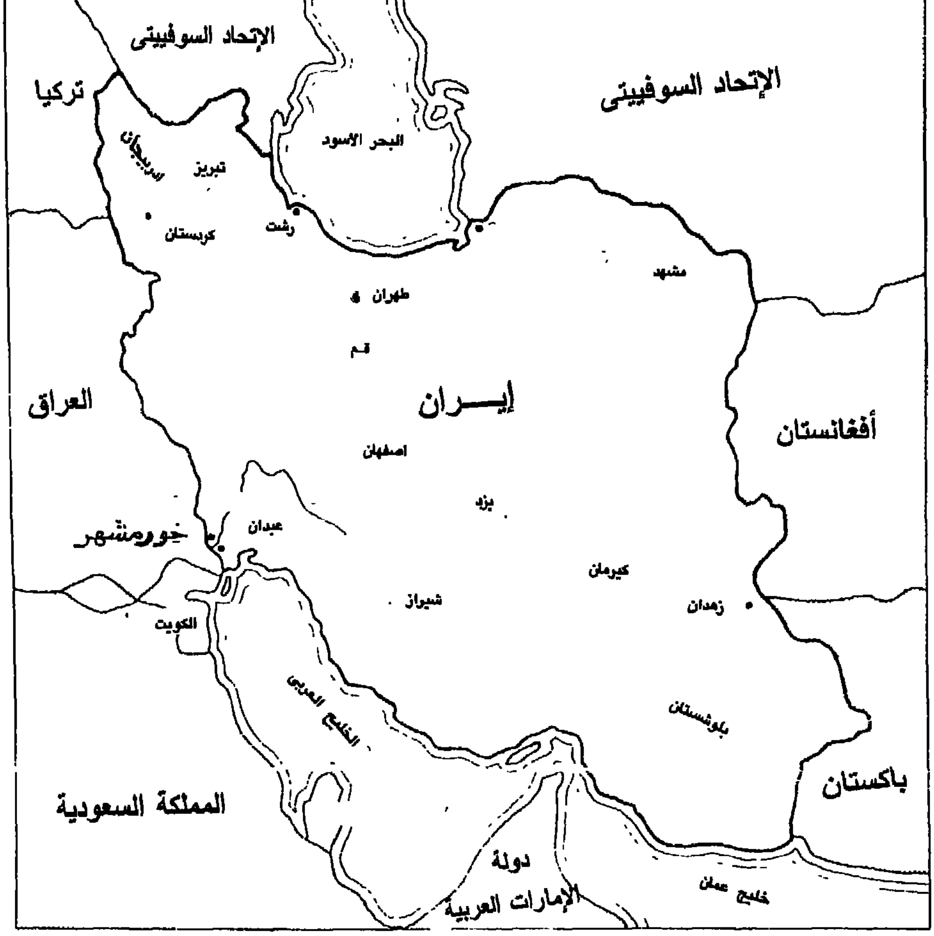
وكان مما أثار انتباهى فى البداية أنه ما من مسئول إيرانى ذى نفوذ ، إلا وله فى قم قدم . حتى بعد نزوح الامام الخمينى إلى طهران ، فإن رجال الدولة جميعا ظلوا إما من المترددين على المدينة المقدسة أو من المقيمين فيها . وأكثر هؤلاء المترددين يقضون عطلة نهاية الأسبوع ـ أيضا ـ فى قم .

وكان ظاهر الأمر يمكن تفسيره بأنه ما دام الفقهاء هم الذين يحكمون إيران ، وطالما أن قم هى معقل الفقهاء وقاعدتهم الأساسية ، فمن الطبيعى أن يكون لها « دور ما » فى المسار السياسى الإيرانى . أما حجم هذا الدور وطبيعته فهو مما احتاج إلى وقت لاكتشافه .

وفى محاولة اكتشاف ذلك الدور ، استوقفتنى واقعتان :

ـ الأولى ، قصة منسوبة إلى الشهيد آية الله بهشتى ، أحد آباء الثورة ، سمعتها من أحد مساعديه ، خلاصتها أنه كان من رأيه أن الصيغة المعتمدة لمؤسسات الدولة ، لا ترضى الفقهاء ، باعتبارها تصميما غربيا فى الأساس ، لا تناسب بالضرورة الواقع الذى يريدون بناءه . بالأخص فى ظل فكرة إحالة قيادة الدولة إلى نائب الامام الغائب ، رغم وجود رئيس الجمهورية ، واعتبار القائد فوق السلطات الثلاث الموجودة فى الدولة . أيضا فانه كان من رأيه أن قبول فكرة الحكومة بشكلها الحالى ، هو فقط من قبيل التعامل مع صيغة معتمدة ومتداولة فى الأبنية السياسية المعاصرة . كان من رأيه أيضا أن ولاية الفقهاء هى شىء أكبر من الوزارة والامارة ، وأن الفقهاء أنفسهم ـ كبارهم طبعا ـ لهم مقام أرفع من كرسى الوزارة أو الرئاسة ، وأن تصديهم للسلطة التنفيذية هو بمثابة تقليص من دورهم وحجمهم .

ـ الواقعة الثانية حدثت مع أعضاء وفد من الشخصيات الإسلامية المستقلة زار طهران فى صيف عام ١٩٨٥ ، للاستماع إلى وجهة نظر المسئولين فى موضوع



ايران الجغرافيا ، بحدودها الرئيسية وخليط الدول المحيطة بها الذى يشهد لها بخطورة الموقع وحساسيته البالغة بالنسبة للشرق والغرب .

الحرب . وقد قوبل الوفد بحفاوة ملحوظة ، ورتبت لأعضائه جلسة مناقشة مع مجلس المحافظة على الدستور ، الذى يضم ستة من آيات الله الكبار ، هم أعلى مستوى من الفقهاء المعاونين للامام الخمينى ، المتمركزين فى قم . (يضم المجلس أيضا ستة من القانونيين الذين يرشحهم مجلس القضاء الأعلى) . وبعد اجتماع وفد الشخصيات الإسلامية مع آيات الله ـ وهو ترتيب حدث للمرة الأولى ـ أعرب أحدهم عن رغبة الوفد فى لقاء رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء . عندئذ تبادل اثنان من آيات الله الابتسام ، وقال أحدهما للآخر مستنكرا بلغة عربية سمعها الزوار ، بعد اجتماعهم معنا ، لماذا يريد اخواننا أن يضيّعوا وقتهم مع أولئك الموظفين ؟ ! .

حتى عندما كان يدفعنى الفضول إلى محاولة التعرف على إتجاهات الفقهاء الكبار ، والتيارات التى تتلاطم تحت السطح فى الساحة الإيرانية ، فقد كان الرد الذى سمعته أكثر من مرة هو : تستطيع أن ترى الصورة بشكل أفضل من قم . فمناخ العاصمة السياسية يفرض حسابات معيّنة على بعض المتحدثين . أما مناخ الحوزة العلمية ، فهو يعفى جميع المتحدثين من تلك الحسابات . فضلا عن أن الشيوخ يتحدثون « براحتهم » هناك باعتبار أنهم يصبحون فى بيوتهم . أيضا قال لى واحد من العارفين : قد لا يصارحك الفقهاء الكبار بما تريد أن تسمع ، ولكن هؤلاء لهم تلاميذ ، وتلاميذ التلاميذ . منهم ستسمع كل شىء ، وثق أن ما يقولونه هو ـ فى أكثره ـ تعبير عما يدور فى عقل الفقيه الكبير أو فى مجلسه .

قلت لأحد الأصدقاء فى مكتبه : يبدو أنه لابد من قم . وقبل أن أنهى كلامى كان قد رفع سماعه الهاتف ، وقال لأحد مساعديه : أعطنى قم . بعد ثانية كانت المدينة معنا على الخط . وفى دقيقتين أو ثلاث كان الاتفاق قد تم على أن أنزل ضيفا على أحدهم . وهو شخص لم التق به من قبل ، ولم أسمع باسمه .

اقترنت عندى الدهشة بالحرج . وقلت ، هل يعقل أن أقيم فى بيت انسان لا أعرفه ولا يعرفنى ، وأن أمضى عنده أياما يعلم الله عددها . . هكذا بغير مقدمات .

عندئذ رد صاحبى ، ذلك تقليد استقر فى قم ، نقلته إليها القبائل العربية التى وفدت إلى المدينة منذ أواخر القرن الهجرى الأول . والعرب ـ كما تعرف ـ كانت خيامهم ودورهم مفتوحة للجميع ، وكانوا لا يسألون ضيفهم عن هويته ومقصده إلا بعد ثلاثة أيام من إقامته عندهم . هذا التقليد لا يزال مستمرا فى المدينة المقدسة . فيستطيع أى زائر أن يدخل أى بيت ، ويأكل وينام فيه ، ولن يشعر أصحابه بأى حرج . لأنهم لن يكلفوا أنفسهم شيئا على الاطلاق . ستنام مع رجالهم على الأرض . وستأكل ـ على الأرض أيضا ـ من ذات الوعاء الذى يطعمون منه . وستخرج وتعود وقتما تشاء . ستجد الباب مفتوحا فى كل وقت .

وبعد أن حسم الأمر قال ، لا مشكلة فى الوصول إلى قم بطبيعة الحال . وأنت تعرف الطريق . فليست ١٣٢ كيلو مترا بالمسافة التى تذكر فى زماننا ، فضلا

عن أن المدينة صارت أقرب مما تتصور ، بعدما اتسع الطريق وزادت العناية بخدمته بعد الثورة .

ثم أضاف ، ألف ذاهب من أصدقائنا يمكن أن يحملوك معهم : وعلى أسوأ الفروض ، فمن « موقف » السيارات بطهران . هناك سيارة أجرة تسابق الريح إلى قم كل نصف ساعة ، لتصل إلى هناك فى مدة لا تزيد على ساعتين . والضحى هو أفضل وقت للوصول . فهم يصلّون الفجر ثم ينامون ، حتى توقظهم الشمس الحامية .

« شهر مقدس » : الوجه الآخر

مع طلوع شمس اليوم التالى كنا على أبواب قم . ركبنا الطريق الواسع والممهد الذى شاءت مفارقات الأقدار أن يبدأ شقه فى عهد الشاه ليفتتح فى عهد الثورة (!) عبرنا مساحات شاسعة من الصحراء القاحلة . مررنا إلى جوار بحيرة الملح التى كان رجال « الساواك » يلقون فيها بمن يريدون التخلص منه ، فتبتلعهم البحيرة ثم تتحلل أجسامهم . وقفنا عند واحد من ١٢ منفذا أقيمت حديثا بالخرسانة المسلحة ، بعرض الطريق لضبط عمليات الدخول والخروج . تفرس فى وجوهنا أحد شبان حرس الثورة الملتحين ، وقد حمل على كتفه مدفعا رشاشا صغيرا . توقفت عيناه عندى ، فبادره السائق قائلا : مسلم خارجى (أى أجنبى) ابتسم صاحبنا وتمتم : يا الله . استدار ليفتش حقيبة السيارة ، ويتأكد من خلوها من الأسلحة والمتفجرات أو غير ذلك من الممنوعات قبل أن يأذن لنا بالمرور . على بعد ٢٠٠ متر وقفنا عند حاجز آخر . مررنا بالاجراءات ذاتها ، ثم دخلنا زمام قم . أول ما طالعنا لافتة ضخمة تقول « تا انقلاب مهدى نهضت ادامة دارد » - ومعناها بالعربية : حتى ظهور المهدى ستظل ثورتنا مستمرة .

بعد دقائق كان مضيفى ، الذى التقيته لأول مرة ، يقودنى مرحبا إلى قاعة مستطيلة ، اختفت جدرانها وراء أرفف الكتب وغطيت أرضها ببساط متواضع بينما تناثرت المساند والحشايا فى الأركان . وليس فى المكان مقعد واحد . جلسنا القرفصاء على الأرض وتعارفنا سريعا ثم قال لى بعربية يجيدها ، خذ راحتك واعتبره بيتك ، أو جرب فيه حياة المستضعفين . ثم أوصى بى شقيقه الأصغر ،

وهو من شباب الحوزة العلمية النابهين ، وانصرف إلى شئونه . ولم أره خلال الأسبوع الذى قضيته فى بيته ـ مقيما فى تلك الحجرة ـ سوى مرتين اثنتين فقط .

لم يكن ذلك أول قدوم لى إلى قم ، وإن كانت أول إقامة لى بالمدينة . فقد جئت إليها فى المرة الأولى مع الأستاذ محمد حسنين هيكل ـ الكاتب والصحفى المعروف ـ عندما زار إيران فى عام ١٩٨٠ ، أثناء اعداده لكتابه عن الثورة الإيرانية ، الذى صدر بعنوان « مدافع آيات الله » ، وقتئذ كان الامام الخمينى لا يزال فى قم ، وذهب الأستاذ هيكل للقائه هناك ، حيث كنت فى صحبته ثم قفلنا راجعين إلى طهران فى مساء اليوم ذاته .

رأينا قائد الثورة ، وبيته محاط ببحر من البشر الذين جاءوا من كل فج فى إيران ، ليعلنوا تأييدهم له . لم نر شيئا في قم ، باستثناء قبر « المعصومة » بقبته الذهبية التى تلمع فى سماء المدينة ، وبعمارته الرائعة التى تخطف أبصار القادمين ، وهو ما لا تخطئه أى عين ، حتى ولو كان صاحبها ـ مثلنا ـ عابرا بسيارته فى الطريق إلى مقر الامام .

كانت المرة الثانية فى عام ١٩٨٣ عندما ذهبت فى مهمة صحفية إلى إيران ، ورتب لى لقاء فى قم مع آية الله منتظرى ، الرجل الثانى بعد الامام ، الذى اشترط مسبقا ألا يتحول اللقاء إلى موضوع للنشر ، ولا إلى حديث للصحافة . فهو زاهد فى هذا وذاك ، وممتنع عن الادلاء بأية تصريحات صحفية . ولدى وزارة الارشاد الإسلامى فى طهران رسالة مكتوبة منه بهذا المعنى ، حتى تحجب عنه الصحفيين من العاصمة . وقد استقبلنى باعتبارى كاتبا يهتم بالشئون الإسلامية ، وليس بصفتى الصحفية . وقيل لى أنه يكره الأضواء وينسحب بعيدا عنها . ولذا فانه ترك طهران فى وقت مبكر ، بعد أن ظل يخطب الجمعة فى العاصمة عدة أسابيع وآثر أن يبقى فى قم ـ فى الظل ـ يقرأ ويكتب ويلقى دروسه على تلاميذه كل صباح .

قضيت ساعتين فى بيت آية الله منتظرى ، رأيت خلالها جانبا من حياة فقهاء المدينة المقدسة . كأنها كانت رحلة فى عصور الإسلام الأولى ، لواحد من التابعين الذين كان همهم الزهد والورع وإسداء النصيحة للناس ، وقضاء حوائجهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

البيت بسيط متواضع ، والحجرات مرصوصة رصا ، والناس قعود هنا وهناك . الرجال فى جانب والنساء فى جانب . منهم من حمل كتابا ومنهم من طوى رقعة تحت إبطه ، ومنهم من اتكأ على طفل ، ومنهم من تمدد إلى جوار الحائط فى غفوة سريعة . والكل فى انتظاره . كان الجمع فريدا فى شكله ونوعياته وكان هو يستقبلهم على دفعات بتواضع أبى ذر ، وصبر أيوب !

ولما جاء دورى فى اللقاء ، كان لابد أن أعبر عشرة قرون على الأقل لأراه جيدا ، وأستوعب الموقف ، فبعد أن رحب الرجل بى ، وهو يردد بيتا من الشعر العربى القديم لم أسمع به من قبل ، جلس القرفصاء فوق بطانية عتيقة من الصوف أمام خزانة للكتب امتدت إلى سقف الحجرة . بينما علقت صورتان ملونتان فوق رأسه ، احداهما للامام الخمينى ، والثانية لابنه الشهيد محمد منتظرى ، الذى قتل فى عمليات الاغتيال التى شهدتها طهران فى السنة الثانية للثورة . ودفن جثمانه فى مسجد أعظم ، على بعد ٥٠٠ متر من البيت .

بدا اطار نظارته الأسود ملفتا للنظر ، بين عمامته البيضاء ولحيته التى كساها الشيب فاختلطت بثيابه ناصعة البياض ، وجوربه الأبيض الذى تخللته تمزقات ظاهرة لا تخطئها عين الجالس أمامه . صوته الهامس كان قادما من عمق التاريخ ، وكلامه الذى استخدم فيه العربية الفصحى التى ينطقها ببطء ويكتبها كأحد أبنائها ، كان ترديدا لمقولات الذين نذروا حياتهم لإرشاد الناس ، أمراً بالمعروف ونهيا عن المنكر .

وأيا كانت طبيعة اللقاء وأثره ، فانه لم يكن يعد ـ أيضا ـ زيارة لقم ، فقد كان علىّ أن أغادر المدينة قبل حلول الظلام ، لارتباطات مسبقة فى طهران .

كانت قم ذاتها هى هدف الزيارة الثالثة التى تمت فى صيف عام ١٩٨٥ ، والتى حاولت خلالها أن أقترب من وجه المدينة وعقلها ، وسرها ، إن أمكن .

لأول وهلة ، تنقلك قم ـ أيضا ـ قرونا عدة إلى الوراء . عندما كان العالم الاسلامى يعج بمراكز العلم والمعرفة ، من بخارى وسمرقند فى قلب آسيا ، الى القيروان فى الشمال الأفريقى ، وتمبكتو فى غرب القارة . تلفت أنظارك كثرة المكتبات ، وكثافة عدد الفقهاء الذين يسيرون فى الشوارع ، بعماماتهم المميزة وثيابهم الفضفاضة ، وتعدد المآذن والقباب ، ورواج التجارة فى الأسواق المسقوفة

ذات الشوارع الضيقة ، وانتشار باعة المسابح والعطور والتعاويذ ، ربما كان الجديد فى الأمر هو أصوات المقرئين والمنشدين والنائحين التى تلاحقك حيثما ذهبت وتفرضها مكبرات الصوت على مسامعك . ثم اعلانات دار سينما « الفجر » الوحيدة ـ التى أنشئت بعد الثورة ـ وقد كان الشريط المعروض فيها متوافقا مع السياق العام فى المدينة ، إذ كان عنوانه هو « توبة نصوحا » !

لكن تلك الصورة تتغير شيئا فشيئا . كلما اقتربت أكثر من قسمات المدينة ، وطرقت أبوابها العديدة ـ إذ أنك بعد الجولة الأولى فى قم ، تكتشف أنها ليست مجرد « شهر مقدس » ـ مدينة مقدسة بالفارسية ـ وانما هى مركز كبير يتبعه العديد من النواحى والضواحى . بينها ضاحية أطلق عليها اسم « نوفل شاتو » وهو المكان الذى أقام فيه الامام الخمينى ، عندما لجأ إلى فرنسا بعد إبعاده عن العراق فى عام ١٩٧٨ .

تكتشف أيضا أنها ليست مدينة الحوزة العلمية فقط ، فعمر الحوزة يتجاوز نصف القرن بقليل ، منذ أسسها هناك الشيخ عبد الكريم الحائرى فى أعقاب نزوحه من آراك وتوفى فيها سنة ١٣٥٥ هـ ، فى حين أن عمر المدينة يتجاوز ١٣ قرنا .

وإذا كان العلم هو ما اشتهرت به المدينة ، إلا أن ذلك يظل واحدا فقط من أوجهها ، وهناك أوجه أخرى طغت عليها شهرة الحوزة ، التى طبقت الآفاق فى ربع القرن الأخير . فقليلون هم الذين يعرفون قم ، المدينة الزراعية ذات الانتاج المتميز من القمح والقطن ، وذات الشهرة فى زراعة الرمان والبطيخ والتين والفستق . قليلون أيضا يعرفون قم الصناعية ، وإن كان تجار السجاد أكثر الناس دراية بانتاجها الثمين من السجاد الحرير ، الذى يكفى فيه أن تشير فقط إلى أنه « قميٌّ » . أما إنتاجها من الخزف ومصنوعات البلاستيك ومواد البناء ، فلا يكاد يسمع به أحد خارج إيران .

أيضا فإن قم التجارية مجهولة بنفس القدر ، وقد استمدت المدينة قيمتها التجارية تلك من كونها سوقا يفد إليها ملايين الناس من كل مكان ، لزيارة ضريح « المعصومة » والتبرك بقبور أولاد الأئمة وغيرهم من الأولياء . ساعد على ذلك موقعها الفريد على مفترق الطرق الرئيسية التى تربط شمال إيران بجنوبها . وأمام

الميزات التى وفرها هذا الموقع الفريد للمدينة وهى بغير حصر ، فإن أهلها تحملوا على مضض ، سيئته الوحيدة . تلك التى حملها إليهم ذلك النهر القادم من جبال البختيارية بأواسط إيران ، المعروف باسم : « رودخانه شور » . ومعناه : النهر المالح الكبير . فقد كتب على قم أن تتعايش مع ذلك النهر وأن تبتلع ملوحته عن رضا وتسليم منذ وجد الاثنان : قم والنهر . فهو مصدرها الأساسى فى الرى والشرب . إذ ليس للأمطار دور ذو قيمة ، فهى قليلة بشكل عام ، فضلا عن أن الشتاء هناك ليس طويلا بأى حال .

وإن خفيت تلك الأوجه عن الذين عرفوا قم من خلال الكتب أو وسائل الاعلام ونشرات الأخبار إلا أن زائر المدينة يصادفها جميعاً ، إذا ما ساقته قدماه إلى الشوارع الكبرى « إمام خمينى » أو « موسى الصدر » و « طالقانى » فضلا عن البازار . بل إن تلك الشوارع تشى بما هو أكثر . إذ تعطيك انطباعا لا يخطىء بأن المدينة تعيش عصرها الذهبى منذ قامت الثورة ـ وأن عصر الفقهاء قد روّج لكل شىء فى قم ، من الحوزة إلى البازار .

ذلك عن قم الوظيفية ، أما قم المدينة ، فمنذ صارت منطقة جذب بشرى بعد الثورة ، تضاعف عدد سكانها ثلاث مرات على الأقل حتى أصبحت تضم أكثر من مليون نسمة . ولا يفوت زائرها أن يميز بين أوجه ثلاثة لها : قم القديمة ، المحيطة بقبر المعصومة ، ذات الشوارع الترابية الضيقة ، الملتوية والمسقوفة . وذات البيوت المزينة بالنقوش المعمارية الجميلة من الداخل ، وهو مما تنفرد به المدينة دون غيرها . وقم الحديثة بشوارعها الواسعة المغطاة بالأسفلت ، وبناياتها الخرسانية ومطاعمها وفنادقها ، التى تسبح كل مساء فى بحار أنوار الفلورسنت الكثيفة . وقم الأحدث ، التى أطلت بوجهها بعد الثورة ، وبدء عصر الرواج والازدهار ، الذى جاء معه بوكالات لأحدث سيارات المرسيدس ، ومحلات « السوبر ماركت » . ويعد حى « سالاريه » ـ لوجهاء ـ امتداداً سكانياً لقم « الأحدث » ، وإنْ قُدرْ له أن يقوم جنوبى قم ، بعكس طهران ، التى يتركز حى الوجهاء فى شمالها .

كان كل الذى يعنينى فى كل تلك القسمات هو الحوزة العلمية ، التى ما كان لها أن توجد لولا « حرم المعصومة » ، الذى هو حجر الزاوية فى المدينة ،

وبه كتبت شهادة ميلاد المدينة المقدسة ، وحملت بالتالى ، جواز المرور إلى صفحات التاريخ .

عن المعصومة والحوزة

قبل أن أطرق الأبواب شغلت بدلالات الألفاظ التى توالت فى سجل الزمن على النحو التالى : قم ، المعصومة ، الحوزة . ووجدت ما أريد فى خزانة الكتب التى كانت فوق رأسى ، وعليها كنت أفتح عينى كل صباح طوال إقامتى فى قم .

فى أصل تسمية المدينة تتعدد الأقوال ، وإن كان أرجحها تلك القصة التى تقول إنه كانت فى الموقع الحالى قرية صغيرة باسم « كم » - بفتح الكاف ومعناها القليل بالفارسية - ولما فتحها العرب فى عام ٢٣ هجرية ، وتوافدوا عليها بعد ذلك ، استبدلوا الكاف بالقاف المضمومة ، وصارت قم . وفيها استوطن عرب ممن ينتسبون إلى قبيلة الأشاعرة أو بعض أفخاذ قبائل بنى هاشم والعلويين الذين التجأوا إليها فى القرون الاسلامية الأولى ، هربا من ملاحقات الأمويين والعباسيين .

وتذكر دائرة المعارف الاسلامية الشيعية أن العمران بدأ يزحف على قم فى أواخر القرن الهجرى الأول ، بينما لا تشير إلى تاريخ للمدينة قبل أن تدفن فيها السيدة فاطمة بنت الامام موسى بن جعفر الصادق ، سنة ٢٠١ هجرية . وقيل إنها كانت متجهة إلى « مرو » قادمة من المدينة ، لرؤية شقيقها على الرضا (الإمام الثامن للشيعة والمدفون فى مدينة مشهد الإيرانية) لكنها مرضت فى الطريق ، فطلبت أن تحمل إلى قم ، حيث وافاها الأجل هناك ، وصار يطلق عليها منذ ذلك الحين اسم « معصومة قم » . ولأنها من سلالة أئمة آل البيت فإن قبرها تحول إلى مزار وضريح ، ثم أصبح يشار إليه بكلمة « الحرم » . وتسابق الوجهاء والأمراء والملوك فى الإنفاق عليه وإثرائه ، فتحوّل المرقد إلى تحفة معمارية أحيطت بالأبواب والنوافذ التى صنعت من الذهب والفضة . وظل عرضة للاضافات والتوسعات ، حتى أصبح الحرم يتمدد على مساحة ١٣,٥٠٠ متر مربع . وحدث سباق آخر فى دفن الوجهاء والأمراء والملوك بالقرب من مرقد المعصومة . وظل

قبرها مقصداً وقبلة لجماهير الشيعة فى كل مكان ، الذين يفدون للتبرك والتعزية فى مختلف المناسبات ، مما أكسب مدينة قم مكانة رفيعة ومتميزة[1] .

أما الحوزة العلمية التى ارتبطت بقبر المعصومة وبقم ، فهى تسمية عربية صحيحة . إذ أن الحوزة فى اللغة العربية هى المكان أو الناحية ، التى إذا ما خصصت للدرس والتحصيل ، جاز أن تسمى حوزة علمية . وتبعا للأصل اللغوى ، فإن الحوزة يمكن أن تخصص لمختلف أوجه النشاط الانسانى ، إلا أن الكلمة ارتبطت فى لغة الخطاب الشيعى بتلقى العلم ، حتى بات مفهوما تلقائيا أن الحوزة لابد أن تكون علمية . بل أن كلمة الحوزة ذاتها باتت محملة فى التداول بذلك المعنى دون غيرة ، حتى شاع استخدامها وحدها ، دون تخصيص ، وصارت الكلمة تغنى عن الاثنين ، وتؤدى وظيفتهما معا .

الحوزة العلمية إذن ليست معهدا علميا واحدا كما يتصور الكثيرون ولكنه وصف ينصرف إلى مدينة قم كلها ، باعتبارها ساحة لتلقى العلم ، فى عديد من المدارس الدينية ، مختلفة المراتب التى لا علاقة للدولة بادارتها أو الإنفاق عليها ، إنما هى تحت رعاية رؤوس المذهب الذين يطلق عليهم اسم « مراجع التقليد » .

من ثقة الاسلام إلى آية الله

عالم الحوزة ملىء بالتفاصيل المثيرة ، وعالم المراجع أشد إثارة . . .

تتركز مدارس الحوزة العلمية فى قم القديمة ، حيث تتوزع على العديد من الأبنية العريقة ، ذات السقوف العالية والجدران السميكة ، التى تحتوى على خزانات الثياب والكتب . وطبقا لتقدير الشيخ على المشكينى ، الذى يتولى إلى جانب عمله الرسمى ، مسئولية الاشراف على مجلس أساتذة الحوزة ، فإن عدد تلك المدارس وصل إلى ٥٥ ، بزيادة ١٥ مدرسة أقيمت على الطراز الحديث بعد الثورة . وكانت الدراسة فى الحوزة العلمية مقصورة على الشباب دون الفتيات . وفى السنوات الأخيرة دخلت الفتيات الميدان وصارت لهن عشر مدارس ، وطلب الامام الخمينى من الشيخ المشكينى فى عام ١٩٨٢ أن توسّع فرصة مواصلة تلقى

(١) حسن الأمين ـ دائرة المعارف الاسلامية الشيعية ـ جـ ٣ ص ٢٢٩ ـ مادة قم ـ ط دار التعارف ـ بيروت .

التعليم الدينى أمام البنات . فتقرر إنشاء جامعة الزهراء فى قم أيضا ، لتتسع لاقامة وتعليم ١٥٠٠ فتاة ، وبدأت الجامعة فى قبول أول دفعة من الفتيات فى عام ١٩٨٦ . . وبالجامعة ، وبتلك الدفعة ، وضعت اللبنة الأولى « لحوزة النساء » .

ولا تزال المساجد هى مقر الدراسة . فهناك يلقى الشيوخ على تلاميذهم مختلف الدروس . ولكن المدارس هى مقر الاقامة والمذاكرة . فى المدارس القديمة يعطى كل طالب راتبا من إدارة المدرسة (حوالى ١٠ دولارات فى الشهر لطالب المرحلة الأولى) وهو يدبر أمور معيشته وكتبه بهذا المبلغ بالتعاون مع زملائه حيث يسكن كل ٣ طلاب فى غرفة واحدة . وهذا هو الوضع القائم فى المدرسة الفيضية ـ مثلا ـ التى هى أشهر وأبرز مدارس الحوزة ـ كل مجموعة من الطلاب فى كل غرفة يتولون الطبخ والغسل والتنظيف ، فضلا عن الحفظ والمذاكرة .

اختلف الوضع فى المدارس الحديثة التى بُنيت بعد الثورة ، وأكثرها تحت إشراف آية الله منتظرى ، إذ زودت بمطاعم للطلاب ووسائل للتدفئة فى الحجرات التى فرشت بأبسطة صناعية (موكيت) ، وإن ظل الطلاب ينامون على الأرض باعتبار أن ذلك تقليد إيرانى ، ليس مقصورا على الحوزة العلمية وحدها .

هذا ما رأيته فى مدرسة محمد الباقر ، وهى واحدة من أحدث أربع مدارس أشرف على إنشائها الشيخ منتظرى . كان رفيقى فى الجولة مدير المدرسة الشيخ محمود صلواتى ، الذى حرص على أن يطوف بى الـ ٨٨ غرفة فى المدرسة ، إضافة إلى غرف الادارة « الحديثة » التى يمارس موظفوها العمل بها وهم قعود ـ أيضا ـ على الأرض .

وقال لى الشيخ صلواتى أن الـ ٤٠٠ طالب فى المدرسة ، تم انتقاؤهم من بين ألف متقدم لها . وأن بينهم ١٥ شيعيا لبنانيا وأن المدارس مفتوحة لأى طالب علم من الشيعة . والسنة ليسوا ممنوعين من الالتحاق بها ، فهى مفتوحة لهم إن إرادوا ، لكن الشباب من أهل السنة يفضلون الالتحاق بالمعاهد الدينية فى مصر والسعودية بالدرجة الأولى .

حاولت أن أفهم نظام التعليم ومراحله وبداياته ونهاياته ، وتولى شرح هذه

العملية كل من حسن اشتيانى ، مدير المدرسة الفيضية ، والشيخ صلواتى مدير مدرسة محمد الباقر .

قالا أن للتعليم فى الحوزة مراحل ثلاثا : سطح المقدمات ، وسطح المتوسط ، وسطح الخارج ، يمكن أن نعرفها باختصار على النحو التالى :

ـ سطح المقدمات مدته خمس سنوات : وهو بمثابة دروس تمهيدية فى اللغة والبيان والبديع والفقه والأصول وعلم الكلام والفلسفة . ومن الكتب المقررة فى تلك المرحلة ـ وكلها عربية بالمناسبة ـ ألفية ابن مالك ، ومغنى اللبيب فى كلام الأعاريب ، ودروس فى نهج البلاغة . واللمعة الدمشقية ، الذى سبقت الاشاره اليه .

ومدارس الحوزة هى التى تباشر تلك المرحلة ، وتجيز للطالب بعدها ، ليلتحق بالمرحلة التالية . علما بأنه يعفى من الخدمة العسكرية ، وهو تقليد متبع منذ مرحلة ما قبل الثورة ، طالما هو ملتحق بالحوزة .

ـ سطح المتوسط ، ومدته ثلاث أو أربع سنوات . يبدأ الطالب خلالها فى التخصص على يدى أحد المراجع ، وتحت رعايته . ولا يقبل المرجع دارسا إلا إذا حصل على شهادة تثبت إجازته من سطح المقدمات . وفى هذه الحالة فإنه يتقاضى راتبه من خزانة المرجع مباشرة ، وهو يتراوح بين ١٥ دولارا فى الشهر للأعزب و ٣٠ للمتزوج فضلا عن أنه بعد التسجيل ، يصبح من تلاميذ المرجع ، ويقيم فى أحد البيوت التى ينفق عليها .

فى هذه المرحلة ، قد يتخصص الطالب فى التفسير أو فى الفلسفة أو نهج البلاغة (خطب وكلمات الامام على) أو التاريخ أو الاقتصاد المقارن ، إلى جانب مواد أخرى يجب أن يدرسها مثل كتاب الرسائل فى أصول الفقه وكتاب المكاسب المحرمة للشيخ مرتضى الأنصارى .

ـ سطح الخارج ، وهى مرحلة تؤهل الطالب لكى يضع قدمه على أبواب مرحلة الاجتهاد . وهى شىء أشبه بمرحلة الدراسات العليا فى الجامعات العادية . وليست هناك فترة محددة لانجازها ، فقد تستغرق سنوات محدودة ، وقد تستغرق عمر الطالب حتى نهايته .

فى سطح الخارج يبدأ الطالب فى إعداد البحوث الفقهية ، وتلقى العلم عند المراجع أنفسهم ، فآية الله محمد رضا كلبايكانى يلقى دروسه فى مسجد أعظم ، الذى بناه آية الله بروجردى ، وآية الله مرعشى نجفى يلقى دروسه فى حرم المعصومة ، والشيخ منتظرى يحاضر طلابه فى حسينية الشهداء ، بجوار منزله ، وآية الله حسين النورى يحاضر فى المدرسة الفيضية ، أما آية الله صانعى ، فدروسه يلقيها فى منزله .

أما متى يصبح الدارس مجتهدا ، فتلك مسألة مرهونة بمدى استيعابه وقدرته على البحث والترجيح ، وأستاذه ـ المرجع ـ هو الأقدر على تقييمه ، وإجازته لتلك المهمة ، وفى سبيل ذلك فإن الباحث فى مرحلة معينة يعطى رخصة من أستاذه ليتولى التدريس والتوجيه ، مستثمرا ـ أو معلنا ـ حصيلة معارفه التى حصلها ، وهو ما قد يسهم فى تعزيز مكانته وإجازته كمجتهد ، وفى الوقت ذاته فإنه يجب أن يعد بحثا ذا قيمة يضيف فيه شيئا ـ وهو أشبه برسالة الدكتوراه ـ ليدلل به على تمكنه ، ويسمى « الرسالة العلمية » .

ويبدو أنه إزاء تزايد عدد الدارسين على مختلف المستويات ، وربما أيضا بدافع الكسب والربح ، فإن مكتبات قم أصبحت تبيع محاضرات الشيوخ فى مختلف المواد مسجلة على أشرطة « كاسيت » . وفى قم القديمة حيث تكثر المكتبات بشكل ملحوظ ـ وأصحابها من الشيوخ والفقهاء أيضا ـ فإنه بات مألوفا أن تتصدر واجهات تلك المكتبات إعلانات عن توفر أشرطة مواد معينة ، أو شرح كتب بذاتها ، من إلقاء واحد من أساتذة الحوزة المعروفين . وهى نشاطات باتت تقوم بها مؤسسات تجارية خاصة تحقق أرباحا كبيرة .

والدارس فى كل مرحلة يعطى لقبا علميا ، يرفع كلما تدرج فى السلم التعليمى ، حتى يبلغ ذروته .

فإذا كان لا يزال فى مرحلة سطح المقدمات ، فهو إما طالب أو مبتدىء .
وإذا انتقل إلى سطح المتوسط فإنه يمنح لقب « ثقة الاسلام » .
وإذا التحق بسطح الخارج ثم أنهى دراسته ، يصبح « حجة الاسلام » .
وإذا أجيز للاجتهاد فإنه يحمل لقب « آية الله » .

وإذا بدأ يمارس عملية الاجتهاد فى حلقات الدرس ويؤسس قاعدة شعبية له فى الحوزة ، أى قبل أن يقبل عليه المقلدون ، فإنه يصبح آية الله العظمى .

أما إذا اتسعت دائرة مقلديه ، وثبت قواعده ، بسلوكه وعلمه ، بين جماهير الشيعة ، فإنه يصبح مرجعا للتقليد ، وإن ظل محتفظا بلقب آية الله العظمى .

وهنا ينبغى أن ننتبه إلى أربعة أمور :

ـ **الأول** ، أن مثل تلك الألقاب والدرجات ليست مقصورة على الشيعة وحدهم وإنما لها أصل عند أهل السنة أيضا . بالأخص عند الشافعية والأحناف ، حيث يقسم المجتهدون إلى درجات وطبقات . فهناك المجتهد المطلق مثل أئمة المذاهب الأربعة وهناك المنتسب ، الذى له أصل فى الانتماء للمذهب لكنه استقل باجتهاده ، ثم هناك مجتهد المذهب الذى هو خبير بأسرار المذهب وأصوله وقادر على الاستنباط من قواعده . وأصحاب التخريج القادرون على إزالة الخفاء والابهام الذى يوجد فى بعض أقوال سابقيهم . وأصحاب الترجيح ، وهم الأقرب إلى التقليد ، منهم إلى الاجتهاد . وهناك طبقة أخرى للفقهاء ينحصر عملهم فى التمييز بين الأقوى والقوى والضعيف من الروايات . . وهكذا[٢] .

بالاضافة إلى ذلك فإن الامام أبا حامد الغزالى يطلق عليه وصف حجة الاسلام ، وابن تيمية يسمى بشيخ الاسلام .

ـ **الثانى** ، أن الانتقال من مرتبة إلى أخرى فى سلم الحوزة العلمية ، قد يستغرق سنوات وسنوات ، خاصة فى المرحلة الصعبة والمعقدة التى تبدأ بسطح الخارج ، حيث يصبح المرء بعد إنهائها حاملا للقب « حجة الاسلام » . وذلك الانتقال لا يتم بمنطق الترقى من درجة إلى درجة . وإنما هو تطور محكوم بثلاثة عوامل : جهد الباحث ومواهبه وسلوكه (ورعه وزهده بالأخص) ، ثم استقبال طلاب الحوزة وجماهير الشيعة التى تؤم المساجد له ، ثم تقييم المرجع الأعلى للباحث ولمكانته التى يحفرها لنفسه فى أوساط الحوزة العلمية .

ـ **الثالث** ، أنه إذا كان الدارس ممن ينتسبون إلى سلالة آل البيت فإنه يظل

---

(٢) عبد الحليم الجندى ـ نحو تقنين جديد للمعاملات والعقوبات من الفقه الاسلامى ص ٣٣

يحمل دائما لقب « السيد » ، إلى جانب لقبه العلمى . والسادة يضعون فوق رؤوسهم عمائم سوداء ، وكان هذا هو لون راية الرسول فى بعض الغزوات ، كما أن السواد كان شعار دولة بنى العباس التى قدمت نفسها باعتبارها دولة آل البيت ، أما غيرهم من الشيوخ فيضعون عمائم ذات لون أبيض .

ـ الرابعة ، أن الأرقام الدقيقة للذين يدرسون فى كل مرحلة غير موجودة . لأن الأمر يصب بين أيدى « المراجع » فى نهاية الأمر ، وكل منهم مستقل عن الآخر . غير أن عدد الدارسين فى حوزة قم العلمية ، فى المراحل الثلاث ، تصل حدوده التقريبية إلى ١٥ ألف طالب . أما أساتذة الحوزة ، وهم خليط من آيات الله وأكثرهم من حجج الاسلام ، فإن عددهم ٢٠٠٠ فقيه ، والعهدة على آية الله المشكينى ، رئيس مجلس الأساتذة . غير أن الرقم المتداول للفقهاء الذين تخرجوا من مختلف الحوزات العلمية بإيران ، يصل بهم إلى ١٥٠ ألف فقيه ، والرقم الذى يمكن قراءته بسهولة ، ويتعذر فيه الخطأ ، هو ما يتعلق بمراجع التقليد المعروفين للقاصى والدانى من الشيعة ، سواء كانوا فى إيران أو فى الولايات المتحدة الأمريكية ، أو فى عمق القارة الأفريقية .

ومراجع التقليد عند الشيعة سبعة هم : السيد أبو القاسم الخوئى (فى النجف الأشرف بالعراق) ، والسيد محمد رضا كلبايكانى ، والسيد مرعشى نجفى والسيد روح الله الخمينى ، وآية الله منتظرى ، والسيد كاظم شريعتمدارى الذى توفى فى سنة ١٩٨٦ ، وهم جميعا فى قم باستثناء الخمينى الذى استقر فى طهران . ثم آية الله قمى ومقره فى مشهد بإيران .

المراجع : دول داخل الدولة

هؤلاء المراجع لهم عالمهم المستقل وممالكهم المترامية الأطراف . ولا مبالغة فى ذلك فالمرجع دولة داخل الدولة ، لا سلطان لها عليه من أى باب ، بل أنه أحيانا يفوق الدولة فى أن أتباعه الذين يدينون له بالولاء يتجاوزون حدود الدولة وينتشرون فى العديد من الدول الأخرى .

وذلك الدور الفريد للمراجع هو إحدى الصيغ التى صممها فقهاء الشيعة ـ

سواء عن قصد أو غير قصد ـ للحفاظ على التماسك والترابط بين أتباع المذهب ، الذين عاشوا سنين طويلة ملاحقين ومضطهدين ، حتى توزعوا على مناطق عديدة ، بالأخص فى العالم العربى وفى أنحاء آسيا . ولم يكن هناك رابط يجمع شملهم ، لا إمامة ، ولا زعامة ، ولا دولة ، كانت تعاليم المذهب وحدها هى الخيط الذى يصل ما بين الجميع ، وهو ما لم يكن كافيا ، خاصة وأن أكثر من ٦٥٪ من أتباع المذهب من غير العرب ويتواجدون فى قلب القارة الآسيوية ، والأكثرية فى إيران وأفغانستان والهند وباكستان وأذربيجان السوفيتية) . . أى أنهم عاجزون بسبب اللغة ، عن التعرف على تلك التعاليم من منابعها الأصلية ـ العربية .

من هنا جاء الدور التاريخى للفقهاء إذ أنيطت بهم وحدهم مهمة القيام بذلك الدور التبشيرى أو التعليمى . كما كان عليهم أن يقوموا أيضا بدور القيادة « للطائفة » . أى أنهم لعبوا دورا مزدوجا ، عقيديا وسياسيا فى آن واحد .

وقد كان « التقليد » هو إحدى الصيغ الذكية التى حققت ذلك الهدف . ورغم أن قضية التقليد أثيرت أيضا عند أهل السنة ، إلا أنها ظلت موضع جدل ، فتح الباب لظهور تيار قوى يتمسك باسلامه ، باستقلال تام عن كافة المذاهب ، بل أن أئمة مذاهب أهل السنة الأربعة رفضوا فى وقت مبكر ، الزام عامة المسلمين باجتهاداتهم ، ومشهورة قصة الامام مالك مع الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور ـ فى الأغلب ـ عندما رفض عرض الخليفة بتعميم موطأ مالك على المسلمين ، بما فيه من علم وعمل أهل المدينة . ومما يروى عن أحمد بن حنبل قوله لأحد فقهاء المسلمين ، لا تقلدنّ ، لا مالكا ولا الشافعى ، ولا الثورى ، وخذ من حيث أخذوا[٣] .

غير أنه للاعتبارات التى ذكرناها ، صار التقليد وجوبيا عند الشيعة الأثنى عشرية ، ومما يذكره الامام الخمينى فى هذا الصدد أنه « يجب على كل مكلف غير بالغ مرتبة الاجتهاد فى غير الضروريات من عباداته ومعاملاته ولو فى المستحبات والمباحات ، أن يكون إما مقلدا أو محتاطا ، بشرط أن يعرف موارد

(٣) للتفصيل انظر ـ كتابنا ـ القرآن والسلطان ص ٤٢ فصل بعنوان « من يسبح ضد التيار » .

الاحتياط ، ولا يعرف ذلك إلا القليل » . . « ومرجع التقليد يجب أن يكون عالما مجتهدا ورعا فى دين الله ، بل غير مكب على الدنيا » ثم « لا يجوز تقليد الميت ابتداء »[٤] .

أدى ذلك إلى التفاف عامة الشيعة حول المراجع ، الذين كانوا موزعين تقليديا بين النجف فى العراق ، وقم فى إيران ، وقد سبقت الاشارة إلى أنه كان للشيعة مرجع أوحد حتى وفاة آية الله السيد البروجردى فى عام ١٩٦١[٥] . وبعده تعددت المراجع ، وتكرست أوضاعهم ، حتى استقر الأمر على ذلك النحو طوال ربع القرن الأخير .

فى الستينات كان المراجع الموجودون فى النجف هم السادة : الحكيم والخوئى ، والشيرازى والشهروردى .

وكان المراجع الموجودون فى إيران هم السادة : كلبايكانى ، ومرعشى نجفى ، وشريعتمدارى ، والخمينى ، والخونسارى .

وكان أكثرهم أتباعا من مراجع إيران فكان السيد كلبايكانى ثم السيد شريعتمدارى ثم الخمينى .

ومن الطبيعى أن يكون نفوذ مراجع النجف أكبر فى العراق أولا ثم فى منطقة الخليج والجزيرة (المنطقة الشرقية بالسعودية) ولبنان ، وأن يمتد هذا النفوذ إلى غرب أفريقيا ، حيث يكثر المهاجرون اللبنانيون ، ومنهم شيعة كانوا رسلا للمذهب بين مسلمى تلك المناطق .

ومن المبرر أيضا أن يكون نفوذ مراجع إيران أقوى فى داخل إيران ، ثم فى الهند وباكستان وبنجلاديش وأفغانستان وتركيا . .

وقد شاءت الأقدار أن تتجمع ظروف عديدة لتؤدى فى نهاية الأمر إلى انتقال مركز الثقل فى قيادة المذهب الشيعى من النجف الأشرف إلى قم . وكان حكم البعث القوى فى العراق أحد أسباب تقليص دور المؤسسة الدينية الشيعية بوجه

---

(٤) تحرير الوسيلة للامام الخمينى ـ مقدمة الجزء الأول .

(٥) انظر الفصل الأول بعنوان « قبل أن يرفع الستار » ص ١٥ .



آية الله منتظرى المرشح لخلافة الامام الخمينى

عام ، فضلا عن أن نجاح الثورة الايرانية بقيادة الامام الخمينى قلب الميزان رأسا على عقب لصالح زعامة قم .

غير أن الأقدار شاءت أيضا أن يتقلص أيضا عدد المراجع فى النجف ، فيتوفاهم الله واحدا تلو الآخر ، بحيث لم يعد يبقى هناك منذ بداية الثمانينات سوى السيد أبو القاسم الخوئى الذى هو على أبواب التسعينيات .

فى المقابل ، كان انتعاش الحوزة العلمية فى قم ، ولم يمت من مراجع إيران خلال السنوات الأخيرة سوى آية الله الخونسارى . وإن كان دور السيد شريعتمدارى رحمه الله قد تقلص ـ وقل عدد مقلديه ـ بعد ما اتهم بالتآمر على ثورة الامام الخمينى .

ولما كان من شروط التقليد أن يكون المرجع من الأحياء ، فقد كان يحدث بعد وفاة أى من المراجع أن يتحول مقلدوه إلى غيره من المراجع الذين هم على قيد الحياة ، أدى ذلك إلى أن أصبحت جماهير المقلدين الشيعة (مائة مليون ـ ٦٥٪ منهم فى إيران) تتوزع تبعيتها وولاءاتها وزكواتها على المراجع الحالية

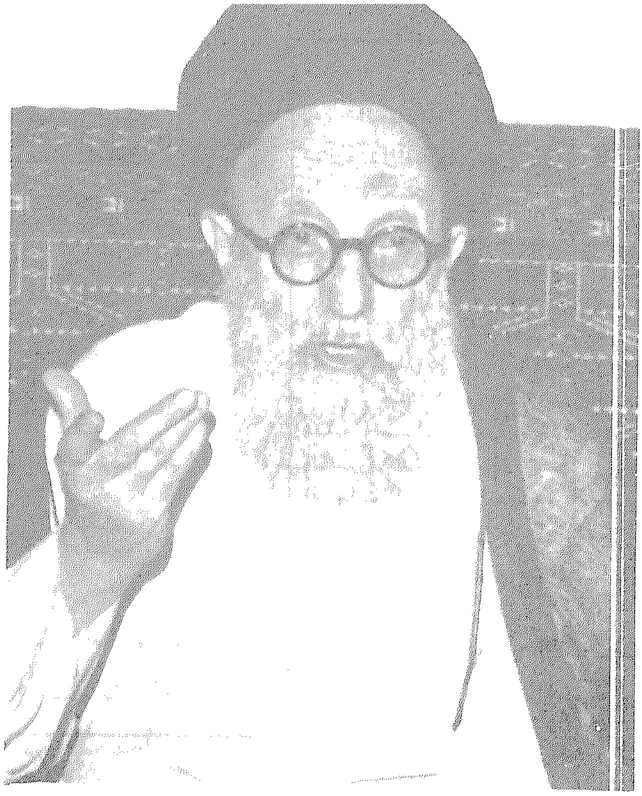


آية الله ابو القاسم الخوئى ، المقيم فى النجف الاشرف بالعراق

بنسب متفاوتة . وفى رأى المخضرمين فى قم أن أكبر نسبة من المقلدين تلتف حول ثلاثة من المراجع هم السادة : الخوئى ، وكلبايكانى ، والخمينى .

وينبه أولئك المخضرمون إلى نقطة جديرة بالنظر فى السياق الذى نحن بصدده . فهم يقولون أن تقليد الشيعى لاجتهادات واحد من الفقهاء لا يعنى بالضرورة أن يكون ولاؤه السياسى له . بل قد يتجه ولاؤه أو حماسه السياسى إلى شخص آخر . فهم يقولون مثلا أنه فى عصر البروجردى كانت الأغلبية الساحقة تقلده وتلتزم برأيه الفقهى ، لكن الأكثرية اتجهت بولائها السياسى نحو آية الله الكاشانى ، الذى ارتبط اسمه بالثورة على الشاه فى بداية الخمسينات .

وذلك حدث أيضا بعد نجاح الثورة الايرانية إذ بينما اتجه الولاء السياسى لصالح الامام الخمينى بشكل ساحق ، إلا أن قطاعات عريضة من هؤلاء الموالين للخمينى ، ظلوا على موقفهم (العقيدى) من حيث التزامهم بتقليد مراجع آخرين ، ربما كانوا على نقيض موقفه السياسى ، فمدينة أصفهان على سبيل المثال ، من أشد المدن الايرانية حماسا وتأييدا للامام الخمينى وللثورة ، ولكن



آية الله شريعتمدارى
الوحيد الذى اعلن تحفظاته على خط الامام الخمينى بعد الثوره

جماهيرها تقلد السيد الخوئى المقيم بالعراق والذى يعارض فكرة ولاية الفقيه ، وخط الخمينى كله .

مقلدو كل مرجع بالملايين إذن ، فى إيران وفى غيرها من الدول الآسيوية والعربية والأفريقية ، وهؤلاء يلجأون إلى المرجع فيما يستعصى عليهم من أمور فقهية ـ فى الزواج والطلاق والميراث والنفقة وما إلى ذلك ـ وعند المرجع تصب أموال الزكاة والخُمس التى يخرجها المقلد عن ماله كل عام . وهى أموال لا تعرف قيمتها ، لكننا لا نحتاج إلى جهد كبير لندرك أنها أيضا بالملايين .

والمرجع يشكل كيانا ماديا ومعنويا مستقلا ، لا علاقة له لا بالدولة ، ولا بالمراجع الآخرين ، لكل واحد مملكته العريضة التى تتجاوز أحجام بعض الدول ، وله موارده الوفيرة التى يفترض أن ينفق منها على مقلديه وتلاميذه ، وعلى مختلف النشاطات الأخرى مثل عمارة المساجد ، وإقامة المدارس أو المستشفيات فى بعض الأحيان ، أو أية مصارف أخرى .

آية العظمى

بسم اللّه الرحمن الرحيم

الحمد للّه رب العالمين ، والصلاة على سيدنا محمد وآله
ولعنة اللّه على اعدائهم اجمعين .

وبعد

فان سماحة ثقة الاسلام السيد هادى المدرسى دامت افاضاته وكيل عنا فى التصدى للأمور الحسبية والجهات الشرعية التى لا يجوز التصدى لها والتعرض لها - فى زمن غيبته ولىّ الامر عجل اللّه فرجه - الا للفقيه الجامع للشرائط ، أو المأذون من قبله . مع مراعاة الاحتياط

وكذلك هو مجاز من قبلنا فى أخذ سهم الامام عليه السلام وصرف مقدار الثلث منه فى موارده المقررة الشرعية ، وارسال الباقى الينا لحفظ شئون الحوزات العلمية المهمة ، واخذ الوصل به لأصحابه .

وأوصيه أيده اللّه تعالى بملازمة التقوى وتجنب عن الهوى ، والتمسك بعروة الاحتياط فى الدين والدنيا .

وارجو منه ان لاينسانى من صالح الدعاء والنصيحة .

والسلام عليه وعلى سائر اخواننا المؤمنين ورحمة اللّه وبركاته .

١٣ / ج١ / ١٣٩٥هـ

روح اللّه الموسوى الخمينى

(الخاتم المبارك)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلوة على سيدنا محمد وآله الطاهرين ولعنة الله على اعدائهم اجمعين

وبعد جناب مستطاب ثقة الاسلام آقاى سيد هادى مدرسى دامت افاضاته از طرف اينجانب مجاز و مأذونند در تصدى امور حسبيه و شرعيه كه در عصر غيبت حضرت ولى امر عجل الله تعالى فرجه الشريف منوط است باذن فقيه جامع الشرائط با مراعات احتياط و در اخذ سهم مبارك امام عليه السلام كه ثلث آنرا در موارد مقرره شرعيه صرف كنند و دو ثلث ديگر را جهت حفظ حوزه هاى علميه دينيه نزد اينجانب ارسال نمايند و قبض رسيد گرفته بصاحبان وجوه برسانند واوصيه ابقاه الله تعالى بملازمة التقوى والتجنب عن الهوى والتمسك بعروة الاحتياط فى الدين والدنيا وارجو منه ان لا ينسانى من صالح الدعاء والنصيحة والسلام عليه وعلى سائر اخواننا المؤمنين ورحمة الله وبركاته

تاريخ ١٣ ج ١ / ١٣٩٥

روح الله الموسوى الخمينى

صورة لخطاب الوكالة الذى يعين بمقتضاه وكيل المراجع لدى تجمعات الشيعة حيث وجدوا . والخطاب من آية الله الخميني إلى وكيله السابق فى البحرين السيد هادى المدرسى .

وإزاء هذا الوضع ، فمن الطبيعى أن يكون للمرجع « وكلاء » ـ قناصل أو سفراء فى الواقع ـ يعينهم من جانبه ليمثلوه فى مختلف تجمعات المقلدين ، حيث يوجدون ، ويظل هذا الوكيل المعتمد حلقة الاتصال بين هؤلاء المقلدين والمرجع . عنده تتجمع استفساراتهم ومشكلاتهم ، وعبره يتلقون الردود والفتاوى . كما أن أموال الزكوات تتجمع عنده أيضا ، وتحول إلى المرجع فى مقره . وفى بعض الأحيان فإن الوكلاء يقومون بدور البنوك ، فى الاحتفاظ بودائع المقلدين ، لمن أراد منهم أن يتجنب شبهة التعامل مع المصارف الربوية . وكان أكثر اطمئنانا إذا ما أودع ماله لدى مرجعه .

والأمر على هذا النحو ، فمن الطبيعى أن يكون للمرجع « هيئة مكتب » تباشر شئون المقلدين على اتساع قاعدتهم ، وتنظم مختلف الأمور المالية والادارية بحجمها الكبير ، ومصارفها العديدة . وقد لا نبالغ كثيرا إذا قلنا أن هيئة المكتب هذه ،تضم أشخاصا هم أقرب إلى الوزراء ، أحدهم مسئول عن الشئون العلمية والثانى عن الشئون الادارية والثالث عن الأمور المالية والرابع عن قطاع الخدمات . . وهكذا .

هذا الاستقلال الذى توفر للمراجع ، بالأخص فى الموارد المالية ، حولهم إلى قوى لها وزنها ، حتى فى مواجهة الدولة التى يعيشون فى ظلها . وكان هذا الاستقلال الاقتصادى عنصرا أساسيا فى دعم استقلالهم السياسى والفكرى ، بالنسبة للدولة من ناحية وبالنسبة لكل منهما فى مواجهة الآخر ، من ناحية ثانية ، وهو اعتبار كان له دوره فى علاقة قم بالشاه قبل الثورة ، وفى علاقة المراجع الحاليين بالامام الخمينى و « خَطِّه » بعد نجاح الثورة .

فى بيت كلبايكانى وكتابخانه نجفى

زرت السيد كلبايكانى فى بيته ، الذى يحتل مكانه فى زقاق بروجردى وهو الذى تجمع فيه أيضا عدد من أبرز مراجع الشيعة فى الماضى والحاضر السادة البروجردى ، ومرتضى حائرى ، وطباطبائى .

باستثناء الحارس الواقف بالباب ، لم يكن فى مقره ما يلفت النظر ، فالزقاق



تمثال مبارک حضرت آیت الله العظمی جناب آقای حاج سید محمدرضا گلپایگانی دامت برکاته

الصورة المعتمدة لآية الله محمد رضا كلبايكانى ، التى توزع على قاصديه ، والكلام المدون تحتها بالفارسية غنى عن التعقيب .

ضيق تمر فيه سيارة واحدة بصعوبة ، وأرضه لا تزال على حالها منذ نشأت قم . لم تعرف الأسفلت ، ومهدتها أقدام المارة ومركباتهم . والبيت عتيق ، سقفه عال وأبوابه بالية ، وطلاؤه الخارجى الأبيض لم يَسْلم من عبث الأطفال ولا بصمات الزمن .

خلعت الحذاء ومررت بحجرات عديدة مليئة بالاتباع والتلاميذ حتى وقفت لحظة أمام « ستارة » بيضاء ، انفتحت ، فاذا « السيد » جالس القرفصاء فى ركن جانبى ، وعلى يمينه اثنان من مساعديه ، عمامته سوداء كبيرة وبشرته بيضاء ، ووجهه المتغضن ينطق بسنين عمره التى اقتربت من التسعين ونظارته ذات الاطار الأسود سميكة بأكثر مما ينبغى ، ولحيته طويلة ناصعة البياض ، وصلت ما بين رأسه ومنضدة صغيرة وضعت أمامه ، فاخفت جسده النحيل والمتكور . كانت

أمامه قصاصات ورق صغيرة إلى جوارها وضع ختم يحمل اسمه . وفهمت أنه يملى ردوده على من يتوجهون اليه بالسؤال ، ويقوم تلاميذه بنسخ ما يقول ، ثم يردون اليه الأوراق مرة ثانية ليقرأها ثم يوقع عليها بختمه ، الذى يحبسه فى أحد أدراج المنضدة .

رفع الرجل رأسه ببطء كمن كان يحرك عقارب الزمن ، ورحب بى بلغة عربية فصيحة . ثم ألقى علينا كلمة قصيرة فى وحدة المسلمين ، وحاجة السنة والشيعة إلى نبذ الخلافات وتقريب وجهات النظر . ووجه إلىَّ عدة نصائح بصوت آت من ماض سحيق ، كنت ألتقط كلماتها بصعوبة بالغة . ثم انتقل ببصره إلى الأوراق التى أمامه ، بينما أخرج من عباءته يداً معروقة مرتعشة ، تعلقت بها مسبحَة من نوع لا تراه الا بين أصابع الزاهدين ، ووضع يده برفق على المنضدة .

ران الصمت على الحجرة لحظة ، تأملت خلالها الرجل وهو ساكن بلا حراك مطل بعمامته الكبيرة ولحيته الطويلة من فوق منضدة حوت خزانتها شئون وشجون الملايين من البشر فى داخل ايران وخارجها ، من تعلقت ضمائرهم به ، وتوقفت مصائر معاشهم وعلاقاتهم على اشارة صغيرة يبعث بها اليهم فى قصاصة تقول : يجوز أو لا يجوز !

كان المشهد برمته ينتهى إلى عصور اندثرت . وما بقى منها أودع المتاحف بعناية بالغة وعولج بالتبريد تارة وبالكيماويات تارة أخرى ثم حجب عن الناس بزجاج كثيف ، بينما أحيط بأجراس الانذار وعدسات التصوير الخفية ، ووقف الحراس ببابه يرصدون الداخلين والخارجين !

انتبهت إلى صوت واحد من المساعدين ، الذى همس فى أذنى قائلا : إن المقابلة انتهت ، وأن مكتب « السيد » جاهز للرد على أية أسئلة أو استفسارات أريد طرحها .

قال لى ابنه الأكبر جواد ، الذى يدير المكتب ، أن مقلدى أبيه يتراوح عددهم بين ١٠ ، ١٣ مليون نسمة ، يتوزعون على ايران ، وباكستان وأفغانستان . وله أيضا مقلدون فى الخليج وفى السعودية . وأن للسيد عشرة آلاف وكيل يمثلونه فى تلك المناطق ، وأنه يتلقى فى المتوسط ٥٠ رسالة كل يوم ،

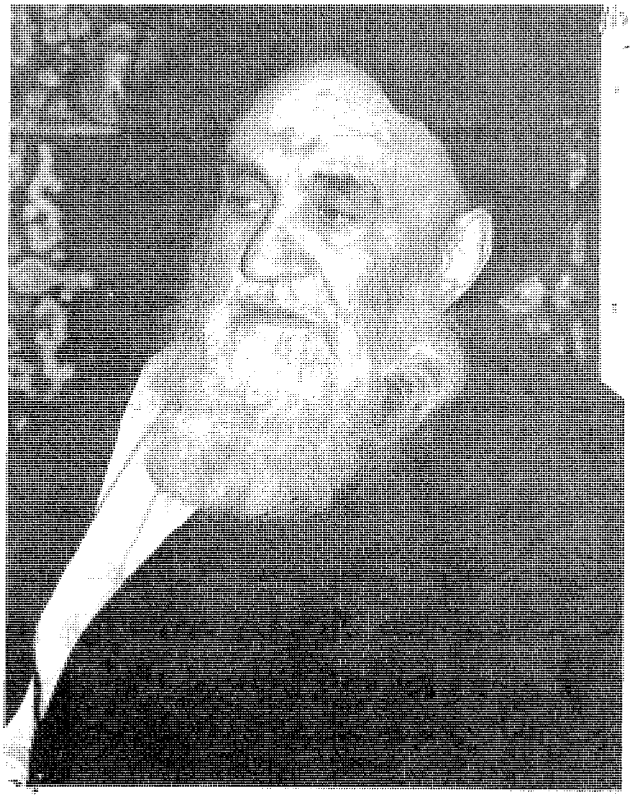
ويخرج من مكتبه يوميا عدد مماثل لها يرسل بالبريد إلى الوكلاء والمقلدين . وكل رسالة يجب أن تكون موقعة باسمه ومختومة بخاتمه .

اعتذر السيد جواد عن الاجابة على سؤال لى حول حصيلة الأموال التى يرسلها المقلدون فى السنة ، ولكنه قال أن أكبر مبلغ دفعه أحد المقلدين من التجار ، كان حوالى ٨٣٠ ألف دولار ، وأن مكتب المحاسبة هو الذى يتلقى أموال المقلدين ، نقدا أو شيكات . ومما ذكره فى هذا الصدد أنه بينما تلاحق الدولة الناس وتذهب اليهم ، لتحصل الأموال ، فان الوضع معكوس بالنسبة للمرجع . الناس هى التى تأتى اليه على مدار العام .

وفهمت أن السيد يشرف على المشروعات التالية :

- ٦ مدارس انشأها ويتولى الانفاق على تلاميذها ، بالاضافة إلى مجمع حديث يضم مدرسة ومسجداً ومكتبة ، وهو يدفع لنفقات تلك المدارس المجانية ما يعادل ٢٠٠ ألف دولار فى السنة .
- يسهم مع غيره من المراجع الآخرين فى نفقات ٤٥ مدرسة دينية فى أنحاء ايران .
- أنشأ مستشفى فى قم يسع ٢٠٠ سرير ، العلاج فيه بالمجان ، وكافة نفقاته يتكفل بها ، وتحت البناء مستشفى آخر بنفس السعة ، تجرى اقامته فى بلدة « يزد » الايرانية .
- يقيم فى جنوب لبنان « مدينة الزهراء » لايواء وتعليم أبناء الشهداء .
- هناك مكتب يتبعه فى لندن ، لشئون المقلدين وللدعوة الاسلامية ، يديره أحد تلاميذه ويعمل فيه ١٤ موظفا ، وميزانيته الشهرية ١٢ ألف جنيه استرلينى (١٨ ألف دولار) .
- يرسل بعثة حج كل سنة ، من غير القادرين ، ويتحمل نفقات الرحلة جميعها . (عدا المساعدات التى يقدمها باستمرار للمحتاجين من مقلديه أو غيرهم ممن يلجأ اليه) .

من زقاق البروجردى ، المتفرع عن شارع « جهار مردان ، ذهبت إلى شارع « ارم » حيث كتابخانه عمومى آية الله العظمى مرعشى نجفى » .



آية الله مرعشى نجفى

كان الرجل مريضا فلم أستطع لقاءه . ودعيت لزيارة أبرز آثاره . بعد مؤلفه « احقاق الحق » الذى أصدر منه ١٧ جزءا باللغة العربية ولم يكمله . ورغم أنه جاوز الخامسة والثمانين من العمر ، فانه لا يزال يأمل فى اصدار ١٧ جزءا أخرى حتى ينتهى من كتابة موسوعته فى العقائد وعلم الكلام ، الذى تخصص فيه .

منذ عشر سنوات أقام آية الله مرعشى نجفى تلك المكتبة الضخمة على مساحة ١٥٠٠ متر ، وارتفع بها إلى خمسة طوابق مكيفة الهواء . الأهم من ذلك أنه زودها بمليون كتاب ، غير ٢٠ ألف مخطوط ، ووضعها تحت تصرف كل طلاب الحوزة العلمية بحيث يدخلها المعممون بلا بطاقات . أما غيرهم فينبغى أن يحملوا بطاقات معينة تصرح لهم بالدخول والاطلاع .

الطابق الأرضى للاطلاع ، قسم منه لمن يفضلون القعود على الأرض ، ليس فيه سوى بساط ومساند ، وقسم آخر للذين يؤثرون استخدام الطاولات والمقاعد ، على قلتهم . الطوابق الأخرى لتخزين الكتب والمخطوطات

والتجليد ، وجناح الميكروفيلم المخصص لتصوير المخطوطات وحفظها والثمين فيها كثير ، على رأسه مخطوط « تفسير البيـان » للشيخ الطوسى ، وعمره أكثر من ألف سنة .

احتوت المكتبة على مؤلفات فى كل التخصصات ، من الطهى والتدبير المنزلى إلى الفلسفة وعلم الكلام ، مروراً بالأدب والقصة ، من تولستوى إلى إحسان عبد القدوس . وأيا كانت اللغة التى تجيدها ، ستجد ما تبتغيه . ذلك أن الكتب متوافرة باللغات العربية والأردية والانجليزية والفرنسية والألمانية ، غير الفارسية بطبيعة الحال .

قال لى مدير المكتبة أن ٣٢ شخصا يخدمون قراءها ، الذى يصل عددهم إلى ٥٠٠ شخص فى المتوسط يوميا ، وأن هناك مطبعة تتبع المكتبة وتطبع مؤلفات السيد نجفى أولا ، ثم تمارس نشاطا تجاريا يسهم فى الانفاق على المكتبة وتزويدها بالكتب والمراجع ، التى تستجلب من الخارج ، وعلاوة على ذلك فإن هناك اتفاقات لتبادل المخطوطات ـ صورها بطبيعة الحال ـ مع العديد من المكتبات الأخرى فى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية .

تلك قمم التى فوق السطح . وهناك الكثير منها الذى لا يزال تحت السطح ، مما لا يستطيع أحد أن يرصده الا إذا أنهى سياحته فى الشوارع والأزقة ، وقعد فى الحوزة العلمية ، وغاص فى أعماقها البعيدة ، مقتربا من همساتها ومكنون أسرارها .

□ □

الفصل السابع

فى الحوزة: متفقون و مختلفون!

قم ـ العقل والقلب ـ مدينة بلا قاع . كلما ظننت أنك بلغت منتهاها ، تبدّى لك عمق جديد لم تطله يداك . فاذا ما مضيت اليه ، وتمكنت منه ، وحسبت أنه نهاية مطافك وغاية مرادك ، فوجئت بأن ثمة شوطا جديدا عليك أن تقطعه ، لتقف على سر المدينة ومكنونها . ولا تكاد تهنأ لحظة بوقفتك تلك ، حتى تستبين أنك مطالب ـ مازلت ـ بالركض وراء عمق آخر . . وهكذا .

أول ما تشم فى قم ، رائحة الخلاف بين المراجع الكبار حول مسألة ولاية الفقيه . ليس فى مبدأ الولاية ـ فثمة شبه اتفاق حولها ـ ولكن فى مدى ونطاق تلك الولاية ، وهل تشمل الحكم واقامة الدولة أم لا .

وهو خلاف قديم كما مر بنا[1] لا يزال حيا بين فقهاء الشيعة ، الذين تقف أغلبيتهم ضد فكرة إقامة الدولة ، باعتبار أن تلك مهمة منوطة بالامام الغائب . أما هم ـ الفقهاء ـ فإن الآراء تتعدد فى حدود ممارساتهم ، التى تتراوح بين ولاية الفتوى والقضاء ، ومباشرة الأوقاف العامة وإقامة الشعائر ، وبين تجاوز ذلك إلى الاشراف على مطابقة القوانين السارية للشريعة الاسلامية ، على النحو الذى قرره دستور ١٩٠٦ .

قال لى واحد من آيات الله ـ طلب عدم ذكر اسمه ـ أن البعض يفهم القضية على نحو خاطىء . يتصورها معارضة سياسية ، فى حين أنها مسألة فقهية لا شأن لها بالسياسة . وأضاف نحن نؤيد الزعيم روح الله الموسوى الخمينى لكننا نختلف مع المرجع الكبير ونائب الامام روح الله الخميني . أى أننا نؤيد زعامته السياسية ونختلف مع زعامته الفقهية . فمن حيث هو مرجع له أن يجتهد كما يشاء فى مسألة الولاية أوغيرها . وذلك لا يصادر اجتهادنا ولا يحجر عليه . هو ينادى بالولاية المطلقة للفقيه وباقامة الدولة الاسلامية تحت قيادته وامامته . نحن نقول بالولاية المقيدة للفقيه ونرى أن الولاية المطلقة للامام الغائب ، هو الذى يباشرها وهو الذى يقيم الدولة . ثم قال الرجل : عندما تقام الحكومة الاسلامية ويستتب الأمر للفقهاء

(١) يراجع الفصل الخامس « نهاية عصر الانتظار » ص ٨٥ .

على النحو الذى هو حاصل الآن ، ماذا بقى للامام المهدى لكى يفعله إذا ما أذن الله بعودته من بعد غيبته ؟ !

اليمين . . ويمين اليمين !

فى قم يقف أغلب المراجع ضد فكرة الولاية المطلقة للفقيه ، التى دعا اليها الامام الخمينى ، وأيده فيها آية الله منتظرى ، رفيقه والامام المنُصّب بعده . وقد كان آية الله شريعتمدارى هو أول مراجع قم الذين جهروا برأيهم فى معارضة صيغة الولاية التى تبناها الخمينى . وسجل رأيه فى بيان صدر عنه ـ وفى تصريحات صحفية عديدة ـ تمت كلها فى العام الأول للثورة . قال الرجل صراحة أنه يؤيد ولاية الفقهاء من خلال لجنة اشراف على القوانين (صيغة دستور ١٩٠٦) ، ولم يكن فى ذلك معبرا عن رأى شخصى فقط ، ولكنه كان أيضا معبرا عن التيار السائد والمستقر فى الفقه الشيعى والحوزة العلمية ، فى المربع ذاته كان يقف آية الله كلبايكانى ومرعشى نجفى من مراجع قم ، وآخرون من أمثالهم فى مشهد وأصفهان ، غير فقهاء النجف الاشرف بالعراق ، وعلى رأسهم آية الله الخوئى .

وبينما كان شريعتمدارى هو الوحيد الذى أعلن على الملأ موقفه بنفسه ، فان المرجعين الآخرين فى قم ـ كلبايكانى والنجفى ـ التزما الصمت ، وتولى تلاميذهما نقل وجهة نظرهما فى الموضوع . وكان محدثى واحدا من هؤلاء .

فى الأساس هو خلاف فقهى ، ولكن العنصر الشخصى ليس غائبا تماما عن الموقف . ذلك أن مراجع قم لم يكن يخطر على بالهم أن آية الله الخمينى سينجح فى تفجير الثورة ، وسيتولى قيادة الدولة فى ايران . هو ذاته لم يتوقع ذلك ، كما تشير محاضراته حول الحكومة الاسلامية التى مررنا بها[٢] . وعندما جرى ما جرى ، كان طبيعيا أن تنشأ حساسية لدى المراجع الآخرى ، باعتبار أنه واحد منهم ، ليس أكبرهم سنا وربما ليس اغزرهم علما ، قدر له أن يتقدم الجميع ، لا فى الحوزة ، ولكن فى قيادة الأمة . وإلى جانب تلك الحساسية الشخصية ـ وربما الطبيعية ـ فان زعامة الخمينى السياسية أثارت مخاوف الآخرين من أنها قد

---

(٢) يراجع الفصل الخامس ص ٨٥

تكون زعامة فى المرجعية ، وعودة إلى صيغة المرجع الأوحد التى انتهت بوفاة السيد البروجردى .

ورغم أن اللغط حول تلك المسائل الدقيقة يدور همسا وفى الأركان . إلا أنه أحيانا يظهر على السطح فى مناسبات مختلفة ، أو ينعكس على بعض الممارسات فنحن نلاحظ مثلا أن أحد تلاميذ الامام الخمينى ـ اسمه مجتبى طهرانى ـ طبع « كتاب الرسائل » للامام ، بعد الثورة ، وكتب على غلافه أن الكتاب : تأليف الأستاذ الاعظم زعيم الحوزة العلمية ، المرجع الدينى الأعلى ، الحاج أقا روح الله الخمينى الموسوى ، أدام الله افاداته . وفى الوقت ذاته ، أصدر على حسين الميلانى أحد تلاميذ آية الله كلبايكانى « كتاب القضاء » لأستاذه ، أشار على غلافه إلى أنه « تقرير أبحاث فقيه العصر سماحة آية الله العظمى السيد محمد رضا الموسوى الكلبايكانى ، دام ظله الوارف . وكتب فى مقدمته أن الكتاب تضمن محاضرات « فقيه الأمة وزعيم الحوزة العلمية (أيضا) المرجع الدينى الكبير آية الله العظمى الحاج السيد محمد رضا الموسوى الكلبايكانى » .

تلك الحساسية من جانب المراجع الآخرين ، تجاه الامام الخمينى ، لم تشجعه على البقاء فى قم بعد انتصار الثورة . فرغم أنه توجه إلى هناك فى البداية (عام ١٩٧٩) الا أنه لم يسترح إلى مناخ الحوزة العلمية ، وما ظل يتردد فيها من همس ولغظ وطنين فى بعض الأحيان ، فلم يمكث هناك سوى أربعة أشهر ، آثر بعدها أن ينتقل إلى شمال طهران . وقيل وقتئذ أن انتقاله كان لأسباب صحية وأمنية ، وهى أسباب حقيقية ، ولكنها تأتى فى مرتبة تالية من الأهمية ، بعد السبب الشخصى المتمثل فى موقف المراجع الآخرين منه .

على يمين هؤلاء الرافضين للولاية المطلقة للفقيه ، تقف جماعة لها حضورها فى قم وفى غيرها من المدن الايرانية ، ترفض الولاية من حيث المبدأ ، المطلق منها والمقيد ، وتعرف باسم « انجُمن حجتيه » ـ أى جماعة الحجتية (المهدى الغائب هو امام الحجة أو حجة الزمان) . نستطيع أن نسميهم « حزب الامام الغائب » . وتسميته تحدد مهمته واطار عمله . فهم دعاة الثبات على العقيدة ، والالتزام بالنصوص المنقولة عن الأئمة ، والاكتفاء بذلك ، إلى أن يظهر الامام الغائب . وفى الوقت ذاته فهم ضد الاشتغال بالسياسة ، ومعنيون بالدعوة

والتربية العقيدية والمذهبية ، لا أكثر ، وهم فى ذلك أقرب إلى « جماعة التبليغ الاسلامى » المعروفة عند أهل السنة ، والتى نشأت فى الهند وباكستان ، ولا تزال تمارس نشاطها فى بعض دول العالم .

ونحن نقرأ فى فكر « انجمن حجتيه » امتدادا لمقولات ومنطق مدرسة « الاخباريين » التى ظهرت فى تاريخ الفقه الشيعى خلال القرن السابع عشر ، وذهبت إلى حد معارضة فكرة مرجعية الفقهاء أنفسهم (٣) .

وقد تأسست تلك الجمعية فى عهد الشاه ، وقيل أن النشاط البهائى فى ايران كان الدافع الرئيسى الذى حرك « الشيخ الحلبى » - وهو لا يزال حيا يسعى ويرزق - ودعاه إلى انشاء تلك الجمعية دفاعا عن العقيدة والمذهب . ولأنها كانت ضد الاشتغال بالسياسة ، وضد اقامة المؤسسة الدينية أو أى مؤسسة مذهبية فى غيبة الامام ، فقد كان موضع ترحيب من الشاه ، وتشجيع أيضا .

وإلى ما بعد الثورة ، فقد ظل للجمعية وجودها وفروعها فى مختلف أنحاء ايران وكان لها دعاتها وجمهورها بطبيعة الحال ، وإن بقى عددهم محدودا . غير أن الامام الخمينى هاجمها علنا فى سنة ١٩٨٤ ، معتبراً أن انجمن حجتيه تتبنى فكرا تخريبيا ، وطالب الجمعية بوقف نشاطها ، وأغلاق مقارها . وقد حدث ذلك بالفعل فأوقف نشاط الجمعية ، ولكن فكرها لم يمت . وأغلقت مقارها ، لكن رجالها انخرطوا فى الحزب الجمهورى الاسلامى - حزب الثورة - وصاروا يشكلون مصدرا للمتاعب داخل الحزب ، سواء بأفكارهم التى لم يتوقفوا عن الترويج لها ، أو بنشاطهم الذى يثير العديد من علامات الاستفهام ، خصوصا وأن هناك رأيا قويا يقول بأنهم ممولون ماليا من جانب آية الله الخوئى ، مرجع العراق ، وهو من معارضى الامام الخمينى شخصيا ومن معارضى الولاية المطلقة للفقيه كما تبنتها الثورة الاسلامية فى ايران .

جدل حول ولاية الفقيه . . وخلافته

كانت معارضة فكرة ولاية الفقيه بمثابة طعن فى الأساس الشرعى لكل البناء الذى قام بعد الثورة ، الذى تعد تلك الولاية ركنه الركين ، ونقطة الابتداء فيه .

(٣) أنظر الفصل الرابع بعنوان « دم الحسين الذى أريق » ص ٧٣ .

وكان من الطبيعى أن يضيق الامام الخمينى بتلك المعارضة ، وإن اكتفى فى التعبير عن ضيقه بمجرد الانسحاب من قم والانتقال إلى طهران ، والتزام الصمت تجاه ذلك التيار الذى يتصدره مراجع آخرون ، فى حجم الامام ومقامه ، وربما أكبر منه فى سلم المرجعية الدينية .

وقد سمعت من أحد المقربين من الإمام قوله : أن الامام انتصر فى كل معاركه السياسية والفكرية التى خاضها ، لكن معركته مع مراجع قم لم تحسم ، وبالتالى فلم ينتصر فيها بعد .

غير أن تلاميذ الامام والسائرين على نهجه ذهبوا بعيدا فى الهجوم على معارضى ولاية الفقيه ، حتى بات أشهر هتاف فى ايران يبدأ بعبارة : الموت لمعارضى ولاية الفقيه (مرك بر ضد ولاية فقيه) ـ وهو ما أغضب المراجع الآخرين ، ولم تفلح جهودهم فى محاولة ابطال هذا الهتاف ، الذى ذاع بين الجماهير واستقر بسرعة بالغة .

وسواء لم يستطع الامام أن يكبح جماح الشباب المتحمس الذى بات يهتف داعيا إلى « الموت لمعارضى ولاية الفقيه » ، أو أنه اكتفى بهذا القدر من التنديد ليكون بمثابة رسالته فى الرد على معارضيه ، إلا أنه من الثابت أن الامام حرص على عدم تفجير الخلاف حول تلك القضية ، على نحو عملى بحيث ظل رد الفعل محصورا فى مجرد التظاهر والهتاف ، دون أن يترجم ذلك إلى اجراء تنفيذى أو أمنى يتخذ بحق أولئك المعارضين .

وإذا كان آية الله شريعتمدارى قد وضع رهن الاقامة الجبرية ، وهو أبرز معارضى الولاية كما طرحها الامام ، إلا أنه بات معروفا أن ذلك الاجراء تم ، ليس بناء على معارضته الفكرية والفقهية ، ولكن لأنه ثبت للحكومة أنه كان على علاقة بمؤامرة استهدفت قتل الامام وقلب نظام الحكم ، وهى التى اعترف بها صادق قطب زاده وزير الخارجية الأسبق ، وأعدم بسببها فى عام ١٩٨٣ ، فضلا عن أن هناك من يقول إن اسم شريعتمدارى عثر عليه فى وثائق السفارة الأمريكية مرتبطا بنشاط مشبوه تسىء اليه كمرجع وكمواطن ايرانى .

والذين يذكرون تلك الوقائع فى سياق تفسير تحديد اقامة شريعتمدارى لأسباب لا علاقة لها بمعارضته لولاية الفقيه ، يقولون أن المرجعين الكبيرين

الآخرين فى قم ـ كلبايكانى والنجفى ـ وهما من المعارضين أيضا ، لم يتخذ ضدهما أى اجراء ، ولا يزالان يزاولان نشاطهما فى الحوزة العلمية ، وفى الحياة العامة بقم .

أياً كان الأمر ، فإن معارضة الولاية المطلقة للفقيه قد ضاقت دائرتها ، بعد مرور ست سنوات على مباشرتها ، بحيث أصبحت تلك المعارضة محصورة فى المراجع الكبار ، وتلاميذهم المقربين من أصحاب الولاء الشخصى ، أو الإلتزام الشديد بفكر أولئك المراجع وموقفهم الفقهى .

ويستطيع زائر قم أن يلمس فى أرجاء الحوزة العلمية تأييدا متزايدا لموقف الإمام الخمينى فى مسألة الولاية ، وسواء تحقق ذلك اقتناعا بالفكرة ، أو لأنها تتيح الفرصة للفقهاء لكى يؤدوا دورا أكبر فى الحياة السياسية ـ قياديا ومرموقا ـ أو لأية أسباب ومغريات أخرى فإن النتيجة تظل واحدة . وهى أن المعارضة تنحسر ، وما يسمى بخط الإمام يكسب أرضا جديدة بمضى الوقت ، الذى هو لصالحه فى نهاية الأمر .

وإن كانت قضية « ولاية الفقيه » هى أهم ما هو معلق بين مراجع قم وبين الإمام وخطه ، إلا أن المنصت جيدا لما يقال فى الحوزة ، يكتشف أنها ليست القضية الخلافية الوحيدة . ذلك أن ثمة لغطا آخر هناك حول مسألة « خلافة الفقيه » ، كما أسماها أحدهم . والمقصود بها هو قيادة الدولة بعد وفاة الإمام الخمينى ، الذى تجاوز الثمانين من العمر (هو من مواليد ١٩٠٢) .

وقد قدر لى أن أتابع هذا اللغط فى المرحلة التى سبقت إعلان مجلس الخبراء ، اختيار آية الله منتظرى قائدا للدولة بعد وفاة الإمام الخمينى (فى شهر نوفمبر ٨٥) ، ثم أتيح لى أن أزور قم بعد ذلك الإعلان ، (فى شهر فبراير ٨٦) وأن استمع عن قرب إلى أصداء تلك الخطوة فى أرجاء الحوزة العلمية .

لم تكن خلافة الشيخ منتظرى للإمام الخمينى مفاجأة لأحد ، فقد كان معروفا من البداية أن الرجل « مرشح » لتولى تلك المسئولية . وكان يمارس صلاحيات « الرجل القادم » ، الذى يعد لتولى القيادة فى أية لحظة ، فقد أعطى حق تعيين ممثلين له فى أى مرفق أو مؤسسة عامة ، ينقلون إليه حقيقة ما يجرى ،

ويثبتون « حضوره » فى الوقت ذاته . ومندوبوه الآن مبثوثون رسميا فى مساحة تمتد من جامعة طهران إلى سجن « ايفين » الشهير بالعاصمة . وعندما ذهبت للقائه فى قم أعطيت اسم أحد مديرى مكتبه لأتصل به فور الوصول . وعندما أجريت الاتصال قيل لى أنه سافر فجأة إلى أريتريا ، موفدا من آية الله منتظرى ، لتقصى حدود المجاعة هناك .

وفضلا عن علاقته الخاصة والحميمة بالإمام ، فإن سيرته وسجله ومواقفه ، تؤهله لمهام القيادة ، حتى أنهم يصفونه فى قم وطهران بأنه « ضمير الثورة » . فقد اجتمعت فيه صفات أهل العلم والزهد والتضحية والنضال ، والسنوات التى قضاها فى السجن والمنفى قبل الثورة ، ثم ابتعاده عن الأضواء وعكوفه على الدراسة والتدريس فى قم بعد الثورة ، ثم أبناؤه الذين قدمهم للثورة ، محمد الذى قتل وسعيد الذى فقد عينه فى الحرب ، ثم وقوفه المستمر ضد مختلف خطى التشدد وإجراءات تقييد الحرية ، تلك كلها كانت مواقف مضافة إلى رصيده ، ومعززة لترشيحه .

إلى جانب ذلك فقد ظل الرجل مصنفا باعتباره « خطا ثالثا » بين رجال الإمام ، يختلف عن المتشددين والمحافظين وداعية للإنفراج السياسى ، بمعنى توسيع قاعدة المشاركة فى الحياة السياسية . وربما كان الوحيد من رجال الإمام الذى يفتح بيته لرموز المعارضة الليبرالية فى إيران ، وفى مقدمتهم المهندس مهدى بازركان . والذين يسجلون له موقفه الإيجابى من المعارضة ، يذكرون بأن ابنه محمد قتلته إحدى فصائل المعارضة فى عملية تفجير مقر الحزب الجمهورى فى سنة ١٩٨١ .

وعندما كنت ألاحق هذا الموضوع فى قم ، خلال صيف ١٩٨٥ ، وبعد الاستماع إلى مختلف الآراء حول ترشيح آية الله منتظرى لخلافة الإمام ، كتبت فى أوراقى ما نصه :

« أن ثمة عناصر كثيرة تدعم ترشيح الشيخ منتظرى لتولى القيادة بعد وفاة الإمام الخمينى . وبينما استشعرت فى طهران أن الأمر محسوم لصالحه ، فإن قم لها رأى مخالف .

فى قم تسمع من يهمس فى أذنك قائلا : لا أحد ضد شخص الشيخ منتظرى فالرجل لا خلاف عليه . حتى طيبته الزائدة والمفرطة أحيانا تحسب له لا عليه . لكن المبدأ هو الأهم . مبدأ أن يكون للأمة قائد فرد ، أياً كان هذا الفرد .

« أيضا تسمع من يقول : أن شيوخنا يقبلون بفرد واحد وقائد واحد هو : الإمام المهدى ، عجل الله فرجه ! » .

التوحيد فى العقيدة و « التثليث » فى القيادة

« إن حصيلة الآراء التى سمعتها فى هذا الموضوع هى :

١ ـ أن الأغلبية الساحقة من الفقهاء الذين يؤيدون « خط الإمام » تؤيد ترشيح آية الله منتظرى للقيادة . وإذا كان الجميع يجلون الرجل ويحترمونه ، فإن نسبة غير قليلة تؤيده اقتناعا به من ناحية ، وامتثالا لرغبة الإمام الخمينى من ناحية ثانية . والباقون ، يؤيدونه من باب الامتثال والإلتزام أيضا ، ولكن بينهم من يرى فى « طيبة » الشيخ منتظرى ضعفا لا يمكنه من التمتع بصلاحيات ونفوذ أكبر فى ساحة السلطة . وهؤلاء يرون أيضا أن أى تحفظ على منتظرى سوف يفتح الباب لمشاركة « المراجع » الآخرين ، مما يقلص من أدوارهم فى جميع الاحتمالات .

٢ ـ إذا كان الإمام فى طهران هو القائد الذى لا ينازع ، فإن قم تحترم قيادته وتسلم بها ، لكنه بمعيار الحوزة « أحد » المراجع وليس المرجع الوحيد . وفى سلم المرجعية ، فآية الله الخمينى ليس أولهم ولا أكبرهم . فأقدم مراجع الشيعة الآن هو آية الله السيد أبو القاسم الخوئى الذى يقيم بالنجف ، فى العراق يليه فى الأقدمية ، السيد محمد رضا كلبايكانى . وفى مواقع ومقامات متقاربة يقف الخمينى فى مربع آية الله مرعشى النجفى وآية الله شريعتمدارى (الذى لم يعد يمارس المرجعية الى ان توفاه الله) وبعد هؤلاء جميعا فى الترتيب ، فى آخر القائمة تقريبا ، يأتى آية الله منتظرى . وموقعه ذاك يستبعد اسمه تلقائيا من عملية الترشيح للقيادة ، طالما أن الآخرين موجودون فى الساحة .

٣ ـ يستند رجال الإمام فى تأييدهم لآية الله منتظرى إلى عدة حجج ، أولها

أن الرجل تتوافر فيه الشروط التى نص عليها الدستور فيمن يتقلد ولاية الأمر (المادة الخامسة) . فهو « الفقيه العادل التقى ، البصير بأمور العصر ، الشجاع القادر على الإدارة والتدبير » . ثانى تلك الحجج أن الظرف الذى تمر به إيران فى المرحلة الراهنة ، حصار الثورة ومحاولات ضربها وتصفيتها لا يحتمل تعدد القيادة ولا الخلاف حول القضية . ثالث تلك الحجج أن التركيبة السكانية لإيران تفرض ضرورة الإلتزام بقاعدة القائد الواحد ، ففى بلد تختلط فيه الأصول والأعراف الفارسية والتركية والكردية والعربية ، لا ينبغى أن يفتح الباب أمام فكرة التعدد التى قد تمهد ولو فى الأمد البعيد للتفسخ ، الذى يتمناه الكثيرون لإيران .

٤ - يرد الطرف الآخر بطرح فكرة « شورى المراجع » أو (شوراى رهبرى) ، قائلين أنها مسألة مبدئية ، وليست قضية قانونية أو دستورية . ويضيفون مع ذلك أن الدستور ينص فى مادتيه ٥ ، ١٠٧ على أنه إذا لم يحرز أى فقيه للأغلبية من جانب الخبراء الذين ينتخبهم الشعب « فإنهم يعينون ثلاثة أو خمسة مراجع من جامعى شرائط القيادة ويقدمونهم إلى الشعب باعتبارهم أعضاء لمجلس القيادة . . أى أن نص الدستور فتح الباب لفكرة شورى المراجع ولم يستبعدها . ويضيفون هنا أن هذه الفكرة مثارة منذ حوالى ربع قرن ، وليست جديدة . وكان آية الله محمد حسين طباطبائى أول من طرحها باسم « مجلس المرجعية » .

يقولون أيضا أن لفكرة الإمام الواحد خطورتها من الناحية السياسية ، وسلبياتها من الناحية الفقهية . بمعنى أن صيغة الإمام الفرد تفتح الباب لاحتمالات الاستبداد والتفرد بالرأى ، بالأخص لأنه محمل بأبعاد ذات عمق مذهبى قد تغرى أى « فرد » بالإنزلاق فى ذلك المسار . ويستشهدون ببعض الظواهر التى أزعجتهم فى طهران ، من بينها الملصقات التى ظهرت معلنة أن الإمام الخمينى هو عين الإمام المهدى حينا ، وهو ذراعه وساعده فى حين آخر . وتلك اللافتات التى قالت ما معناه « إنك لن تستطيع أن تحب الإمام المهدى إذا لم تحب الإمام الخمينى » . . وهكذا .

من الناحية الفقهية ، هم يقولون إن الإمام ليس قائدا سياسيا فقط ، ولكنه مرشد روحى للأمة وهذا الوضع يتطلب منه أحيانا أن يدلى ببعض الآراء والاجتهادات فى مختلف قضايا الأمة ، وهى قد تتعارض مع اجتهادات مراجع

آخرين لهم نفس المكانة ولهم أتباعهم ومقلدوهم . وليس هناك محل لإلزام هؤلاء المراجع باجتهاد المرجع القائد مما يمكن أن يحدث بلبلة واضطرابا عند أتباع المذهب . إذ قد يحتارون بأى رأى يأخذون ، رأى المرجع القائد أو المرجع الذى هم يقلدونه فى الأصل ؟

ويرى هذا الفريق أنه لا سبيل إلى تجنب منزلق الاستبداد بالرأى ، أو إشاعة البلبلة بين جماهير الشيعة ، إلا عن طريق شورى المراجع ، حيث يكون مجلس من هؤلاء المراجع يتولى قيادة الأمة .

أحدهم قال مازحا : نحن من أنصار التوحيد فى العقيدة ، ومن أنصار « التثليث » فى القيادة (إشارة إلى فكرة قيادة ثلاثية من آيات الله : كلبايكانى ونجفى ومنتظرى) .

هذه الحجج والآراء يسمعها المرء فى أركان قم ، وبعضها تجرى حوله مناقشات مطولة فى الحوزة العلمية بين الحين والآخر . لكن هناك قدراً لا يقال علنا ، وإنما يطلق همسا أحيانًا ، ويستشعر من خلال الكلمات والإشارات . من ذلك على سبيل المثال :

- إشارات البعض إلى ضرورة إعادة الاعتبار إلى ترتيب المراجع ومقاماتهم ، وقولهم أن الإمام الخمينى يشكل حالة استثنائية من حيث دوره الرائد والقائد فى الثورة . ولكن ذلك لا ينبغى أن ينسحب على الشيخ منتظرى ، إذ ليس هناك ما يبرر استثناءه هو الآخر ، لمجرد أن الإمام رشحه ليخلفه ، ورغم أن هؤلاء من دعاة « شورى المراجع » إلا أنهم - ومن باب الجدل - يقولون : إذا كان هناك من يتحدث عن توافر شروط القيادة فى آية الله منتظرى ، فإن الشروط ذاتها متوافرة فى غيره ممن هو أقدم فى المرجعية ، فلماذا يقدم منتظرى على غيره ؟ .

- إحتجاج البعض الآخر على ما يعتبرونه « احتكارا » لمواقع السلطة من جانب رجال الإمام ، وعدم إشراكهم رجال المراجع الآخرين فى مناصب القيادة . الأمر الذى يشم منه المرء أن هذا العامل ربما لعب دورا فى إثارة مسألة شورى المراجع التى قد يمكن ترجمتها ، من ناحية أخرى ، باعتبارها صيغة لاشتراك أولئك المراجع فى السلطة . والذين يطلقون هذه التلميحات ليسوا المراجع بطبيعة

الحال . فهؤلاء محملون بأعباء وشواغل بغير حصر ، وإنما هم بعض طبقات الفقهاء والتلاميذ التالية لهم فى الترتيب ، الذين يبحثون لأنفسهم عن دور فى الحياة السياسية ، فى زمن فتح للشيوخ أبواب المناصب على مصاريعها .

ذلك الجدل ، الذى لم يتجاوز دائرة المراجع والحوزة ، قدر له أن يحسم بقرار مجلس الخبراء ، بتنصيب آية الله منتظرى قائدا بعد الإمام الخمينى . وهو قرار لقى تأييدا بين رجال الإمام ، لكنه لم يسعد غيرهم كثيرا ، وبينما التزم كثيرون الصمت ، فإن أحد آيات الله فى قم ـ صادق روحانى ـ لم يستطيع أن يكتم مشاعره ، وقال أمام الدارسين فى الحوزة العلمية : تلك سقيفة جديدة ! ـ وكان يشير بذلك إلى الاجتماع الذى عقد بعد وفاة الرسول ﷺ فى سقيفة بنى ساعدة ، حيث تم اختيار أبى بكر الصديق خليفة للنبى ، وهو ما اعتبر عند الشيعة اغتصابا لحق على بن أبى طالب ، الذى يرون أن النبى أوصى له بالخلافة .

كان آية الله روحانى يقول : إن مجلس الخبراء بقراره تنصيب منتظرى ، اغتصب حق غيره فى خلافة الإمام الخمينى ، كما اغتصب حق الإمام على فى خلافة النبى فى اجتماع السقيفة .

لم تكن مفهومة دوافع الشيخ روحانى ، وهو المعروف بميوله الفارسية ، وصلاته السابقة ـ فى عهد الشاه ـ مع حزب ايران العظمى (بان ايرانيست) ، ولكن الحاصل أنه أحدث قدرا ملحوظا من البلبلة والتعكير .

أثار كلام الشيخ روحانى جدلاً حاداً وطويلا فى الحوزة بين أقلية ترى رأيه ـ من أنصار المراجع الآخرين المعارضين لموقف الإمام الخمينى ـ وأغلبية تؤيد الإمام وخطه ، وتؤيد قرار مجلس الخبراء بتنصيب الشيخ منتظرى . وبحث الأمر فى إجتماع لمجلس الخبراء ، الذى ظل على موقفه ، واقترح إجراء ما يشبه الاستفتاء على القرار ، بالإعلان عن مسيرتين شعبيتين ، إحداهما فى قم والثانية فى طهران . لكن الشيخ منتظرى هو الذى اعترض على خروج المسيرتين ، ووجه إلى المجلس خطابا قال فيه أنه كان زاهدا فى ا منصب من الأساس . وهو أكثر زهدا فى أية تظاهرات تخرج مؤيدة له . ولذا فإنه يرجو أن يعدل مجلس الخبراء عن فكرة المسيرات . وقال واحد من رجال الشيخ منتظرى أنه كان راغبا أيضا فى أن يمر الموقف بسلام ، وأنه كان يخشى من حماس مؤيديه أن ينفلت ، وأن

يؤدى ذلك إلى تصعيد الأمر والاحتكاك بالمعارضين ، الذين يحرص هو على ألا يتحرش أحد بهم .

وقد نقلت وكالات الأنباء بيان آية الله منتظرى ، الذى صدر فى النصف الثانى من شهر نوفمبر ٨٥ ، على أنه اعتذار من جانبه عن تولى المنصب الذى أسند إليه ، بعدما أخطأت فى فهم قوله أنه كان زاهدا فى ذلك المنصب حتى تناقلت الوكالات وقتذاك تحليلات عديدة لطبيعة « الأزمة » التى يمر بها النظام الإيرانى بعد اعتذار منتظرى !

ومرت العاصفة بهدوء فى قم ، بعدما استشعر الفريق المعارض أن كلام الشيخ روحانى أستقبل بالرفض والغضب من جانب الأغلبية فى الحوزة العلمية . .

اعتراض مماثل حدث فى حوزة مشهد ، من جانب آية الله القمى ، لكن أصداءه سكنت على الفور ، بعدما قوبل بمثل ما قوبل به كلام الشيخ روحانى فى قم .

حكاية السيدين منير ويعقوبى

خارج دائرة المراجع يكتشف المرء أن هناك تجمعين فى قم يحيط بهما الكثير من علامات الاستفهام ، ارتبطا باسمى اثنين من السادة (المنتمين إلى آل البيت) أحدهما هو السيد منير ، والثانى يحمل اسم السيد يعقوبى .

السيد منير يدير مؤسسة فى قم هى « أكاديمية العلوم الإسلامية »، ومن ظاهر الاسم تبدو وكأنها مؤسسة علمية ثقافية ، ولكن دائرة الحركة التى تشملها نشاطات السيد منير تشير إلى أن دوره يتجاوز الحدود الأكاديمية ، ويتداخل مع دوائر الحكم والسلطة . . إلى أى مدى ولصالح من ؟ هنا تثور التساؤلات التى تحير الكثيرين فى المدينة .

غير أن ثمة خيوطا يمكن العثور عليها فى الحوزة العلمية تلقى بعض الضوء على دور السيد منير ، وأكاديميته للعلوم الإسلامية ، وقصة الرجل ليست سراً . فالجميع يعلمون أنه قادم من الجنوب ، من شيراز . وأن أباه « نور الدين » كانت له علاقة ما بنظام الشاه ، وهناك من يضيف : وبالقنصلية البريطانية فى شيراز . الأب نور الدين كان نشيطا فى السوق (البازار) وفى المعهد الدينى بالمدينة . وعندما مرت المرجعية فى عصر السيد البروجردى بظروف شابها بعض التوتر مع الشاه ، ظهر نور الدين بحزب مؤيد للشاه اسماه « برادران » ـ الإخوان ـ وظل هذا

الحزب نشيطا فى تأييد الشاه فى بداية الأمر ، ومدعوما بكبار الإقطاعيين والملاك فى شيراز ـ وفى منطقة فارس بأسرها ـ وهم يسمونهم هناك « الخوانين » ، والمفرد خان . وهؤلاء كان لهم حضور كبير فى المنطقة ، وكانت لهم حياتهم المترفة المنفصلة عن الناس ، كما كانت لهم أزياؤهم الخاصة التى يعرفون بها عن بعد ! . . وقد تزايد نفوذ هؤلاء حتى أنهم اصطدموا مع الشاه فى صراع على السلطة فى منطقة فارس ، واستمر ذلك الصراع طوال سبع سنوات ، قيل إن فريق الخوانين كان يحصل على السلاح خلالها من الخارج ولا يزال هؤلاء يصنفون فى المربع الرافض للثورة ، بمختلف طروحاتها .

من هذه التربة خرج السيد منير . درس فى حوزة النجف الأشرف بالعراق ولم يعد إلى شيراز . ولكنه استقر فى قم ، مؤسسا لأكاديمية العلوم الإسلامية ، ومتكئا على أحد الفقهاء الذين ظلوا يدرسون فى حوزة النجف طوال ٣٠ عاما ، اسمه « الشيخ الراستى » وكل رصيده أنه كان محبا للإمام ومن مريديه وأنه قضى سنواته الثلاثين فى الحوزة مع القرآن وكتب الفقه دون غيرها ، ورافضا للإطلاع على أى باب آخر من أبواب المعارف الأخرى ، التى هى مصدر الإنحراف وأس البلاء !

فى قم أصبح الأثنان ، السيد منير والشيخ الراستى ، عضوين فى جامعة مدرسى الحوزة ـ كما يسمونها ـ ومن ذلك الباب كان اتصالهما بقنوات السلطة وأطرافها فى طهران وهو إتصال لا تعرف طبيعته ولا أهدافه ، لكنه لا يزال محاطا بالعديد من علامات الاستفهام الحائرة والمحيرة . وخلال سبع سنوات من عمر الثورة ، وفى ظل النشاط الدائب للسيد منير فى الحوزة العلمية ، وفى جامعة أو تجمع الأساتذة أصبح للرجل حواريون وأتباع ، وكان يمكن أن يمر ذلك كله فى هدوء ودون أن يستوقف أحدا ، لولا الظروف التى أحاطت بملف أسرته من ناحية وعلاقته ببعض أجنحة السلطة من ناحية ثانية . وهو أمر يثير قلق ومخاوف بعض أبناء الثورة فى قم .

التجمع الآخر الذى تحيطه علامات الاستفهام ، والمرتبط بالسيد يعقوبى ليس له اسم محدد ، لكنه دخل على الناس فى قم من باب التصوف ، والتعلق بالله حبا فى ذاته العلية . والشيخ يعقوبى كان قبل ربع قرن من رجال الدرك ، لكنه

أخذ مكانه فى الحوزة العلمية وأنخرط فجأة فى الدراسات الفقهية ، وأدعى لنفسه أنه « باب » لإمام العصر (الغائب) . منذ عشرين عاما وهو يروج لتلك الدعوة ، حتى صار له ـ أيضا ـ أتباع ومريدون ، تركوا الدراسة فى الحوزة والتفوا حوله . وصاروا يجتمعون فى بيته ، حيث يرددون قراءات معينة ، فيما يشبه الأذكار ، ويظلون على تلك الحال ، إلى أن يصابوا جميعا بالذهول ، ويغيبون عن الواقع بما يتصورونه تحليقا مع شيخهم باب إمام العصر ، فى عالم اللامحسوس .

أيضا ، فإن مثل هذا التجمع ، ما كان له أن يستوقف الباحث فى قم ، لولا أن هناك من يشارك فيه من أطراف وثيقة الصلة بالسلطة فى طهران ، بالأخص من قادة حرس الثورة .

ماذا يفعل السيد يعقوبى ؟ . . وما هى أهدافه الحقيقية ؟ . . ليست هناك إجابة محددة على السؤالين ، ولا على أسئلة أخرى عديدة مثارة بين شباب الحوزة العلمية . إذ يظل الرجل ونشاطه ودائرة حركته بمثابة واحدة من علامات الاستفهام فى قم .

لغط آخر داخل خط الإمام

هناك بعد آخر أكثر أهمية وأعمق أثرا فى فكر الثورة ومسيرتها ، هو ذلك الجدل الدائر فى إطار « خط » الإمام الخمينى ، أو رجاله أنفسهم . ذلك أن هناك قضيتين مثارتين فى « داخل البيت » يستطيع المرء أن يرصد أصداءهما بقوة فى أرجاء حوزة قم :

ـ القضية الأولى أطلت برأسها منذ بداية الثورة ، وهى تتمثل فى الخلاف التقليدى بين المحافظين والمتشددين من الفقهاء أو بين اليمين واليسار ، إذا جاز التعبير .

ـ والقضية الثانية برزت لاحقا ، وتتمثل فى الصيغة التى يمكن أن تباشر بها ولاية الفقيه ، بعدما انطلق الجميع من نقطة التسليم بالولاية المطلقة ، وحسموا السؤال : هل تقام الدولة ويمارس الفقهاء ولايتهم ، ويؤدون مختلف مسئوليات

الإمام الغائب إلى أن يظهر ، أم لا . . لكنهم اختلفوا حول إجابة السؤال : كيف يمارس الفقهاء تلك الولاية ؟ .

وواقع الأمر أنه لا جديد فى الجدل الدائر بين الفقهاء ، حول مختلف الأمور الحياتية ـ المعاملات بوجه أخص ـ سواء المحافظون منهم أو المتشددون . ولكن العنصر الذى جد فى الموقف هو أن مثل هذا الجدل بات يؤثر فى سياسات الدولة ، التى يتولى الفقهاء قيادتها .

فقد استحدث الدستور الإسلامى الإيرانى ـ فى المواد ٩١ ـ ٩٩ ـ « مجلس المحافظة على الدستور » (شوراى نكاهبان) الذى يضم ٦ من كبار الفقهاء يختارهم الإمام ، و ٦ من الحقوقيين الذين ينتخبهم المجلس الأعلى للقضاء وتشترط موافقة مجلس الشورى عليهم . والهدف من إنشاء هذا المجلس هو مراجعة كافة ما يصدر عن مجلس الشورى من قوانين وقرارات ، للتثبت من مطابقتها لأحكام الشريعة الإسلامية وللدستور .

وعندما يتعلق الأمر بموضوع الشريعة فإن القرار يتخذه الفقهاء ـ دون غيرهم ـ بأغلبية الأصوات . أما إذا كان الأمر متعلقا بالدستور ، فإن قرار المجلس يصدر تبعا لرأى أغلبية أعضائه (الفقهاء والحقوقيين) . ولا تكتسب قرارات مجلس الشورى شرعية ، ولا تصبح نافذة فى غيبة مجلس المحافظة على الدستور(٤) .

من خلال ذلك المجلس بدأ الفقهاء يمارسون دورهم فى مراقبة شرعية القوانين وأصبحت اجتهاداتهم مؤثرة بصورة مباشرة فى الواقع العملى ، ومنذ أصبحت الكرة فى مرمى الفقهاء ، على صعيد التشريع ، فإن قم باتت طرفا أساسيا فى تصميم الهيكل التشريعى للبلاد . فى طهران يجرى مجلس الشورى مناقشاته حول مختلف القوانين والإجراءات بينما تظل قم تتابع وتراقب وتنتظر ، فإذا ما انتهى المجلس إلى قرار على أى وجه ، فإن الملف ينتقل إلى قم ، لمناقشة الوجه الشرعى للقرار ، وهى مناقشة لا تقف عند حدود الفقهاء الستة فى

---

(٤) فكرة مجلس المحافظة على الدستور مأخوذة عن الدستور الفرنسى ، الذى أنشأ مجلس الدستور ، من كبار فقهاء القانون ، ليتولى دراسة أى تفسير للدستور أو تغييره . وهو جهة مختلفة عن مجلس النواب والشيوخ .

مجلس المحافظة على الدستور ، وأكثرهم يقيم فى قم ، ولكن الحوزة العلمية بأسرها تصبح طرفا فيها .

وخلاف الرأى بين المحافظين والمتشددين يصدر عن اختلاف فى الأسانيد الشرعية من ناحية ، لكنه يعكس فى الوقت ذاته ـ كقاعدة ، دعك من الاستثناء ـ اختلاف الرؤى بين أجيال الفقهاء ، الشيوخ الذين يتجهون بطبيعتهم إلى المحافظة ، التى قد تسمى اعتدالا أو يمينا بينما يجنح الشباب عادة إلى التطرف أو التشدد أو اليسار . تلك سنن سرت على الأولين والآخرين . . وسرت بالتالى على فقهاء قم .

فقد حدث أن كان الفقهاء الستة أعضاء مجلس المحافظة على الدستور ، وهم من آيات الله المخضرمين ، من كبار السن الذين ينتمون إلى شريحة المحافظين أو المعتدلين . وقد لا نبالغ كثيرا إذا ما قلنا أنهم أبناء شرعيون للفكر التقليدى فى الحوزة العلمية ـ وهو ما انعكس على موقفهم تجاه العديد من القوانين التى أحيلت إليهم من مجلس الشورى .

فى الميدان الاقتصادى بوجه أخص ، كان لفقهاء مجلس الدستور موقفهم الرافض لمختلف القوانين التى أجازها مجلس الشورى لتنظيم ذلك القطاع .

وكان مجلس قيادة الثورة قد أصدر فى عامى ٧٩ ، ٨٠ عدة قرارات فى ذلك الصدد ، انطلقت من مبدأ تدخل الدولة فى تنظيم النشاط الاقتصادى . وعندما تشكل مجلس الشورى ، واستقر بناء المؤسسات الدستورية المختلفة ، كان من الطبيعى أن تسلك تلك القرارات الطريق الدستورى لتكتسب الشرعية اللازمة . وفى رحلتها تلك ، تعثر صدور أكثرها لعدة سنوات ، ولم يكتب لها الصدور ، بسبب الاختلاف حول مدى مطابقتها للشريعة الاسلامية .

فيتو للفقهاء . .

آية الله جنّتى هو أحد الفقهاء الستة فى مجلس حراس الدستور ، وأحد خطباء جمعة قم ، وهو رئيس منظمة الاعلام الاسلامى فى الوقت ذاته . ورغم أنه شارف الستين من العمر الا أنه قضى حياته كلها فى حوزة قم ، تلميذاً وباحثاً

وأستاذا لم يغادرها إلا لزيارات خاطفة إلى الأماكن المقدسة فى النجف الأشرف والحجاز ، ثم سوريا ولبنان .

شرح لى الشيخ جنتى موقف الفقهاء/ الحراس من قانونى تحديد الملكية الزراعية الذى اعيد إلى مجلس الشورى مرتين لتعديله ، وقانون التجارة الخارجية الذى أعاده الفقهاء ثلاث مرات إلى البرلمان ، ولا يزالون يصرون على عدم اقرار أى منهما ، ما لم يرفع منه ما تصوروه مخالفا للشريعة الاسلامية .

كان قانون تحديد الملكية الذى أصدره مجلس الثورة قد نص على مصادرة أراضى الشاه وأعوانه وتوزيعها على صغار الفلاحين . وقرر الاستيلاء على القدر الزائد من حيازات الاقطاعيين وكبار الملاك وتوزيعه أيضا على الفلاحين ، طبقا لقواعد محددة . فالقانون يترك للمالك مساحة تعادل ثلاثة أضعاف الحيازة التى تكفى حاجة أسرة عادية فى منطقته . ثم تضع الدولة يدها على ما زاد بعد ذلك ، وتوزعه . فاذا كانت الأسرة متوسطة العدد يكفيها ـ مثلا ـ ايراد هكتارين فى منطقة وفيرة المياه ، فان مالك الأرض تترك له مساحة ستة هكتارات فقط ، ويوزع ما زاد على الفلاحين .

سألت الشيخ جنتى : ما وجه مخالفة هذا القانون للشريعة ؟

قال : لقد وجدناه مخالفا من أكثر من وجه . فالأساس الذى اعتمدناه من خلال البحث الفقهى هو أن الاسلام يحترم الملكية الفردية المشروعة(٥) . وهى تلك التى يحصلها الانسان بكده وعمله ، أو من خلال أى مصدر حلال ، مثل الميراث والوصية . فالملكية بالكم غير محددة فى الاسلام ، ولكنها محددة من حيث الكيف وللحاكم المسلم فى حالة الضرورة أن يتدخل لصيانة المجتمع ، إذا أدت تلك الملكية إلى افساد اجتماعى أو اقتصادى من أى نوع . وإذا ثبتت تلك الضرورة ، فله أن يحدد الملكية أو ينزع الأراضى لرفع الضرر الواقع على المجتمع الاسلامى .

أضاف آية الله جنتى : فى ضوء هذه الأسس ، ناقشنا القانون الذى تلقيناه

---

(٥) تنص المادة ٤٧ من الدستور الإيرانى على هذا المعنى ، فتقول : الملكية الخاصة المكتسبة عن طريق مشروع مصونة ، والقانون يتولى تنفيذها .

ن مجلس الشورى . فوجدناهم قد ساووا بين الذين اكتسبوا ملكياتهم عن طريق الظلم والغصب والحرام ، وبين الذين آلت اليهم الأرض بالحلال . فى حين أن التفرقة بين الفريقين واجبة ، عدلا وشرعا ، وتبين أيضا أن حالة الضرورة التى تبرز انتزاع ملكية الأرض من الذين اكتسبوها بالحلال ، غير قائمة . ففى بلادنا مساحات شاسعة من الأراضى « الموات » بحاجة إلى استصلاح . ولم نفهم لماذا نتقاعس عن استصلاحها لنوزعها على الناس ، ونلجأ إلى انتزاع الأراضى المزروعة من الذين تعبوا فيها ونقوم بتوزيعها . أن الأسلوب الأول سيثرى البلاد ويزيد من رقعتها الزراعية بكل تأكيد ، أما الأسلوب الثانى فهو يجافى روح العدل ، ويؤدى إلى تفتيت الملكيات الزراعية وإضعاف انتاجيتها بالتالى .

« لقد قلنا لمجلس الشورى بوضوح ، أنه إذا أريد لهذا القانون أن يكون موافقا لروح الاسلام فيجب أن ينطلق من تأييد حرية التملك المشروع . وأن يجيز انتزاع الأرض من مالكها إذا ثبت أنه كان لها غاصبا أو أنها آلت اليه بأسلوب غير مشروع ، مثل التحايل أو الربا أو الاتجار فى سلعة محرمة كالخمور . وإثبات ذلك يجب أن يتم عبر القضاء . وللقاضى أن يتحقق من عدم مشروعية الملكية ، فاذا أيدت الأدلة تلك الدعوة ، ردت الأرض لمن اغتصبت منهم ، إذا كان لها صاحب ، أو آلت إلى بيت المال (الدولة) إذا لم يكن لها صاحب ؟

« قلنا لمجلس الشورى أيضا : اطلقوا فرص الكسب الحلال أمام الناس . وشجعوا الحكومة على استصلاح الأرض الموات وتوزيعها على الفلاحين إن شاءت . وإذا أرادت الحكومة أن تنتزع أراضى الملاك الذين اكتسبوها بالطرق المشروعة بدعوى الضرورة ، فلها ذلك ، شريطة أن تلجأ إلى القضاء لتثبت حالة الضرورة أمامه ، وتحصل منه على حكم مسبق ، قبل أن تلجأ إلى انتزاع الأرض من أصحابها .

سألته عن طبيعة الخلاف بين اللجنة والمجلس حول قانون التجارة الخارجية ؟

قال الشيخ جنتى : فى البداية أصدر مجلس الثورة قرارا يعطى للدولة حق احتكار التجارة الخارجية ، وصاغه مجلس الشورى فى قانون ، وجدناه أيضا يتعارض مع الشريعة . فقد اعتبرنا أن الاسلام لا يجيز منع الشعب من الاشتغال

بالتجارة ، وأن الحكومة إذا ارادت أن تدخل ميدان التجارة الخارجية فلتفعل ، شريطة ألا تمنع غيرها من العمل فى ذلك الميدان، وإذا منعت الناس ، فقد وضعت قيدا غير مشروع على حرياتهم ، ولا يمكن أن نستسيغ فكرة اقرار مصادرة حريات المسلمين فى دولة تعلن التزامها بالاسلام وتطبقه فى مختلف نشاطاتها .

قلت : هنا أيضا تثور مسألة المصلحة العامة والضرورات التى تقتضيها حماية الاقتصاد القومى ، التى هى أيضا حماية للناس .

قال : احسنت ! فى هذه النقطة قلنا أن للحكومة أن تطلب من القضاء أن يمنحها حق احتكار الاتجار فى سلعة أو سلع بذاتها لأجل معين ولها أن تثبت أمام القضاء حالة الضرورة التى تراها مبررا للقيام بتلك الخطوة . بمعنى أن الأصل ينبغى أن يكون الاطلاق ، والقيد على الحرية هو الاستثناء ، وهذا القيد إذا فرض فينبغى أن تكون له أجراءاته القضائية المشروعة .

بقية القصة سمعتها فى طهران . .

يقول الراوى أن حجة الاسلام هاشمى رفسنجانى رئيس مجلس الشورى ، وهو على رأس المؤيدين لمشروعات القوانين التى أعدها المجلس ، ضاق بموقف فقهاء لجنة المحافظة على الدستور ، فاعلن أمام مجلس الشورى فى احدى جلسات صيف ٨٤ ، أن رأى الفقهاء استشارى ، وأنه ليس لهم أن يرفضوا قانونا أقره البرلمان المنتخب من قبل الشعب (الطريف أن رفسنجانى من أبرز مؤيدى فكرة ولاية الفقيه ، التى عاد وتحفظ عليها فى المناقشة) . ورد عليه أحد الفقهاء مذكره بنص الدستور على أنه لا شرعية لما يقره مجلس الشورى الا بوجود مجلس حراس الدستور . وعندئذ قال رفسنجانى أن الدستور لم ينص على ضرورة « موافقة » الفقهاء ، وانما جاءت صياغته بمعنى « الاحاطة » لا أكثر .

رغم أن نص القانون يؤيد كلام رفسنجانى ، إلا أن الروح الذى كتبت بها المواد توحى بأن دور الفقهاء لا يمكن اغفاله . فضلا عن أنه أمام جماهير الثورة الاسلامية يصعب قبول فكرة المضى فى اصدار قانون ، يعلن الفقهاء أنه مخالف للشريعة الاسلامية . وهو بالضبط ما فعلوه بالنسبة لقانون التجارة الخارجية ، إذ صدر عن فقهاء مجلس المحافظة على الدستور ، تصريح نشرته الصحف يعلن أن

بعض مواد هذا القانون مخالفة للشريعة . فلم يجرؤ أحد على تحريكه ، أو الاحتجاج على الفقهاء بنصوص الدستور أو غيره !

لم يكن هناك مفر من الاحتكام إلى الامام ، الذى وقف إلى جانب مجلس المحافظة على الدستور . وقال فى لقاء تم بعد الزوبعة التى ثارت فى مجلس الشورى ، أن مجلس الدستور هو التجسيد العملى لفكرة ولاية الفقيه . وإذا تجاهل مجلس الشورى رأى فقهائه فان ذلك يعد اهدارا للولاية المفترضة ، التى هى ركن أساسى فى دستور الثورة الاسلامية .

حسم كلام الامام القضية المعلقة من الناحيتين السياسية والدستورية ، الأمر الذى أعاد الكرة إلى « مرمى » مجلس الشورى ، الذى كان عليه أن يبحث عن صيغة للخروج من المأزق .

وإذا كان الخلاف حول مبدأ تدخل الدولة فى شئون الاقتصاد قد بدأ فى طهران أحد نقاط الخلاف أو التعارض بين هاشمى رفسنجانى رئيس مجلس الشورى ، وعلى خامنئى رئيس الجمهورية ، إلا أن جذوره الفكرية والجدل الحقيقى حوله كان ولا يزال فى قم . رفسنجانى له قناعته المؤيدة للتدخل بطبيعة الحال ، لكن أغلبية شباب الحوزة العلمية فى قم يؤيدونه . خامنئى كان معبرا عن تيار الشيوخ من كبار السن ، وعلى رأسهم فقهاء مجلس المحافظة على الدستور .

لا يخلو الأمر من مفارقة هنا ، لا تتمثل فقط فى أن رئيس الجمهورية ـ خامنئى ـ يعد نسبيا من جيل الشباب ـ جيل رفسنجانى على الأقل ـ لكنه كان أكثر انحيازا إلى موقف الشيوخ ، ولكن أيضا أن رفسنجانى الذى ينتمى إلى أسرة ثرية تشتغل بالتجارة فى بلدة رفسنجان ، هو الواقف ضد حرية التجارة ، يؤيده فى ذلك رئيس الوزراء ميرحسين موسوى ، الذى يعد أبوه من كبار تجار الشاى بسوق طهران . أما خامنئى ، المؤيد لحرية البازار ، فهو من أسرة متواضعة فى بلدة خامنه ئى ، لم يكن له بيت يقيم فيه بالعاصمة . ولا يزال فى مدة رئاسته الثانية يقيم فى بيت حكومى للضيافة .

مع ولاية الفقيه . . لكن كيف ؟

قضية الكيفية التى يمارس بها الفقيه ولايته تعدد فيها الآراء على مختلف مستويات الشيوخ والشباب من رجال الامام . وهنا ينبغى أن نفرق بين أمرين : ولاية الفقيه بمعنى قيادة الأمة ، المتمثلة فى نائب الامام الغائب ، الذى اصطلح على تسميته مؤقتا بالامام ، وولاية الفقيه بمعنى اشراف الفقهاء على ضبط مسار المجتمع على النهج الاسلامى القديم .

ليس هناك خلاف حول مسألة قيادة الفقيه للأمة . ولا خلاف بطبيعة الحال حول قيادة الامام الخمينى ، لكن آية الله منتظرى له رأى فى كيفية اختيار القائد فى الظروف العادية وليس الاستثنائية التى صاحبت تولى الخمينى ـ هذه الكيفية منصوص عليها فى المادة ١٠٧ من الدستور التى تقول أن (مجلس) الخبراء المنتخبين من قبل الشعب ، يبحثون ويتشاورون حول كافة الأشخاص الذين لهم صلاحية المرجعية والقيادة . فاذا وجدوا مرجعا واحدا يملك امتيازا خاصا للقيادة ، فانهم يعرفونه للشعب باعتباره قائدا . وإلا فانهم يعينون ثلاثة أو خمسة مراجع من جامعى شرائط القيادة ويعرفونهم إلى الشعب باعتبارهم أعضاء لمجلس القيادة .

أى أن الدستور أحال مسألة اختيار القائد أو مجلس القيادة إلى مجلس الخبراء المنتخبين شعبيا . ولكن الشيخ منتظرى يرى أن مجلس الخبراء يرشح القائد فقط ، وأن انتخابه يجب أن يتم بواسطة الجماهير مباشرة ، من خلال الاستفتاء العام ، وهو ما يثبت مركزه باعتباره فوق السلطات الثلاث : التشريعية والتنفيذية والقضائية .

وتلاميذه ينقلون عنه أن الامام الخمينى جاء من هذا الباب فى حقيقة الأمر فالجماهير هى التى أجمعت عليه ، ولم يرشحه أحد . فضلا عن أنه يعتبر الاستفتاء على القائد شعبيا يجسد على نحو أفضل صيغة الممارسة الديمقراطية التى ينحاز اليها آية الله منتظرى بقوة .

فى دروس ولاية الفقيه التى ألقاها فى الحوزة طوال عام ٨٥ أعلن الشيخ منتظرى رأيه هذا ، وقال أن لديه ٢٧ دليلا شرعيا على أن ولى الأمر فى الدولة الاسلامية يجب أن ينصب بالانتخاب . ولذا فان الجميع يتوقعون أن يبدأ بنفسه فى

تطبيق هذا الرأى ، بعد أن اختاره مجلس الخبراء ليخلف الامام . ويضيف تلاميذه أنه يعتبر قرار مجلس الخبراء ترشيحا وليس اختيارا ، وأنه سوف يدعو إلى اجراء استفتاء شعبى قبل أن يباشر مهام منصبه ، إذا ما اختار الله الامام إلى جواره .

غير أن المسألة التى لم يحسم فيها الجدل هى ولاية الفقهاء الذين هم دون الامام فى المسئولية والترتيب ، بعد أن أصبحت الصيغة القائمة الآن هى تولى الفقهاء بأنفسهم زمام السلطة ، على مستوى المسئولية التنفيذية ، من رئاسة الجمهورية إلى رئاسة مجلس الشورى ، إلى الوزراء والوكلاء والمدراء والسفراء .

صارت الولاية « مناصب » شغلها الفقهاء ، وأحيانا سعوا اليها وتنافسوا عليها ، هكذا قال لى أحد خبراء الدستور فى قم ، وأضاف : أن الصورة التى كانت فى ذهن الامام ومن حوله فى البداية تقف عند حدود قيام الفقهاء بالاشراف والتوجيه ، ولم يكن مطروحا أن يمارس هؤلاء المسئوليات التنفيذية فى الحكومة . ودلل الرجل على صحة رأيه بما يلى :

١ - إن الامام الخمينى هو الذى اختار مهدى بازركان ، كأول رئيس للوزراء بعد انتصار الثورة الاسلامية ، وهو الذى رشح أبو الحسن بنى صدر لرئاسة الجمهورية ولم يختر فقيها لهذا المنصب أو ذاك ، وكان يملك ذلك بطبيعة الحال ، وكان الجميع سيقبلون قراره فى ظل الشعور بنشوة الانتصار الضخم الذى ساد البلاد فى بداية الثورة .

٢ - إن الامام الخمينى منع آية الله بهشتى من ترشيح نفسه لرئاسة الجمهورية ، منافسا لبنى صدر . وقال أمام عدد من خاصة العلماء أن رئاسة الجمهورية ليست أفضل ما يؤديه الفقيه من مهام . وأن أهل الخبرة ممن حسن اسلامهم ـ لا أهل الفقه والدعوة ـ هم الذين ينبغى أن يتصدوا لشغل هذا المنصب .

٣ - إن الامام تصرف فى البداية من منطلق الاكتفاء للفقهاء بدور الاشراف على سير العمل فى الجهات المختلفة . فعين مندوبين عنه فى بعض الوزارات الهامة (الارشاد والداخلية وجهاد البناء وحرس الثورة) غير مندوبيه فى عدد من المؤسسات الحيوية التى أنشئت بعد الثورة مثل مؤسستى الشهداء

والمستضعفين . وكانت الفكرة السائدة وقتئذ أن تترجم ولاية الفقهاء فى شكل هيكل مختلف عن السلطة وموازٍ لها . (وهى تجربة لم يقدر لها أن تنجح بالقدر الكافى ، بسبب أنها خلقت ازدواجا داخل مختلف الوزارات والمرافق ، بحيث أصبح للوزارة الواحدة ـ مثلا ـ رأسان أو رئيسان ، الوزير ، ومندوب الامام . ولأن كلمة مندوب الامام كانت هى النافذة ـ لأسباب مبررة ومفهومة ـ فان ذلك كان يؤدى فى أغلب الأحيان إما إلى الغاء الوزير أو احراجه أو التصادم معه وهذا الازدواج كان تعبيرا عن عدم وضوح واستقرار العلاقة بين سلطة الدولة وسلطة الولاية).

٤ ـ ان دستور الثورة الاسلامية لم يشترط فى المسئول أن يكون فقيها وعالما الا فى حالات محدودة : القائد أو نائب الامام ـ نصف أعضاء مجلس صيانة الدستور ـ المجلس الأعلى للقضاء الذى يضم رئيس المحكمة العليا والمدعى العام وثلاثة قضاه مجتهدين وعدول . أما رئيس مجلس الشورى ، أو رئيس الجمهورية أو رئيس الوزراء والوزراء ، وهؤلاء جميعا لم ينص الدستور على أن يكونوا من المجتهدين أو الفقهاء العدول ، وقد وضعت شروط خمسة لرئيس الجمهورية كان من بينها الأمانة والتقوى والايمان بمبادىء الجمهورية الاسلامية ومذهبها . . لم يذكر فيها ، ولا فى أى من المناصب الأخرى أن يكون شاغلها فقيها أو مجتهدا .

هذا الرأى يردده كثيرون فى طهران من رجال الامام وتلاميذه ، وسمعته من أحد الفقهاء من المتخصصين فى دراسة الدستور ـ وهو حجة الاسلام عباس عميد زنجانى ، وسمعته من اثنين من تلاميذ الامام هما حجة الاسلام دعائى الذى عين سفيرا بالعراق وصار رئيسا لتحرير جريدة اطلاعات ـ وحجة الاسلام سيد هادى خسروشاهى ، السفير السابق لدى الفاتيكان ومدير مركز الدراسات بقم حاليا .

هؤلاء ـ وغيرهم ـ أكدوا أن الامام كان يرى أن يبتعد الفقهاء عن مباشرة السلطة بأنفسهم ، وأن يتركوا الوظائف القيادية وغيرها لأهل الخبرة ، لكنه اضطر إلى العدول عن هذا الموقف . « لقد جربنا غير الروحانى (غير الفقهاء) ، وكانت تجربتنا معهم مرة وقاسية . واستقرت قناعتنا على أن انحراف الروحانى (الفقيه) أو زلله ، أقل بكثير من انحراف أو زلل الآخرين » ـ هكذا قال لى آية الله على

المشكينى رئيس مجلس الخبراء ، ثم أضاف : لقد قلنا للناس ، فى الحوزة العلمية ومن على كل المنابر أننا لا نريد مباشرة السلطة ، ولكن الضرورة هى التى فرضتها علينا ، ليس فقط بسبب من أمن الثورة ، ولكن لاستمرارها على النهج الذى ابتغاه الروحانيون لها أيضا .

فى قم يذكرون لك سببين أساسيين لهذا التحول فى الموقف :

■ السبب الأول : هو الصدام الذى حدث بين أهل الخبرة هؤلاء ـ التكنوقراط والليبراليون ـ والفقهاء فى الأشهر الأولى للثورة ، والأهم من الصدام هو الأسلوب الذى اتبع فيه والذى وصل إلى حد التصفية الدموية ، النسف والاغتيال ، وهو ما أدى إلى قتل ٦٠٪ من رموز الثورة والعناصر التى التفت حول الامام من الحوزة . وتلك نسبة يذكرها تلاميذ الامام ، وان كان مسعود رجوى رئيس منظمة مجاهدى خلق قد أعلن فى باريس أن التصفية شملت ٨٠٪ من رجال الامام . . وهو ما ستتعرض له لاحقا .

هذا الصدام الدموى كان له وقعه المفاجىء على الامام ، وتأثيره الشديد على موقفه وتقديراته ، حتى أنه بعد أن وقف إلى جانب بنى صدر ـ رئيس الجمهورية الأسبق ـ لمدة عام تقريبا ، سحب ثقته تدريجا من كل هؤلاء التكنوقراط والليبراليين . حتى سمعت من أحد تلاميذه أنه بعد تلك التجربة المرة ، لم يعد يثق فى أى واحد من مرتدى الثياب الأوروبية ، من نسميهم « الأفندية » . بلغتنا الدارجة .

■ السبب الثانى : الذى أدى إلى فتح أبواب الوظائف القيادية للفقهاء ، أنه كان هناك فراغ حقيقى فى كل شرائح الوظائف العليا للدولة ، وطبقا لما ذكره رئيس الوزراء ـ مير حسين موسوى ـ فى تصريح أذيع فى تليفزيون طهران ، فقد فوجئت الثورة فى نهاية السنة الأولى التى أعقبت نجاحها بأن هناك ٨٠ ألف وظيفة قيادية خالية ، أصحابها كانوا ممن ارتبطت مصالحهم بنظام الشاه وبعائلته أو شخصه ، فغادروا إيران بعد سقوط النظام .

وإذا انتبهنا إلى النصائح التى وجهت إلى الشاه بعد فشل انقلاب مصدق

عليه سنة ١٩٥٢ ، والتى كان من بينها دعوته إلى توسيع نطاق الطبقة المتوسطة ، وزيادة اعتمادها عليه ، بحيث تصبح قاعدة لنظامه بمضى الوقت[٦] فاننا قد لا نستغرب أن يختفى بعد الثورة ٨٠ ألفا من رموز النظام وقياداته سواء فى الوزارات أو فى القوات المسلحة .

هذا الفراغ الكبير فى هيكل وظائف الدولة ، كان ينبغى أن يشغل على وجه السرعة ، ولما لم يكن للثورة كوادر فى البداية ـ باستثناء رفاق الامام وتلاميذه وأنصاره ـ فقد كان الفقهاء هم المرشحون لشغل تلك المواقع . بافتراض أنهم أهل الثقة ، وبحكم طبيعة التوجه العام للجمهورية الاسلامية المرتكزة على ولاية للفقيه لم تتحدد معالمها التطبيقية بوضوح . فتقدموا بالتدريج إلى سلم الوظائف القيادية فى مختلف أجهزة الدولة حتى باتت ولاية الفقيه شيئا أقرب إلى « ولاية العسكر » فى دول العالم الثالث . من تولى السلطة منهم ، اغراقها برجاله « وأهل الثقة » من رفاق « دفعته » وكتيبته ، وأنصاره !

غير أن هناك سببا ثالثا ، لابد أن يكون واردا ، وان لم يشر اليه أحد بصراحة ، هو أن بعض الفقهاء ، على الأقل ، كانوا يضغطون لاستلام السلطة ، شأنهم شأن أى ثوار بدأوا زاهدين فى الحكم ـ وربما صدقوا فى مشاعرهم تلك ـ لكنهم تشبثوا به عندما صار الأمر بيدهم . ولا شك أن هؤلاء استثمروا كل سلبيات تجربة « غير الروحانيين » ليشبعوا طموحهم فى مباشرة السلطة ، بوجاهتها المادية والأدبية .

هكذا فان السبب الأول دفع بالفقهاء إلى الصف الأول من مسئولية القيادة التنفيذية ، والسبب الثانى دعاهم إلى شغل مسئوليات الصفين الثانى والثالث بينما أسهم السبب الأخير فى توسيع دائرة الفقهاء المنفذين إلى أبعد حدود ممكنة . . وكانت النتيجة أن أصبح الفقهاء هم جهاز الحكم ـ قيادته وأداته ـ وليس فقط عنصر التوجيه والارشاد وضبط المسيرة فيه .

ورغم أن الصورة استقرت على هذا النحو فى طهران ، الا أن أصداءها لم تتوقف ولم تمر فى قم .

---

(٦) لتفصيل ذلك ، انظر محمد حسنين هيكل فى كتاب مدافع آيات الله ـ ص ٩٣

لمـا لاح بريق السلطة

تعددت أصداء انتشار الفقهاء فى مواقع القيادة التنفيذية وكانت قم هى الأقدر على رصد سلبيات ذلك الانتشار .

كان لتلك الظاهرة تأثيرها على مناخ الحوزة العلمية . فبينما كان أهل الحوزة منصرفين إلى الدرس والبحث والدعوة ، لاح بريق السلطة فى طهران وصارت أبوابها ومدارجها مفتوحة على مصاريعها أمام الدارسين فى الحوزة ، مثل حظ الضباط فى حكم العسكر ، مما عكر الجو العام وفتح شهية كثيرين من الشباب لمختلف مغريات السلطة ، ومزالق التعلق بأهدابها .

ولأنهم بشر قبل أن يكونوا فقهاء ، فقد أطلت فتنة التنافس على المناصب برأسها وأفسدت نسيجا من العلاقات كان قوامه الزهد . ولم يكن الورع يمثل فيه سبيلا إلى جاه أومطمع .

أيضا ، فان استقلال الفقهاء عن الوظائف الحكومية ، كان يشكل أحد مصادر قوتهم وتأثيرهم ، فضلا عن أنه كان يمكنهم من التعامل مع السلطة من موقف المراقب والناقد . وهو وضع اختلف إلى حد كبير بعدما أصبحوا جزءا من السلطة . فقد فقدوا موقعهم المتميز تجاهها ، فضلا عن أن المواقع التنفيذية أغرقتهم فى تفصيلاتها وتعقيداتها ، فلم تتح لهم فرصة التوجيه بالقدر الكافى ، إلى جانب ذلك فقد باتت أوجه القصور والفساد التى كانت تعانى منها تلك المواقع ، تنسب إلى الفقهاء أنفسهم . وإذا وضعنا فى الاعتبار أن أولئك الفقهاء لم يكونوا من ذوى الخبرة والدراية بمثل تلك النشاطات والمرافق ، فاننا نستطيع أن نتصور مدى انعكاس ذلك على كفاءة الأداء فى تلك المواقع .

على صعيد آخر ، فان تلاميذ ومقلدى المراجع الآخرين فى قم استشعروا درجات متفاوتة من الحساسية والمرارة ، على اعتبار أن طريق السلطة بمختلف أبوابه صار مفتوحا لغيرهم ، وليس لهم فى ثماره نصيب . وهو عنصر خفى أسهم فى زيادة إيغار الصدور ، وتوتر العلاقات وإقامة الحواجز النفسية بين طلاب الحوزة .

فى مقابل ذلك كانت هناك ايجابية فى اشتغال الفقهاء بالسلطة ، نبهنى إليها

آية الله على المشكينى ، هى أن تلك الخطوة أحدثت تأثيرا هاما فى مسار البحث الفقهى بالحوزة العلمية . فقد اتجه كثيرون من الفقهاء إلى استنباط الأحكام الشرعية اللازمة لمواجهة الموقف الذى استجد بعد الثورة . وانتقلوا بمقتضاه من موقف المنظرين والباحثين فى الأمور الاعتقادية والعبادية ، إلى موقع المسئولين الذين باتوا مطالبين باستنباط الأحكام العملية اللازمة لتسيير مختلف المرافق على النهج الاسلامى فى مجالات الاقتصاد والتشريع والدستور ، والصناعة والزراعة والثقافة ، وما إلى ذلك .

كانت تلك الآثار والنتائج واضحة للجميع فى قم ، وهو ما أدى إلى تحريك المناقشة الداعية إلى ضرورة تحديد صيغة مناسبة لكيفية ممارسة الفقهاء لمهمة الولاية ، تمكنهم من اداثها على نحو يجنب السلبيات ويعزز الايجابيات .

ومما قاله لى حجة الاسلام مهدى هاشمى ، من مؤسسى حرس الثورة ، أن الجماهير باتت تتصور ولاية الفقيه باعتبارها شيئا غيبيا أو عباديا ، ولأن الامام تبناها ودعا إلى قيام الجمهورية الاسلامية على أساسها ، فان قطاعات عريضة من الناس تعاملت معها باعتبارها من متطلبات الايمان السليم ، والانتماء الصحيح للثورة الاسلامية .

المثقفون لم يروا الا نواقص وسلبيات الفكرة ، واعتبروها نوعا من ممارسة السلطة الدينية ذات السمعة السيئة فى التجربة الأوروبية .

أما الفقهاء فانهم لم يستطيعوا أن يقدموا صيغة مقبولة لتلك الولاية ، مما فتح الباب لاساءة فهمها ، أو اساءة تطبيقها .

أضاف الشيخ هاشمى أن الصيغة المقبولة للولاية لم تتبلور بشكل نهائى بعد ، لكن القدر الذى بات متفقا عليه بين الأطراف المختلفة فى الحوزة العلمية هو :

١ ـ ضرورة استقلال ولاية الفقهاء عن جهاز الدولة الرسمى والبيروقراطى ، وتجنيب الفقهاء قدر الامكان محظور التحول إلى الوظائف الحكومية .

٢ ـ ضرورة الابقاء على زمام المبادرة فى يد الفقهاء بحيث يقودون الأجهزة التنفيذية فلا ينقادون لها ، أو يذوبون فيها .

وهو ممن يرون بأن فكرة إيجاد ممثل للامام فى المواقع والمرافق ـ مستقل عن قياداتها التنفيذية ـ هى صيغة مناسبة ، إذا درست وطبقت جيدا . وإذا كانت تلك الفكرة قد أدت إلى بعض السلبيات ، فذلك لا يرجع إلى عيب فيها . ولكن لأن التطبيق لم يتح له أن ينضج بقدر كاف بعد أن وقع الصدام مع التكنوقراط والليبراليين بأسرع مما ينبغى ، ووجد الفقهاء أنفسهم مضطرين للتقدم على الفور لشغل مواقع القيادة التنفيذية بأنفسهم .

وواقع الأمر أن فكرة ممثل الامام فى مختلف المواقع ليست جديدة تماما . فذلك « الممثل » هو ذاته « القوميسير » الذى يعيّنه الحزب ـ فى الدول الشيوعية بوجه أخص ـ لبث التعاليم وتولى مسئولية التوجيه العقائدى والسياسى ، للعاملين فى جميع أجهزة الدولة ومرافقها ، وسواء كانت الفكرة مقتبسة أم لا ، فالثابت أنها لم تنضج فى الصيغة الايرانية بشكل كاف . ليس فقط بسبب من عنصر الوقت أو ضغط الظروف المتلاحقة ولكن أيضا لأن الثورة لم يكن لها تنظيمها الحزبى أو كوادرها ـ إذ أنها اعتمدت أساسا على الجماهير المليونية فى الشوارع ـ ورتب ذلك الوضع ثلاث نتائج هى :

- حمل رجال الامام ما لا يطيقون من مهام ومسئوليات بصورة مضطربة وغير منظمة ، من نماذج ذلك أنه بسبب الوضع الخاص للشيعة فى لبنان ، فقد عين آية الله منتظرى ممثلا له هناك ، إضافة إلى السفير الايرانى فى بيروت ، وعندما تفاقمت الأوضاع فى صيف ١٩٨٥ ، أوفد الشيخ منتظرى ممثلا آخر له من طهران ، هو آية الله مهدى كروبى بينما الشيخ كروبى ، هو ذاته ممثل الامام الخمينى فى مؤسسة الشهداء (بنياد شهيد) .
- بسبب ندرة الكوادر ، واتساع محيط الفقهاء ، ممن افترض أنهم هم « أهل الثقة » فقد أصبح الاختيار شخصيا وليس موضوعيا ، أى أن القيادة كانت تختار الشخص الذى تعرفه رفيق الحوزة أو ابن الفقيه المعروف ، أو ابن البلدة أو المنطقة التى تصادف أن نشأ فيها الشخص القيادى (يلاحظ مثلا أن الأغلبية الساحقة من العاملين مع آية الله منتظرى إما من أبناء بلدته « نجف اباد » أو مقاطعته أصفهان) .

- أدى ذلك إلى أن شغلت بعض المواقع الهامة بمندوبين أو ممثلين لا يعبرون أحيانا عن فكر القيادة ، سواء انعقدت للامام الخمينى أو آية الله منتظرى . وأوضح مثال على ذلك هو مندوب الشيخ منتظرى فى الجامعة ، الذى أدهش كثيرين بآرائه المناهضة تماما لأفكار الشيخ منتظرى ومواقفه ، وبالأخص فى مسألة الحريات السياسية التى ينحاز اليها منتظرى بوضوح ، بينما يقف ممثله على النقيض منه .

وفى مواجهة الداعين إلى الفصل بين ولاية الفقهاء والمسئولية التنفيذية ، فان هناك تيارا آخر يرى أن مباشرة العمل التنفيذى هو أفضل تعبير عن الولاية الحقيقية . وهؤلاء يقولون أنه فى غيبة كوادر معدة سلفا للثورة ، فان الفقهاء هم « الكوادر الطبيعيون » لها . ولما كان كل نظام ينطلق من عقيدة أيا كانت ، لابد أن يسلم السلطة إلى المؤمنين بتلك العقيدة ، ليضمن تطبيق تعاليمه على نحو سليم ، فمن الطبيعى أن يتسلم الفقهاء السلطة فى مجتمع يسعى لأن يبنى حاضره ومستقبله طبقا لتعاليم الاسلام . فالشيوعيون هم الذين يتولون تطبيق الشيوعية فى بلادهم ، وكذلك الرأسماليون والاشتراكيون ، فلماذا لا يكون الاسلاميون - الفقهاء - هم أداة التطبيق الاسلامى فى مجتمعهم ؟

ولا يزال الحوار مستمرا !

فى أصفهان ومشهد : القضاء مع الملاّك

بعد أن يلهث المرء وراء كل تلك القسمات ، يكتشف أنه على يسار خط الامام ، هناك مجموعة من الفقهاء الساخطين على كل ما يجرى فى طهران . وموقفهم الأساسى يتلخص فى أنهم يعتبرون أن الثورة الإسلامية لم تقع بعد . وأن ثمار الانجاز العظيم الذى جرى فى فبراير ٧٩ توزعت على فريقين : شريحة من الفقهاء ليسوا من أبناء الثورة - وطبقة البيروقراطية التقليدية ، التى كانت ركيزة وأداة النظام « الطاغوتى » .

يقولون أيضا أن هاتين الفئتين تشكلان عقبة فى طريق مسيرة الثورة . وهم يضربون أمثلة عديدة ، ليدللوا على صحة مقولاتهم .

يقولون مثلا إن آية الله أحمد آذرى رئيس جمعية أساتذة الحوزة فى قم - وعضو مجلس الشورى - لا يخفى موقفه المنحاز إلى الأثرياء والملاَّك . وهو من القائلين بأنه ما دام الثراء بالحلال ، فلا حدود له ، ويذهب إلى أن صاحب العمل أو المالك يجب أن يتمتع بالحماية التشريعية ، وأن العامل إذا كان مهضوم الحق ، فلا ينبغى أن تحل مشكلته بتقييد سلطان صاحب العمل ، ولكن للعامل أن يأخذ نصيبا فى « الخمس » الذى يؤدى إلى الفقهاء .

فى الحوزة العلمية يقول الشيخ آذرى كلامه هذا ، ومستمعوه من الشبان يضربون كفا بكف . أحدهم - حجة الإسلام مرتضى - سمعته يتساءل : كيف أن نقبل كلاما كهذا منسوبا إلى ناس محسوبين على الثورة . وهل ينصف المستضعفون - الذين قامت الثورة من أجلهم - بمثل هذا المنطق ؟ ؟

يقولون أيضا أن أمثال الشيخ آذرى هم الشريحة الغالية فى قضاة ما بعد الثورة ، فقد حدث أن تولى الفقهاء مناصب القضاة ، بعدما نص الدستور (فى المادة ١٦٣) على أن القانون يحدد صفات القاضى وشروطه طبقا للقواعد الفقهية . ولما كان الفقهاء من رجال الثورة - المحدودين - قد استغرقتهم مهام القيادة السياسية وربما التنفيذية ، فإن الذين شغلوا مناصب القضاة كانوا من أبناء الحوزة العلمية التقليديين ، الذين ربما تجاوبوا مع الثورة سياسيا ، لكنهم من الناحية الفكرية كانوا بعيدين عن منطق الثورة ، وربما عن أهدافها أيضا .

وقد حدث فى أصفهان ومشهد أن وقف هؤلاء القضاة مع كبار ملاَّك الأراضى (الخوانين) ، ضد صغار الفلاحين . كانت الثورة قد صادرت الأراضى الزائدة المملوكة للاقطاعيين ، ووزعتها على صغار الفلاحين . فلجأ « الخوانين » إلى القضاء متظلمين من قرارات مجلس قيادة الثورة ، فما كان من القضاة إلا أن حكموا برد الأراضى المصادرة إليهم ونزع ملكيتها من صغار الفلاحين ، وطردهم - بالتالى - من تلك الأراضى !

أحدثت تلك الأحكام - التى صدرت فى عام ١٩٨٤ - موجة استياء عارمة بين الفلاحين ، الذين لجأوا إلى الفقهاء : من رجال الثورة ، فوقفوا إلى جانبهم وأيدوهم فى مظالمهم ، بينما وقف ضدهم القضاة مؤيدين برموز السلطة المحليين . وبحرس الثورة .

وكانت النتيجة أن ثار الفلاحون فى أصفهان ، وتوجهوا إلى مقر المدعى العام بالمدينة وخطفوه ، قائلين بأن احتجازهم له سوف يستمر إذا لم يعودوا إلى الأراضى التى طردوا منها بحكم القضاء .

مثل هذه الأخبار تتوالى على قم ، وتحدث أصداءها المختلفة فى أرجاء الحوزة العلمية ، التى تتمثل فى درجات متفاوتة من القلق والخوف بين أنصار الامام بينما تعزز دعوة الساخطين إلى ضرورة القيام بما يسمونه « ثورة ثقافية » ، تستهدف تثبيت فكر الثورة فى كافة الاتجاهات .

ولا تسلم طهران من نقد الساخطين ، الذين يعتبرون السيد على خامنئى رئيس الجمهورية رجلا يمينياً ، بيروقراطيا فى الوقت ذاته . مواقفه وممارساته التى تنقل إليهم تصنفه فى هذا المربع ، الذى يعنى ـ عندهم ـ أنه لا يعبر تماما عن فكر الثورة .

أما شكاواهم من البيروقراطية فلا حصر لها . ووصفهم للجهاز الحكومى بأنه « طاغوتى » يعنى ليس فقط انفصاله عن خط الثورة الاسلامية ـ فى تقديرهم ـ ولكن أيضا استمرار تمثيله لمنطق النظام السابق .

وفى تدليلهم على « طاغوتية » البيروقراطية القائمة . قالوا لى أن الطريقة التى يعامل بها المسلم القادم إلى أرض الثورة الإسلامية ، فى مطار طهران ، لم تختلف عما كان يلقاه فى ظل النظام الشاهنشاهى . وأن الأجهزة الإدارية ـ فى أكثر الوزارات ـ ما زالت منحازة إلى المستكبرين ، بأكثر من انحيازها للمستضعفين . . وهكذا . . .

أيا كان مقدار الصواب أو الخطأ أو المبالغة فى مقولات هؤلاء الشبان ، فإن زائر قم بعد استماعه إليهم ـ وإلى غيرهم ـ يزداد يقينا بأن احدى المشكلات الحادة التى تواجهها الثورة ، منذ البداية وبعد مضى ست سنوات على انتصارها ، هى غيبة الكوادر البشرية ، المستوعبة لفكر الثورة وتعاليمها ، المعبرة بصدق عن حقيقة توجهاتها وأهدافها ، وهو ما يؤكد الملاحظة الصائبة التى انتبه إليها فى وقت مبكر ، الأستاذ محمد حسنين هيكل ، عندما لقى الامام الخمينى فى بارس عام ١٩٧٩ ، وقال له : اننى أسمع دوى مدافعك ، لكننى لا أرى أثراً لمشاتك ـ

والمشاة فى الثورة هم الكوادر السياسية ، وهم جماعات الفنيين والخبراء ، القادرين على تنفيذ مهام الثورة وبرامجها[٧] .

وكان هذا هو آخر انطباع حملته معى من قم إلى طهران .

□ □

(٧) المصدر السابق ص ١١

الفصل الثامن

طهران: من يحكم من؟

تحار فى طهران ، من أى باب تدخل ؟

فى قم يظل باب الحوزة العلمية هو باب المدينة ، وعالم الفقهاء هو السقف والقاع ، إن أفلحت فى العثور للمدينة على قاع . أنت تعرف مقدما من أين تبدأ ، وإن بقيت نقطة الانتهاء فى علم الغيب . لكنك فى طهران تعانى من حيرة مضاعفة . إذ لا تستطيع أن تعرف من أين تبدأ ، ولا كيف ستنتهى . هى مدينة الألف باب وباب . وإن حكمها الفقهاء مؤخرا وصبغوها بصبغتهم ، إلا أن عباءاتهم ، مهما اتسعت ، تظل أضيق من أن تحتوى ما تموج به المدينة من تيارات ، وما يتفاعل فى ساحتها من قوى ومذاهب وملل . ذلك أنه منذ اختارها أغا محمد شاه القاجارى (١٧٩٤ ـ ١٧٩٧ م) عاصمة للبلاد ، بعد تبريز وأصفهان ، أصبحت طهران مقرا للسلطة والسلطان وقلب المعترك السياسى الإيرانى ، واحدى نقاط التماس الدقيقة والحساسة ، فى صراعات القوتين العظميين فى العالم : الشيطانان الكبيران ، إذا استخدمنا مصطلح ما بعد الثورة (لاحظ أن قم حديثة العهد بالمشاركة السياسية ، إذ لم يعرف لها دور يذكر فى هذا الميدان قبل ستينيات القرن الحالى) .

لقد قدر لى أن أعايش طهران ما بعد الثورة فى أطوارها المختلفة . فقد كنت هناك فى الأسبوع الثالث من فبراير عام ١٩٧٩ ، عندما انضممت إلى وفد شيعة الكويت ، الذى استأجر طائرة خاصة حملت ممثليهم لتحية الامام وتهنئته بالانتصار والعودة يوم ١٠ فبراير .

صورة للشهر الأول من الميلاد

عن طهران الشهر الأول ، وعن لقاء الامام فى ذلك الحين ، نشرت تقريرا مطولا فى جريدة « الوطن » الكويتية ـ عدد الخميس أول مارس ٧٩ ـ قلت فيه ما نصه :

استقبلنا فى المطار شبان يحملون على أذرعهم إشارات تمثل صورة الإمام الخمينى ، وقد كتبت تحتها عبارة « انتظامات انقلاب إسلامى » وعلى صدورهم رشاشات خفيفة ، أغلبها من طراز « عوزى » الاسرائيلى التى استولوا عليها من مخازن الساواك ، ذقونهم كثة ، وثيابهم خليط من العسكرية والمدنية . . قادونا إلى حافلة ، بينما وقف أحدهم إلى جوار سائقها . شارة العاصفة الفلسطينية على صدره ، ويده على مدفعه ، وفى مواجهتنا تحدث بالفارسية ، لم أستطع أن التقط من حديثه إلا بعض كلمات مثل فلسطين ، والجزائر ، . . . . وبين حين وآخر كانت كلمة « مجاهدون » تتكرر فى حديثه ، وهو ذلك الوصف الذى كان يعرف به المناضلون الجزائريون ـ طوال حرب التحرير ، والثوار المسلمون فى الفلبين وتايلاند .

خارج المطار ، وعلى طول الطريق إلى طهران ، كان « المجاهدون » منتشرين على الجانبين ، وراء متاريس من أكياس الرمل التى أعدت على عجل كما هو ظاهر . . سيارات محدودة محترقة ومقلوبة ، مقر البعثة العسكرية الأمريكية محترق أيضا ، وصور الامام الخمينى فى كل مكان ، وعلى بنايات أخرى ظهرت صور آية الله طالقانى ، الذى قاد الثورة ضد الشاه من داخل طهران ، ثم صور محمد مصدق ، والدكتور على شريعتى .

مررنا بميدان شاه ياد (ذكرى الملك) الذى أصبح اسمه ميدان الحرية ، الكتابات على الجدران تعكس واقع ما بعد الثورة . « يانكى جو هوم » (أيها الأمريكيون اخرجوا من بلادنا) ـ بازركان حكومت مبارك ـ فقط جمهورى إسلامى ـ حق شركت وانتخابات أحزاب سياسى ، والتوقيع : حزب توده ـ كومنيست جائى داراسلام ترارد (أى لا مكان للشيوعيين فى دار الإسلام) ـ بختيار سك بى اختيار (أى كلب بلا ارادة) ـ الله أكبر خمينى رهبر (زعيم) . . وهكذا . .

كان الايرانيون يلوحون لنا باشارات النصر بينما آخرون يشيرون بقبضتى اليدين علامة المحبة والتضامن ، وفى احدى إشارات المرور صعد أحد الباعة بكفة ميزان كبيرة مملوءة بالفستق ، وراح يوزعها على الجميع . . والفرحة تطل من عينيه . .

يومئذ لم يكن للشرطة وجود فى الشوارع ، والمجاهدون هم الذين ينظمون الحركة ، ويتولون حفظ الأمن ، وقد لمحت من النافذة أحد رجال الدين بعمامته السوداء ولحيته الطويلة ، يقود سيارة تابعة لشرطة المرور . .

مرافقنا « المجاهد » كريم صفر زاده قال لى إنه تاجر فى الأساس لكنه أغلق متجره منذ شهور ، بعدما اختاره إمام المسجد لينضم إلى الثورة . وإن كل إمام مسجد رشح خمسين من شباب ورجال منطقته منذ بداية الأحداث ، وأن هؤلاء كانوا نواة لجان الثورة (الكوميتات) ، الذين قادوا الاضرابات وواجهوا جيش الشاه .

وزعوا علينا صحف الصباح ، صحيفة « كيهان » رسمت علامة النصر فى نهاية حرف « الألف » وعنوان افتتاحيتها يقول : الشيعة والسنة ، سلاح الدعاية الصهيونية للتفرقة بين المسلمين . وفى الداخل مقال للمفكر الاقتصادى الايرانى أبو الحسن بنى صدر عنوانه : الشاه مليارديز ، وعبد الناصر مات فقيرا !

وصلنا إلى ميدان الشهداء (ميدان الجيش سابقا) الذى تتوسطه حديقة انكفأت فى جانب منها دبابة محترقة .

فى هذا الميدان كانت أول مواجهة بين الجماهير وقوات الشاه ، وفيه أيضا حصدت المدافع ٨٠٠ شخص دفعة واحدة ثم تكدست جثثهم حتى جاءت الرافعات وحملت أكوامها كما تحمل أنقاض منزل مُنهارٍ !

ميدان الثورة هذا هو بداية منطقة الاحياء الشعبية جنوب طهران . . وهى الأحياء التى كان أبناؤها هم جنود الثورة ووقودها . وكان اقترابنا من الميدان يعنى اننا اقتربنا من مقر الامام الخمينى .

كانت الحافلة تتحرك بصعوبة شديدة وببطء أشد فى شوارع المنطقة الضيقة ، رغم أن جماعة من المجاهدين كانت تفسح لنا الطريق . اقتربنا من مقر الامام بينما رتل من السيارات اصطف على جانب من الطريق اشتبكت مؤخرة الحافلة باحدى السيارات الصغيرة ، ودفعتها . . وتصادف ان كان أحد الايرانيين يقف أمامها ، انحشر الرجل بين هذه السيارة وسيارة أخرى بعدها . آلمته الصدمة وسقط على المقدمة . توقفت الحافلة وهرول طبيب كان إلى جوارى ليرى ما حلَّ به ، فاكتشف كسرا ظاهرا بساقه اليمنى ويده اليسرى ، حاول أن يساعده بمسكّن

وينقله إلى أقرب مستشفى لكن الرجل رفض بإصرار ، ونظر إليه بعينين تملؤهما السكينة والهدوء ، ثم قال : فداء الامام !

أدهشنا الرجل الذى رفض عوننا واعتذارنا ، بعد ما تسببت مركبتنا فى كسر ساق وعظام يده ، لمجرد اننا ذاهبون إلى الامام !

كانت المتاريس على حالها ، وكثافة المجاهدين تتزايد كلما اقتربنا من مقر إقامة السيد . . اخترقت الحافلة بحذر زحاما شديدا وتوقفت أمام مدخل « المدرسة العلوية للبنين » إلى جوار المدخل محلان للأثاث وعلى الجدار لافتة تقول : دار جاى أقامت خمينى - أى مقر إقامة الامام . . المبنى بسيط وقديم نسبيا ، إذ لا يتجاوز عمر المدرسة ١٤ عاما ، خليط من المجاهدين المسلمين ، وأصحاب الحاجة والفضوليين ، يقيم سدّا أمام الباب . أطلعوا على هوياتنا ، شدّوا على أيدينا ، عانقنا بعضهم عندما عرفوا أننا عرب . سألنا أحدهم : فلسطينيون ؟ تمنينا أن نكون كذلك فالفلسطينى له رصيد هائل هناك . حتى أن صورة ياسر عرفات - الذى كان أول شخصية قيادية عربية تزور طهران الثورة - صارت تباع فى كل مكان بالعاصمة . وصار اسم أبو عمار « وأبو اياز » - هكذا ينطقونها - يتردد فى كل نشرة أخبار .

دخلنا فناء المدرسة ، الذى توسطته عربة « جيب » واختلط فيه المسلحون بأصحاب العمائم (أحد أعوان الامام اعترض على تسمية رجال الدين فى حديثه معى ، وفضل اسم أصحاب العمائم ، وقال أن تسمية رجال الدين والدنيا دخيلة وغير معترف بها فى قاموس الثورة) .

انفعل الداخلون ، وهتف أحدهم ، الله أكبر ولله الحمد (هتاف الاخوان المسلمين) . ثم مضى يهتف والكل يردد وراءه : الحمد لله وحده . وحده وحده . انجز وعده . ونصر عبده وأعز جنده . وهزم الأحزاب وحده . فله الملك وله الحمد . يحيى ويميت ، ويميت ويحيى ، وهو حى لا يموت ، بيده الخير ، وهو على كل شىء قدير ، الله أكبر ولله الحمد .

أخيرا ، هذا هو المبنى الذى تتطلع إليه عيون العالم الآن . هذه هى المدرسة العلوية التى منها أديرت الثورة قبل أيام من انتصارها العظيم .

قبل شهر ، كان ينتظم فى صفوفها الثلاثة ٤٨٠ تلميذا و ٣٥ أستاذا ، موزعين على ثلاثة طوابق . استمرت الدراسة شهرين فقط ، ثم أخليت المدرسة لتصبح مقراً للامام ولتدخل التاريخ . وشاء القدر أن يقيم الخمينى فى الصف الثالث « باء » !

من الغرفة « باء » هذه ، بالطابق الثانى خرجت إشارة الاجهاز على بقايا عصر فى إيران ، وبداية عصر جديد ! وإلى صوته الهامس والهادىء فى الغرفة « باء » هذه ، كانت تتصنت قوى كبرى وصغرى ، ومئات من الرؤساء والساسة والقادة وملايين البشر . ومن خلال جدرانها كانت تتسمع كل مخابرات القوى الكبرى ، ولابد انها تمنت أن تعرف الطريق إليها فى غفلة من الزمن . لكنهم كتبوا فقط على باب الغرفة « ورود أكيد ممنوع » ـ أى ممنوع الدخول اطلاقا ـ حتى يستطيع الرجل وهو مشرف على الثمانين أن يعمل فى هدوء .

سألتهم : لماذا المدرسة العلوية دون غيرها ؟

قالوا إنه عندما قرر الامام العودة من باريس ، عرض أحد كبار التجار أن يستضيفه فى قصره بشمال طهران ، وكان القصر والحدائق حوله على مساحة ثلاثة هكتارات . لكن الإمام رفض ، لأن معركته هى ضد كل ما تمثله منطقة شمال طهران من ثراء وترف وتعال على الجماهير . وطلب من معاونيه أن يختاروا له موقعا فى جنوب طهران ، وبالتحديد من ميدان الشهداء منزلا !

وكان من شروط الإمام أيضاً ألّا يكون المكان ملكا لشخص ، ولكنه مكان أقرب إلى « العمومية » وظل مساعده السيد مطهرى ينقب فى جنوب طهران . ووقع اختياره على مدرسة « رفاه » ولكن السيد قضى فيها ٦ ساعات ، ثم أبدى رغبة فى الانتقال إلى مكان آخر ، لأن مدخل المدرسة ضيق ، والزقاق الذى يؤدى إليه يرهق القادمين خصوصا إذا كانوا جمعا من البشر . فى اليوم ذاته انتقل الخمينى إلى مدرسة أخرى تحمل اسم « علوى رقم واحد » ، وبعد ساعة قضاها فيها اكتشف نفس العيب ، فنقلوه إلى المدرسة العلوية . وبقى هناك منذ وصوله يوم أول فبراير الذى انقضى .

وسألتهم : لماذا قرر الخمينى مغادرة طهران إلى « قم » ؟

قالوا : من البداية اعتبر السيد أن طهران ممر وليست مقرا ، وإن مكانه الطبيعى ـ بيته وحوزته وتلاميذه ـ فى مدينة قم المقدسة لا مدينة طهران .

وأضافوا : إن السبب الأساسى لمغادرته طهران فى هذا الوقت هو شعوره بأن وجوده فى طهران يضعف الحكومة ، ويحول الأنظار عنها ، بينما هو يريد أن يدعم الحكومة ويقويها ، فكل الضيوف والمبعوثين وحتى السياسيين والشخصيات الايرانية العامة تتجه إليه دون الحكومة ، الأمر الذى يحرجها ويعطل أعمالها فى كثير من الأحيان . ولهذا السبب فانه اعتذر عن استقبال كثير من الرسميين ، آخرهم السفير الباكستانى ، حتى يتوجه هؤلاء إلى الخارجية الإيرانية . وقد كان استقباله للسفير الروسى فينوجرادوف استثناء تبرره ظروف خاصة .

قالوا أيضا : أنه من الناحية الأمنية ، فان « قم » أكثر ملاءمة . لأن مقر السيد فى المدرسة العلوية مفتوح ومكشوف ، ومن الممكن أن يعرّضه لأية مخاطر . بينما الأمر مختلف تماما فى مدينة قم المحدودة والتى تتوافر لها احتياطات أمن أفضل .

قالوا أيضا إن تلاميذ المدرسة العلوية انتظموا فيها لمدة شهرين فقط وسرحوا إلى بيوتهم بعد ذلك ، وحتى لا يضيع العام الدراسى لابد أن يعودوا إلى صفوفهم .

من الفناء صعدنا ١٠ درجات ، ودخلنا إلى الطابق الأرضى ، مكتب مدير المدرسة ومكاتب الأساتذة تحولت إلى مكاتب للاتصال ولمعاونى « السيد » ، وعلى بعد خطوات ـ إلى اليمين ـ قاعة محاضرات واسعة ، لها شرفة علوية . وإلى اليسار مصلى بحجم القاعة . وثمة درج منخفض يقود إلى قاعة الطعام ، والحمامات . وفى الطابق الأول تتم المقابلات واللقاءات الجانبية فى غرف فرشت بسجاد بسيط على الأرض بينما تناثرت بعض الحشايا هنا وهناك . وفى الطابق الثانى حجرة الامام ـ الصف الثالث « باء » ـ وفى حجرات أخرى مجاورة ينام معاونوه . ويحاول بعض المجاهدين أن ينظموا الصعود إلى هذا الطابق ، لاعتبارات تتعلق بالأمن وبراحة السيد .

حتى أيام قليلة ، كان الامام يقضى كل وقته فى الصف الثالث باء ، ولكنه

لم يكن يعرف طعم الراحة فى الواقع ، فالرجل ينام قبل منتصف الليل ، ويستيقظ قبل الفجر ـ حسب عادته ـ ويظل يتهجد حتى صلاة الفجر ، وبعد الصلاة يخصص وقته للقراءة . ابتداء بتلاوة القرآن الكريم ، وانتهاء بقراءات التقارير والصحف . وفى السابعة يأتيه الافطار ، الذى يعتمد على اللبن بالدرجة الأولى وكسرات الخبز الايرانى والعسل الأبيض ، ومن السابعة والنصف يبدأ لقاءاته ، حتى يحين أوان الغداء ، فى الواحدة تقريبا ، فيتناول قطعة لحم وطبق الأرز والفاكهة ، وقبل أن ينام يبتلع قرصين من الدواء المقرر له كعلاج لضغط الدم .

ينام الامام ساعة ثم يستيقظ ليواصل لقاءاته ، التى تتخللها صلوات العصر والمغرب والعشاء . وفى التاسعة مساء يتناول عشاءه المقرر ، من المرق واللبن ، ثم يستمر فى لقاءاته حتى قبل منتصف الليل .

أى أن السيد ينام فى المتوسط خمس ساعات يوميا ، بينما تعليمات الطبيب تلزمه النوم سبع ساعات على الأقل . وعندما لاحظ معاونوه أنه لا يستريح بالقدر الكافى اقترح أحدهم أن ينقله إلى بيت لصيق بالمدرسة ـ يملكه مهندس إيرانى متقاعد من أصدقاء الدكتور محمد مصدق ـ ووافق صاحب البيت على الفور ، فمدوا جسرا ـ بنى خلال ثلاثة أيام ـ بين البيت المجاور والمدرسة ، بحيث أصبح الامام يخرج من باب فتح فى جدار البيت ليجد نفسه فى الطابق الثانى ، قرب غرفته الصف الثالث « باء » التى كانت للنوم والاستقبال ، وصارت للاستقبال فقط .

وقد أتاح ذلك للسيد أن يعيش مع شريكة حياته منذ نصف قرن ، وأبيها العلامة الشيخ محمد الثقفى الطهرانى وابنه السيد أحمد ، وحسين حفيده لابنه مصطفى ، الذى اغتيل فى النجف الأشرف بالعراق .

تجمع زوار السيد فى قاعة المحاضرات ، انتظاراً للقائه بعد صلاة العصر . لكننا أبلغنا بأن وفداً لبنانيا سيلتقى به قبلنا فى الشرفة العليا لمدة ثلث ساعة .

على جدران القاعة لافتات كتبت عليها آيات قرآنية تقول : « ألا إن حزب الله هم الغالبون » ـ « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون » . ثم الحديث الشريف : إنى تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وسنة رسوله . . وعلى لافتة أخرى كتبوا : القرآن خير دليل يدل على خير سبيل .

فجأة دوت القاعة بالهتاف والتكبير فقد ظهر الامام ، لكننا لم نستطع أن نلمحه من أسفل . وكان مثيرا للانتباه هتاف أحد اللبنانيين « بالروح بالدم نفديك يا امام » ، وهو هتاف عربي بالدرجة الأولى - بل مصرى في الواقع - كانت تردده الجماهير عندما تنحى جمال عبد الناصر عقب هزيمة يونيو ٦٧ ، وقتئذ - يومى ٩ ، ١٠ يونيو - كان الهتاف يشق عنان السماء : بالروح ، بالدم نفديك يا جمال . وانتقل الهتاف إلى عواصم أخرى وصار يستقبل به كل من هب ودب فيما بعد . لكن اعتباره ردّ عندما أقترن به اسم « الامام » تزاحم أعضاء الوفد اللبنانى حول الامام ، ويعلم الله كيف استطاع الرجل أن يتنفس ، لكنه تحدث إلى الجميع ، وأبلغنا بأنه قادم إلينا .

قبل وصوله أعلن على الجميع أن على من يحمل سلاحا أن يسلمه إلى المسئولين خارج القاعة إذ لا يجوز حمل السلاح فى وجود الامام . . وبعد لحظات وجدناه على المنصة وقد صعد إليها عبر درج خلفى اخترق الستائر الخضراء وجلس قبالتنا ، وجها لوجه ، ومرة أخرى انفجر الجميع مهللين ومكبرين بينما الرجل صامت . فى هدوء الجبال الشماء لوح بيده اليمنى للجميع وجلس على مقعد خشبى وقد وقف إلى يمينه الشيخ صادق خلخالى ، وإلى يساره الشيخ محمود دعائى ، وهما من تلاميذه المقربين . . كان مرتديا عمامته التقليدية السوداء وجلبابا داخليا أبيض ، فوقه معطف رمادى اللون ، تعلوه عباءة ذات لون بنى وفى أحد أصابع يده اليمنى خاتم فضى . وفى قدميه جورب رمادى من الصوف وخف عصرى متواضع . قال لى أحد معاونيه أن ثمن كل ما يرتديه من ثياب لا يتجاوز ٤٠ دينارا كويتيا .

لم يكن - وهو فوق المسرح - ثائراً عظيما فقط ، لكنه كان زاهدا عظيما أيضا . تكلم الامام بهدوء الواثق وثقة المنتصر لمدة ٣٠ دقيقة كاملة . وكانت هذه مفاجأة لنا ولمن معه ، لأنه اعتاد أن يوجز كلامه أمام الآخرين وابتسم ثلاث مرات وهذه أيضا مفاجأة ، وهم يذكرون أنه ابتسم فى لقاء عام - لأول مرة - أثناء استقباله لياسر عرفات ، وهذه هى المرة الثانية . وكانت المفاجأة الثالثة أنه استطرد فى الحديث حتى تطرق لأول مرة إلى موضوع سفره من العراق ، والضغوط التى اضطرته إلى ذلك . ثم قصة عدم دخوله إلى الكويت ، التى كان يعتزم أن يقضى

فيها يومين أو ثلاثة يغادرها بعدها ـ كما قال ـ للإقامة الدائمة فى سوريا .

وقال السيد أنه ليس مستاء مما جرى ، ولكنه مؤمن بأن ذلك كان « تدبيراً إلهيا » أريد به أن يخرج من المنطقة كلها ، ويذهب إلى باريس ، الأمر الذى مكنه من أن يستفيد من المناخ العام ووسائل الاعلام المختلفة فى إدارة الثورة بصورة أجدى .

والذين حوله يؤكدون هذه الحقيقة ويضيفون بأن السيد شديد الايمان بما يسميه « الألطاف الخفية » . أى ذلك التدبير الالهى الذى يأتينا بما قد نكره ، ليحقق لنا أعظم ما نحب . وبهذه الروح استقبل الخمينى فجيعة مقتل ابنه مصطفى فى النجف الأشرف ، إذ قال لمعزّيه « لعلّه خير » وكان ذلك خيرا بالفعل ، إذ فجر هذا الحدث مشاعر الجماهير فى إيران ، بصورة عجّلت بالانتفاضة الشعبية الهائلة .

بعدما بدأ الفرز : التيارات تتحرك

كانت هذه هى الصورة التى عشتها فى عام الثورة الأول ـ فى زيارتى التالية ـ شتاء ١٩٨٠ ـ طالعت قسمات أخرى للمدينة ، إذ بعد الأشهر الأولى التى عاشها الجميع غارقون فى مشاعر الفرحة والانتشاء ، كانت مواقف القوى المتعددة فى طهران قد برزت وتحددت . وبات ميسورا على المراقب أن يرصد ثلاثة تيارات أساسية تتحرك على مسرح العاصمة السياسى :

■ تيار يرفع شعار « إيران أولاً » ـ يقوم بالدرجة الأولى على شرائح المثقفين ، الليبراليين من ذوى الثقافة الغربية ، الذين كان تصادمهم مع النظام الشاهنشاهى مبنيا على منطلقات وطنية وقومية . وكان محور طروحاتهم هو تحقيق الديمقراطية واحترام الدستور ، وبناء إيران ، الدولة القوية والناهضة . لم يكونوا فريقا واحدا ، إنما هم شرائح متعددة تقف على أرضية واحدة . من رموز هذا التيار شهبور بختيار ، آخر رئيس وزراء عينه الشاه عندما وصلت الثورة ضده إلى الذروة فى بداية ١٩٧٨ ، فيما اعتبر تسليما للأوراق إلى الجناح الإصلاحى فى إيران . ومن رموزه كذلك متين دفترى حفيد رئيس الوزراء الأسبق محمد مصدق ،

وكريم سنجابى أول وزير خارجية بعد الثورة ومن قيادات الجبهة الوطنية . وعلى الأرضية ذاتها ، من طرف آخر ، كان يقف المهندس مهدى بازركان ، الذى كان الأقرب إلى التيار الإسلامى ، وهو من عيَّنه الإمام الخمينى أول رئيس للوزراء فى حكومة الثورة .

■ **تيار يرفع شعار « المجتمع أولاً »** - وفصائل اليسار كانت هى القوى الفاعلة فى هذا التيار . كانوا حوالى ٢٤ تنظيما يتحركون على مساحة تمتد من الماركسيين ذوى الميول السوفيتية أو الصينية إلى الوطنيين ذوى الاتجاهات الاشتراكية ، والمطعمة بالأفكار الإسلامية . هؤلاء كانوا يعطون الأولوية للقضية الاجتماعية ، أو قل للثورة الاجتماعية لصالح الطبقات المحرومة والمسحوقة ، سواء من منظور أممى ماركسى ، أو منظور وطنى أو إسلامى . كان الدكتور نور الدين كيانورى رئيس حزب توده وحفيد الشيخ فضل الله نورى من مشاهير العلماء ، ومسعود رجوى رئيس منظمة مجاهدى خلق فى مقدمة رموز هذا التيار . وكان آية الله طالقانى من الواقفين فى هذا المربع ، الذين تبنوا حل القضية الاجتماعية فى إيران من منطلق إسلامى ، وكان على مسافة غير بعيدة من « مجاهدى خلق » ، وإن انفصل عن هذا التيار فيما بعد عندما ظهر تصادمه مع التيار الإسلامى . غير أن ابنه وابنته ظلا من أعضاء منظمة « المجاهدين » التى أطلق على أعضائها لاحقا وصف « المنافقين » .

■ **التيار الثالث كان يرفع شعار « الإسلام أولاً »** - وقد كان معنيا بقيام دولة الإسلام ، التى تصطبغ بصبغته ، فتطبق أحكامه وتعاليمه وتقاليده . بحيث يكون الإسلام هو المبتدأ وهو المنتهى . وكانت مشكلة هذا التيار أنه بلا كوادر ، ولا تنظيمات تم إعدادها وتربيتها مسبقا لتكون مؤهلة لتحمل التبعة والمسئولية . كانت قيادته الأساسية فى قم ، وكان الإمام الخمينى ورجاله هم الذين تصدوا لأداء الدور الفاعل فى تحريك هذا التيار . وكانت قاعدته فى الشارع الإيرانى - فى المساجد والحسينيات والفاطميات - بعواطفه الإسلامية الجياشة وانتمائه العميق للإسلام .

كان الإسلاميون فى قيادة الثورة وكان تيار الوطنيين الليبراليين إلى جواره

يقوم بدور « الحليف » . أما فصائل اليسار التى كان موقفها الظاهر مؤيدا للثورة ، إلا أنها فى حقيقة الأمر ـ وحسبما تكشف فيما بعد ـ كانت فى موقع « النقيض » .

كان كل من الحليف والنقيض له كوادره المنظمة ومنابره الإعلامية ، الأولون كانت لهم ٤ صحف ، أما فصائل اليسار فقد كانت لهم أكثر من ٢٥ صحيفة ومجلة . حزب تودة وحده كانت له سبع صحف ومجلات لأول مرة فى تاريخه ، هى كما يلى : مردم (الشعب) وهى جريدة يومية ناطقة باسم الحزب . « اتحاد مردم » ، أسبوعية تطرح ما لا يراد له أن ينسب إلى الحزب . « اذرخش » (الوهج) مجلة تشرح الماركسية اللينينية للشباب والطلاب . « دهقان » (الفلاح) موجهة للفلاحين « جهان زنان » (عالم النساء) ـ جند الحزب بعضا من عضواته اللاتى ارتدين الحجاب وقمن بتوزيعها على ربات البيوت فى المنازل ـ « دنيا » وهى فكرية موسعة موجهة إلى المثقفين ـ « برسش وباسخ » (سؤال وجواب) التى هى أهم منشورات الحزب وكانت تنشر دائما حوارات مفصلة مع كيانورى حول مختلف القضايا المثارة فى الساحة الإيرانية .

الحزب الشيوعى الإيرانى الموالى للصين كانت له أيضا صحيفة يومية « رانجبار » ـ الكادح ـ والاشتراكيون كانت لهم صحيفتهم « كاربار » (العامل) ، فدائيو خلق كانت لهم ثلاث صحف .

اليهود كانت لهم صحيفة . الأرمن كانت لهم صحيفة . كل صاحب رأى وكل تنظيم كانت له منابره . مندوب الإمام بوزارة الإرشاد فى بداية الثورة السيد هادى خسروشاهى ، السفير لاحقا ، قال لى أنه تلقى ١٥٠٠ طلب لإصدار الصحف والمجلات فى عام ١٩٧٩ وتبين عند البحث أن ٤٥ شخصا من مقدمى الطلبات هم إما من رجال الساواك أو من أنصار الشاه « يسمونهم ملوكيون » وبعدما استبعدت طلبات الذين لا تتوافر فيهم الشروط التقليدية (المالية أو المهنية والعلمية) ، فإن مندوب الإمام وقع تراخيص إصدار ٣٧٠ جريدة ومجلة ، لكل من هب ودب فى إيران . ولكن الذين استطاعوا استخدام تلك الرخص كان عددهم ما بين ١٥٠ ، ٢٠٠ هم خليط من التنظيمات السياسية والجمعيات العلمية والثقافية والمهنية ، والأشخاص والمؤسسات .

الإسلاميون كانت لهم صحيفتين يوميتين : جمهورى إسلامى ، التى رأس تحريرها السيد على خامنئى (رئيس الجمهورية لاحقا) وإنقلاب إسلامى ، التى صدرت رخصتها باسم أبو الحسن بنى صدر ، رئيس الجمهورية فيما بعد ، الذى كان من أشد المتحمسين لخط الإمام .

كانت طهران تعيش فى بداية الثمانينيات مدى من حرية الممارسة والتعبير ، يتجاوز بكثير ما هو متوقع من ثورة وليدة ، فضلا عن كونها ذات صبغة عقيدية . وأكاد أقول ان هذا المدى تجاوز أيضا الحدود المعقولة والمشروعة . فقد رأيت فى ساحة جامعة طهران ثلاثة أشخاص يجمعون علنا التبرعات والثياب للمتمردين الأكراد ، الذين تحركوا ضد الثورة بعد شهر واحد من نجاحها (مارس ١٩٧٩) وتبين فيما بعد أن ١٧٠ غرفة من مبانى الجامعة خصصت لدعم التمرد الكردى إذ تحولت إلى غرف عمليات ومراكز للاتصال ومخازن للسلاح . وهو ما أعلنه حجة الإسلام هاشمى رفسنجانى ، رئيس مجلس الشورى لاحقا فى إحدى خطب جمعة طهران[١] .

وبينما كانت إيران فى عهد الملكية تعيش فى ظل نظام الحزب الواحد ـ من الناحية القانونية والشرعية ـ هو حزب الشاه : « راستاخيز » ، إذا بالساحة السياسية فى العام الأول للثورة تشهد حياة حزبية لا حدود ولا ضوابط لها . فقد بلغ عدد الأحزاب والتنظيمات التى انشقت عنها الأرض فى تلك الفترة ١٢٠ تنظيما . كل جماعة معنية بالسياسة لم تتردد فى أن تدخل الساحة لتحاول أن تبشر بما تعتقده أو لكى تؤسس منبرا يدافع عن مصالحها .

وكان اليسار هو الأوفر حظا من بين تلك التنظيمات ، إذ اتيح له أن ينعم بحرية لا تظن أنها تتوافر له فى الاتحاد السوفيتى ، على الأقل من حيث أن الباب فتح لمختلف فصائله على مصراعيه ، من الموالين للاتحاد السوفيتى والصين إلى المدعومين من كوبا وألبانيا ! ناهيك عن طبقات الموالين للسوفيت ، الذين توزعوا على اللينيين والتروتسكيين ، والستالينيين !

---

(١) الثورة الاسلامية ، عقباتها ، ومكاسبها ـ مجموعة خطب ألقيت فى جمعة طهران لحجة الاسلام هاشمى رفسنجانى ـ من اصدارات منظمة الاعلام الاسلامى بطهران ـ ص ٤٨ .

وكل من تلك التنظيمات كانت له حساباته ومخططاته كما اتضح فيما بعد . على سبيل المثال ، فإن حزب توده ، الأقدم والأكبر ، والذى كان منحلا ومتشرذماً فى عهد الشاه ، أعاد تنظيم نفسه بسرعة فى الأسابيع التى سبقت انتصار الثورة ، فأقام فى طهران « تنظيم الداخل » ، وانتخب الدكتور نور الدين كيانورى أمينا عاما له ، بينما كان له تنظيم الخارج بزعامة إيرج اسكندرى[٢] .

وفى اللحظات الأولى لانتصار الثورة (١٠ - ١١ فبراير ١٩٧٩) . وبينما الفوضى تعم البلاد ، استولى رجال الحزب مع غيرهم من فصائل اليسار المنظمة ، على كل ما استطاعوا أن يضعوا أيديهم عليه من أسلحة الجيش الخفيفة فى طهران وكردستان .

فى الوقت ذاته أعلن حزب توده تأييده التام لخط الإمام ، حتى أن بعض نقاد الدكتور كيانورى أطلقوا عليه - من باب التندر - اسم آية الله كيانورى ! وأسس أكثر من واجهة ليعمل من خلالها ، لجذب الجماهير التى فقدت ثقتها فى « توده » ومن أبرز تلك الواجهات « الجمعية الإيرانية لأنصار السلام » و « المسلمون اليساريون الثوريون » و « الحركة الديمقراطية الإيرانية » . . وهكذا ، إلى أن طرح فكرة إقامة تحالف مع رجال الإمام باسم « الجبهة التقدمية » !

وطبقا لاعتراف الدكتور كيانورى ، فعندما أمر الإمام بأن تسلم كافة الأحزاب والمنظمات أسلحتها إلى الجيش ، فإنه أصدر تعميما مكتوبا بهذا المعنى ليوحى بأن الحزب استجاب لطلب الإمام . ولكن التعليمات الشفوية كانت تقول : ليبق السلاح فى مكانه وهو ما حدث أيضا عندما دعا الإمام إلى حل التنظيمات السرية ، بالأخص فى الجيش ، وحق الجميع فى المشاركة فى العمل السياسى العلنى .

خلال العام الأول كان حزب توده يعزز قواه ويرتب أوراقه ويثبت رجاله ويحفظ سلاحه . وكانت له منابره وواجهاته الشرعية والعلنية بل أتيح لزعيمه الدكتور كيانورى أن يدخل مناقشة علىَ شاشة تليفزيون الجمهورية الإسلامية فى عام ١٩٨٠ ، دافع خلالها عن حزب توده و « تاريخه العريق وخدماته الصادقة

---

(٢) سيد هادى خسرو شاهى - قصة الحزب الشيوعى الايرانى ص ١١

لإيران » ، وكان الطرف الآخر فى تلك المناقشة الفريدة هو آية الله محمد حسين بهشتى ، أحد أعمدة الثورة الإيرانية ![3] .

الإسلاميون يواجهون المـأزق

الإسلاميون هم الطرف الذى كان يعانى من مأزق حقيقى ، رغم أنهم كانوا فى قيادة الثورة وصدارتها : لم تكن لهم كوادر ، ولا منابر . وكانت قضية الكوادر هى الأهم والأخطر . نعم ، كان هناك مساعدو الإمام وأنصاره وتلاميذه ، كان للثورة « رجال » ورموز ، ولكنها لم تكن تملك تنظيما أو حزبا له قواعده المدربة فكريا وسياسيا ، ومبثوثة وسط الناس .كانت الجماهير المليونية هى قاعدة الثورة وقوتها الفاعلة والضاربة ، لكن التجربة أثبتت أن ذلك سلاح بحدين . فالجماهير ـ الشارع ـ قد تصنع ثورة ، وقد تستطيع الإطاحة بأعتى القوى ، لكنها لا تستطيع أن تقيم نظاما أو دولة وتسلم القيادة إليها فى تلك المرحلة ، فى غيبة كوادر تقود وترشد وتوجه ، فذلك له مردوده السلبى ، الذى قد يسىء إلى الثورة ، ويدمر منجزاتها .

ومن الحقائق الهامة فى هذا الصدد ، أن قادة الثورة لم يتوقعوا أن ينهار نظام الشاه بالسرعة التى حدثت . كان ظنهم أن الصراع ضد عرشه وسطوته ، وأركانه وأجهزته الجبارة والعاتية ، والقوى العظمى التى ألقت بثقلها إلى جانبه ، تصور قادة الثورة أن ذلك الصراع سوف يستغرق أمداً يطول إلى سنوات ولن يحسم خلال أشهر معدودة .

« حسبناه نمراً حقيقياً ، فإذا به نمر من ورق » ! هكذا قال لى عباس زمانى المشهور باسم « أبو شريف » ، أول قائد لحرس الثورة . وأضاف ، أن إيقاع الأحداث خلال الأشهر الأخيرة من عام ٧٨ وبداية عام ٧٩ ، كان متسارعا بدرجة فاقت حسابات قادة الثورة وتجاوزت تقديراتهم . وعندما تداعت أركان النظام واحدا تلو الآخر فى شهر يناير ٧٩ ، فوجىء الطرف الإسلامى ، الذى كان كل همه ، زلزلة عرش الطاغوت وتقويضه ، لكن تفصيلات الوجه الآخر للصورة لم تكن واضحة تماما . كان الهدف معلوما بطبيعة الحال ـ إقامة حكم إسلامى ـ ولكن

(٣) المصدر السابق ص ١٨ ، ١٩

الخطى والسبل والكيفية لم تكن بنفس القدر من الوضوح . (فكرة ولاية الفقيه تجسد الموقف هنا ، فقد كان مبدؤها مستقرا ، لكن صيغتها لم تكن واضحة ـ وما زالت ـ كما مر بنا فى الفصل السابق) .

ولعلنا لا نتجاوز كثيرا إذا ما قلنا أن هذا السياق للأحداث يتفق تماما مع البناء النفسى والعقلى للشيعة الأثنى عشرية ، فخبرتهم طويلة وعريقة فى الرفض المستور ـ التقية ـ للأوضاع القائمة عبر ١٢ قرنا من الزمان ، أما بناء البديل فقد كان مؤجلًا دائماً ، وموكّلًا فى الواقع إلى الإمام الغائب . ذلك منطق فقهائهم التقليديين ، وهو أحد أسباب تميز الثورة التى قادها الإمام الخمينى .

عبر عن ذلك بدقة بالغة الدكتور حسن الترابى ، أبرز قادة التيار الإسلامى فى السودان ، عندما سمعته يقول فى مناقشة حول تقييم الحدث الإيرانى ، إن الثورة الاسلامية هناك أثبتت قدرة فذة فى إزهاق الباطل ، لكنها لم تكن بنفس القدر من الكفاءة فى محاولة إحقاق الحق !

كان من نتيجة مفاجأة الإنهيار السريع لعرش الشاه ، أن عاشت طهران ـ إيران كلها فى الواقع ـ الأشهر الأولى التى أعقبت الانتصار فى حالة من الفوضى البالغة . وعلى حد تعبير « أبو شريف » فقد كانت البلاد بلا سلطة تقريبا ، « من نقاط الحدود إلى إشارات المرور » . حرس الثورة ذاته شكل بعد أربعة أشهر من انتصارها ، فى ظل حكومة المهندس بازركان ، ولم يكن سوى محاولة لدمج أربع جماعات مسلحة كونها بعض الثوار من جانبهم . جماعة أبو شريف ، وجماعة محمد منتظرى ـ الشهيد وابن آية الله منتظرى ـ وجماعة محسن رفيق دوست وزير الحرس لاحقا ، ثم جماعة محسن رضائى قائد الحرس فيما بعد ، وكانت كلها منظمات صغيرة قائمة منذ ما قبل نجاح الثورة (حدث إنقلاب فى حرس الثورة عام ١٩٨٣ إذ تحالف رفيق دوست ورضائى ، وقاما بتصفية من تبقى من أنصار الشهيد منتظرى ، كما صُفى جناح أبو شريف الذى نقل سفيرا فى الخارجية ثم اعتزل العمل الدبلوماسى والتحق بالحوزة العلمية فى قم ليدرس الفقه الإسلامى) .

أما الذى تولى السلطة الحقيقية فى أحياء طهران وشوارعها ، فى تلك الفترة

المبكرة ، فهى لجان الثورة « الكوميتات » التى شكلت على عجل من مجموعات المتطوعين تحت قيادة أئمة المساجد بالعاصمة ، وكان العاطلون الذين قدموا إلى العاصمة من الريف الإيرانى بعد إعلان الثورة البيضاء فى عهد الشاه ـ أشرنا من قبل إلى أن عددهم بلغ حوالى ثلاثة أرباع المليون ـ من العناصر المهمة التى انضمت إلى تلك اللجان التى انيطت بها فى البداية مهمة السيطرة على الوضع المنفلت فى طهران والمدن الكبرى الأخرى بطبيعة الحال ، ثم الحفاظ على المظهر الإسلامى العام من خلال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

لم تكن تلك العناصر مؤهلة لا ثقافيا ولا سياسيا للقيام بهاتين المهمتين ، مما تسبب فى ارتكاب أخطاء عديدة جسيمة ، من جراء ما تصورته انضباطا أو أمراً بالمعروف ونهيا عن المنكر ، وقد أثار ذلك حملة واسعة من الانتقادات من جانب رجال الثورة أنفسهم ، حتى قال أحدهم ، وهو الشيخ مسيح مهاجرى ، فى كتاب مطبوع أصدرته منظمة الإعلام الإسلامى الرسمية بطهران أن تلك اللجان قامت « بأعمال تخريبية ومنكرة ، تعسفية ، بذيئة » . وكان عنوان الرسالة هو « مسيرة الثورة الإسلامية »(٤) .

كانت « الكوميتات » تعبيرا عن مأزق الكوادر الذى عانت منه الثورة فى عامها الأول .

وإذا كانت أزمة الكوادر مبررة ، فإن ما كان مثيراً للدهشة حقا هو أزمة « المنابر » التى عانى منها الإسلاميون وهم فى قيادة الثورة !

فى ذلك العام الأول ، استشعر الإسلاميون أنهم فى مواجهة حصار إعلامى شديد من جانب الطرفين ، « الحليف » فضلا عن النقيض . كانت منابرهم الأساسية هى المساجد منبر الجمعة بالأخص . وكانت لديهم صحيفتا جمهورى وإنقلاب إسلامى . بينما الآخرون كانوا قد حققوا فى الشارع تفوقا إعلاميا كاسحا ، على الأقل بحكم عدد الصحف التى كانوا يصدرونها . وكانت الأخطاء ، بالأخص التى وقعت فيها الكوميتات ، تواجه بنقد قاس لا يرحم ، شاركت فى ذلك الإذاعة والتليفزيون ، وبرامجها كانت مفتوحة للجميع .

(٤) الشيخ مسيح مهاجرى ـ مسيرة الثورة الاسلامية ص ٨٧

« يعلم الله كم كان الألم يحز فى قلوبنا ، باعتبار أن الوضع العام لم يكن يسمح لنا بأن نتكلم ونُعبّر عن أنفسنا » . . هكذا وصف رفسنجانى تلك المرحلة : « كنا أحيانا نتصرف كالمهاجرين والأنصار ، نطوف على البيوت بيتا بيتا » . حتى روى أنه ذهب مع آخرين إلى مجلس مدرسى الحوزة العلمية بقم ، وعرض عليهم ما يجرى فى طهران « حتى كدت أبكى وأنا استعرض الوضع » . . و« زرنا الإمام فى قم لكى نشكو إليه حالنا »(٥) . وكانت وصيته هى : العمل من خلال مجلس الشورى . . وهكذا .

بالفعل أصبح مجلس الشورى إحدى الساحات الأساسية للصراع بين القوى الثلاث حتى استطاع رجال الإمام من خلاله ـ مثلا ـ أن يفرضوا محمد على رجائى رئيسا للوزراء ، رغم إصرار بنى صدر رئيس الجمهورية على رفضه ، فى مسلسل من المناورات طويل ومثير . حتى تمكن رجال الإمام فى النهاية من أن يعزلوا بنى صدر من الرئاسة فى ٢١ يونيو عام ٨١ ، بأغلبية صوتت لصالح سحب الثقة منه .

صفحات من سجل الصراع

ثمة قدر يعنينا فى قضية الصراع ، التى لم يكشف النقاب عن تفاصيلها بعد ، يتكون من شقين : أحدهما يتعلق بحتميته ، والثانى يتصل بأساليبه .

لقد كان هناك خلاف فى الرؤى والأهداف ، ليس بحاجة إلى شرح بالنسبة للنقيض ، ولا يحتمل المشاركة على مستوى القيادة ، حتى مع الحليف . فهذا ليبرالى إصلاحى ، والآخرون إسلاميون ثوريون . هذا ابن شرعى لفكرة النضال الديمقراطى ، والآخرون أبناء فكرة « الشهادة » . الأولون يتحركون بعين على إيران وعين على الغرب ، والآخرون خارجون لتوهم من الحوزة !

ومن الأسرار التى لم تذع فى هذا الصدد أن الحليف ـ الليبرالى ـ ظل حتى اللحظات الأخيرة فى الصراع ضد الشاه مؤيدا لبقائه ، ومساعدو الإمام يذكرون أنه استقبل فى باريس ـ قبل أيام من عودته إلى طهران ـ وفداً على رأسه المهندس

(٥) خطب رفسنجانى ص ٢٢

مهدى بازركان ، ومعه أحد رجال الجبهة الوطنية ، ناصر ميتاشى ، يصحبهما اثنان من قم ، حسن شريعتمدارى ابن آية الله شريعتمدارى ـ المرجع الشهير ـ وصهره أحمد عباس . وكان الوفد يطرح فكرة محددة هى : تسليم السلطة للإمام ، مع بقاء العرش والملكية . وهو العرض الذى أصر الإمام على رفضه . ويبدو أن ذلك الرفض كان مفاجأة للمهندس بازركان ، الذى غادر باريس مستاء ، دون أن يودع الإمام ويخبره بسفره . ومع ذلك اختاره الإمام رئيسا للوزراء ، بينما عين ميتاشى وزيرا للإرشاد !

حتى الحلم كان مختلفا . الليبراليون كانت تشغلهم قضايا التحديث والمعاصرة والنموذج الديمقراطى الغربى . والإسلاميون كانت تستغرقهم فكرة طرح نموذج حضارى جديد ، ينطلق أولا من الاعتقاد والأصالة ، ولا يعنى كثيرا بنقاط الالتقاء أو الاختلاف مع الغرب .

وما دمنا نتحدث عن بشر ، وعن ثورة حديثة الميلاد ، فلا ينبغى أن نستثنى إيران لا من سلوك البشر ، ولا من سنن الثورات . إذ لا نشك فى أن فكرة الاستئثار بالسلطة قد لعبت دورا ، أياً كان حجمه ، فى إذكاء الصراع . وفيما نعلم ، فما من حلفاء قاموا بثورة أو إنقلاب أو إنتفاضة ، إلّا وثار بينهم ، فى السر أو العلن ، السؤال الكبير : من يحكم ويقود ؟ .

لا نريد أن نخوض وراء النوايا لنعرف الدافع وراء الرغبة فى الاستئثار بالسلطة ، وهل هو شهوة الحكم ، أم الإصرار على تحقيق الحلم ، أم الاثنان معا ، لكن الذى يهمنا أن القضية بات لها دورها التقليدى فى الصراع بين حلفاء الثورات ، حتى كادت تستقر وتكتسب قدرا من المشروعية ، غير أن السؤال الذى يلح دائما هو : كيف يدار ذلك الصراع بالصورة التى تحفظ التوازن بين وحدة الرأى والتوجه فى القيادة السياسية ، وبين الإبقاء على تعدد الآراء فى الحياة السياسية ؟ .

لقد رفض مجلس قيادة الثورة اقتراحا طرحه رسميا بعض الليبراليين واليساريين لإطلاق اسم « الجمهورية الإيرانية الديمقراطية الإسلامية » ، على

إيران ما بعد الثورة . وكانت تلك من أولى إشارات الخلاف بين المواقف(٦) .

بعد أن رشح المهندس بازركان فى أول حكومة مؤقتة للثورة وزيرا للتعليم العالى ، كان قد كتب قبل الثورة يقول : حينما جاء رجال الساواك لتفتيش بيتى ، عجزوا عن أن يجدوا شيئا يعتقلونى من أجله ، ولكنهم حينما فتحوا الثلاجة وجدوا عدة قنان من المشروبات الكحولية فقط ! . . وعندما عرض اسم الوزير المرشح على مجلس قيادة الثورة ، صدم بعض الأعضاء وثاروا ، بالأخص الشهيدان آية الله بهشتى وآية الله مطهرى . اللذان كانا قد قرآ ما كتبه الوزير المرشح . وقاوما بشدة هذا الترشيح . وفى حين لم يجد المهندس بازركان حرجا من الدفاع عن القيمة العلمية والشخصية للرجل ، فإن الفقهاء تشبثوا بالرفض قائلين : كيف يعين وزير فى أول حكومة للثورة الإسلامية أعلن وجود « الويسكى » فى ثلاجة بيته ؟!

أيضا صدم الفقهاء فى اجتماع مشترك بين مجلس قيادة الثورة والوزراء ، عندما أعرب بازركان عن امتعاضه من تقرير تلى فى الاجتماع حول مسيرة كانت تهتف « الموت لأمريكا » . وفى حين كان الرجل يدعو إلى علاقات ودية وغير مستفزة مع أمريكا ، فإن الإسلاميين كانوا معبئين بالعداوة والغضب ضد « الشيطان الأمريكى » .

وأثناء اجتماعات مجلس الخبراء الذى قام بإعداد دستور الجمهورية الإسلامية ، مرتكزا على مبدأ ولاية الفقيه ، قدمت الحكومة المؤقتة مشروعا آخر ، رفضته اللجنة ، لأنه كان « خليطا من الإسلام والمبادىء الفرنجية ، ومطعما بالأفكار الغربية » ، كما يقول أحدهم(٧) . فما كان من الحكومة إلا أن أعدَّت مرسوما بحل المجلس وقعه ١٧ وزيرا .

وعندما طرحت فكرة إنشاء مجالس محلية للشورى بالأقاليم ، وقف الليبراليون ضد اشتراك الفقهاء فيها ، ثم رفضوا أن يمثِّل الفقهاء بأكثر من عضو واحد فيها . . وهكذا . إن الشواهد العديدة والوقائع التى تفوق الحصر ، كانت

(٦) قبل أقل من شهر بعد عودته إلى طهران ـ فى ٣ مارس ١٩٧٩ ـ ألقى الامام الخمينى خطاباً فى المدرسة الفيضية بقم قال فيه : الشىء الذى يريده الشعب هو الجمهورية الاسلامية . لا جمهورية فقط ، ولا جمهورية ديمقراطية ، ولا الجمهورية الديمقراطية الاسلامية .

(٧) الشيخ مسيح مهاجرى ـ مسيرة الثورة ص ٧٩ ، ٨٠ .

تشير كلها إلى أن الخلاف فى الرؤى والأهداف لابد أن يحسم ، لأن السفينة ـ أية سفينة ـ ليس بمقدورها أن تسير بمنهجين مختلفين ، أو نحو هدفين مختلفين فى آن واحد .

يذكرنا ذلك ـ جزئيا ـ بالصدام بين كل من جمال عبد الناصر ومحمد نجيب فى أعقاب ثورة يوليو ١٩٥٢ بمصر . فقد كانت هذه المواجهة فى حقيقتها صراعا بين نمطين مختلفين فى التفكير ـ ثورى يمثله عبد الناصر وإصلاحى يمثله نجيب . وكان استمرار مسيرة الثورة يقضى بضرورة أن يحسم الصراع لصالح أحدهما دون الآخر . ليس لأن أحدهما أكثر وطنية من الآخر بل حتى ليس لأن أحدهما على صواب والثانى على خطأ ، ولكن ـ ببساطة ـ لأن « القيادة » السوية لا تحتمل الاختلاف فى الأهداف .

وإذ يتمنى المرء لو أن الصراع فى إيران أدير بشكل أفضل ، وأسفر عن نتيجة أفضل ، أدت إلى استمرار الأطراف الأخرى فى المشاركة بالحياة السياسية ، غير أن استخدام سلاح التصفية الدموية فى ساحة الصراع ، كان بمثابة نقطة تحول فى علاقات القوى الثلاث ، وفى مسيرة الثورة بشكل عام .

ذلك ينقلنا إلى الشق الثانى الذى يعنينا فى الصراع وهو : أدواته وأساليبه .

إذ قبل أن ينتهى العام الأول للثورة ، وفى أول سبتمبر ٧٩ ، كان آية الله مرتضى مطهرى رئيس مجلس قيادة الثورة . قد قتل ، وقبله بأيام أغتيل الزعيم محمد قرنى ، أول رئيس للأركان بعد الثورة . . وتوالى مسلسل الاغتيال وتصفية رموز الثورة . فقتل فى البداية كل من الدكتور محمد مفتح وآيات الله : طباطبائى ، ودستغيب ، وصدوقى ، وغيرهم . وبلغت التصفية ذروتها بعد أسبوع واحد من عزل بنى صدر ، عندما تم تفجير مقر الحزب الجمهورى الإسلامى يوم ٢٨ يونيو ٨١ . وأبيد فى تلك المذبحة ٧٢ من رجال الثورة ، على رأسهم آية الله بهشتى عضو مجلس قيادة الثورة ، ورئيس الحزب الجمهورى الإسلامى ، وأقوى شخصية بين أعوان الإمام . وكادت إصابة على خامنئى ـ رئيس الجمهورية لاحقا ـ تودى بحياته . ولكنه أنقذ بمعجزة ، بينما أصيبت أعصاب يده اليمنى بالشلل (بعد انتخابه رئيسا للجمهورية ، استاء البعض من أنه يصافح الناس ويلوح لهم

بيده اليسرى ، وكان عجز يده اليمنى خافيا) . وجرى تفجير آخر فى مكتب رئيس الوزراء باهونار أثناء اجتماعه مع محمد رجائى رئيس الجمهورية ، فقتل الاثنان معا ، وتصاعدت الخشية من تصفية كل رجال الإمام ، الذين يخرجون إلى الشوارع ويذهبون إلى الأسواق بغير حراسة . حتى أن حجة الإسلام هاشمى رفسنجانى ، رئيس مجلس الشورى ، الذى كان يذهب بنفسه لشراء الخبز ظهر كل يوم ، أصبح يتحرك - فى تلك الفترة - ممدداً فى سيارة أسعاف ، إمعانا فى التخفى ! فضلا عن أن كل الذى تبقى من رجال الثورة وضع تحت حراسة مشددة ، وغير محل إقامته ، ولم يعد يتحرك إلا فى سيارة مصفحة إما ضد الرصاص فقط ، وإما ضد الرصاص وضد التفجير معا ، حسب أهميته !

وكانت نتيجة هذه التصفيات المتتالية أن قتل ٦٠٪ من رجال الثورة ، كما يقول مكتب الإمام ، أو ٨٠٪ منهم ، كما تقول قيادة المعارضة المسلحة (مسعود رجوى) .

أحدث « الفعل » ردود الأفعال الطبيعية والمتوقعة . إذ وجد رجال الامام أنفسهم أمام خيار الحياة أو الموت ، البقاء أو الفناء ، مما استوجب شن حملة واسعة لكشف العناصر المعارضة المندسة داخل صفوف السلطة . بالأخص بعد ما تبين أن الذى قام بتفجير مقر الحزب الجمهورى هو مسئول الأمن فيه ، وأن عملية نسف مكتب رئيس الوزراء قام بها أيضا مسئول أمن رئيس الوزراء . وأن قائد حرس البرلمان عضو عامل فى حزب « توده » !

اكتشفوا تلك الحقائق المذهلة ، التى نبهتهم إلى أن خصومهم - النقيض - مخترقون تماما الجدار الأمنى للنظام . وهو اختراق وصل إلى بيت الامام ذاته كما قال رفسنجانى فى إحدى خطبه ، بل إلى منصب قيادة القوات البحرية ، إذ كان « القائد » الجنرال أفضلى - عضوا فى حزب توده . وقيل إنه كان ينقل معلومات عن مخططات إيران فى حربها ضد العراق إلى قيادته فى الحزب ، التى كانت تسربها بدورها إلى موسكو . ومن هناك كانت تذهب إلى بغداد .

كانت التحقيقات تكشف عن حقائق مخيفة كل يوم ، فلجأت السلطة إلى الشر الذى لم يكن منه بد فى تلك الفترة : تشديد القبضة والتوسع فى الاجراءات البوليسية بعد ما تصدرت قضية الأمن أولويات مهام النظام .

واستشعر رجال الامام التوجس والارتياب فى « الغير » . وتناثرت شظايا العنف فى الأجواء الايرانية . فخيم على البلاد جو من التوتر الممزوج بالخوف خلال سنتى المواجهة الحادة ٨٠ ، ٨١ ، بل وحتى منتصف ٨٢ على وجه التقريب .

وحتى بعد تجاوز الأزمة ، فإن رجال الامام ظلوا أسرى التجربة الدموية التى خاضوها . فارتبطت لديهم المعارضة بالعنف والاغتيال ، مما أفسد علاقاتهم بالقوى السياسية التى لم تلجأ للعنف ، وأثر سلبيا على نظرتهم إلى « الرأى الآخر » .

وبينما كان مناخ بداية الثمانينات يحتمل ٢٥ صحيفة ومجلة لنقيض التيار الاسلامى . ويحتمل تحرك مؤيدى تمرد الأكراد على الثورة فى قلب العاصمة ، فإن طهران منتصف الثمانينات أصبحت بغير صحيفة واحدة للمعارضة . وتحتمل بالكاد ـ وعلى مضض ـ نشاط تحرك وطنى شريف مثل المهندس مهدى بازركان ، وهو يحاول أن يؤدى مع آخرين ، بينهم الدكتور ابراهيم يزدى وزير الخارجية الأسبق ، دورا متواضعا فى الشارع السياسى . إذ يعقدون الندوات والمحاضرات فى مقر حزبهم « نهضة ازادى إيران » الذى تقف على بابه سيارة للشرطة ، تسأل الداخلين عن هوياتهم ومقاصدهم !

تنافس الرأسين : رفسنجانى وخامنئى

بحلول عام ١٩٨٣ ، كان الستار قد أسدل تقريبا على ذلك الفصل الدامى من الصراع بين الاسلاميين والعلمانيين ، بشقيهم الماركسى والليبرالى . حسم الموقف لصالح الاسلاميين ـ خط الامام أعنى ـ ولم يعد هناك من ينازعهم على السلطة أو السلطان . غير أن ذلك لم يكن يعنى نهاية الصراع فى طهران ، ولكنه كان إيذانا ببدء فصل جديد منه ، تدور أحداثه فى داخل المربع الاسلامى ذاته وبين رجال الامام أنفسهم .

وربما كانت الايجابية الوحيدة للصراع الذى دار بين الاسلاميين وغيرهم بعد نجاح الثورة ، أنه أسهم بطريق غير مباشر فى توحيد الصف الاسلامى

واستمرار تماسكه ، ولكن حسم ذلك الصراع لصالح الاسلاميين هيأ الفرصة لظهور ما كان مخفيا أو منسيا بينهم من عناصر التمايز أو التناقض ، وهو أمر ليس مستغرباً فى تجارب الثورات ، تبدأ بخصومها ، ثم حلفائها ، ثم تدور الدائرة على صناعها ، إلى أن يستقر الأمر لفرد أو لفريق متجانس تماماً فى الأهداف أو الطموح .

لا يحتاج المرء إلى جهد كبير لكى يتبين أن ثمة خلافاً قوياً بين الثوريين والاصلاحيين ، لم يحسم ، وخلافاً آخر بين حراس الثورة ولجان الثورة (الكوميتات) تم حسمه تقريباً .

خلاف الثوريين والاصلاحيين على أكثر من مستوى ، ومظاهره بغير حصر . وأول ما يرصد من تلك المظاهر ، الخلاف الذى شاعت أخباره فى طهران بين رئيس الجمهورية السيد على خامنئى ، ورئيس مجلس الشورى على أكبر هاشمى رفسنجانى وهو من يعرفه الناس باسمه المشتق من بلدته رفسنجان ، بينما يناديه أهل بيته باسم الحاج على أكبر ، والاثنان ليسا من المجتهدين ، فكل منهما يلقب بحجة الاسلام ، وإن كان خامنئى من نسب يتصل بآل البيت ، ولذا تضاف إلى اسمه كلمة « السيد » وهو دارس للأدب ، بينما رفسنجانى من الدارسين للتاريخ . والاثنان كانا من أعضاء مجلس قيادة الثورة ومن مؤسسى الحزب الجمهورى . خامنئى كان ممثلا للامام فى الحزب ، ورفسنجانى كان ـ ولا يزال ـ ممثلا للامام فى مجلس الدفاع الأعلى ولكن دور كل منهما فى الحزب ـ وربما فى قيادة الثورة ـ ظل محجوبا ، نسبيا ، فى حضور آية الله بهشتى ، تلك الشخصية العريضة التى أدت دورا بارزا فى نجاح الثورة وفى إنشاء الحزب الجمهورى فيما بعد . وعندما قتل بهشتى فى تفجير عام ١٩٨١ أخذ مكانه خامنئى وظهرت بوادر المنافسة بينه وبين رفسنجانى ، إلى أن أنتخب الأول رئيسا للجمهورية مما أذكى المنافسة بشدة ، إذ صار خامنئى رئيسا للسلطة التنفيذية فى مقابل رفسنجانى رئيسا للسلطة التشريعية . وبذلك فإن محور التنافس ، أو قل الصراع ، انتقل من السؤال : من يقود الحزب ، إلى السؤال : من يسيِّر دفة الحكم ؟ .

والواقع أن الطبيعة الخاصة للعلاقة بين السلطات الثلاث فى الدستور

الايرانى (التشريعية والتنفيذية والقضائية) أسهمت فى تصعيد ذلك الصراع . فرأس الدولة فى الدستور ليس هو رئيس الجمهورية ، ولكنه ولى الأمر وإمام الأمة ، بينما السلطات الثلاث مستقلة عن بعضها البعض ، ورئيس الجمهورية يقوم فقط بالتنسيق بينها (المادة ٥٧ من الدستور) . وهذا معناه أن رؤساء السلطات الثلاث ذوو رؤوس وقامات متساوية فى الدولة . ولكن الصلاحيات التى أعطاها الدستور لمجلس الشورى ، تقوى من نفوذه فى مواجهة الحكومة ، بصورة تجعل له اليد الطولى فى تسيير الحكم ، مما لابد وأن يضيق به رئيس الجمهورية . حدث ذلك فى فترة رئاسة بنى صدر للجمهورية ، وكان رفسنجانى رئيساً لمجلس الشورى ، كما حدث فى ظل رئاسة خامنئى .

فرئيس الجمهورية ليس مطلق اليد فى اختيار رئيس الوزراء ، ولكن لابد من موافقة مجلس الشورى عليه (المادة ١٢٤) وقد سبقت الاشارة إلى أن مجلس الشورى فرض محمد رجائى رئيسا للوزراء رغم أنف بنى صدر ، كما أنه قاوم الرغبة المستمرة التى أبداها الرئيس على خامنئى لتنحية مير حسين موسوى عن رئاسة الوزراء - الذى يحظى بتأييد رفسنجانى - واستبداله بالدكتور على ولايتى (وزير الخارجية) ، الذى يعتبره خامنئى أكثر تفهما له وتعاونا معه .

وبعد أن يوافق مجلس الشورى على تعيين رئيس الوزراء ، فإن تعيين أعضاء الحكومة (الوزراء) وإن كان من صلاحيات رئيس الوزراء وبناء على موافقة رئيس الجمهورية ، إلا أن كل واحد من الوزراء الجدد يجب أن ينال ثقة مجلس الشورى قبل أن يتم تعيينه . أى أن المجلس هو الذى يجيز الوزير أو يرفضه فى نهاية الأمر (المادة ١٣٣) ، مما يقلّص أيضاً من دور الاثنين : رئيس الجمهورية ، ورئيس الوزراء .

وفى الوقت ذاته فإنه لا ولاية لرئيس الجمهورية على السلطة القضائية . فرئيس المجلس الأعلى للقضاء والمدعى العام للبلاد يعينان من قبل الامام - القائد - المادة (١١٠) ، ووزير العدل لا يعيّنه رئيس الوزراء ولكنه يرشّح من قبل المجلس الأعلى للقضاء (المادة ١٦٠) .

ثمة تنافس قوى بين الرجلين وبين المنصبين فى الوقت ذاته ، فضلا عن

الصراع المستمر فى طهران بين التيارين الاصلاحى الذى يمثله على خامنئى ، ويدعمه فيه فقهاء مجلس صيانة الدستور ومجلس الشورى الذى يمثله هاشمى رفسنجانى ، ويدعمه الصف الثانى من رجال الامام والشباب الثوريين بشكل عام . وإذا أضفنا إلى الملابسات السابقة أن الجيش يتبع خامنئى باعتباره رئيس السلطة التنفيذية . وفى موازين القوى يعد الجيش محترفا ومحايدا وغير مسيس (المتحمسون من أنصار الامام يقولون أنه غير ثورى) ، فإن حرس الثورة مع رفسنجانى ، فضلا عن تمثيله للامام فى مجلس الدفاع الأعلى .

يتخذ الصراع أشكالا متعددة . أحيانا يكون حول اختيار رئيس الوزراء والوزراء ، وهو ما حدث على سبيل المثال فى نوفمبر ١٩٨٥ م بعد إعادة انتخاب على خامنئى رئيسا للجمهورية ، إذ أراد أن يغير رئيس الوزراء (مير حسين موسوى) الذى يدعمه رفسنجانى ـ كما قلنا ـ وأن يغير وزراء آخرين ممن اعتبرهم غير متعاونين معه (المشكوك فى ولائهم له) ولكن مجلس الشورى وقف ضد الرغبة الأولى ، وأبقى على موسوى رئيساً للوزراء ، فى حين سحب الثقة من وزيرين من أبرز أعوان خامنئى ، هما وزيرا النفط والداخلية . وأكثر من ذلك ، فإن المجلس وجه إلى رئيس الجمهورية رسالة يبلغه فيها بأنه غير راض عن ثلاثة من مساعديه ، اعتبرهم من ذوى الميول الليبرالية ، وكان أحدهم (آية الله حجتى) من العاملين مع بنى صدر . ومن الطبيعى أن تثير تلك التصرفات حساسية خامنئى ، وتضعف من مكانته فى الحزب وفى الساحة السياسية بصورة عامة .

يلاحظ كثيرون أن الامام الخمينى يظل دائما بعيدا عن تلك الصراعات ، ربما ليحفظ التوازن بين مختلف القوى ، وهو لا يتدخل إلا فى اللحظات الدقيقة أو عندما يكون مضطرا إلى ذلك . ففى الخلاف الذى ثار حول تغيير رئيس الوزراء ، وبينما الأخذ والرد مستمران فى السر والعلن قرر أعضاء مجلس الشورى أن يسترشدوا برأى الامام فى الموضوع . وقبل التصويت على الثقة فى رئيس الوزراء ، زاروا الامام وسألوه عن رأيه فقال أنه من الأفضل ألا تعدل الوزارة فى الظروف الراهنة ، إلا إذا أراد رئيس الجمهورية أن يغيره ـ واعتبرت تلك الكلمات بمثابة ترجيح لكفة موسوى ، وكفة رفسنجانى بالتالى . كما سببت حرجا لعلى

خامنئى ، الذى كان الكل يعلم برغبته فى تنحية رئيس الوزراء ، ولكنه أصبح مقيد الحركة بعد إشارة الامام إلى أنه يفضل الابقاء عليه .

ولكن الخلاف الأكبر بين الاثنين يتجاوز دائرة الأشخاص والأعوان إلى السياسات ذاتها ، وبحكم موقف كل منهما ـ الثورى والاصلاحى ـ فإن رفسنجانى يقف ضد الليبراليين ، وضد إطلاق حرية التجارة ومع تأميم التجارة الخارجية ، ومع تحديد ملكية الأراضى . . إلى غير ذلك من مختلف مجالات العمل الداخلى والخارجى . ولكن خامنئى يقف على النقيض منه فى الأساس .

أوضح نموذج على ذلك هو ميدان التجارة ، الداخلية والخارجية ، وهو الميدان الذى لا تزال السياسة المتبعة فيه محل شد وجذب بين الرجلين . وقد مر بنا أن مجلس صيانة الدستور وقف ضد تقييد حرية التجارة ، وكان ذلك بمثابة انتصار لخامنئى وما يمثله . ولكن رفسنجانى لم يهدأ ـ وهو اللاعب الماهر الذى يقال عنه أنه وريث آية الله بهشتى ـ فظل يعبىء الشارع من خلال خطب الجمعة ، وعبر أحاديثه الأخرى فى داخل المجلس وخارجه . وإن كان كل ما استطاع أن ينجزه أنه علق الأمر من جهة مجلس الشورى ، فلم تصدر القوانين المنظمة لذلك القطاع ، بسبب استمرار اعتراض مجلس صيانة الدستور على المشروعات التى أعدها فى هذا الصدد ، وبذلك فإن قرارات مجلس قيادة الثورة التى صدرت فى عام ١٩٧٩ ، والتى تتفق وخط رفسنجانى ، ما زالت هى السارية حتى عام ١٩٨٦ .

تصدير الثورة : حوار مع رفسنجانى

تشكل قضيتا العمل فى الخارج ، أو تصدير الثورة ، ثم التعامل مع الخصوم ، نقطتا خلاف داخل صف الثوريين ، فضلا عن الاصلاحيين . وهنا ينبغى أن ننبه إلى أن قسمة الثوريين والاصلاحيين لا تخلو من نسبة غير قليلة من التجريد ، بمعنى أن الفريق الذى يقف فى هذا الجانب أو ذاك ليس بالضرورة متجانسا ومتطابقا تماما فى الآراء والمواصفات ، إنما غاية ما فى الأمر أن هناك قدرا متفاوتا من السمات المشتركة بين الواقفين هنا أو هناك ، يسمح بتصنيف كل منهما فى هذا المربع أو ذاك .

فى زياراتى الأولى لطهران ، كنت مشغولا بالبحث عن « مصادر » تساعدنى على فهم الذى يجرى هناك . وبحكم علاقة سابقة ببعض الشخصيات الشيعية فى الكويت ، حيث عملت هناك لفترة أدركت قيام الثورة ، وجدت فى أوراقى اسم حجة الاسلام محمد هادى المدرسى ، الذى كان ممثلا للامام الخمينى فى البحرين ، وأبعد عنها فى أغسطس عام ١٩٧٩ م . فقد كانت أسرة المدرسى مقيمة بالكويت ، وكان دائم التردد على البحرين ، حتى أبعدته سلطاتها وسط ظروف القلق التى سادت المنطقة فى بدايات الثورة ، والتى واكبها صدور تصريحات متعددة من طهران ، حول تصدير الثورة إلى الخارج . وكان حُجة الاسلام صادق خلخالى ، أشهر قضاة محاكم الثورة ، هو من الرموز البارزة التى رددت هذا المعنى بصورة لافتة للنظر ، وبصورة موازية ، أبعدت الكويت ممثل الامام فيها ، السيد المهرى مع أفراد أسرته . وكنت أعلم أن الاثنين استقرا بعد الابعاد فى طهران . وبعد وصولهما إلى عاصمة الثورة ببعض الوقت تناقلت الوكالات نبأ تكوين « الجبهة الاسلامية لتحرير البحرين » . وتحدثت الصحف الألمانية والأمريكية بوجه أخص عن عمليات الاعداد فى إيران لزرع القلاقل فى الخليج ، تمهيدا لتثويره . وكان السيد هادى المدرسى هو الشخص الذى أشارت إليه الأصابع باعتباره قائد التنظيم الثورى المعدّ لقلب الخليج رأسا على عقب .

وأنا أبحث عن المصادر فى طهران ، سألت أحد كبار المسئولين فى منظمة الاعلام الاسلامى عن الرجلين : المدرسى والمهرى . فكان رده ، أن لوى شفتيه وقال عن المدرسى أنه رجل متطرف ، يسبب لنا إزعاجات كثيرة . وأن « الاخوان » احتفوا به عقب وصوله باعتباره مطرودا من البحرين ، ولكنهم اكتشفوا أنه أصبح عبئا عليهم ، فتباعدوا عنه فى هدوء . ثم أضاف محدثى قائلا : إن المدرسى أصبح « خارج الصورة » ، وأنه لا فائدة من الاتصال به . بل ذهب إلى حد نُصْحى بعدم مواصلة البحث عنه !

كان الكلام مفاجئا لى ، فقلت داهشا ومازحاً ، الذى أعرفه أن التطرف ليس تهمة فى إيران ، حيث الجميع متطرفون !

قال : تلك قضية معقدة ، ولكن المهم هنا أن تطرف السيد المدرسى اعتبر

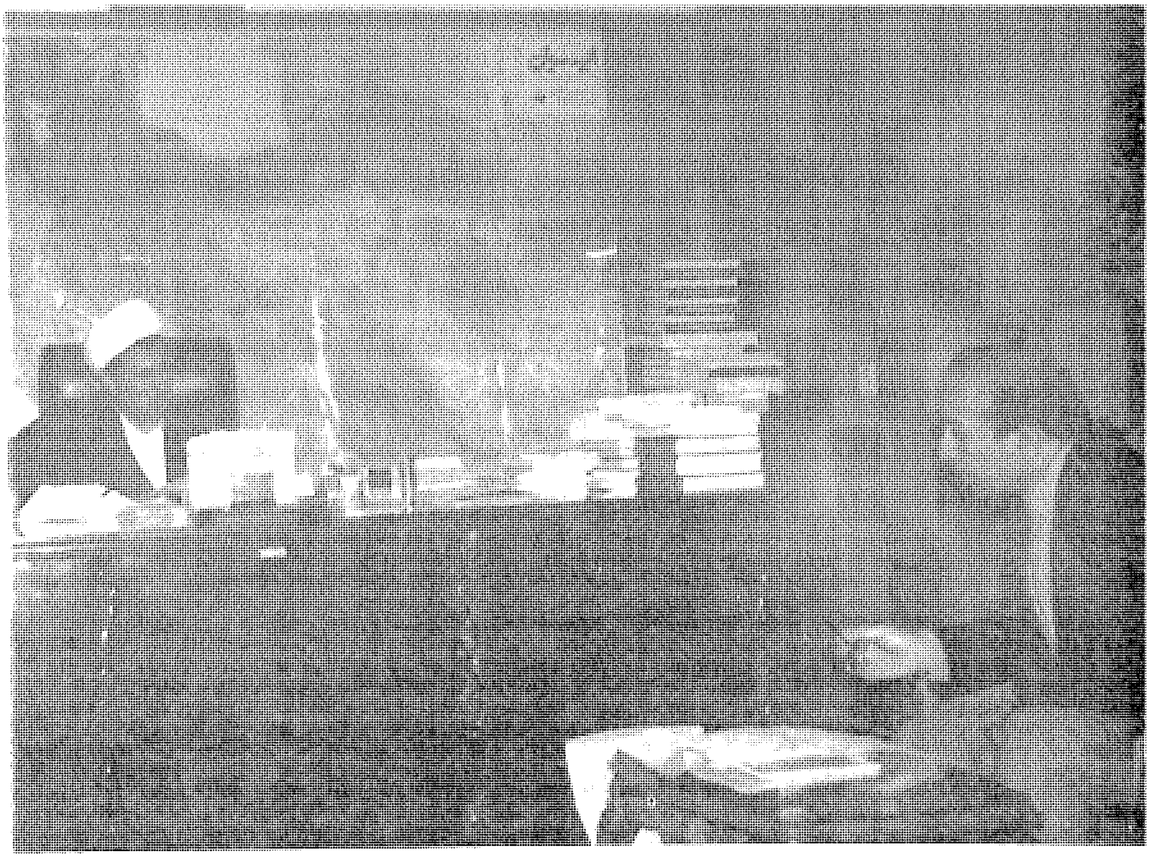
عبثا على الثورة ، وأظنه فهم هذا التوجيه ، ولم يعد له نشاط يذكر فى البحرين أو الخليج ، باستثناء بعض المطبوعات التى يصدرها ، والتى تعنى بمتابعة أوضاع الشيعة فى المنطقة ، وإذاعة ما يلقونها من اضطهاد وعنت من جانب السلطات المحلية .

ثم امتدح صاحبنا السيد المهرى ، ووصفه بأنه رجل عاقل اتجه إلى العلم ، واستقر فى حوزة قم ، ولم يربط نفسه بأى نشاطات مما تمناه المدرسى وسعى إليه !

أثارت فضولى كلمات مسئول منظمة الإعلام الإسلامى ، فسعيت ملّحاً للعثور على السيد المدرسى . وزرته فى مقره بجنوب طهران . وهو يضم عدة أبنية داخل سور واحد ، بينها ساحة للاجتماعات مزودة بمكبر للصوت وأجهزة التسجيل والتصوير السينمائى ودار بينى وبين الشقيقين هادى وتقى المدرسى حديث طويل ، كانت أبرز خلاصاته أن كلام مسئول منظمة الإعلام الاسلامى صحيح ، ولا مبالغة فيه . إذ عندما ألمحت إلى أننى أريد أن ألتقى ببعض رجال الثورة فى طهران ، كان رد السيد تقى أنهما لم يعودا على صلة وثيقة بمن أشرت إليهم فى العاصمة ، ولكن صلتهم أوثق بالحوزة العلمية فى « قم » .

وفى حوار مع حجة الإسلام هاشمى رفسنجانى رئيس مجلس الشورى حول موضوع العنف وتصدير الثورة ، أجريته معه بمكتبه فى شهر يناير ١٩٨٤ ، كانت خلاصة رأيه ما يلى :

- أنه يجب التفرقة بين فرض الثورة على الناس وهو أمر مرفوض فضلاً عن أنه متعذر ، وبين إيصال صوتها إليهم ، وهو ما لاتجد الثورة حرجا فى الجهر به والسعى إليه ما وجدت إلى ذلك سبيلا .
- إن الدعوة فى الاسلام تقوم على الحكمة والموعظة الحسنة ، وهو ما نحاول أن نتمثله مدركين أننا من خلال هذا الأسلوب نستطيع ليس فقط أن نوصل صوتنا إلى الناس فى هدوء ، ولكن أيضا أن نوفر إمكانية الاستماع إليه وقبوله من جانبهم .



اللقاء فى مكتب حجة الاسلام هاشمى رفسنجانى . رئيس مجلس الشورى .

■ إن الثورة منذ بدايتها أحيطت بمخططات رهيبة لحصارها وتشويهها ، من جانب أعداء الثورة وأعداء الاسلام معا وكان الاعلام الطاغى والمسيطر هو أحد أسلحة تلك المخططات . وقد حاول الأعداء دائما ايهام من حولنا بأننا نسعى إلى إثارة القلاقل فى بلادهم ، وقلب الأوضاع بها ، من خلال مقولة تصدير الثورة .

■ **إن الأغلبية الساحقة من الشعوب الاسلامية تعانى من مظالم حكامها ، الأمر الذى يدفع البعض من أبنائها إلى معارضة الطواغيت فى بلادهم بصورة أو أخرى ، وربما قوى الأمل لدى أولئك المستضعفين بعد النجاح الذى حققته الثورة الإيرانية . ولأن الأجهزة الطاغوتية ترفض الاعتراف بأن المظالم الواقعة على الناس هى سبب تذمرهم أو معارضتهم ، فإنها تلقى باللائمة على الثورة الايرانية . وتنضم إلى القائلين بأننا نحاول تصدير الثورة إلى تلك البلدان .**

■ إن عمليات التخريب الداخلية أو خطف الطائرات تعد من قبيل الارهاب الذى لا تتردد الثورة الاسلامية فى معارضته وإدانته . وما جرى فى بعض دول الخليج (البحرين والكويت بالأخص) من عمليات إرهاب لم نكن طرفا فيه بأى صورة . وقد أبلغنا ذلك إلى الحكومات المعنية فى حينه . وأثبتت التحقيقات لاحقاً أن غيرنا هو الذى كان وراء تلك العمليات ، إننا لا ندين تفجير مقر مشاة البحرية الأمريكية فى بيروت ، لكننا نعرب عن دهشتنا وإنكارنا لحماقة زرع القنابل فى بعض مقاهى الكويت .

وعندما لقيت بعد ذلك الدكتور على شمس الدين أردكانى ، مساعد وزير الخارجية ، الذى كان سابقا أستاذاً بمعهد التكنولوجيا بالكويت ثم سفير الثورة لديها ، قال لى : لقد تعبنا من إبلاغ حكومات الخليج بأن الذين يتحدثون عن تصدير الثورة فى إيران لا يعبرون عن وجهة نظر الثورة بالضرورة ، ولكنهم يمثلون تياراً داخل خط الثورة . وهؤلاء لا يدلون ببيانات سياسية ، ولكنهم يلقون خطباً حماسية فى المناسبات المختلفة ، فتنقل الوكالات كلامهم على الفور إلى أنحاء العالم ، وتركز عليه بشدة ، لتخيف الآخرين من الثورة الاسلامية ، وفى مقدمتهم أهل الخليج . وكثيرون لا يريدون أن يفهموا أن الثورة ليست خطاً واحداً ولكنها خطوط متباينة ، متوازية ومتعارضة أحيانا ، ليس لنا حزب له سياسة يعبر عنها كل زعمائه فكل فقيه هو حزب مستقل ، يعبر عن قناعاته وثوريته بطريقته وأسلوبه .

أضاف الدكتور أردكانى ، إن أحداً لا ينكر بأن هناك من يقول بتصدير الثورة ، لكن تلك المقولات ينبغى أن تحسب على أصحابها أولاً ، وأن تفهم - ثانيا - باعتبارها أحد الآراء وليس الرأى الأوحد للثورة . وينبغى ألا نستكثر على جماعتنا فى نشوة الانتصار الكبير أن يتمنوا للعالم الاسلامى ثورة شاملة تعْلى كلمة الله ، وتقتدى بالثورة الايرانية فى تحدى الطواغيت وتحطيمها . وقد حاسبنا الاعلام العالمى على أحلامنا ، لغرض ليس خافياً ، وتعمد ألّا يفرق بين تلك الأحلام وبين الحقائق .

ثم قال مساعد وزير الخارجية : نعم نحن نتمنى ذلك ، لكن الذى أستطيع أن أقطع به هو أننا لا نفعل شيئا خارج إيران لبلوغ ذلك الهدف . بل إن شواغلنا

الملحة ـ وعلى رأسها الحرب والبناء الداخلى ـ تمنعنا من فعل شىء ـ حتى وإن أردنا ذلك .

وقال إنه فضلاً عن هذا وذاك ، فإن الجدل بين التيارات المختلفة فى هذا الصدد حسمه الامام فى مستهل عام ١٩٨٤ ، عندما طلب إلى وزير الخارجية أن يعمل من خلال وزارته وسفاراتها ، على تحسين العلاقات مع جميع الدول باستثناء الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل وجنوب أفريقيا . وهو التوجيه الذى يعد نقطة انطلاق جديدة فى العلاقات الخارجية الايرانية (تناقلت الأوساط السياسية فى طهران تعليق وزير الخارجية على كلام الامام الذى قال فيه لمسئولى وزارته : لقد انتصرنا أخيراً والحمد لله) .

سألته عن الجبهة الاسلامية لتحرير البحرين ، وجبهة تحرير الجزيرة التى قيل أن لها مقراً فى طهران ، فقال إن الجميع أبلغوا فى أوائل الثمانينات بأن الثورة لا ترغب فى أن تكون طهران مركزاً لأى نشاط موجه لدولة أخرى فى الخارج ، إلا فى حدود الجهد الاعلامى الذى يصب فى اتجاه المطالبة برفع المظالم عن المسلمين عامة والشيعة خاصة ، باعتبارهم أقلية لها تاريخ فى الاضطهاد . وفى كل الحالات فإن كلام الامام وتوجيهه ينطبق على نشاطات تلك المكاتب بطبيعة الحال .

ممارسات « العوام » فى لجان الثورة

دعاة التشدد مع خصوم الثورة يستندون إلى ذلك النص الشرعى الذى يعاقب المفسدين فى الأرض بالقتل (الآية ٣٣ من سورة المائدة) . وتفسير الافساد فى الأرض تتعدد فيه الاجتهادات ، ولكن أرجحها يشير إلى أن المقصود به ترويع الآمنين واغتصاب الأموال والأعراض بالقوة . وهو ما يسمى فى الفقه الاسلامى « بالحرابة » .

وعندما استخدم العنف وسلاح التصفية الدموية فى الصراع السياسى الداخلى ، فإن حالة « الحرابة » باتت أقرب إلى التحقيق ـ فى رأى بعض فقهاء الثورة ـ ورجحت كفة دعاة التشدد ، الأمر الذى أدى إلى موجة الاعدامات التى

أصدرتها محاكم الثورة ضد من اعتبرتهم مفسدين فى الأرض . وانسحب ذلك الموقف المتشدد على معاملة الخصوم داخل السجون ، وهم من فرق اليسار الـ ٢٤ ، أو من اليمينيين ، وهم خليط من البهائيين واليهود والماسونيين والقاديانيين ، ممن كانت لهم نشاطات ضد الثورة .

وقد سمعت من الشيخ جعفر محمودى ، المسئول السياسى عن المسجونين ومقره فى سجن قزلحصار (أو سجن القلعة)[٨] أن مجموعهم فى مختلف السجون الايرانية يصل إلى عشرة آلاف شخص ، وأنه إضافة إلى تنظيمات اليسار ، فإن هناك ٣٥ تنظيما يمينيا آخر وضعت الثورة يدها على نشاطاتها . وأن هؤلاء ثبت اشتراكهم فى ٨ محاولات للانقلاب حتى سنة ١٩٨٣ . وكان أشهرها المحاولة التى أحبطت فى قاعدة « نوجه » الجوية ، واشترك فيها بعض الطيارين . وثبت أن البهائيين واليهود من عناصرها الأساسية ، وأنها ممولة من قبل أحد اليهود الايرانيين الذين هربوا إلى إسرائيل . وهو ابن المليونير الايرانى حبيب الله القانيان ، الذى أعدم فى بداية الثورة لعلاقته بالشاه وبإسرائيل ، وكان قد عرض ٥٠٠ مليون دولار ليفتدى بها حياته ولكن عرضه رفض ، ونفذ فيه حكم الاعدام .

أبديت تحفظا على ما تردد حول عمليات التعذيب داخل السجون الإيرانية ، فقال الشيخ محمودى ـ وهو من دعاة التشدد فى معاملة الخصوم ـ إن الأمر بحاجة إلى قدر من المصارحة ، وقدر آخر من التفهم .

فى إطار المصارحة لابد من الاعتراف بأنه ما من ثورة تولد إلاّ وتحاط فى بدايتها بظروف غير طبيعية . فالثورة غضبة وانفجار ، لا يستطيع أن يضبط كل شىء فيهما « حسب الأصول » . وفى إيران فإن الوضع أكثر خصوصية . من حيث أن الشارع هو الذى انفجر وتحول إلى بركان يلقى بحممه فى كل إتجاه ، الأمر الذى كان لابد له من ضحايا . ولأن مخزون الغضب كان هائلا ، فان الانفجار كان هائلا بنفس القدر . والحِمم التى قَذَف بها البركان كانت بغير عد أو حصر . عندما قامت الثورة كانت أجهزة الساواك قد قتلت ما مجموعه ٦٠ ألف مواطن ايرانى وكان « الثأر » هو الكلمة الكبرى التى ظلت معلقة فى سماء إيران .

---

(٨) المقابلة تمت فى شهر يونيو ١٩٨٥

الجماهير كانت معبأة وجاهزة للفتك بكل الذين ساهموا فى ترويعها وإذلالها طوال الحكم الشاهنشاهى . وقد فتكت ببعض هؤلاء بالفعل . ولولا المهمة التى أنجزتها محاكم الثورة على وجه السرعة فى العام الأول ، لحدث ما هو أفدح وأفظع . كانت الجماهير الغاضبة هى التى ستنتقم وتباشر المهمة بنفسها ، خصوصا فى ظل حالة شبه الانفلات العام التى عاشتها طهران فى الأشهر الأولى من الثورة .

قال الشيخ محمودى أيضا أن الناس كانوا يتابعون بدقة أنباء محاكمات رموز النظام السابق وتملأ ألوفهم قاعات المحاكمات . وحين كان يدان أحدهم ، ويصدر ضده حكم بالإعدام مثلاً ، فان مئات الألوف كانوا يصعدون فوق أسطح المنازل ساعة الاعدام ويرددون فى أصوات كانت تهتز لها المدينة : الله أكبر !

هذا عن أركان وأعوان النظام السابق ، أما الذين خاصموا الثورة الاسلامية بعد نجاحها ، فانهم وضعوا الثورة أمام خيار الحياة والموت . وكانت خلاياهم مبثوثة فى كل مكان ، باعتبار أن التنظيم الأم لليسار حزب توده الشيوعى ـ كان نشيطا فى إيران منذ نصف قرن ، فضلاً عن أن الماسونيين كانت لهم ٩ محافل كبيرة ، وكان تنظيمهم يعد أكمل حركة ماسونية فى العالم ، وكذلك البهائيون الذين كانوا يسيطرون بالكامل على مواقع عديدة ، بينها كل قنوات الاتصال بين وحدات الجيش وأسلحته ، ناهيك عن المخابرات الأمريكية التى كانت تعتبر طهران واحدة من أهم مراكز نشاطاتها فى العالم ، والمخابرات الإسرائيلية التى كان يهود إيران ولهم دورهم فى اقتصاد إيران ، هم أدواتها وحماتها . هؤلاء جميعا وقفوا فى صف واحد هدفه هو الإجهاز على الثورة الإسلامية .

سألنى الشيخ محمودى : فى مواجهة معركة تلك طبيعتها وأهدافها ، وأمام خصوم بهذا الحجم ، وفى ظل مرحلة الميلاد من عمر الثورة بكل دقتها وحرجها ماذا كان بمقدورنا أن نفعل ؟ . . وإذا أضفنا إلى أنه لم يكن لدى الثورة جهاز أمن متخصص ، بعد انهيار أجهزة الأمن التى أسسها النظام السابق ، فإنه كان من الطبيعى أن يجرى ما جرى ، وافقنا عليه أم لم نوافق . لقد كان الميدان جديدا علينا ، وكانت وسائلنا محدودة ، فلجأنا إلى كل ما خطر لنا من أساليب لنحمى

الثورة ونؤمنها ، فحدثت أخطاء وتجاوزات ، لكنها كانت من نتائج الضرورات التى أكرهنا عليها ، بقلة الحيلة أو قلة الخبرة .

ثم أضاف إنه إذا كانت ظروف الميلاد تبرر قدراً من التجاوز فى معاملة الخصوم ، لانتزاع اعترافات مطلوبة على وجه السرعة لمعرفة أماكن الأسلحة والمتفجرات أو مخابىء أفراد يعدون لنا كمائن الموت ، إلّا أن أكثرنا لا يجد مبرراً لاستمرار تلك الأساليب بعد اجتياز المرحلة الحرجة فى عمر الثورة . ولذا فقد كنا ضد عمليات التعذيب التى استمر يباشرها « أسد الله لاجوردى » فى سجن « ايفين » ، بطهران وقد تصدى آية الله منتظرى بنفسه لتلك العملية ، حينما أدان ممارسات التعذيب فى خطاب علنى له ، وأوفد مبعوثا عنه لتحرى الحقيقة فيما سمعه ، وذهب المبعوث إلى السجن ـ اسمه الشيخ ناصرى نجف ابادى وهو من بلدة آية الله منتظرى ـ ولكن لاجوردى منعه من الدخول . ثم أجبر على فتح السجن له . وبعد أن أكد الشيخ ناصرى صحة ما قيل عن التعذيب ، شكل مجلس الشورى لجنة لتقصى الحقائق ، قامت بمهمتها وأصدرت توصياتها لمعالجة هذا الوضع ، وكان فى مقدمتها إبعاد لاجوردى عن إدارة السجن .

أخيرا لفت الشيخ محمودى نظرى إلى أمرين أسهما ـ بالاضافة إلى ما سبق ـ فى الإساءة إلى المعتقلين أو المسجونين السياسيين هما :

- **أن اليسار الإيرانى ـ والشيوعيون فى المقدمة ـ له رصيد جارح فى الأعماق الإسلامية** . فقد كان هؤلاء قبل الثورة فى موقف العداء المستمر للإسلام والاسلاميين . كانوا يوجهون إليهم الاهانات دائما ، ولا يترددون فى ذم الإسلام والنبى ﷺ والقرآن الكريم . بعضهم لم يتردد فى إحراق المصاحف ، وبعضهم لجأ إلى نسف المساجد وقتل بعض الأئمة . هذه الممارسات ظلّت حية فى وعى الاسلاميين ، وتصور بعضهم بعد نجاح الثورة أن الفرصة باتت مواتية للرد وتصفية الحساب القديم .
- **الأمر الثانى والأهم ، أن نسبة غير قليلة من الذين باشروا حراسة السجون والاشراف على المعتقلين والمسجونين كانوا من الشباب القادم من الريف الايرانى ، الذين وفدوا على طهران بعد الثورة البيضاء باحثين عن فرص**

العمل . وفى غيبة كوادر الثورة المعدة سلفا ، فإن هؤلاء كانوا أول من التحق بلجان الثورة أولاً ، ثم بحرس الثورة فيما بعد . هؤلاء لم يكونوا فقط محدودى الوعى والمعرفة ، ولكن بعضهم كانوا من المسلمين المتشددين المعبئين ضد اليسار عامة والشيوعيين خاصة ، وقد كانوا لا يتصورونهم إلاّ كُفاراً سعوا فى الماضى والحاضر إلى الكيد للإسلام والمسلمين ، ثم وقعوا فى أيديهم . وبالتالى فإن الإغلاظ لهم فى القول والفعل أمر طبيعى ، فضلا عن أن قتلهم حلال . البعض اختار هذا الموقف عن اقتناع ، وآخرون لجأوا إلى تلك الممارسات من باب المزايدة والإعلان عن الولاء والغيرة على الثورة . لكن الجميع كانوا واثقين من أن هؤلاء المسجونين لو نجحوا فى مسعاهم وتولوا السلطة ، فانهم كانوا سيعلقون الاسلاميين جميعا على المشانق !

وبعد أن أفاض المسئول السياسى عن السجون فى الحديث عن مشكلة من أسماهم « بالعوام » الذين انخرطوا فى لجان الثورة وحرسها ، قال لى أنه ذكر كل تلك التفاصيل لا لكى يقنعنى بصحة التصرفات والممارسات التى حدثت ، ولكن لكى أتفهم الملابسات التى أحاطت بها .

الإمام أوقف اغتيال الشهبانو

ذلك عن مواجهة الخصوم فى الداخل ، أما خصوم الثورة من الإيرانيين الذين عملوا ضدها فى الخارج ، فليس بخاف على أحد أنه كان هناك من يدعو إلى ملاحقة أولئك الخصوم وعقابهم باعتبارهم مفسدين فى الأرض ، أى أنهم بمسعاهم يعملون على ترويع الشعب المسلم فى داخل البلاد . فى صدد هذه النقطة سمعت القصتين التاليتين من حجة الإسلام السيد هادى خسرو شاهى ، من تلاميذ الإمام المقربين .

بحكم كونه سفيراً لإيران لدى الفاتيكان ، كانت للسيد خسرو شاهى اتصالات واسعة بالشباب المسلم فى أوروبا ، ويبدو أنه كان يقوم بدور واسطة الاتصال بين الثورة الاسلامية وبين العديد من المنظمات الاسلامية . وبينما كان

يحضر ملتقى الفكر الإسلامى بالجزائر فى صيف عام ١٩٨٠ ، اتصل به أحد الشبان المصريين وأبلغه أنه ينتمى إلى تنظيم إسلامى مقره القاهرة . وأن أعضاء التنظيم درسوا إمكانية تنفيذ الإعدام فى زوجة الشاه ، التى كانت مقيمة بأحد قصور الضيافة آنذاك ، (قصر القبة) . وتبين لهم أن تنفيذ العملية ممكن على باب القصر ، ولكن ذلك قد يؤدى إلى قتل الابن الأصغر للشاه . وبعد أن شرح له تفاصيل المخطط الموضوع ، طلب منه الرجوع إلى الإمام الخمينى فى جواز تنفيذ العملية فى ظل احتمال قتل الطفل الأصغر .

طار السيد خسرو شاهى إلى طهران ، والتقى بالامام بحضور ابنه أحمد ، وآية الله موسى الزنجانى ، وهو من زملاء الإمام موسى الصدر . روى له القصة ، وسأله عن جواز اتمام مخطط الاغتيال ، فكان رد الامام الخمينى ما نصه :

ـ أنتم تعتقدون أنهم مفسدون فى الأرض ، فما هو ذنب الأطفال ؟ . .

سكت السيد خسرو شاهى ، فواصل الإمام كلامه قائلا : عليكم أن تمنعوهم من القيام بالمحاولة وكانت العبارة التى استخدمها بالفارسية هى : منع اشان كونيد .

وانتهى الأمر عند هذا الحد ، فعاد خسرو شاهى إلى روما ، وأجرى اتصالا مع الشاب المصرى الذى كان بانتظاره هناك ، أبلغه فيه بعدم موافقة الإمام على الفكرة .

لكن القصة عرفت فى الدوائر المحيطة بالإمام ، فاحتج بعض أنصار التشدد مع الخصوم ، واتهم خسرو شاهى بالتراخى والتهاون مع أعداء الثورة . ولما نقلت إليه ملاحظات المعترضين وإتهاماتهم ، توجه إلى الإمام مرة ثانية فى أول زيارة تالية قام بها إلى طهران قال له : انكم منعتم قتل أطفال الشاه . وقبل أن يكمل حديثه قال الامام : أنا لم أوافق على قتل الكبار . وعندما تكلمت عن كونهم مفسدين فى الأرض ، أشرت إلى اعتقادكم فى ذلك وليس اعتقادى .

لم يجد خسرو شاهى ما يقوله . وإنما سأل الامام ، هل يستطيع أن ينقل عنه هذا الكلام إلى الآخرين فى طهران ، فكان رده : تستطيع أن تنقله ، وأن تكتبه إذا شئت !

القصة الثانية تتعلق بالرئيس السابق أبو الحسن بنى صدر ، ونشاطاته فى باريس بعد هروبه إليها . ويبدو أن إحدى المجموعات العاملة فى أوروبا بحثت أمر اغتياله ، وكلف خسرو شاهى باستفتاء الإمام فى الأمر . فتوجه إليه بالسؤال عما إذا كان بنى صدر يعد مفسداً فى الأرض ويجوز إعدامه . فاستفسر منه الامام عن السبب فى اعتباره من المفسدين . قال خسرو شاهى لأنه يكتب فى جريدته « انقلاب اسلامى در هجرة » ، التى يصدرها فى باريس ، مندداً بقيادة الثورة الاسلامية ، حتى كتب سلسلة مقالات تحت عنوان : ولاية الفقيه ولاية للسفيه .

عندئذ قال الإمام : لقد طالعت المقالات ، ووجدته يهاجمنى فيها ، ولكن هل يكفى ذلك لقتله ؟ . . واستطرد متسائلا : هل طالعتم فيما كتبه ارتدادا عن الدين أو انكارا لما هو معلوم منه بالضرورة ، مثلما فعل الخبيث رجوى (يقصد مسعود رجوى رئيس جماعة مجاهدى خلق) .

سكت خسرو شاهى ، فأعاد الإمام السؤال عليه ، فرد قائلا : هو لم يرتد ولم ينكر .

أضاف الامام ، طالما ظلت معارضة بنى صدر فى تلك الحدود ، فلا يعد مفسدا فى الأرض ، ولا يجوز قتله . ثم استطرد ، إن بعض علمائنا يعارضون ولاية الفقيه أيضا ، ولكن ذلك لا يجرح اعتقادهم ولا يطعن فى دينهم .

أخيرا حسمت مشكلة لجان الثورة

الخلاف بين حراس الثورة ، ولجان الثورة له قصة أخرى :

ذلك أن طبيعة تكوين ومهمة كل من الجهازين المسلحين ، كانت لابد وأن تؤدى إلى الخلاف والصدام . فقد مر بنا فى بدايات هذا الفصل أن حراس الثورة هم فى الأساس حاصل جمع أربع مجموعات إسلامية مسلحة ، كان لها حضورها فى ساحة النضال بشكل أو آخر قبل انتصار الثورة ، أما اللجان فقد ولدت بعد الثورة فى ظل الحاجة التى فرضتها غيبة أى سلطة نظامية ، بعدما انهار كل شىء فجأة ـ وكان قوامها يعتمد أساسا على أولئك « العوام » الذين وفدوا إلى العاصمة من الريف الايرانى باحثين عن عمل بعد الثورة البيضاء ، وارتكبوا العديد من الأخطاء والحماقات .

إلى جانب ذلك ، فإن حرس الثورة تولوا مهمة تأمينها ، وهى عملية تمثل خليطا من دور الجيش والشرطة . أما لجان الثورة فقد تولت الشئون النظامية فى المدن ، وبالأخص الجانب المتعلق بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أو « الحسبة » فى التعبير الفقهى . ولأن الطرفين باشرا مهماتهما فى المدن ، وكان كل منهما مسلحا ، فضلا عن أن كلًّا منهما اعتبر نفسه الابن الشرعى للثورة ، لذا فقد كان طبيعيا أن تنشأ « نقاط تماس » بينهما تثير مشكلات وحساسيات دائمة .

ورغم أن اللجان ـ الكوميتات ـ لم تتدخل فى الأمور السياسية من البداية ، وركزت على الجوانب النظامية والآداب العامة ، إلا أن صراع النفوذ والسلطان سرعان ما أطل برأسه ، حتى حدثت صدامات مسلحة بين الجهازين فى أصفهان وشيراز ـ على سبيل المثال ـ خلال السنتين الأوليين من الثورة . وسقط ثلاثة من القتلى فى معارك أصفهان ، فصدر قرار بحل لجان الثورة فى المدينتين منذ ذلك الوقت المبكر .

ومنذ نص الدستور الإيرانى على أن تبقى قوات حرس الثورة على حالها لتؤدى دورها فى الحفاظ على الثورة ومكاسبها (المادة ١٥٠) ، فإن قيادة « اللجان » استشعرت فيما يبدو أن مصيرها إلى زوال ، فحاولت أن تحتمى بالحزب الجمهورى الاسلامى الذى انخرطت فيه منذ عام ١٩٨٢ لتصبح أحد أجهزته وأدواته فى الشارع ، وبدا واضحا أن قيادة اللجان تسعى لأن تدخل طورا جديدا ، لم يكتب له النجاح لأسباب ثلاثة :

- الأول هو أن الحزب الجمهورى الاسلامى قد انحسرت شعبيته ، وفقد جانبا كبيرا من فاعليته وحضوره فى الشارع الايرانى ، بعد انتصار الاسلاميين على خصومهم فى معركة الصراع السياسى التى واكبت نجاح الثورة . وكان هذا « التحدى » من أسباب تماسك الحزب وقوته ، يضاف إلى ذلك أن مصرع آية الله بهشتى ، الذى كان قوته الدافعة والمحرّكة ، أحدث فراغاً فى قيادته لم يشغل بعد ، ناهيك عن كونه حزبا نشأ بعد تولى السلطة ، فلم يستطع أن يمد جذوره فى العمق الايرانى بسهولة ، وانما شاب تكوينه « خلل » من

البداية ، حيث شكل بريق السلطة وجاذبيتها أحد أسباب الالتحاق به ، من جانب البعض وليس الكل بطبيعة الحال(٩) .

- **السبب الثانى** فى فشل الدور الذى حاولت لجان الثورة أن تؤديه من خلال الحزب الجمهورى هو أن بنية اللجان ذاتها كانت من الضعف بحيث لا تشكل إضافة ذات قيمة مؤثرة إلى أى قوة سياسية تتحالف معها .
- **والسبب الثالث** ، أن الرصيد الجماهيرى لتلك اللجان كان إما محدوداً أو سيئاً ، بسبب ممارساتها التى ذاع الردىء منها حتى طغى على أى دور ايجابى قامت به .

لهذه الأسباب فإن لجان الثورة كانت عبئاً على الحزب الجمهورى ، وليست عونا له ، فلا هو قوى بها ، ولا هى قويت به ! .

أخيراً حسم الموقف المعلق فى سنة ١٩٨٣ ، عندما قرر مجلس الوزراء إلحاق لجان الثورة بوزارة الداخلية ، واعتبارها جزءا منها ، خاضعا لاشرافها الكامل . أى أنها فقدت وجودها ككيان مستقل ، ومنافس لسلطان حرس الثورة . وتحددت وظيفتها فى اطار الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

البازار : مملكة لها تاريخ

إذا اعتبرنا أن كلًا من حجة الاسلام هاشمى رفسنجانى رئيس مجلس الشورى وحجة الإسلام السيد على خامنئى رئيس الجمهورية يشكلان مركزى قوة فى طهران وفى الميدان السياسى بوجه عام ، فإن مركز القوة الثالث ، والفاعل هو : البازار .

والبازار فى اللغة الفارسية هو السوق (السوق الصغير بازارجه ـ والتاجر بازاركان) ، وقد كان له دائما دوره الفاعل فى الحياة السياسية لإيران ، ومؤسسته المستقلة ، التى لم تفلح سلطة فى احتوائها أوتذويبها .

ولكى نعرف حجم البازارات فى إيران فينبغى أن ننتبه إلى الحقائق التالية : حتى منتصف السبعينات كانت مؤسسة البازار تضم ٢٥٠ ألف صاحب محل ،

(٩) صدر قرار بتجميد نشاط الحزب فى شهر يونيو ١٩٨٧ .

وتسيطر على نحو ثلثي تجارة التجزئة ، وكانت سوق طهران وحدها تغطى مساحة ثلاثة أميال مربعة ، وتضم ١٠ آلاف مخزن وورشة . ومنذ كانت هناك تجارة فى إيران كان للتجار تنظيماتهم ، التى تمثلت فى اتحادات الطوائف التجارية والحرفية . وغير هذا وذاك ، فان التجار الكبار ظلوا يمارسون نفوذا قويا ، ليس فقط على مساعديهم فى المحال ومستخدميهم فى الورش ، إنما أيضا على الآلاف من الباعة المتجولين ، وتجار التجزئة وصغار السماسرة . كما أن نفوذ تجار الأسواق وصل إلى الريف ، حيث تنتشر المزارع التجارية ، وحيث توجد المصانع الصغيرة التى يبلغ عددها ٤٣٠ ألفا ويمولها رجال الأعمال من المدن . وكانت تلك المصانع ، التى يستخدم كل منها ١٠ عمال معظمهم من النساء ، تتخصص فى نسج السجاد وصنع الأحذية ، وصنع الأثاث(١٠) .

لكن الأهم من ذلك كله هو تلك العلاقة الوثيقة التى ربطت بين التجار وبين المؤسسة الدينية بصفة دائمة . إذ ظل هذا القطاع العريض من التجار الكبار والصغار والحرفيين ، هو الممول الأساسى للمؤسسة الدينية . ولأن الزكاة والخُمس (نصيب آل البيت) عند الشيعة الاثنى عشرية ، تذهب إلى الفقهاء لينفقوها فى مصارفها الشرعية ، ولأن التجار عادة هم الأغنى والأقدر ، فقد كانوا المصدر الاول لتمويل تلك المؤسسة . وفى بلد شديد التدين مثل ايران ، فقد كان من الطبيعى أن يسعى التجار دائماً إلى كسب المؤسسة الدينية ، كما أن أركان تلك المؤسسة كانوا حريصين على استمرار كسب التجار . ومن الثابت تاريخيا أن الأسواق كانت تغلق أبوابها عندما كان يغضب الفقهاء ، وإن التجار كانوا يعتصمون بالمساجد إذا أرادوا إعلان احتجاجهم فى مواجهة السلطة .

ولأن استقلال المؤسسة الدينية كان ولا يزال مرتكزا على استقلالها المالى ، وهو ما يكفله المقلدون والتجار فى مقدمتهم ، فقد توثقت العلاقة بين العلماء والبازار . إذ أدرك كل طرف أن له مصلحة أكيدة فى استمرار تلك العلاقة وترسيخها .

وكانت جمعيتهاى مؤتلفة ـ الجمعيات المؤتلفة أو المتحالفة ـ التى أنشئت فى

---

(١٠) يرفند ابرهيميان ـ أسباب ثورة ١٩٧٨ بحث فى كتاب إيران (١٩٠٠ ـ ١٩٨٠) ص ١٠٨

عهد الشاه ، ترجمة أمينة لذلك الحرص ، إذ قامت على أكتاف العلماء والتجار ، وكان هدفها خيرياً ووطنياً فى البداية ، حيث قرر الطرفان أن يعملا من خلالها على تقديم العون إلى المستضعفين الذين يتعرضون لأى كارثة طبيعية أو غير طبيعية ، حرائق ، سيول ، زلازل . . أو غير ذلك من الأسباب . ثم مدت الجمعية نشاطها إلى رعاية ضحايا المصادمات التى حدثت مرارا بين الجماهير الغاضبة ، وبين شرطة الشاه . والتى كان يسقط فيها عشرات ومئات القتلى ، فضلا عن الجرحى .

وفى المعركة ضد الشاه ، وقف البازار مؤيداً وداعماً للمؤسسة الدينية ، سواء بسبب العلاقة التقليدية الوثيقة بين الطرفين أو لأن الشاه خسر البازار عندما أعلن فى عام ١٩٧٥ عن تشكيل حزبه « راستاخيز » ، الذى استهدف تشديد القبضة على المثقفين ، ومد سيطرة الدولة ـ لأول مرة فى التاريخ الايرانى ـ إلى الأسواق وإلى المؤسسة الدينية : ذلك أنه إزاء فشل النظام الملكى فى مواجهة التضخم الذى تضاعف بين سنتى ٧٥ و ٧٧ ، فقد إتجه إلى صغار التجار ، معلنا الحرب عليهم ، حيث اتهمهم بالجشع وحملهم مسئولية الوضع الاقتصادى المتفجر ، فأقام « محاكم نقابية » لمعاقبة الجشعين ، بعدما جند الحزب عشرة آلاف مندوب للتفتيش على التجار . حتى أودع السجن نحو ٨٠٠٠ من أصحاب الأعمال ، ونفى ٢٣ الفا من مواطنهم فى المدن ، وفرض غرامات مالية على ٢٠٠ ألف آخرين حتى شكا أحد أصحاب المحال إلى مراسل جريدة لوموند الفرنسية قائلا : إن الثورة البيضاء تحولت إلى ثورة حمراء[١١] .

الخلاصة : إن البازار ألقى بثقله فى كفة المؤسسة الدينية مما كان أحد الأسباب التى أدت إلى تقوية معسكر الثورة ، وزلزلة النظام الملكى ، ثم ، إلى نجاح الثورة . بعد الانتصار خرج البازار قوياً ، وتوّقع من المؤسسة الدينية ، التى تسلمت السلطة ، أن تقف إلى جواره ، غير أن قرارات مجلس قيادة الثورة التى صدرت فى العام الأول ، أصابت أهل البازار بما يشبه الصدمة ، إذ وضعت قيوداً عدة على حرية التجارة الخارجية ، وحرية تملك الأراضى وألمحت إلى تدخل محسوب فى التجارة الداخلية ، كما مرّ بنا من قبل . كانت عين قادة الثورة على

---

(١١) المرجع السابق ص ١١١

« المستضعفين » ، الذين من أجلهم جرى كل ما جرى ، ولم يلقوا بالاً ذا شأن إلى البازار وما يمثله .

ورغم حرص أهل البازار على علاقتهم بالمؤسسة الدينية ، إلا أن حرصهم الأكيد كان منصباً على أموالهم ومصالحهم . فخاضوا المعركة دفاعاً عن مصالحهم منذ اليوم الأول . كثفوا ضغوطهم على الفقهاء الذين وقف بعضهم إلى جانب حرية التجارة ، سواء استجابة لتلك الضغوط ، أو اقتناعا بأن هذا هو الموقف الشرعي السليم . فانضموا إلى الحزب الجمهوري ، سواء من خلال جمعية « هاى مؤتلفة » ، أو من خلال أفراد أثرياء وأقوياء . واشتركوا فى الوزارة ، ودخل ممثلوهم فى مجلس الشورى ، وهكذا لم يتركوا باباً إلا وطرقوه وحاولوا الدخول منه ، لتعزيز مواقعهم ، والدفاع عن مصالحهم التى يهددها تنامى دور « الثوريين » ، ولو بصورة نسبية .

وازاء توازن القوى بين الاتجاهين الثورى والاصلاحى ، فإن حضور البازار لا يزال فاعلا ، ولأن لهم مصالح فى الاتجاهين ، فقد ظلوا محافظين على موقعهم المستقل . وإذا كانت مصالحهم الاقتصادية تلتقى مع موقف الاصلاحيين ، إلا أنهم يؤيدون الثوريين فى موقفهم السياسى الداعى إلى تضييق نطاق الممارسة الديمقراطية ، بسبب المخاوف المستمرة من عودة اليسار إلى ساحة العمل السياسى ، بكل ما يمثله من تهديد لمصالحهم . ولأن السوفييت على الحدود ، فى جيرة مشتركة بطول ١٨٠٠ كيلومتر ، فإن شبح اليسار يؤرقهم بصفة دائمة .

وقد قال لى أحد رجال الامام إن البازار فى الواقع ليس مع الحكومة ، كما أنه ليس مع مجلس الشورى ، لكنه مع مصالحه أولا وأخيراً ، وسيظل اقترابه من هذا المربع أو ذاك ، مرهونا بمدى تحقيق أى منها لتلك المصالح أو إتفاقه معها .

.. وتبقى لطهران أوجه أخرى ما زالت بحاجة إلى اكتشاف !

الفصل التاسع

الخيار الكربلائي

لست أخفى أننى منذ البداية ، قررت أن يظل شاغلى الأساسى هو : « طهران اللاحرب » . غير أنه لأول وهلة ، تبين لى أننى أخطأت التقدير والحساب . وأن المدينة التى قصدتها لا أثر لها على خارطة إيران الثمانينات ، وإنما هى وهم اصطنعته ، وزينته ، وركضت ساعيا إليه ، لأتجنب الخوض فى موضوع الحرب .

لقد حاولت جاهدا ألا أتطرق لمسألة الحرب ، لأسباب عديدة ، بينها أننى لا أقر الذى قامت به العراق فى الابتداء . كما أننى لا أقر الذى ذهبت إليه إيران فى الإنهاء أو الانتهاء . وكان ظنى أن أى هدف مرجو من الحرب هو أقل بكثير من الثمن الذى دفع ولا يزال يدفع فيها . وفضلا عن هذا وذاك ، فإن المعلن فى القضية بات مكررا ومحفوظا لدى الجميع . وغير المعلن لن يجد له سبيلا عبر المعالجات الصحفية أو أبحاث الدارسين ، وربما لا ينبغى أن يكون هذا هو سبيله .

كانت قناعتى أن الحديث فى موضوع الحرب ليس فيه جديد ، ولا جدوى !

بالمقابل ، فقد كنت أستشعر أن دخان الحرب حجب الثورة عن الأعين . وأن جمهور « النظارة » ، فى العالم الإسلامى على الأقل ، ظل حابسا أنفاسه يرقب ما يجرى فى إيران ، منذ إسقاط الشاه ، منتظرا ميلاد تجربة فريدة أثارت الانتباه وأيقظت الأمل . لكنه فوجىء بأن شريطا آخر ـ مختلفا تماما ـ عرض أو فرض عليه واستغرقه . فامتص حماسه وفرغه من مضمونه ، وصرفه عن حلمه وأمله الأول .

لقد كان الظن ـ ولا يزال ـ أن الثورة لم يكن من أهدافها أن تحرر المستضعفين من ظلم الشاه لتلقى بهم فى أتون الحرب . وأن هؤلاء المستضعفين أيدوا الثورة لكى يتبوؤا مكانهم فى الدنيا ، بعد طول مذلة وانسحاق ، وليس لكى ينتظموا فى قوافل إلى الآخرة ، حتى وإن رست بهم على أبواب الجنة !

وإذا كان للثورة أهداف أخرى ، فلماذا لا ننحى قضية الحرب جانبا ـ هكذا قدرت ـ ونحاول أن نستطلع الذى جرى على تلك الجبهة الأخرى ، بالأخص بعدما أكملت الثورة عامها الخامس ؟

بهذا المنطق المجرد ـ والبرىء ـ أقنعت نفسى بفكرة البحث عن طهران اللاحرب ، وبدأت أطرق الأبواب واستنطق البشر . لكننى اكتشفت على الفور أن الأمر لا يحتمل التجريد بأى حال ، وأن تلك البراءة التى تصورتها ليست سوى سذاجة وتبسيط لأمور غاية فى التعقيد والتشابك . وأدركت أن الشىء الوحيد الذى لا يمكن تجنبه أو تنحيته فى إيران هو الحرب .

فالقادم إلى طهران تتعقبه قضية الحرب أينما ذهب . فى الشارع والمكتب والمطعم وغرفة النوم !

التاريخ فوق أكتاف الجميع

الحرب تلاحقك كظل ، وتلح على عقلك ووجدانك كهم أو كابوس ، وتفرض نفسها عليك كأنها قدر مكتوب ، لا مهرب منه ولا فكاك !

تنزل من المطار فيستقبلك على لافتة ضخمة نداء الإمام الحسين أثناء موقعة كربلاء « هل من ناصر ينصرنى ؟ » . تشق طريقك فإذا صور الشهداء مصطفة على الجانبين ، كأنها حرس شرف التصق بالجدران للتحية والتذكير . تستوقفك صورة مرسومة على نصف بناية لشاب فى مقتبل العمر ، كتبت تحتها العبارة القرآنية : « بأى ذنب قتلت ؟ » ، وبعدها بقليل تواجهك لافتة بعرض الشارع تهتف « لبيك يا حسين » . يقودك « التاكسى » إلى فندق باسم « لالَه » . تكتشف بعد لحظات أن الكلمة تطلق على زهرة حمراء يرمزون بها للشهيد . وأن الفندق كان يحمل فى الماضى اسم « أنتركونتنتال » . فى بهو الفندق تطالعك صورة كبيرة وملونة ، لرجل يشع ضياء يغمر عشرات من البشر ، وتقرأ تحت الصورة : « شهيد مظلوم بهشتى » . تصعد إلى الغرفة فتسمع من المذياع البيان رقم ١٩١٢ الصادر عن القيادة العسكرية . تفتح التليفزيون فإذا أنت على الجبهة ، وسط الدبابات وخنادق الجند وقاذفات القنابل وصيحات الله أكبر . تسكت كل الأصوات ، وتتجه إلى

النافذة بحثا عن مخرج ، فإذا لافتة على شكل سهم أمام عينيك وسط الأشجار العالية ، كتب عليها : بهشت زهرا ، أوجنة الزهراء ، الاسم الذى يطلق على مقابر الشهداء !

تستريح قليلا . تهبط إلى قاعة الطعام ، فتلمح وجوه الوافدين الأجانب ، وتميز بين الأصوات والأشكال أعداداً ملحوظة من الألمان واليابانيين ، أكثرهم من رجال الأعمال وقلة من الصحفيين . لا تكاد تتعرف على واحد منهم حتى تنهمر عليك أخبار الجبهة . أمس سلمت ألمانيا الغربية قطعتين حربيتين بحريتين إلى إيران لأول مرة . فى الأسبوع الماضى جاءتهم طائرات فانتوم من كوريا الجنوبية بما قيمته ٦٠ مليون دولار . عقدوا صفقة مع الصين الشعبية لشراء طائرات هليكوبتر تم شراء تصميمها من فرنسا . . وهكذا .

سألنى أحدهم : سورى ؟ . . ولما عرف أننى مصرى ، أبدى دهشة ، وخصنى « بموجز » إخبارى خلاصته أن إيران أسرت عشرات المصريين فى جزيرة « مجنون » التى احتلتها من العراق . وأن عدد الأسرى المصريين لدى إيران يقدر بالمئات . وأن ثمة خلافا فى وجهات النظر بشأن التعامل معهم . البعض يرى أنهم « مرتزقة » بلا حقوق . وآخرون يقولون إنها ليست قضية قانونية ، ولكنها سياسية ، وينبغى أن يعاملوا كأسرى .

تصعد إلى الغرفة والطنين يلاحقك ، تنام على برنامج تليفزيونى يومى باللغة العربية عن الأسرى العراقيين « ضيوف جمهورية إيران الإسلامية » ، كما يردد المذيع أكثر من مرة .

تنسى تماما فكرة طهران اللاحرب . لا بل تكتمها فى نفسك وتخجل من البوح بها !

فى ذلك الصباح ، فتحت باب غرفتى أثر طرق خفيف . طالعنى وجه مشرفة الطابق التى اعتادت أن تجرى حصرا يوميا للنزلاء ، فيما يشبه « التمام » المبكر . لاحظت أنها أخفت نصف وجهها بخمار أسود ، بينما عيناها فى لون الدم . كنت قد علمت أن لها ثلاثة أولاد فى الجبهة ، أصغرهم أصيب إصابة بالغة وأرسل ليعالج فى الخارج . سألتها عن أخبار « حسين » الجريح ، فانفجرت باكية وقالت

بإنجليزية مطعمة بالفارسية إنه مات ، بعدما فشل علاجه فى « دار لندن » . ثم تماسكت فجأة ، ومسحت دموعها ، وانصرفت قائلة : خودا حافظ !

قال لى زميل لها أن ابنيها الآخرين انضما إلى معسكر « منتظرى الشهادة » فى الأهواز . وأن هذا المعسكر مخصص للذين ودعوا أسرهم ، وحرروا وصاياهم ، وذهبوا إلى الجبهة بنية اللاعودة .

منتظرو الشهادة ؟ . . لا تمر العبارة بسهولة . تحدث رنينا له أصداؤه المجلجلة فى أعماقك ! . تسأل وتستفهم . يقولون لك أن تلك معسكرات منتشرة على الجبهة . وأن كل واحد من المنضمين إليها يضع عصابة بلون الدم حول رأسه كتب عليها « مسافر كربلاء » ، أى أنهم أقرب ما يسمى بالفرق « الانتحارية » . يضيفون أن العصابة انتشرت بين جميع المقاتلين . كلهم بات مسافرا إلى كربلاء . تدقق فى الصور ، فتكتشف صحة ما قالوه . تساءلت : لماذا كربلاء ؟ ألا يكفى أن يكون المرء مسافرا إلى الجبهة ؟

أستعيد مشاهد الأيام الأولى للثورة . عندما قدر لى أن أرى طهران فى آخر شهر فبراير عام ١٩٧٩ ، والثورة فى أوج انتصارها ، ومعنويات البشر فى السماء . وقتئذ أثارت انتباهى لافتة تكررت فى أكثر من مكان ، تقول كلماتها « كل يوم عاشوراء ، وكل أرض كربلاء » . لم أستطع أن أخفى دهشتى من أولئك الذين يحملون التاريخ على أكتافهم أبدا ، ويستحضرون المأساة بينما هم فى ذروة الفرح . بذات المنطق استقبلونا ، منذ اللحظات الأولى التى هبطنا فيها إلى مطار طهران . نزلنا من الطائرة بصدور منشرحة والبهجة تعم الجميع . قادونا إلى حافلة كانت بالانتظار . وقف أحد رجال حرس الثورة فى المقدمة . قال كلمات بالفارسية ، انفجر بعدها الجميع باكين . تبخرت البهجة فى لحظة ، وتحولت الحافلة إلى سرادق للعزاء . سالت دموع « رقاق القلوب » ، كما يصفهم البعض ، وصدّقت من نعت الشيعة « بالبكائين » . أخذتنى المفاجأة . استفهمت من جارى الطبيب العائد من أمريكا ، فكفكف دموعه ، وقال بصوت بلله الأسى : لقد ذكرنا الرجل بكربلاء ، وما جرى للإمام الحسين !

فوجئت هذه المرة باللافتة ذاتها تنتظر الخارج من باب الفندق ، ما زالت تستنفر وتنادى : كل يوم عاشوراء ، وكل أرض كربلاء !

طفت بالمدينة فى جولة سريعة . أول ما تلاحظه أن أكثر الرجال والشباب يرتدون سترات العسكر . وأن ثمة طوابير عديدة تقف أمام محال بيع المواد التموينية التى تصرف بالبطاقات وبأسعار مخفضة . يقولون لك أن تلك المواد تشمل الآن : اللحم والدجاج والسكر وزيت الطعام والسجائر والجازولين . السلع ذاتها موجودة فى مختلف المتاجر ، ولكن بضعف ثمنها ، وأحيانا بأربعة أضعاف الثمن كالسجائر . تذكرك الطوابير بالواقفين أمام الجمعيات الاستهلاكية فى القاهرة . تعرف أن لكل وزارة تعاونية تبيع احتياجات موظفيها . تكتشف أن طوابير الشهداء الملصقة صورهم على الجدران أطول بكثير من طوابير الواقفين أمام مراكز البيع . تمتد صور الشهداء إلى كل شارع أو زقاق . وتستقبلك فى كل بناية حكومية ، بل وفى كل مكتب أو مرفق أو حتى متجر . ترفع عينيك فإذا أكبر ميدان للشهيد ، وإذا بأسماء الشهداء منقوشة على الشوارع والأزقة ، حتى تكاد تصبح خارطة إيران بمثابة « دليل » للشهداء ، وهو دليل تتسع دائرته لتشمل بعضا من الشهداء العرب ، المصريين خاصة الذين قتلهم الظلم . فهناك شارع باسم « أستاذ حسنُ بنا » وآخر باسم « سيد قطب » وثالث باسم « خالد الاسلامبولى » ورابع باسم « سليمان خاطر » . الوحيد من الأحياء المصريين الذين أطلق اسمه على شارع هو « شيخ عبد الحميد كشك المصرى »[1] .

تسأل عن السبب فيقال لك : ألم يقف الرجل إلى جانب شهدائنا فى الحرب ؟ تتذكر أن أول ما فعله الخمينى عندما وصل إلى طهران من باريس ، أن توجه من المطار مباشرة إلى مقابر الشهداء فى « بهشت زهرا » وتسمع أنه لا يزال يخصص يوم الاثنين من كل أسبوع للقاء أسر الشهداء . تتبين أن مؤسسة الشهيد تعد ضمن أهم مؤسسات الدولة ، حتى إذا وقعت على بائع صحف أو واجهة مكتبة فلابد أن تطالعك كتب مثل « رواد الشهادة » ومجلات مصبوغة بلون الدم على رأسها مجلة « الشهيد » و « شاهد » . تستشعر فى النهاية أنك تسير فى أحد « أحياء » الآخرة ، وأن أرواح الشهداء تهيم فى سماء المكان بلا إنقطاع ولا كلل . تكاد تحس بالغربة لمجرد أنك « حى » !

(١) هو خطيب الجمعة الذى اشتهر فى مصر بنقده اللاذع للرئيس السادات ، وصاحب الخطب التى دافع فيها عن الثورة الإسلامية فى إيران بعد اندلاع الحرب .

قلت لمرافقى : بماذا تفسر أن « الشهيد » عنوان الثورة الإيرانية ، بينما « المجاهد » كان عنوانا للثورة الجزائرية ؟

قال : نحن نقتفى أثر الإمام الحسين !

تروح وتجىء ، تخاطب الكبار والصغار ، العلماء والبسطاء ، تواجه بالثالوث يلوح لك فى كل مناقشة : الحسين ، عاشوراء ، كربلاء .

ليس يسيرا أن تصل إلى أعماق الإيرانى . فالباطنية[٢] خرجت من هنا . وهم أساتذة التقية[٣] والمبشرون بها . لكن الثالوث الذى يحكم الأعماق يظل علماً على كل رأس . منذ كتب الظلم على جبين الشيعى قرونا بعد قرون ، ومنذ أدرك أنه مقهور حاضره ، ومجهول مستقبله ، فإنه عاش فى ماضيه . تقوقع داخل المأساة وتمكنت المأساة منه . كل منهما تلبّس الآخر .

كلما اقتربت من أعماق الناس اضطررت للخوض فى أعماق التاريخ . تظل تتقهقر خطوة خطوة . تسقط الحاضر . تتجاوز آل بهلوى وعصر القاجار . تقفز فوق صراع الصفويين والعثمانيين . تنسى دعم البويهيين وتبنى الفاطميين . لا يستوقفك العصر العباسى بطوله وعرضه . تتريث عند العصر الأموى . تقلب الصفحات والسنوات ، حتى تجد نفسك قبالة العام الهجرى الواحد بعد الستين . سنة مقتل الحسين فى كربلاء . ومصارع أهل بيته وأصحابه .

فى يوم عاشوراء وفى صحراء كربلاء بدأ عصر التوحد النفسى عند الشيعة الأثنى عشرية . هذا الذى ننتزعه من الذاكرة بصعوبة ، يحفظه أطفال الشيعة بكل تفاصيله وشخوصه ، يستحضرونه فى كل مناسبة ، ويتمثلونه فى كل موقف .

---

(٢) هى إحدى فرق الاسماعيلية التى ظهرت فى القرن الحادى عشر الميلادى وعرفت تاريخيا باسم « الحشاشين » ، أسسها فى إيران الحسن بن الصباح ، وقد تميزت بالتنظيم البالغ الدقة ، والتخفى ، ثم اغتيال الأعداء .

(٣) التُقية سلوك معتمد فى المذهب الشيعى ، يجيز للمرء أن يظهر غير ما يبطن ، وكان ذلك أحد المخارج التى لجأ إليها الفقهاء لحماية أتباع المذهب من الاضطهاد والملاحقة إذا ما انكشفت حقيقتهم . وفى التفرقة بين التقية والباطنية ، يمكن القول بأن إظهار خلاف الباطن هو « تاكتيك » عند الشيعة الأثنى عشرية ، بينما هو « استراتيجية » عند الاسماعيلية الباطنية .

وكما أن عندنا « سلفيين » بين أهل السنة ، فإننا لا نبالغ إذا قلنا أن هؤلاء الجعفريين جميعا « كربلائيون » . ولا نجاوز الحقيقة إذا قلنا أن هناك ـ أيضا ـ التفسير « الكربلائى للتاريخ » .

أحد مثقفيهم كتب يقول : لقد انتهت مأساة كربلاء . . و . . باستطاعة المرء أن يتحدث عن أى شىء ثم يربطه بكربلاء . . كربلاء لها علاقة بكل شىء فى الحياة(٤) .

قائدهم الحسين وحربهم ضد يزيد

عند البعض فإن الحرب الدائرة الآن هى « كربلاء الثانية » فى تاريخ الشيعة . وهؤلاء هم الذين يتبنون ما يمكن أن نسميه « الخيار الكربلائى » !

والبعض الذى أعنيه هم فصائل التطرف والتشدد الذين يتخذون من « أصفهان » معقلا لهم . وقد كانت أصفهان هى مركز المرجعية الدينية للشيعة الإمامية فى الدولة الصفوية (١٥٠١ ـ ١٧٢٢ م) . وهى الدولة التى فرضت المذهب الشيعى على إيران ، بعد أن كان أهلها من أهل السنة (شافعية فى الأغلب) . وأهل أصفهان مشهورون بالحدة والاندفاع ، فى الحق والباطل . فقد كانوا متطرفين كسنة ، ثم أصبحوا من غلاة الشيعة . وأكبر نسبة من شهداء الحرب الراهنة من أصفهان . كما أن أكبر نسبة من الذين أعدموا من أعوان الشاه ، أو من الذين عادوا الثورة بعد ذلك ومارسوا ضدها عمليات العنف . . هؤلاء ، هم أيضا من أصفهان !

يرى هؤلاء أن ثمة حربا فرضت على الثورة الإسلامية ، تستهدف الإجهاز عليها أو تقويض أهم ما بنته . وأن هذا الهدف التقى عليه كثيرون فى الغرب والشرق . وقد تخلى الجميع عن الثورة ، باستثناء جيوب بسيطة . ويقولون إن هذا ما جرى فى كربلاء . تسابقت قوى ذلك الزمان على رمز الحق والعدل الذى تمثل فى الإمام الحسين وصحبه ، طاردوهم وحاصروهم ، ثم حدث التخلى عنهم من

---

(٤) السيد محمد تقى المدرسى ـ عاشوراء استمرار لحركة الأنبياء ص ١٠٤ و ١١٧ .

جانب أهل الكوفة . وأفتى شريح القاضى بوجوب قتال الحسين حتى « أزدلف إليه ثلاثون ألفا ، كلهم يتقربون إلى الله سبحانه وتعالى بسفك دمه » ، كما يروى الإمام جعفر الصادق . ولم يجد الحسين ومن معه سوى صحراء كربلاء يلجأون إليها . واستمرت الحرب حتى قتل كل أصحاب الحسين ، وقتل من قتل من أهله ، بما فيهم طفلاه الرضيعان . وسقط هو وفى جسمه مائة سهم ـ كما يقال ـ وقطع رأسه ، وسبى من بقى من آل البيت .. إلى آخر القصة المعروفة .

« والخيار الكربلائى » عند هؤلاء هو : أن يستمر القتال حتى آخر رجل وطفل . ولا بأس من أن تتواصل الحرب خمس أو عشر سنوات أخرى . فإن تحقق نصر كان بها ، وإن أفنى الجميع فقد ساروا على درب الحسين ، ولحقوا به .. وتحقّق لهم المراد من السفر إلى كربلاء .

وبين هؤلاء تروج مقولات عديدة مثل العبارة التى قالها الإمام على « بقية السيف أنمى عددا وأكثر ولدا » . وهى مقولة خطيرة خلاصتها : قاتلوا إلى النهاية ولا تهابوا الموت ، فالحروب لا تبيد النسل ، بل قد تزيده بفضل أبناء وبنات وعوائل الشهداء الذين هم بقية السيف ! !

ومن ذلك أيضا قول الإمام الحسين : إن كان دين محمد لن يستقيم إلا بقتلى ، يا سيوف خذينى . وهكذا ..

من ذلك أيضا ما تتناقله كتب التراث الشيعى من أنه يوم عاشوراء ، « رفرف النصر على رأس الإمام الحسين ، وخُيِّر بين النصر أو الشهادة ، فرفض النصر واختار الشهادة » معتبرا أن استشهاده انتصار حقيقى للرسالة ، وقال : فلترو ظامية الضب بدمى .

إن مسيرة كربلاء تجد قبولا واسعا عند كثيرين من المتحمسين والمؤمنين . وعبارة « يا سيوف خذينى » تدفع آلاف الشباب إلى الارتماء فوق الألغام ومعانقة الدبابات واستقبال القذائف الصاروخية بسكينة مذهلة . وعند هؤلاء فإن الشهادة « هدف » وليست وسيلة ، إذ لن يكونوا أفضل من الحسين ، الذى اختار الشهادة على النصر !

والأغلبية الساحقة من المقاتلين فى الجبهة على يقين من أنهم يحاربون يزيداً بن معاوية لا سواه وأنهم يذودون عن بيضة الإسلام ، ويقدمون أرواحهم فداء

لآل البيت . وأن قائدهم الحقيقى هو الإمام الحسين . كل ما حدث أن فصائلهم لحقت بجيش الحسين بعد ١٣ قرنا وبضع سنين . هم « مَدَدْ » وصل إلى الساحة بعد فوات الأوان ، وعلى رجاله أن يؤدوا واجبهم ، حتى ينضموا إلى زملائهم الذين سبقوهم إلى الجنة .

رحلة إلى « بهشت زهرا »

فى المربع المنحاز إلى « الخيار الكربلائى » يقف جيش آخر يقدرونه بحوالى مليونين من البشر . قوامه عشرات الألوف من الأمهات والزوجات ، ومثلهم من الشيوخ والآباء ، وضعفهم من الأشقاء والصبية ، هؤلاء هم : عوائل الشهداء .

هؤلاء دفعوا الثمن مقدما ، وانضموا تلقائيا إلى معسكر التشدد . وليس لديهم استعداد لأن يستمعوا إلى أى منطق آخر غير ما يقتضيه « الخيار الكربلائى » . وهم يضغطون بقوة وكثافة فى ذلك الاتجاه . وحضورهم ملحوظ فى كل مناسبة وفى كل تجمع ، ولا يخلو أسبوع من أحدهما أو كليهما ، ووفودهم شبه مقيمة فى مكاتب كبار المسئولين .

قال لى صاحبى : إذا أردت أن تلتقى بجيش عوائل الشهداء ، فاذهب إلى « بهشت زهرا » صبيحة أى يوم جمعة ، وستراهم فى « مؤتمرهم » الأسبوعى . وفهمت منه أن من عادة الإيرانيين أن يزوروا شهداءهم فى ذلك اليوم . وأنه شخصيا سيذهب إلى هناك يوم الجمعة التالى ، مصطحبا شقيقته التى أبدت رغبة فى زيارة زوجها الشهيد . قبل أن يكمل حديثه هتفت : خذنى معك .

كان الظلام لا يزال يخيم على طهران ، ساعة انطلقنا فى السادسة صباحا صوب الجنوب . قطعنا سبعة عشر كيلومترا عبر شوارع بللتها بقايا الأمطار وحولتها ذرات الثلج المتساقط إلى مجموعة من المزالق الخطرة ، وانتصبت على جوانبها الأشجار العارية ، التى بدت جافة وقاتمة بصورة تبعث على الانقباض . عندما انقشع الظلام قليلا اكتشفت أننا ضمن سرب من السيارات والحافلات متجه نحو الجنوب . دخلنا إلى ساحة واسعة فلمحت فى الأفق آلاف الأعلام الإيرانية

المخضبة باللون الأحمر مرفوعة فوق غابة من الأغصان ، ووجدت جموع الإيرانيين تزحف فى صمت مهيب ناحية تلك الأعلام . خليط من الاناث والذكور من كل الأعمار ، انكمشوا جميعا داخل الأردية الثقيلة ، بينما تتقدمهم أنفاسهم مرسومة بهواء أبيض ينطلق مع كل زفير . وقفنا على مشارف الساحة الواسعة التى يرقد فيها عشرة آلاف شهيد (من طهران فقط) وتمتد بمساحة ٤٠٠ ألف هكتار مربع . القبور مستوية على الأرض . وكل شهيد وضعت فوق مرقده قطعة مستطيلة من الرخام الداكن ، كتب عليها اسمه وتاريخ استشهاده . وعند رأسه أقيم نصب خشبى ، أو قل « إطار خشبى » ، وضعت فيه صورته أو علق فى طرفه العلم الإيرانى . يرتفع النصب أحيانا إذا كان الشهيد من الرموز المعروفة ، ويذكر فى لوحته المزيد من المعلومات التى تتعلق بوظيفته ومكان استشهاده والمعركة التى سقط فيها .

كانت ذرات الثلج الأبيض قد تجمعت على جنبات القبور ، فأبرزت ألواح الرخام الداكنة . تحسسنا طريقنا بحذر شديد ، حتى وقفنا عند قبر الشهيد الذى نقصده . أنحنت زوجته ومدت يدها حتى لامست قطعة الرخام . ومضت تردد بعض الأدعية فى سكون ، بينما اختفت ملامحها وأحزانها داخل ملابسها السوداء الفضفاضة . سمعت صوت نشيج مكتوم . التفت ، وإذا بإمرأة جالسة فوق الثلج إلى جوار أحد القبور . تكومت داخل الشادور ، واتجهت نحو موضع رأس الشهيد ومضت تبكى . كثيرات كن يبكين . وجميعهن تشبثن بالأرض والتصقن بالثلج ، وغصن إلى أقرب مكان من رأس الشهيد . البعض وضع أعوادا خضراء فوق القبور . والبعض نثر حفنة من حبات القمح ، والكل ظل يردد الأدعية بشفاه بيضاء جمدها البرد ، وأعين اعتصرها الدمع ، وقلوب كسيرة محزونة .

أقبل علينا طابور من طلاب المدارس يتقدمهم شاب يقرأ بعض الأدعية بصوت رخيم ، من ورقة مطبوعة فى يده . كانوا يرددون الكلام وراءه ويضربون صدورهم بأيديهم اليمنى ، بينما أسنانهم تصطك ، وأعينهم ذاهلة ومعلقة بصور الشهداء المنثورة فى الفضاء الواسع إلى ما لا نهاية . كانوا يشقون طريقهم وسط القبور ويطوفون بأرجاء المكان فى موكب حزن تعلقت أبصاره بالآخرة ، ورأى كل

واحد منهم نفسه تحت التراب ، وصورته تتدلى فوق مرقده ، وأمه تنكفىء ملتاعة فوق قبره !

قيل لى أن مثل هذه المواكب تنظمها المدارس والجامعات والمؤسسات وأهل القرى فى دورات منتظمة . الكل يعيش تلك التجربة النفسية المثيرة ، ضمن حملة ذكية للتعبئة المستمرة والمتصاعدة .

فهمت أن زيارة القبور هى الشق الأول فى البرنامج . وأن الجميع يلتقون بعد ذلك فى ساحة مستطيلة ليرددوا معا « دعاء الندبة » . الذى يقرؤه الشيعة فى المناسبات والأعياد ، وفيه يبكون آل البيت ويندبون ما جرى لهم . وبسبب البرد الشديد أقامت مؤسسة الشهيد ـ التى ترعى بهشت زهرا ـ سرادقا كبيرا فى ذات المكان ، زودته بالبسط ووسائل التدفئة . دخلنا إلى السرادق فإذا صدارته معقودة لنموذج ضخم لزهرة « لالَه » ـ رمز الشهيد ـ اعتلى منصة من الحجارة . وقد صمم النموذج بحيث يؤدى دور « النافورة » التى تنساب منها مياه حمراء ـ دماء الشهيد ـ بينما الجميع جلوس أمامها ، وأبصارهم شاخصة نحوها . وفوق النافورة صورة مرسومة بالزيت للإمام الخمينى . وفى الجزء العلوى من صدارة المجلس لافتة كتب عليها بالفارسية « مكان مخصوص مراسم دعاى ندبة » . بينما انتشر رجال مؤسسة الشهيد فى أرجاء السرادق ، يوجهون القادمين ، وينظمون جلوسهم . النساء فى جانب والرجال فى جانب آخر .

قعدنا مع القاعدين الذين تحلقوا حول المدافىء كلما أمكن . فى المقدمة جلس أحد الملتحين على حاشية ، وأمامه مكبر للصوت بطول نصف الجسم . كان كل واحد يحصل على نسخة من « دعاى نُدبة » من صندوق خشبى وضع فى ركن جانبى . فتحت نسختى فإذا الدعاء مكتوب بالعربية ، وفوق كل سطر ترجمة فارسية للكلمات . ولكثرة ما يقرأونه ويرددونه ، فقد باتت معانيه محفوظة ومفهومة للجميع .

امتلأ السرادق عن آخره بالقاعدين . تحول الجانب الخاص بالنساء إلى نهر مستطيل غطى بملاءة سوداء تتحرك تحتها مئات الرؤوس بين الحين والآخر . وتلمع بين فتحاتها عيون الإيرانيات الواسعة ، والعائمة فوق شلالات الدموع .

جانب الرجال كان مختلفا . تناثرت فيه اللحى الكثة وأغطية الرؤوس الثقيلة . بينما الأغلبية الساحقة ترتدى ثيابا متواضعة ، تشير بوضوح إلى أن الجالسين هم عامة الشعب الإيرانى ، من أواسط القوم وفقرائهم ومستضعفيهم . ويظل القاسم المشترك الأعظم بينهم هوسترات الجند ذات اللون الزيتونى المميز .

توقف اللغط فجأة إثر إعلان باللغة الفارسية فهمت مضمونه . وبدأ الشيخ القاعد أمام مكبر الصوت يتلو دعاء الندبة . كان صوته يتردد فى جنبات السرادق الكبير ، مجلجلا ، ومصبوغا بحزن دفين ، أقرب إلى الآهات والأنات منه إلى الإنشاد ، لكنها آهات شجية وعذبة ، تنفذ إلى الأعماق ، فتفجر فيها ينابيع الدمع والأسى .

كان الرجل يقرأ العربية بنغم ولكنة فارسيَّيْن . والذين يعرفون الفارسية يدركون أكثر من غيرهم أنها لغة الانفعالات والعواطف . وكأنها صممت لتكون لغة الإنشاد الذى يمس شغاف القلوب ، فى الأتراح والأفراح .

كانت البداية تتضمن عبارات حمد الله والصلاة على نبيه ، ثم مديح آل بيته . وكان الجميع يستمعون فى صمت ، ثم يشاركون المنشد فى تلاوة بعض العبارات ، التى كان أولها الآية « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » . . وبعدها بقليل ، الحديث المنسوب إلى النبى ﷺ والذى يقول : من كنت مولاه فعلى مولاه ، وفى أعقابه دعاء : اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وأنصر من نصره ، وأخذل من خذله . .

ومضى المنشد يقرأ بصوته المجلجل والندى . . « ثم أودعه (النبى ﷺ) علمه وحكمته ، فقال أنا مدينة العلم وعلىٌّ بابها . فمن أراد المدينة والحكمة فليأتها من بابها » ثم واصل الإنشاد فى مديح على بن أبى طالب وعرض فضائله حتى قرأ : فعلى الأطايب من أهل بيت محمد وعلى صلى الله عليهما وآلهما ، فليبك الباكون ، وإياهم فليندب النادبون ، ولمثلهم فلتذرف الدموع ، وليصرخ الصارخون ، ويضج الضاجون ، ويعج العاجون : أين الحسن . أين الحسين . أين أبناء الحسين ، صالح بعد صالح ، وصادق بعد صادق . . أين السبيل بعد السبيل ؟؟

هنا توقف صاحبنا عن القراءة باللغة العربية ، وبدأ يلقى كلمة بالفارسية . ما كاد يمضى فيها حتى بدأ البكاء يسرى فى أرجاء السرادق . ولم ينته منها إلا بعد أن اتسعت دائرة النائحين وغرقت كل الوجوه فى بحار الدموع .

بعد الترجمة ، علمت أن المُنشد ذكّر الناس بما لقيه الحسين وأهله فى كربلاء . وانتقل إلى ذكر حال الشيعة فى هذا الزمان . وقال إنهم لا يزالون ـ كما كانوا قبل ١٣ قرنا ـ يقتلون دفاعا عن الإسلام . ولا يزال شهداؤهم يتساقطون بالعشرات والمئات والألوف فى موكب إلى الجنة لم ينقطع مدده . ولا يزالون يدفعون الثمن باهظا لتمسكهم بدينهم وحبهم لآل البيت . وظل الرجل يطيل فى وصف ما كان وما هو كائن ، ثم عاد إلى قراءة النص ، مناديا بصوته المجلجل : أين الحسن ؟ أين الحسين ؟ . . والناس تتأوه وتشهق وتنتحب !

ثم واصل القراءة حتى وصل إلى مقطع يقول : أين المعدّ لقطع دابر الظلمة ؟ أين المنتظر لإقامة الأمت والعوج ؟ أين المرتجى لإزالة الجور والعدوان ؟ أين المدخر لتجديد الفرائض والسنن ؟ أين المتخير لإعادة الملة والشريعة ؟ أين المؤمل لإحياء الكتاب وحدوده ؟ أين محيى معالم الدين وأهله ؟ . . أين قاصم شوكة المعتدين ؟ أين هادم أبنية الشرك والنفاق ؟ أين مبيد أهل الفسوق والعصيان والطغيان ؟ أين حاصد فروع الغى والشقاق ؟ أين . . أين . . أين . . إلى أن قرأ : أين الطالب بدم المقتول بكربلاء ؟ أين المنصور على من اعتدى عليه وافترى ؟ .

وعندئذ أخذ مكبر الصوت شخص ، عرفت فيما بعد أنه مدير مؤسسة الشهيد . وبدأ يلقى كلمة بالفارسية ، قلبت السرادق رأسا على عقب ، وفجرت بحار الحزن المخزون عبر القرون فى الأعماق الشيعية ، حتى تعالى النشيج والبكاء . واختلط العويل بالصراخ . وانكفأ كثيرون بوجوههم على الأرض ، وانفرط عقد السرادق الكبير .

كان رفيقى غارقا هو الآخر فى دمعه . بعد أن هدأ قال لى إن الخطيب وجه حديثه إلى أهالى الشهداء مشيرا إلى أنهم يعانون الآن من الهم والحزن ، ويتحملون آلاما وأوجاعا قاسية . لكن حالهم أفضل بكثير من آل بيت رسول الله ﷺ

بكل عزهم وجلالهم . وكرر على مسامعهم قصة ما جرى فى كربلاء ، القتل والتمثيل والانتقام . والسبايا الذين اقتيدوا إلى قصر يزيد . وكلما استطرد الرجل فى وصف أحداث كربلاء ، تأججت عواطف القاعدين ، وتمزقت قلوبهم ، وانطلقت حناجرهم بالعويل والجؤار . فهم الشهداء أبدا . المصلوبون أبدا . المظلومون فى كل زمان وكل مكان .

ظل الرجل يشير إليهم بيديه لكى يلتزموا الهدوء . وحتى يستطيع أن يواصل كلمته . وفيما سكت الجمع . ظلت أصوات أنفاسهم اللاهثة مسموعة بوضوح . ولم يكد يمضى فى حديثه حتى تزلزل السرادق ، وانفجر بركان الدموع من جديد ، فشهق من شهق ، وسقط على الأرض من سقط ، وهوت الرؤوس على الأكف ، ندما وغضبا وحسرة ، وتحولت العيون إلى جمرات من نار ، متحفزة للانقضاض على يزيد وجنده ، فى الماضى والحاضر والآتى !

لم استطع أن أكتم مشاعرى ، فقلت لصديقى : لماذا يعذبهم الرجل بهذا الإصرار على التهييج والإثارة .

قال : إنه يغسل أعماقهم ويصوغ أحزانهم فى شحنات من الغضب .

حمدت الله أن رد الرجل مكبر الصوت إلى المنشد الأول الذى واصل القراءة من دعاء النُّدبة . وإذا به يبدأ بتلاوة الفقرات التى تخاطب المهدى ويردد : إلى متى نحار فيك يا مولاى ، إلى متى . وأى خطاب أصف فيك وأى نجوى ، إلى أن يقول : عزيز على أن أبكيك ويخذلك الورى ، عزيز على أن يجرى عليك دونهم ما جرى . ويردد القاعدون العبارات معه بأصوات مخنوقة ، ثم يواصلون : هل من معين فأطيل معه العويل والبكاء . هل من جزوع فأساعد جزعه إذا خلا . وتستمر التساؤلات الملهوفة على عودة الغائب حتى تبلغ فقرة تقول : متى نغاديك ونراوحك فنقر عينا . متى ترانا ونراك ، وقد نشرت لواء النصر . . ترى أترانا نحف بك وأنت تؤم الملأ ، وقد ملأت الأرض عدلا ، وأذقت أعداءك هوانا وعقابا . . وقطعت دابر المتكبرين ، واجتثثت أصول الظالمين ؟

قبل أن يختم القراءة تمنيت أن تنتهى المسألة على خير ، وألا يعود الرجل - أو غيره - إلى الإثارة والتهييج وتفجير الأحزان المكبوتة . لكنه لم يكد يصل إلى

آخر كلمة فى الدعاء حتى هب واقفا ، ونهض السرادق كله وراءه فى صمت . التفت إلى رفيقى فقال أنه قد حان وقت قراءة « دعاء الفرج » . وفهمت أن الشيعة يرددونه عادة بعد دعاة الندبة ، يتوسلون به عند الله أن يعجل بالفرج ، وإظهار الإمام الغائب المستور .

رفع الجميع أيديهم ، ومضوا يرددون : إلهى عظم البلاء ، وبرح الخفاء ، وانكشف الغطاء ، وانقطع الرجاء و . . و . . و . .

ثم قال المنشد بصوت علت نبراته والناس ما زالت تردد ، يا محمد ، يا على ، يا على يا محمد . أكفيانى فإنكما كافيان . وانصرانى فإنكما ناصران . يا مولانا يا صاحب الزمان (المهدى الغائب) الغوث ، الغوث ، أدركنى ، أدركنى ، أدركنى . الساعة ، الساعة ، الساعة . العجل ، العجل ، يا أرحم الراحمين ، بحق محمد وآله الطاهرين .

وبينما الرجل يقرأ الفقرة الأخيرة ، كان ممثلو مؤسسة الشهيد يتحركون بسرعة لإحضار صناديق خشبية كبيرة مليئة بالخبز الإيرانى الطازج (سانجالو) وإلى جوارها صحون كدست فيها قطع الجبن الأبيض ، ومع الخبز والجبن ، برادات كبيرة مليئة بالشاى أحاطت بها عشرات الكؤوس الصغيرة .

وما كاد المنشد يفرغ من دعاء الفرج حتى أزاح رجال مؤسسة الشهيد أستار السرادق المعلقة فى الواجهة المقابلة . وغمر الضوء المكان . واتجه الجميع إلى حيث تناول كل واحد كسرة خبز دس فيها قطعة من الجبن ، ثم انتحى جانبا ، ومضى يرشف الشاى فى صمت .

قال لى صاحبى : هذا الجيش يحسب له ألف حساب الآن فى إيران . لا أحد يجرؤ على أن يقف أمامهم ويتحدث عن إنهاء الحرب ، إذا كان هناك من تراوده الفكرة بالفعل . إن هذه التعبئة الأسبوعية تحدث أثرا لا يستهان به فى الاستنفار والتحريض ، الذى لم تخمد ناره منذ قامت الحرب ؛ ويمكن أن تستمر أربعين سنة أخرى .

هكذا يرون الحرب والوساطة

هذا الظاهر ليس هو كل شيء في إيران . وفي بلاد الباطنية والتَّقية لابد وأن تكون هناك طبقات أخرى تحت السطح . تذهب إلى أهل الحكم والسياسة وغيرهم من العارفين في طهران وقم . تحاول أن تستكشف الذي في العمق ، تستنطق الصامتين وتحاور المتكلمين ممن تجاوزوا حاجز الشك ، فاطمأنوا إلى نواياك : كما اطمأنوا إلى أنك لن تذكر أسماءهم ولن تستخدم المعلومات في الإساءة والتشهير . . عندئذ تسمع كلاما آخر ، لا يخلو من أخبار وأسرار .

يقولون أن الحرب من وجهة نظر إيران لها أربعة أوجه في آن واحد :

هي ، أولا ، عدوان مادي على الأرض والسيادة ، بالقوة المسلحة ، وهو ما لابد من صده ورده بطبيعة الحال .

وهي ، ثانيا ، محاولة لإجهاض تجربة الدولة الإسلامية الوليدة ، وتقويض « حكومة الله » ، والتعبير للإمام الخميني ، التي قامت في طهران بعد طول إنتظار . من هذه الزاوية فإن الإسلام هو المستهدف والمجني عليه ، وليس إيران وحدها ، الأمر الذي يعني أن الجهاد بات « فرض عين » على كل مسلم ومسلمة .

وهي ، ثالثا ، تجسيد « للمظلومية » التي عاني منها الشيعة على مدار التاريخ . وهو ما استقر في أذهان الإيرانيين بعدما وقع عليهم العدوان ، ولم يجدوا من يقف بجانبهم أو ينصفهم من إخوانهم المسلمين ، العرب بوجه أخص . ولذا فإن الذين يشبهون هذا الموقف بتخلي أهل الكوفة عن الإمام الحسين ، ليسوا مبالغين أو متعسفين . هذا الشعور باستمرار الظلم استفز الأعماق الإيرانية المثقلة بوطأة التاريخ وصفحاته المأساوية . وهذا ما يفسر ما ذهبت إليه إيران في تمسكها ليس فقط برد الأرض ، ولكن برد الاعتبار أيضا .

قال محدثي ـ وهو من المطلعين المخضرمين ـ إن الموقف العربي المنحاز ضد إيران ، هو الذي دفع طهران إلى التشدد والتصلب . ولو أن الموقف العربي كان أكثر إنصافا لإيران ، لسارت الأمور سيرا مختلفا .

وأضاف : لقد طرحت في داخل القيادة الإيرانية فكرة إيقاف الحرب ، بعد استرداد « خورمشهر » ، الذي اعتبر نصرا كبيرا لإيران يرضي كبرياءها الذي جرح

بالعدوان . ولكن هذا الرأى تراجع أمام ضغط الشعور بالظلم ، الذى كان الموقف العربى عنصرا أساسيا فيه .

تساءل صاحبنا بعد ذلك ، أين كان الذين يدعوننا إلى وقف الحرب من العرب أو غيرهم ، عندما كانت كفة العراق هى الراجحة فى البداية ، عندما فاجأتنا بالعدوان ؟ . . لماذا سكتوا ونسوا الآيات القرآنية التى استخرجوها عندما أخذت إيران زمام المبادرة ؟ . . لماذا الآن يرددون الآيات « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها » أو « وإنْ طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى ، فقاتلوا التى تبغى » . . ؟؟

ألححت فى السؤال عن موقف إيران من الوساطات العديدة التى تمت ، فاكتفى محدثى بالقول : إننا نستشعر أن تلك الوساطات ينقصها الإخلاص والصدق . وأن أكثر القادمين يريدون « أن يبيعونا للغير » . وعندما يجيؤنا من نثق فى إخلاصه ومن هو مستعد للإنصاف ، فسوف يجد فى طهران آذانا صاغية وقلوبا مفتوحة(٥) .

كثيرون يرددون هذه النقطه فى حواراتهم . وحتى اذا كان لها نصيبها من الصحه ، فانك ان دققت فيما وراءها . فسوف تجد ان للتاريخ دوره ايضا فى ترسيخ هذا الشك . وقد أثار انتباهى فى هذا الصدد ما قاله لى احد الفقهاء فى معرض الحديث عن الحرب ، ان آل البيت فقدوا سلطانهم ، واغتصبت الخلافة منهم بعدما استردوها فى عهد الامام على بن ابى طالب ، بسبب هذين الشرين : الهدنة والوساطة !

اضاف صاحبنا ان انتصار الامام على كان محققا فى مواجهته المسلحة مع معاوية فى موقعة « صفين » ولكن معاوية « اللعين » ، دعا الى وقف القتال عندما لاحت هزيمته ، ولجأ فى ذلك الى رفع المصحف محتجا بتحكيم كتاب الله ،

---

(٥) فى مؤتمر صحفى عقده السيد مير حسين موسوى رئيس وزراء إيران يوم ١٣ مايو ٨٥ ، وشهده ممثلو الصحافة العالمية ، سئل عن السبب فى فشل وساطة منظمة المؤتمر الإسلامى التى استهدفت إيقاف الحرب ، قال رئيس الوزراء الإيرانى ما نصه : كان بوسع المؤتمر الإسلامى أن يلعب دورا بالغ الأهمية فى مسألة الحرب ، لو أن المنظمة أدانت إبتداء عدوان العراق على إيران (طهران تايمز - عدد ١٤ مايو) .

وتبعه فى ذلك رجاله . وعندما قبل الامام على وقف القتال ، واتفق على التحكيم ، كانت الخدعه الكبرى التى أدت الى اعلان خلع على وتثبيت معاويه ، فى القصة المعروفه التى تنقلها مختلف المصادر التاريخية . حيث اتفق الحكمان ، ابوموسى الاشعرى ممثل الامام على . وعمرو بن العاص ممثل معاوية ، على خلع الاثنين حقنا لدماء المسلمين . وهو مابدأ به الاشعرى معلنا خلع الامام على ، ولكنه وقع فى الفخ الماكر عندما خلا به ابن العاص ، واعلن تثبيت معاويه مكانه .

منذ ذلك الحين ، والضمير الشيعى ينظر بارتياب شديد وتوجس بالغ لهاتين الكلمتين : الهدنة والوساطه . ولايرى فى أى منهما سوى انه باب للشر ومدخل للهزيمه ومؤامره لتضييع الحق الذى هم عليه ، أو هم على وشك بلوغه .

طرحت هذا الرأى على مسامع بعض من اعرف ، فقال أكثر من واحد : أليس للتاريخ دروسا ، ينبغى ان نستفيد منها ؟ ؟

الوجه الرابع للحرب ، من وجهة النظر الإيرانية ، هى إنها محاولة لكسر إرادة الثورة بإخضاعها لقوانين ومعادلات اللعبة الدولية . وهو ما أصرت إيران على مقاومته بعناد من البداية . وربما كان هذا هو أحد أسباب رفضها المستمر لمختلف الوساطات الدولية التى تضع مصالح الكبار فى حسبانها دائما .

يقولون أيضا : أن الحرب الدائرة الآن يتعذر إيقافها ، وثمة ضغوط لإقناع إيران بأن كسبها مستحيل . لا تستطيع القيادة الإيرانية ـ حتى إذا أرادت ـ أن توقف الحرب فى ظل الوضع القائم ، وإلا فقدت ثقة الجماهير التى عبئت وضحت طوال السنوات التى انقضت ، دون أن يتحقق لها ما تريده من انتصار أو انتصاف .

أحدهم قال لى : إن هناك من يؤ يد حلا سلميا للحرب سواء فى داخل القيادة الإيرانية ذاتها ، السياسية والعسكرية ، أو فى قم التى لا تزال حوزتها العلمية تلعب دورا لا يمكن تجاهله فى القرار السياسى الإيرانى . لكن أحدا من هؤلاء لا يستطيع أن يجهر برأيه ، لأنه سيجد من يطلق عليه الرصاص فى اليوم التالى .

وأضاف : إن الثورة لم تقم على أكتاف حزب أو كوادر . إنما الشارع هو الذى صنعها . وإذا كانت تلك ميزة فى البداية ، إلا أن سلطان الشارع على القرار السياسى يشكل ضغوطا سلبية فى بعض الأحيان . وأحكام الإعدام العديدة التى صدرت فى بداية الثورة - مثلا - إنما كانت استجابة لضغوط الشارع . لقد أعدمت الجماهير الغاضبة أربعة من أعوان الشاه فوق سطح إحدى البنايات . ولو لم تأخذ المحاكم زمام المبادرة لسالت الدماء أنهارا فى شوارع طهران ، وذلك ينسحب أيضا على قضية الحرب التى يضغط الشارع بقوة من أجل استمرارها ، إلى أن يتحقق أمام الجماهير نصر ملموس .

ثم قال : إذا كان للشارع تأثيره وضغوطه ، إلا أن ثمة جناحا قويا فى السلطة يصر أيضا على ضرورة الاستمرار فى الحرب ، حتى يتحقق انتصار ما ، بعده يكون لكل حادث حديث .

زيادة فى الإيضاح قال محدثى : إن القدر المتفق عليه هو أن الحرب لا يمكن أن توقف بغير إنجاز عسكرى أو سياسى فى المعركة . لكن الاجتهادات تتعدد فى الإجابة على السؤالين التاليين : ما هو حجم الإنجاز العسكرى المطلوب ؟ وما هى صيغة الإنجاز السياسى الذى ترضى به إيران ؟

عن الضغوط الدولية سمعت من أحدهم سرا أظنه يذاع لأول مرة ، هو أنه فى أعقاب الانتصار الذى حققته إيران باسترداد خورمشهر عام ١٩٨٢ ، فإن الاتحاد السوفيتى بعث برسالة تنبيه ذات طبيعة خاصة إلى إيران لكى توقف تقدم قواتها بعد ذلك . وكانت الطريقة التى صدرت بها الرسالة على النحو التالى : حشد السوفييت ١٠٠ ألف جندى على الحدود المشتركة مع إيران (منطقة أذربيجان الواقعة بين البحر الأسود وبحر قزوين) ثم قاموا بمناورات عسكرية استمرت أسبوعا . اخترقوا خلالها الحدود الإيرانية ، وسيطرت قواتهم على بعض الجبال والتلال لمدة أسبوعين ، ثم انسحب السوفييت بعد ذلك إلى ما وراء حدودهم . وبقى الاختراق والإنسحاب طى الكتمان . . لكن الرسالة وصلت !

قال محدثى : إن السوفييت لا يزالون « يشاغبون » على إيران بين الحين والآخر ، وهم يركزون على منطقة « بلوشستان » ، التى شهدت « تسريبا » فى

الأشهر الأخيرة لكوادر الحزب الشيوعى . وثمة معلومات عن « نشاط » بدأ يمارسه هؤلاء بالمنطقة ، ذات الأهمية الاستراتيجية الخاصة . وهى أهمية نابعة من كون « بلوشستان » هى الفاصل الجغرافى الوحيد فيما بين حدود « أفغانستان » وبين مياه الخليج الدافئة .

أضاف محدثى : إن عمليات توريد السلاح تشكل مؤشرا آخر للضغوط التى تمارس من قبل الدولتين العظميين لوضع « سقف » لتصعيد الحرب . فما من مرة خطت فيها إيران خطوة إلى الأمام إلا وقوبلت بتحرك نشيط من جانب موسكو وواشنطون على صعيد توريد السلاح ، فى جهد مستمر لضبط ما يسمى « بالتوازن » بين المتحاربين .

. . ومسألة السلاح الإسرائيلى ؟

منذ بدأت مناقشة قضية الحرب مع الأطراف المعنية فى إيران ، بل منذ بدأت ترتيب السفر إلى طهران ، كان هناك سؤال يلح علىّ دائما هو : ما الحقيقة فى مسألة حصول إيران على أسلحة من إسرائيل ؟(*) .

تحينت أول فرصة أتيحت وألقيت السؤال ، فحصلت على ثلاث إجابات هى :

■ تصريح للإمام الخمينى ، أدلى به فى الكلمة التى وجهها إلى المسلمين بمناسبة موسم الحج ، بتاريخ ١٤٠١/١١/٧ هـ ، وأشار خلاله إلى الموضوع قائلا : لقد بثوا من أبواقهم تهمة مفضوحة بشأن علاقة إيران بإسرائيل ، ومسألة شراء الأسلحة ، مستهدفين بذلك عزل الشعوب العربية عن إيران ، وخلق العداء بين المسلمين ، وتعبيد الطريق أمام القوى الكبرى ، وزيادة سيطرتها أكثر فأكثر . فهل يا ترى هناك شخص مطلع يجهل العداء الشديد الذى تكنه الثورة ضد إسرائيل ؟ . . وهل يجهل أحد أن أحد أسباب اختلافنا مع الشاه المخلوع هو علاقاته الودية مع إسرائيل ؟ . . من يجهل إننا نددنا بإسرائيل منذ أكثر من

(*) أثيرت فى شهر ديسمبر ٨٦ قضية توريد السلاح الأمريكى إلى إيران ، وقيل الكثير عن دور إسرائيل فى العملية . ولم يتح لى أن أتعرف على وجه الحقيقة فى الموضوع ، خاصة وأن كل المعلومات التى نشرت كانت من طرف واحد ، يهمه الترويج لذلك الدور . (ف . هـ) .

عشرين سنة ، فى خطبنا وبياناتنا ، واعتبرناها صنو أمريكا فى الظلم ، وربيبتها فى الغزو والعدوان ؟ . . ومن يجهل أن الشعب الإيرانى المسلم خلال فترة الثورة الإسلامية ، وفى المظاهرات المليونية الصاخبة ، أعلن أن إسرائيل عدوة له مثل أمريكا ، وقطع النفط عنهما معا ، وصب غضبه ونقمته عليهما معا ؟(٦) .

■ ما كتبه تلميذ الإمام ـ والسفير لاحقا ـ حجة الإسلام سيد هادى خسروشاهى ، فى مؤلفه « الثورة الإسلامية والإمبريالية العالمية » ، وقال فيه : « إن الذين يتهمون إيران بأنها اشترت أسلحة من إسرائيل ، ينشرون الأكاذيب المضحكة لإثارة الشبهات حول أصالة وإخلاص الثورة الإسلامية فى إيران . . إن إيران رغم الديون المستحقة لها على ربيبة أمريكا "إسرائيل"، ورغم أن الشاه كان قد دفع سلفا لإسرائيل ثمن أسلحة إشتراها منها ، بمقدار ٥٠٠ مليون دولار ، ولم يكن قد تسلمها حين طرده من إيران ، فإن إسرائيل حاولت فى مرات عديدة الاتصال بالجمهورية الإسلامية فى إيران ، عن طريق أطراف أخرى ، لإخبار طهران أن هذه الأسلحة جاهزة ، وأنها تود تسليمها إليها (ودوافعها فى ذلك مفهومة) إلا أن رجال الثورة الإسلامية ، وعلى رأسهم الإمام الخمينى ، رفضوا تسلم الأسلحة ، وطالبوا باسترداد المال المدفوع (من الشاه) .

« ولقد نشرت « المجلة » السعودية ، الصادرة فى لندن ، فى عددها ٨٢ ـ ٨٣ ، مقابلة مع بنى صدر ومسعود رجوى ، قالا فيها إن إيران اشترت أسلحة من إسرائيل بمبلغ ٥٠ مليون دولار ، وزنتها ٣٦٠ ألف طن ، شحنت إلى إيران بالطائرات على مدى ١٢ رحلة جوية ، وأيدها مؤخرا الإرهابى الإسرائيلى شارون . وهذا كلام مضحك . فمن خلال الأرقام المذكورة يتضح حتى للأطفال بأنه كلام غير معقول على الإطلاق . فعملية حسابية بسيطة تبين كذب إدعاءات بنى صدر ورجوى و « صديقهما » شارون . فإذا أخذنا كلامهم بعين الاعتبار ، نجد أن ثمن الطن الواحد من الأسلحة والذخائر حوالى ١٣٦ دولارا ، وهذا أقل من سعر حديد الخردة التالف . ووزن الرحلة الجوية الواحدة ٣٠ ألف طن . وهذا ما تعجز عنه السفن البحرية ، فكيف الطائرات الجوية » .

---

(٦) مختارات من أقوال الإمام الخمينى ـ ج ٤ ص ٧١ ـ من إصدارات وزارة الإرشاد الإسلامى . طهران .

« . . أمر ثان أريد أن أعلق عليه فى كلام رجوى المنشور فى نفس المجلة اللندنية وهو يتعلق بإظهار وثيقة من الحرس الثورى تطلب « طمس الكتابة العبرية عن رشاشات عوزى » .

« . . ذلك أن العالم يعرف بأنه يوجد فى إيران مصنع لإنتاج مدافع « عوزى » منذ زمن الشاه ، وهذا المصنع لا يزال موجوداً ويعمل إلى الآن . وإيران ليست بحاجة إلى رشاشات « عوزى » حتى تشتريها من إسرائيل ، لأنها تصنع فى إيران .

« . . ثمة نقطة ثانية تتعلق بتاريخ الوثيقة (تشرين الثانى - نوفمبر - ١٩٨٠) ، فهذا التاريخ يوحى بأنها صادرة بعد شهر من إندلاع الحرب العراقية الإيرانية . وهنا يظهر التساؤل : متى تم التعاقد على شراء هذه الأسلحة من إسرائيل « ربيبة أمريكا » ؟ . . ربما أثناء قمة أزمة الرهائن الأمريكيين ، حيث فى ذلك الوقت كانت أمريكا تسمح (!) لإسرائيل بتزويد إيران بالأسلحة . هل هذا يصدق ؟ . . وهل هذا كلام يقبله عاقل[٧] ؟ .

■ الرد الثالث كان على لسان أحد المسئولين الإيرانيين الذى قال : إن طهران فى بداية الحرب كانت تشترى السلاح من السماسرة الدوليين ، وبأسعار السوق السوداء فى مختلف أنحاء العالم ، وإذا كان ثمة سلاح إسرائيلى تسرب إلى إيران فى تلك الفترة ، فإنه لابد قد دخل من ذلك الباب دون غيره . أما فى السنتين الأخيرتين فإن التعامل مع السماسرة قد توقف كقاعدة . وبدأت إيران تشترى ما تحتاجه من قطع غيار من الدول مباشرة . وهو ما أغلق الباب تماما أمام أى احتمال للتسرب أو الشك فى مصادر الإنتاج .

قال الراوى : أحد القيادات الفلسطينية أدهشنا بإثارة الموضوع فى طهران . وتحديناه أن يجد دليلا واحداً يؤيد هذا الاتهام الظالم لإيران بشراء أسلحة من إسرائيل . وطار الرجل على أن يجيئنا بشهادة تصدير أو اتفاق على صفقة ، قال أن آخرين حدثوه عنه ، لكنه غاب سنتين ولم يعد !

---

(٧) الثورة الإسلامية والإمبريالية العالمية ص ٥٣ - سيد هادى خسروشاهى - من إصدارات مركز الثقافة الإسلامية فى أوروبا (روما) .

الفصل العاشر

مدينة الفقهاء

عندما تسلم الفقهاء مقاليد الحكم بعد الثورة ، فإن دورهم تجاوز مباشرة السلطة ، إلى التأثير على نسيج القيم والسلوك السائد . وهو تأثير يحدث مفعوله بقوة ويبسط ظله تدريجا على إيران . لا أحد يستطيع أن يزعم بأن هذا النسيج قد نضج وتبلور ، فذلك مما يحتاج إلى وقت ، تبدو معه السنوات السبع التى انقضت من عمر الثورة شوطا متواضعا ومحدودا . غير أن ثمة قسمات ظهرت على وجه الحياة بالفعل ، تثير انتباهك منذ اللحظات الأولى ، حتى قبل أن تطأ قدمك إيران ذاتها .

فى الطائرة المتجهة إلى طهران يذكرونك بأنهم ذاهبون إلى مكان مختلف عما ألفته . على الأقل ، هذا ما حدث معى على الخطوط البريطانية التى طرت عليها فى احدى سفراتى الى ايران . بعدما غادرنا لندن بدقائق ، بدأوا يشرحون لنا برنامج الرحلة ، وما سيقدم إلينا خلالها من مأكولات ومشروبات وبرامج ترفيهية . قالت المضيفة أن كل شىء سيكون على ما يرام حتى نصل إلى « لارنكا » ، محطة منتصف الطريق فى قبرص . أما بعدما تقلع الطائرة من لارنكا إلى طهران ، فلن تقدم أية خمور للركاب ، وعند الهبوط إلى طهران ، « يرجى من جميع السيدات أن يراعين تقاليد الدين الاسلامى عند الخروج » .

بالفعل لم تقدم أية خمور طوال الرحلة من لارنكا إلى طهران . وقبل دقائق من النزول ، لم تقل لنا المضيفة « أربطوا الأحزمة » ، كما هو المعتاد ، وإنما كررت نداءها إلى السيدات بضرورة « الاحتشام » عند الخروج من الطائرة إلى قاعة الوصول . تذكرت اللافتات التى تستقبل القادم إلى إمارة الشارقة ، وقد كتبت عليها عبارة : « ابتسم أنت فى الشارقة » . كأنى سمعت المضيفة تقول « احتشم أنت فى إيران » !

قبل أن تكمل المضيفة كلامها ، كانت كل سيدات الطائرة ، بما فيهن المضيفات الانجليزيات والكوريات ، قد أخرجن « الايشاربات » من حقائب اليد ، وقمن بتغطية رؤوسهن . بعض الايرانيات أخرجن معاطف فضفاضة تدثرن

بها . واحدة استبدلت جوربها الشفاف بآخر سميك أسود . ثانية لمحتها تزيل المساحيق من وجهها باستياء ظاهر . الصورة قريبة مما تشهده الطائرات المتجهة إلى السعودية عندما تحط على أرض المطار . السعوديات يخرجن العباءات السوداء ويختفين فى داخلها . فى الخمسينات والستينات كان ذلك يحدث فى الخليج . المدرسات العربيات اللاتى تتقرر إعارتهن للعمل بالكويت كن يجدن من ينتظرهن فى المطار بالعباءات .

تغيرت الصورة تماما فى طائرتنا البريطانية . أطلت أمارات « الصلاح » من وجوه الجميع ، كأنه فوج متجه لأداء « العمرة » !

رؤية فى رفض سلطان الغرب

قرأت فى خطب حجة الاسلام هاشمى رفسنجانى ، رئيس مجلس الشورى : لم يعد هناك فرق اليوم بين شوارع طهران العاصمة وشوارع مدينة قم (المقدسة) . .

« فى الماضى كان يجتذب الناس : البيت الكبير والسيارة الفاخرة ، والحساب البنكى ذو الرصيد العالى ، والفيللا على شاطىء البحر ، والمكان المناسب للمتعة ، والارتباط بالنظام العميل ، وربما الارتباط بالخارج أو بأمريكا ذاتها . وفى الدوائر كان المكتب الأفخم هو معيار التقييم وأساسه . كان اللباس والتعلق الشديد بالكماليات الراقية والرفاهة ،كلها تعبر عن أسمى القيم لدى النظام السابق » .

« . . اليوم تغيرت تلك القيم ربما إلى نقيضها ، بصورة لم تخل من إفراط يحتاج إلى شىء من الكبح » .

تلك المعايير ذات القيمة فى الماضى عادت اليوم بلا قيمة لدى الكثيرين . وعاد أولئك الذين يمتلكون شيئا من الأناقة الزائدة وغير العادية يعتريهم الخجل من غيرهم . انهم الآن يغضون أبصارهم ، ولا يمكنهم أن يتباهوا بلباسهم أمام الناس ، أو يخدعوهم بهذا التزويق والتلوين .



نماذج من طوابع البريد التى صدرت بعد الثورة وجوه الفقهاء والشهداء ورموزهم تحتل حيزا بارزا فيها

« . . لم يعد هناك أحد فى الدوائر الحكومية يفكر فى مكتبه وهل هو أكبر أو أصغر وهل يتوافر فيه اللمعان المطلوب أم لا . . لم يعد بين الوزير ، ومعاونيه والمدراء العامين وباقى موظفيهم أى فرق ، فهم جميعا فى مستوى واحد ، وإن تفاوتت مسئولياتهم » .

« . . كانت الفتاة المحجبة إذا رغبت فى دخول الجامعة بزيّها الاسلامى ، تواجه بسخرية تشجعها على نزع الحجاب . أما العالم الدينى فلم يكن يستطيع أن يمر فى الساحة الجامعية ، دون أن يسلم مما يؤذى مسامعه وينتقص من قدره »[1] .

ليست مسألة حجاب أو أثاث مكتب أو رصيد بنكى وسيارة فاخرة ، ولكنها قضية ذات ، تكون أو لا تكون . وهى هاجس شغل كل الواعين بقضية الاستقلال وتحرير الارادة ، الداعين إلى الانعتاق من سلطان الغير والتحلل من الارتباط بالآخر . الامام الخمينى أحد هؤلاء . بعد أشهر قليلة من نجاح الثورة ، فى سبتمبر ١٩٧٨ ، خاطب الجماهير الإيرانية منبها :

« إذا أردتم أن تكونوا مستقلين ، وأن تعترفوا بأنكم شعب بذاته ، فعليكم أن تخرجوا من تقليد الغرب ، إذا بقيتم مقيدين ومقلدين فلا تتمنوا الاستقلال » .

« ما دام كتابنا يتحدثون بلغة غربية ، ويفكرون بعقول غربية ، فلا أمل فى استقلال الشعب . ما دامت هذه الأسماء الأجنبية على الشوارع والميادين والصيدليات والكتب ، فمحال أن تستقلوا . المساجد فقط هى التى لم تطلق عليها أسماء أجنبية ، لأن علماء الدين بحكم وظائفهم لم يصبحوا كذلك (غربيين) .

« هؤلاء المتجهون نحو الغرب والغربيين ، والذين قبلهم الغرب . . هم جميعا تاهوا فى الظلمات ، وأن أولياءهم الطاغوت .

قبل ذلك بقليل ، فى يونيو ٧٩ ، قال الخمينى أمام جمع جماهيرى فى

---

(١) الثورة الاسلامية - مجموعة خطب لهاشمى رفسنجانى ص ٦٧ - ٦٨ - ٩٦ - ٧٠

قم : أيها المغترون بالأجانب . أيها الفاقدون للألباب . راجعوا أنفسكم ، ولا تجعلوا صبغة الغرب تستولى عليكم »[٢] :

الدكتور على شريعتى ، أحد معلمى الثورة ، كان أيضا من المبشرين بتلك الدعوة فى بداية السبعينات كتب :

« فى القرون الوسطى ، عندما كان الغرب لا يزال غارقا فى نومة الغافلين ، ومبهورا بالحضارة الاسلامية وبتقدم العلوم عند العرب ، كان أساتذة الجامعات فى إيطاليا وأسبانيا وفرنسا ، يرتدون أثناء التدريس ملابس شبيهة بملابس الأستاذ الإسلامى ، تَمَثُّلا وتقليدا . أمّا اليوم فقد أصبح شبابنا يخجلون من هذه الملابس الواسعة والفضفاضة . وقد قبلوا بكل أنواع « الموضة » الغربية ، حتى باتوا يرتدون ملابس ضيقة ، غير مريحة ، ولا منسجمة مع مناخنا وحاجاتنا ، لا شىء إلا لأنها « موضة » قادمة من الغرب » .

« . . لقد جعلنا الغرب نحتقر أنفسنا ، ونستهين بتاريخنا ، بثقافتنا وتراثنا ، نعتقد أن علماءنا وأدباءنا كانوا متخلفين . وعندما يستطيع الغرب زعزعة الثقة فى نفوسنا ، فإنه يهاجم على جميع الأصعدة وهو واثق من هشاشة جبهتنا .

. . إن الصراع بين الشرق والغرب هو الصراع الأساسى . أما فى كل جبهة فتوجد صراعات أخرى ، طبقية وقومية وغير ذلك . رغم أن صيغ الصراع الأساسى ورموزها تختلف فى الشرق عن الغرب ، بسبب التكوين التاريخى المختلف لكل منهما .

يسجل على شريعتى أن للدولة العثمانية مساوىء ومفاسد ، لكنه يقول :

« . . فى مارس ١٩٢٤ ، عندما أعلنت الهزيمة الرسمية للدولة العثمانية ، هزم الإسلام كقوة سياسية وعسكرية وحضارية أمام الغرب . وانفتح أمام الاستعمار طريق بلا عوائق لنهب الشرق ، وعلى وجه الخصوص البلاد الاسلامية .

يهتف على شريعتى وهو يناجى ربه : الهى ، لا تجعلنى مضطرا للترجمة

---

(٢) توجيهات الامام الخمينى ص ٦٨ - ٧٥

والتقليد . إننى أريد أن أحطم القوالب القديمة التى ورثتها ، لأستطيع الصمود فى وجه قوالب الغرب . وليخرس هؤلاء وهؤلاء ، فأنا وحدى أريد أن أتكلم » .

. . إن « أنا » على شريعتى هو الانسان . وفى هذه المرحلة بالذات ، هو الانسان الشرقى الرافض للنموذج الغربى ، والرافض لما هو منحط ومتخلف فى ماضيه ، وفى حياته الراهنة[٣] .

الحل الذى دعا إليه الجميع ، وتبنوه ، هو : لا بديل عن نموذج حضارى جديد ، به يتحقق الانعتاق والتحلل من سلطان الآخر . والخيار الوحيد المتاح أمام الشعوب المسلمة لتثبيت الاستقلال هو الارتكاز على الاسلام ذاته . فى إيران يصبح الخيار الاسلامى أكثر إلحاحا . فحيث تتعدد الأصول العرقية ، فإن الاسلام يلعب دور « الجامع المشترك الأعظم » ، كما قلنا من قبل .

هنا يكتسب الاسلام أهمية مضاعفة ، إذ لا يقف تأثيره فقط عند كونه « الرد » فى معركة التحدى الحضارى ، ولكنه أيضا « الهوية » التى يعتصم بها الناس فى مواجهة التجزئة والتفتت .

لا يعنى ذلك أن يتحول الجميع بالضرورة إلى اعتناق الاسلام . فالاسلام الوطن والهوية يتسع للجميع . المؤمنون بالدين ينتمون إليه من باب الاعتقاد ، والآخرون يلتحقون به من باب الانتماء الحضارى والثقافى . بهذه الصيغة تعايش الجميع فى ظل الدولة الاسلامية ، واشترك الجميع فى بناء الصرح الحضارى لتلك الدولة إبان مرحلة المد الكبير فى القرن الرابع الهجرى .

« المشروع الايرانى ليس بالضرورة النموذج الحضارى الواجب الاحتذاء ، غير أن أهم ما فيه أنه ينطلق من الاصرار على الانعتاق من سلطان الغرب ، والعودة إلى الذات الحقيقية . أما « متى » يمكن أن يتبلور المشروع ، و« مدى » نجاحه أو إخفاقه ، فذلك شأن آخر .

طهران التى كانت ، نسخة مكررة من عواصم الهزيمة الحضارية فى العالم الاسلامى والعربى ، كان غاية ما يحلم به القائمون عليها أن تصبح قطعة من

(٣) فاضل رسول- هكذا تكلم على شريعتى ص ٤٦- ٨١- ٨٢- ٨٣

أوروبا . وهو الحلم الذى سيطر على « الخديوى » اسماعيل باشا فى مصر ، وكمال أتاتورك فى تركيا ، فضلا عن رضا شاه فى إيران ، وغيرهم من رموز المدرسة التى تبنت شعار : « كل انسلاخ عن الذات هو خطوة نحو التقدم والالتحاق بالغرب » ، . . ذاتك « عورة » يجب أن تداريها إذا لم تستطع أن تتخلى عنها ، والغرب هو منقذك وملاذك ، وهو مصيرك فى نهاية الأمر ، إذا أردت أن تجد لك مكانا فى مركبة العصر . الغرب أو الموت ، هذه هى الخلاصة !

صورة من إيران التى كانت

لقد أتيح لى أن أقترب من طهران التى كانت ، مرتين ، أولاهما فى ماليزيا عام ١٩٦٩ ، من خلال الوفد الايرانى الذى شارك فى أول مؤتمر إسلامى دعت إليه حكومة تنكو عبد الرحمن ؛ (أول أمين لمنظمة المؤتمر الاسلامى فيما بعد) . والثانية عندما قضيت أسبوعا فى طهران عام ١٩٧٧ ، بانتظار تأشيرة دخول إلى أفغانستان عقب سقوط النظام الملكى فيها .

فى مؤتمر ماليزيا كان الوفد الايرانى برئاسة نائب لرئيس الوزراء ، لا يحضرنى اسمه ، لكنه كان شابا لفت الأنظار بإناقته المفرطة وخاتمه الماسى الذى كان يلمع فى أحد أصابعه ، وأثناء جلسة الافتتاح ، بينما القرآن الكريم يتلى وسط الصمت والخشوع ، وبينما الكاميرات التليفزيونية تمسح القاعة السابحة فى بحر من الضوء ، وبينما ممثلو الصحافة المحلية والعالمية يتزاحمون لمتابعة أول حدث من نوعه ، إذا بنائب رئيس الوزراء الايرانى يخرج مشطا من جيب سترته ، ليسوى به خصلات شعره الفاحم ، ثم يعيده إلى مكانه فى هدوء !

أثار المشهد انتباه الجميع ودهشتهم . لكن تلك الدهشة تحولت إلى استياء وانزعاج شديدين من جانب أعضاء المؤتمر الاسلامى ، بعدما لاحظوا أن رئيس الوفد الايرانى لا يحلو له أن يقضى أمسياته إلا فى « بار » الفندق !

فى المرة التالية ، عام ١٩٧٧ ، دعيت مع آخرين إلى غداء فى بيت أحد السفراء العرب . وكان جميع الحضور من الرجال ، باستثناء سيدة واحدة جاءت

مع مضيفنا ، كان من الطبيعى أن أتصورها ربة البيت وزوجة السفير العربى ، لكن منظر السيدة وتصرفاتها كانا يدعوان إلى عدم الارتياح . فانتحيت جانبا مع سفير خليجى ، كان من رفاق الدراسة بمصر ، وسألته عن الحكاية ، فتردد لحظة ثم قال هامسا : هى إيرانية من عشيقات صاحبنا !

ثم روى لى السفير الصديق قصة حفل الاستقبال الذى أقامه الشاه ، ودعا إليه كل السفراء الأجانب ، ومضى يصافح الجميع ويتبادل معهم الحديث . واستوقفته سيدة قدمها أحد السفراء الخليجيين باعتبارها زوجته . كان جمالها زائدا ، وكانت تتحدث الفارسية بطلاقة وتمكُّن . وعندما سألها الشاه عن أصلها وكيفية تعلُّمها اللغة الفارسية ، تلعثمت السيدة ، ثم قالت أنها إيرانية ! وقتئذ حدثت أزمة ، بعدما تبين أن السفير الخليجى اصطحب معه عشيقة إيرانية إلى ذلك الحفل الكبير . . وعولجت الأزمة فى هدوء ، بعدما سحب السفير من طهران !

قال لى السفير الصديق : إذا أردت أن ترى طهران جيدا ، اذهب إلى شارع بهلوى فى المساء . وأضاف : لن تتوه ، ولست بحاجة إلى دليل ، أو مترجم . فقط قل لمن يصادفك « خيابان بهلوى » ، وستجد ألف شخص يدلونك عليه .

لم أكذب خبرا - ذهبت إلى خيابان بهلوى فى مساء اليوم ذاته ، تبين لى أنه يقطع المدينة من أولها إلى آخرها . وأنه يمتد بطول ٣٠ كيلو مترا . بعضها فى نصف طهران الجنوبى والفقير . وبعضها فى شمال طهران ، حيث الوجهاء والأثرياء (يسمونهم الأشراف) . لكن الأهم من ذلك أنه كان واجهة باريسية للمدينة ، التى كانت تعشق الارستقراطية ، فيها كل ما هو فرنسى ، من اللغة إلى نمط الحياة . واجهات المحال براقة وصارخة ، ودور اللهو ، الكازينوهات والكباريهات ، موزعة على الشارع بطوله ، وإن كانت أكثر كثافة فى مناطق الوسط والشمال . الموسيقى الصاخبة تجلجل فى الشارع . والمشاة يتراوحون بين لابسات أحدث الأزياء الباريسية ، وشبان تأبطوا أذرع الفتيات ، أو أحاطوا بخصورهن ، ولم يكن الأمر يخلو من سكارى يتمايلون فى آخر الليل ، وبنات الليل يتصيدن الرجال الظامئين حتى طلوع الفجر !

عدت إلى السفير الصديق أروى له ما رأيت ، فابتسم بخبث وقال : هناك وجه لطهران لم أحدثك عنه ، وسوف تتردد فى الاقتراب منه . واستفهمت منه عما يعينه ، فقال : فى « شهرنو » عالم آخر مختلف عن كل ما رأيت . ثم عرفت منه أن الكلمة معناها بالايرانية « المدينة الجديدة » . وهو اسم مهذب للغاية ، لا يوحى على الاطلاق بأن تلك « المدينة » هى منطقة البغاء الرسمى فى طهران !

كانت « شهرنو » تقع فى الجزء الجنوبى من العاصمة ، الذى يضم الأحياء الشعبية بسكانها الفقراء . فى آخر شارع « قزوين » ، كان القادم يتجه يمينا ، مارا بزقاق صغير يصب فى تلك المنطقة ، التى كانت كل بيوتها مخصصة للدعارة ، التى تتم بإذن من الدولة ، وتحت سمعها وبصرها !

عرفت أيضا أن شهرنو هى مقصد « المستضعفين » وحدهم ، أما « المستكبرين » فى قلب العاصمة وشمالها ، فقد كانت لهم أساليب أخرى ، بمستوى مختلف . كان نظام الاستدعاء بالهواتف معمولا به . فهناك من يدير شبكات كاملة لتقديم « الخدمة » لمن يشاء ، وتوصيلها إلى المنازل أيضا ! وكان المسئولون عن إدارة تلك الشبكات معروفين فى الأوساط « الراقية » ، وفى الدوائر الأجنبية ، حيث كان الخبراء الأمريكان الذين يفدون إلى طهران بأعداد ضخمة ، ويتركزون فى فندق هيلتون ، من أبرز زبائن تلك الشبكات .

لم تكن تلك طهران الحقيقية . إنما كانت قشرة مزيفة ، وقناعا ممسوخا ومشوها وضع على وجه المدينة ، بوهم التحديث والعصرنة . فلا هو عبّر عن حقيقتها ، ولا هو ألحقها بالعصر . وإنما ألحقها بأسوأ ما فى العصر وما فى الغرب .

فى زيارة ٨٥ ، قررت أن أطل على طهران من « شهرنو » ، وخيابان بهلوى ! .

علمت أن « شهرنو » اختفت من خريطة طهران ، منذ الأيام الأولى التى أعقبت نجاح الثورة . إذ هاجم المتظاهرون المنطقة ، ودمروا بيوتها تدميرا . واتخذت السلطة قرارات عاجلة لمحو هذه الوصمة من جبين الدولة الاسلامية الوليدة . فقدمت لمحاكم الثورة السيدات اللاتى كن يقمن بإدارة شبكات

الدعارة ، فى جنوب طهران وشمالها . وقضت المحاكم بإعدام ٢٠ منهن ، كن يمثلن رؤوس « الافساد » فى العاصمة ، ويقفن على رأس تجارة ضخمة لها وسطاؤها ومستخدموها ، وأرباحها الخيالية . أما باقى السيدات اللاتى كن يحترفن تلك المهنة . فى حدود ألف ، فقد نقلن إلى اثنين من قصور الشاه فى المنطقة الشمالية . وهنالك قضت كل واحدة حوالى ستة أشهر ، للعلاج والتأهيل والتقويم ، لكى تشارك فى الحياة العادية بعد ذلك .

أما « خيابان بهلوى » فقد تغير اسمه إلى « ولى عصر » ، وهو أحد أوصاف الامام الغائب ، ويكتبونها كلمة واحدة هكذا : « وليعصر » . وقد علمت أنه بعد الثورة مباشرة ، عندما كانت الجبهة الوطنية شريكة فى الحكم ، أطلق عليه اسم خيابان « مصدق » ، نسبة إلى رئيس الوزراء الشهير الذى كان من رموز الجبهة الوطنية ، وفى عهده ـ بداية الخمسينات ـ أمّم النفط وهرب الشاه إلى الخارج . ولكن هذا الاسم لم يستمر إلا لفترة محدودة ، مرحلة تحالف رجال الجبهة مع الاسلاميين . وبعد ما استقر الأمر لصالح الاسلاميين فى النهاية ، رفع اسم مصدق ، ووضع بدلا منه « وليعصر » . (الطريف فى الأمر أن السادات عندما أراد أن يجامل شاه إيران عندما لجأ إليه بعد الثورة ، فإنه قرر أن يطلق اسمه على أحد شوارع العاصمة (القاهرة) . ووقع اختياره على شارع مصدق ، ليستبدله بشارع « بهلوى » !!) .

تستطيع أن تتصور الشارع بعدما أصبح يحمل اسم صاحب الزمان وولى العصر . اللافتة وحدها كفيلة بتحديد « سقفه » ومنتهى النشاط فيه . لم تختف الرذيلة بطبيعة الحال . ولكن أكثر الناس إصرارا عليها بات يخجل من الجهر بها . أصبحت الرذيلة شذوذا فرديا وليست مرفقا له مكانه فى أنشطة المجتمع أو نسيج قِيَمه . انتقلت من مربع المشروعية إلى دائرة الممنوع واللامشروع .

لم يعد الشارع مرتبطا باللهو والعبث وساعات الأنس والخلوات الناعمة .

اختفت صور نجوم الغناء والطرب ، وحلت محلها صور الشهداء بثيابهم البسيطة ولحاهم الكثة ونظراتهم الصارمة . أصبح الشارع مرتبطا بولى العصر !

أغلقت محلات العبث وأطفئت أنوارها الصاخبة منذ زمن . هاجم الناس بعضها فى أشهر الغضب الأولى ، وهم يكسرون القشرة الزائفة والقناع الكاذب . باتت دور السينما هى ذروة اللهو وسنامه . فى الشارع اثنتان من تلك الدور ، « استقلال » إحداهما ، كانت تعرض فيلما إيرانيا باسم « سناتور » . من واجهتها تعرف أنها تابعة لمؤسسة المستضعفين ، التى تسلمت القصور والأراضى المصادرة ، ومختلف المشروعات التجارية التى كانت لأعوان النظام السابق . الدار الثانية باسم « أفريقيا » ، كانت تعرض فيلما إيرانيا آخر باسم المجانين (ديوانه ها) ملصقاته تعلن أنه فيلم « كمدى . كمدى . كمدى » . . أى كوميدى » !

اختفت محلات بيع الخمور بطبيعة الحال . الفنادق الكبرى تقدم لمن يشاء « بيرة » بغير كحول . وغير المسلمين - أكثرهم من الأرمن - لهم الحق فى تعاطى الخمور فى بيوتهم ، باعتبار أن المسيحيين واليهود تسمح لهم شرائعهم بذلك . يشترط فقط ألاَّ يتاجروا فيها ، أو يجهروا بشرب الخمر . أما كيف يحصلون على ما قد يحتاجونه من الخمور ، فإن الايرانيين يقولون إنهم اعتادوا أن يصنعوا بعضا من أنواعها فى بيوتهم ، وهم خبراء فى صناعة « الفودكا الايرانية » .

صار « ولى عصر » خلال السنوات الخمس الأولى من الثورة شارعا تجاريا . صورة حديثة ومتقدمة من البازار . بات يغلق أبوابه من التاسعة أو العاشرة مساء ، إذا طال « السهر » فى محال بيع الطعام . المتاجر الأخرى تبدأ فى الاغلاق من الثامنة . دور السينما التى تبدأعروضها فى العاشرة صباحا تقريبا ، تنتهى منها فى الثامنة والنصف مساء ، على أبعد الفروض . لم يعد هناك ما يسمى « حياة الليل » ، لا فى شارع ولى عصر ، ولا فى طهران كلها .

الكوميتات : أخطاء وخطايا !

ليس اختلاف شكل الحياة هو أهم ما فى الشارع ، لأن اختلاف المشاة هو أكثر ما يثير الانتباه حقا . أيضا ، ليس فى الشارع ولى عصر وحده ، وإنما فى شوارع طهران كلها .

قبل الثورة كان يمكن أن تقضى وقتك فى شارع بهلوى ، وتنسى أحيانا أنك فى إيران . فظاهر المكان كان خليطا من شارع الهرم بالقاهرة ، والحمرا ببيروت ، والشانزليزيه بباريس ، أشكال الناس أيضا كانت تثير فيك اللبس والحيرة . فلا أنت تعرف بالضبط ، هل هم إيرانيون أم أسبان أم طليان أم عرب !

الآن لا يمكن أن تخطىء أو تنسى . فكل ما حولك يذكرك بأنك فى إيران . يلاحقك هذا الخاطر بإلحاح وإصرار حيثما ذهبت !

لم يكن الأمر سهلا ـ ولا يزال ـ لسببين :

ـ الأول أن ثمة عديدا من التفاصيل فى الحياة اليومية لم يكن معروفا على وجه الدقة عند العامة كيف يمكن التعامل معها فى ظل مجتمع إسلامى ، سواء من حيث كونها حلالا أم حراما ، أو من حيث انسجامها مع التقاليد الاسلامية أو تعبيرها عنها . فقد حدث مثلا أن ذهب أحد تلاميذ الامام لزيارته ، وقد استحضر معه من الخارج زجاجة عطر فرنسية ، هدية له . وعلى باب بيت الامام استوقفه شباب الحرس وأثاروا معه « قضية » أن زجاجة العطر تحتوى على « كحول » . ولم يغيروا من رأيهم فى الهدية إلا بعد أن أبلغهم الزائر بأن الامام يستعمل هذا العطر أحيانا ، وطلب منهم مراجعته للتثبت من ذلك ، حدث أيضا أن لجأت بعض المدارس إلى حلق شعور التلاميذ بالكامل ، على اعتبار أن إطلاق الشعر وتصفيفه من سمات « الطواغيت » . ولم تتوقف المدارس عن ذلك إلا بعد أن انتقد آية الله منتظرى مثل تلك التصرفات ، ووصف المسئولين عنها بأنهم يسيئون إلى الإسلام .

ـ السبب الثانى أن الذين كانوا يتعاملون باسم الثورة مع تفاصيل الحياة اليومية للناس لم يكونوا فى مستوى الثورة ذاتها . لم يكونوا أفضل تعبير عنها من حيث الوعى والادراك . رغم أن أغلبيتهم الساحقة من الشباب المخلص الذين

اندفعوا لتغيير معالم المجتمع بصورة تذكرنا بممارسات ـ وحماقات ـ الحرس الأحمر من شباب الثورة الثقافية التى أعلنها ماوتسى تونج فى الصين عام ١٩٦٦ . وهؤلاء الشباب توزعوا على حرس الثورة واللجان الثورية (الكوميتات) ، الذين كان من مسئولياتهم « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » . ولأن هؤلاء لم يكونوا كوادر الاسلاميين ، إذ لم يكن لهم كوادر أساسا ، وكان اعتمادهم على الشارع ، فقد ارتكبوا أخطاء فادحة وجسيمة ، سواء فيما تصوروه أمرا بالمعروف أو ما صادروه نهيا عن المنكر . وذهب هؤلاء إلى حد « الاجتهاد » فى أمور الحلال والحرام والمقبول والممنوع ، حتى تندروا فى قم « بحَوْزة الكوميتات » . ووصف أحد رجال الثورة تصرفاتهم تلك بأنها « تخريبية » و . . منكرة ، تعسفية ، بذيئة »(٤) . كما تعرضت ممارساتهم لانتقادات حادة من جانب قيادات الثورة ، وعلى رأسهم الامام الخمينى . الذى ألقى خطابا فى أول أبريل ١٩٨١ ، بمناسبة الذكرى الثالثة لتأسيس الجمهورية ، قال فيه : أن بعض حراس الثورة يتجاوزون وظيفتهم الرسمية ، ويجافون أسلوب الشرع والاعتدال ، ويتدخلون فى الأمور التى تخص المحاكم وغيرها من الهيئات و . . على المجلس الأعلى لحرس الثورة أن يراقب بدقة كل تلك التحركات ، حتى لا تفقد المجموعات المؤمنة سمعتها بين الشعب ، وحتى لا تنفذ العصابات المنحرفة بين صفوف الثوار(٥) .

قال الخمينى هذا الكلام بعد أن قام بعض شباب حرس الثورة الذين كانوا أعوانا لحجة الاسلام صادق خلخالى ، قاضى محكمة الثورة ، بتنفيذ حكم الاعدام من جانبهم على ست من « فنانات » الملاهى الليلية ، من غير ذوات السمعة الحسنة ، باعتبارهن من « المفسدات فى الأرض » . هكذا بغير محاكمة ودون علم السلطة . وقد تم اعتقالهم وحوسبوا على ما اقترفوه ، وإن لم يقدموا للمحاكمة .

أيضا فان شباب الحرس دخلوا فى عام ٨١ بيتا لأحد كبار أطباء القلب فى طهران ، الدكتور معصومى ، أثناء احتفال أقامه ذات مساء لمناسبة ما ، ولما وجدوا خمورا ضمن المشروبات المقدمة للضيوف ، اقتادوا الرجل ،

---

(٤) الشيخ مسيح مهاجرى مسيرة الثورة الاسلامية ص ٨٧

(٥) توجيهات الامام الخمينى ص ٢٤٩

وجلدوه ، باسم تنفيذ حد شارب الخمر عليه . وتبين فيما بعد أن الدكتور معصومى هو الطبيب المعالج للامام الخمينى . وقد هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد الحادث ، ولا يزال .

بعدما تكررت مثل تلك التصرفات أصدر الامام الخمينى بيانا (فى ١٥ ديسمبر ١٩٨٢) من ثمانى نقاط ، عرف باسم « فرمان هشت ماده اى » ، تركز حول ضرورة احترام حرمات الناس ، والنهى عن اقتحام البيوت والتلصص على سكانها ، والتأكيد على ضرورة سلطة الدولة فى حساب وعقاب من يثبت فى حقهم الانحراف أو الخطأ .

هذه الملابسات لم توقف حركة التغيير الحادث فى نسيج الحياة بطهران ، ولكنها قد تلقى الضوء على الظروف التى أحاطت به ، وأثرت على مسيرته سلبا وايجابا .

كما خلع شارع ولى عصر أقنعته وثيابه المزيفة ، كذلك فعل الناس . صار الايرانيون ايرانيين أقحاحا ، على الأقل فى مظهرهم الخارجى .

لم يكن البديل بالصورة المرجوة . . وربما جاء معيبا ومنقوصا ، لكن ذلك لا يهم الآن . ليس فقط لأن امكانية التحسين قائمة ، ولكن أيضا لأن بعض الحقيقة خير من أى زيف ، كما أن الحقيقة المعيبة أفضل من الحسن المزور . فأن تكون ذاتك بخيرك وشرك ، أفضل من أن تتقمص ذاتا أخرى ، مهما كان كمالها وجمالها . لأن الخيار هنا بين الصدق والاستقامة ، وبين الترقيع والانتحال .

الرجال والشباب تغيرت أشكالهم . الأغلبية الساحقة أطلقت لحاها . والذين لم يطلقوا لحاهم ، لم تعد حكاية الحلاقة اليومية ، أو حتى تمشيط الشعر أحيانا ، من القيم التى يحرص الناس عليها . ذهبت لأجدد الاقامة فى مركز الشرطة ، فوجدت كبير الضباط له لحية أشبه بلحية ياسر عرفات ، لا هو أطلقها ولا هو حلقها ! . . الشهيد محمد رجائى رئيس الجمهورية السابق كان نموذجا لهؤلاء ، إذ نادرا ما ظهر حليق الذقن . بل كان وجهه ومظهره نموذجا لأى اعلان عن المستضعفين !

انقرضت قيمة التفرقة بين ثياب الصباح وثياب المساء . تحولت إلى أضحوكة وعلامة على الإنتماء إلى عالم « المستكبرين » . وهو ما يسارع الناس إلى التبرؤ منه .

وربما لأن « الدراويش » لا يرتدون أربطة العنق ، فقد اختفت تلك الأربطة من سطح الحياة فى ايران . دخلت التاريخ . وصارت مثل « الإزار » الذى كان يرتديه أهل الجزيرة العربية قديما ، أو الطرابيش فى مصر . لم يعد يرتديها إلا قلة نادرة ممن لا يزالون يتشبثون بالزمن الذى مضى . طوال شهر قضيته بايران ـ فى احدى الزيارات ـ لم أر مسئولا ، فى القمة أو فى القاع ، يرتدى ربطة عنق . لا فى اجتماع رسمى ولا فى حفل استقبال ، ولا فى المكاتب بطبيعة الحال .

لم تعد « الوجاهة » قيمة يحرص الناس عليها ، كما قال الشيخ رفسنجانى بحق . ذهبت مرة للقاء وزير جهاد البناء ، المهندس بيجان ناندار زنجنى ، فلم أستطع أن أميزه من بين السكرتير وطابع الآلة الكاتبة . صافحت الأخير باحترام زائد ظنا منى أنه الوزير ، بعدما لاحظت أنه الوحيد الذى ارتدى حذاء فى قدميه . كان كل من الاثنين الآخرين قد ارتدى نعلا من « البلاستيك » بينما تدثر الثلاثة بصدارى متشابهة من الصوف !

بالغ البعض فى إهمال المظهر ، وصارت تلك إحدى القضايا التى يثيرها الشيخ رفسنجانى بين الحين والآخر فى جمعة طهران .

لم يكن ممكنا أن يحدث هذا كله إلا فى ظل مرحلة نجومها هم الدراويش والمستضعفون ، ومحورها هو التحالف بين أبناء الحوزة وأبناء الأزقة والحوارى !

عن مجتهدة اصفهان ومع نائبة طهران

وضع المرأة فى الظروف المستجدة لم يتبلور بعد . فهى غائبة وحاضره فى آن واحد . الغياب المحقق لها ثابت على مستوى القيادة السياسية ، والحضور قائم فى ميدان التبليغ والدعوة ، وفى مجلس الشورى ، وفى حرس الثورة ، وفى مختلف ميادين الرياضة وجميع الوزارات والمرافق .

ففى حين لا يجد المراقب أثرا لدور تقوم به النساء على المسرح السياسى ،

فانه قد يسمع الكثير عن أسماء لنساء برزن فى مجال الفقه والدعوة بوجه أخص . فى المقدمة يذكر اسم « حاجية خانوم أمين أصفهانى » أى الحاجة السيدة أصفهانى . (لا يذكر اسم المرأة عادة ولكنها تنسب إلى زوجها ، ربما تأثرا بالتقاليد الأوروبية) . . وهى سيدة اشتهرت فى أصفهان ، حيث درست فى حوزتها العلمية طويلا ، وبلغت مرحلة الاجتهاد ، لكنها ماتت سنة ١٩٨٣ . ولها مؤلفات بالفارسية مثل : الأربعون الهاشمية (الأربعون حديثاالنبوية) ـ نفحات الرحمانية ـ سير وسلوك فى تاريخ العرفان الآلهى ـ فى تفسير القرآن . . .

فى طهران اشتهرت ثلاث خطيبات ، لهن جمهور كبير هن : خانوم (السيدة) دستغيب ـ خانوم بهروزى ـ خانوم رجائى ، زوجة الشهيد محمد رجائى رئيس الجمهورية السابق .

وربما ساعد على ظهور هذه الأسماء أن « المبلغات » يمارسن نشاطا فى مجتمع الشيعة الامامية منذ زمن ، وهن اللاتى يقمن بالدعوة فى « الفاطميات » ، وهى منتديات للثقافة الاسلامية مخصصة للسيدات (الكلمة مشتقة من اسم السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول) وهذه الفاطميات موازية « للحسينيات » ـ نسبة للامام الحسين ـ وهى مخصصة للرجال فى أغلب الأحوال .

وفى ظل المد الذى تزامن مع الثورة ، فقد كان طبيعيا أن يتنامى دور الفاطميات والحسينيات باعتبارها الركائز التى اعتمدت عليها الثورة ـ مع المساجد ـ فى تعبئة الجماهير . ومع أهمية دور الفاطميات ، اكتسبت الدعاة أهمية مماثلة ، ومتنامية .

فى مجلس الشورى ٤ سيدات ، نجحن من بين ٣٧ سيدة رشحن أنفسهن فى الانتخابات ، وليس لهن حضور سياسى ظاهر ، سواء لقلة عددهن أو لمحدودية تجربتهن . « خانوم » دستغيب هى ممثلة طهران فى المجلس ، وعضو فى لجنة التربية والتعليم ، بحكم خبرتها فى مجال التعليم التى امتدت ثلاثين عاما . حيث عملت بالتدريس فى الثانوى والجامعات ، وتولت ادارة معهد اعداد وتربية المعلمات فى طهران ، قبل أن تحال إلى التقاعد . غير أنها تعتبر أن قضيتها الأولى فى المجلس هى : الدفاع عن حقوق المرأة الايرانية .

السيدة دستغيب تعتبر أن دستور الثورة الايرانية حقق كسبا هاما للمرأة عندما

نص فى مادته الواحدة والعشرين على مسئولية الحكومة عن حقوق المرأة فى كافة المجالات ، وحملها واجبات خمسة هى :

- ■ توفير الظروف الملائمة لانضاج شخصيتها واحياء حقوقها المادية والمعنوية .
- ■ حماية الأمهات ، خاصة فى الحمل والحضانة وحماية الأطفال فاقدى الولى .
- ■ ايجاد محكمة صالحة للحفاظ على كيان الأسرة .
- ■ توفير ضمان خاص للأرامل والنساء العجائز .
- ■ احالة رعاية الأولاد إلى الأمهات الصالحات فى حالة انعدام الولى الشرعى .

وهى إذ تحفظ نص المادة ٢١ عن ظهر قلب ، تقول أن تنفيذ بندها الرابع يستغرق جهدها كله . لأن عدد الأرامل والعجائز اللاتى بحاجة إلى تأمين معاشهن كبير للغاية ، بالأخص فى ظل استمرار الحرب . وهو ما يتطلب توفير ميزانية ضخمة ، يتعذر اعتمادها فى الظروف الراهنة . ولذلك فانها تسعى جاهدة ـ مع زميلاتها فى مجلس الشورى ـ لدفع الهيئات المختلفة المعنية بالعمل الاجتماعى ، لكى تسهم فى سد هذه الثغرة .

فى غير هذا المجال ، فانها تنفى مقولة أن النساء لهن دور هامشى فى مجلس الشورى . وتدلك على فاعلية دورهن بأمرين :

ـ الأول أنهن نجحن فى استصدار قانون يعطى المرأة حق رعاية الأولاد ، فى حالة استشهاد زوجها ، ما دامت راغبة فى ذلك . وكان الحاصل قبل هذا القانون أن يتولى الاجداد هذه المهمة ، بحكم انتقال الولاية الشرعية اليهم بعد وفاة الابن . مما كان يدفع البعض إلى انتزاع الأبناء من أمهاتهم ، ليستأثروا بتربيتهم بعيدا عنهن ، وفى ظل حماية القانون تغير هذا الوضع منذ ثلاث سنوات ـ بعد التعديل ـ وحقق نتائج ايجابية للغاية .

ـ الأمر الثانى انهن نجحن فى استصدار قانون يعطى الموظفة التى تربى اطفالا صغارا ، الحق فى العمل بنصف دوام « الوقت » ، وبأجر كامل ، بحيث

تستطيع أن تؤدى واجبها التربوى فى البيت ، دون أن يؤثر ذلك على اجرها الذى تتقاضاه من الوظيفة .

هى معنية أيضا بتكريس وجود المرأة فى الكوادر التعليمية لمدارس البنات ، وفى المهن الأكثر ملاءمة لطبيعتهن . وتقول أن ذلك تحقق بنسبة كبيرة فى مدارس البنات ، وأن معدلات الاقبال على مهنة التمريض وتخصص الأمراض النسائية فى كليات الطب ، زادت بشكل ملحوظ بعد الثورة . وكان ملحوظا قبل ذلك أن أكبر أطباء أمراض النساء من الرجال !

ضغوط لتكريس المجتمع المنفصل

ورغم أن تجنيد النساء ألغى بعد الثورة ، وكان نظام الشاه قد أدخل فكرة تجنيد الفتيات تحت مظلة الثورة البيضاء ، إلا أن الفتيات اشتركن فى تشكيلات حرس الثورة منذ البداية . . ولهن دورهن فى جبهة القتال إلى الآن ، حيث يسهمن فى رعاية الجنود ، والاشراف على شئون التغذية والخدمات والتمريض .

فكرة المجتمع المنفصل تظهر فى بعض المجالات ، إلا أنها تغيب تماما فى مجالات أخرى ، فتوجيه الامام هو أنه فى ظل الاحتشام ليس هناك ما يمنع الاختلاط . إلا أن عادات المجتمع المحافظ والمنفصل تزحف تدريجا . ففى أكثر المنتديات العامة ، تجلس النساء فى جانب والرجال فى جانب آخر . من دروس الجامعة إلى المؤتمرات والمحاضرات ـ حتى فى حفلات الزفاف التى تقام بالفنادق ، تتم القسمة ذاتها . وفى المواصلات العامة خصص باب للنساء وآخر للرجال . وفى الشواطىء هناك مكان لسباحة النساء . وفى الأندية الرياضية تمارس الفتيات نشاطاتهن فى أماكن منفصلة .

فى دواوين الحكومة الوضع مختلف ، فالاختلاط قائم فى كل الادارات ، فضلا عن أنه لا قيود على شغل الوظائف بالنسبة لهن . وهو وضع يسرى على مختلف مجالات العمل الأخرى ، وربما كان أكثر ما يلفت نظر القادم إلى مطار طهران ، كثرة العاملات فيه . وهى سمة ظاهرة فى مختلف ميادين الخدمات بوجه أخص .

وثمة جهود مستمرة من جماعات الضغط المحافظة والمغالية ، التى تضم بعض الفقهاء التقليديين وأتباعهم من الشباب المندفع ، لتكريس وضع المجتمع المنفصل ، وتوسيع نطاق العزل بين الجنسين . وتقليص مجالات التوظف أمام النساء . لكن تلك الضغوط مازالت تواجه بمقاومة شديدة من جانب رجال خط الامام .

من المهن أوالحرف التى شهدت ضمورا بعد الثورة ، تلك التى تتصل بتجميل النساء ، فى بيوت الأزياء ومحال تصفيف الشعر.. إذ أن انتشار « الزى الاسلامى » الفضفاض ـ بعض الفتيات يرتدين بنطلونات « جينز » تحته ـ أدى إلى كساد سوق الأناقة ، فضلا عن أنه لم يعد هناك وجود للمجتمع « المخملى » الذى يفتح الباب لمختلف أساليب الوجاهه والتأنق . وانما كاد الأمر يصبح محصورا فى المناسبات الخاصة ، مثل حفلات الزفاف ، إذ هى وحدها التى بات النساء يظهرن فيها بثيابهن الأوربية وشعورهن المصففة ، وغير ذلك من بقايا علامات مجتمع « المستكبرين » .

وفى حين تقلص إلى حد كبير عدد محال تصفيف شعر النساء ، فان الاشتغال بتلك المهنة بات مقصورا على النساء دون غيرهن .

تغير شكل النساء بطبيعة الحال . إذ لم يعد ممكنا أن ترى فى طهران ، أو فى أى مدينة ايرانية أخرى ، امرأة حاسرة الرأس أو ظاهرة الزينة والتجمل . فقد بات الحجاب شيئا ضروريا ومقررا على الجميع ، المسلمات وغير المسلمات ، الايرانيات والأجنبيات .

لم يصدر بذلك قانون ، ولكنك تجد فى مختلف ادارات الحكومة والمرافق والمتاجر ، اعلانات تمنع دخول المرأة غير المحجبة . فى كل من تلك الأماكن تواجهك ـ على المدخل ـ أمثال تلك العبارة : ورود بدون حجاب اسلامى أكيدا ممنوع إست . . أى ممنوع منعا باتا .

فى مرحلة الثورة على الشاه سنتى ١٩٧٨/٧٧ ـ كانت الايرانيات يتسابقن على ارتداء « الشادور » ، اعلانا عن مقاومة سياسة التزييف والتغريب ، والتمسك بالهوية ، كان الشادور بمثابة علم وطنى أشهرته الايرانيات فى وجه الشاه .

بعد الثورة اختلف الأمر . تحول الشادور إلى قضية أثارت جدلا طويلا ، مازال مستمرا فى داخل ايران وخارجها إذ اعتبرت السلطة ضمنا أن الحجاب زى اسلامى ملزم للجميع . وتولت لجان الثورة تطبيق هذا التوجيه ومتابعة الالتزام به فى الشوارع . واندفع الشباب فى هذا الاتجاه حتى أساء بعضهم التصرف ، وتجاوز حدود النصح والارشاد إلى الأهانة والتقريع . وقيل لى أنهم كانوا يستوقفون بعض النساء فى الشوارع ، ويطالبونهن باحكام غطاء الرأس أو ازالة الاصباغ من الوجه .

كانت هناك اندفاعة فى فرض الحجاب ، مماثلة للاندفاعة التى حدثت أثناء حكم رضا شاه إبَّان محاولة نزع الحجاب وفرض السفور . والإمام الخمينى ذاته هو الذى هاجم بعنف فى الأربعينات تلك المحاولة . وقال فى كتابه « كشف الأسرار » : « أن الحكومة التى يقوم أعوانها المهووسون والجلادون من رجال الشرطة ، بالاعتداء على النساء العفيفات ، واجبار المسلمات فى المدن والقرى على رفع الحجاب عنهن بقوة السلاح ، ما هى إلا حكومة ظالمة ، والتعاون معها ليس الا تعاونا مع الكفر » ص ٢٣٩ .

مع رأس القضاء ـ حوار حول الحجاب

كنت واحدا من الذين لم يستسيغوا تدخل الدولة فى فرض الحجاب على النساء . وتمنيت أن يعالج الأمر بقدر من التدرج والحكمة ، فتتولى الحكومة التوجيه والارشاد ، أداء لمسئوليتها ، ثم تترك عملية الاستجابة لقناعات الناس ، دون ارغام أو اكراه .

باختصار ، كانت لى عدة استفهامات وتحفظات ، انتهزت فرصة لقائى مع آية الله السيد موسوى أردبيلى رئيس مجلس القضاء الأعلى ، ووضعتها أمامه ، ضمن قضايا أخرى عديدة .

قلت له : أفهم أن تتدخل الدولة فى تطبيق الأحكام الشرعية ، ولكن الذى لم أفهمه هو لماذا تتدخل فى تطبيق الآداب والأخلاق الاسلامية . وهى أمور يفترض أنها تنبع من داخل الانسان ، ولا يمكن أن يلزم الناس بها عبر السلطة أو القانون .

قلت أيضا : موضوع الحجاب تحديدا ، نموذج ساخن للقضية التى أطرحها . .

قال السيد أردبيلى : يجب أن نفرق بين المبدأ والأسلوب . وأنا أوافق على التفرقة بين الأحكام الشرعية والآداب الاسلامية . ولكنى أضيف أن المسائل التى لم ينصّ فيها على حكم شرعى لا ينبغى أن تترك بغير تدخل من جانب الدولة . فهناك أمور منهى عنها فى القرآن ، ولكن الشارع ارتآى ألا ينص على حكم بصددها . وفى حين أن هناك جرائم منصوص عليها فى القرآن ، فثمة جرائم أخرى بغير حصر استجدت فى حياة المسلمين ، ولمواجهة هذا الموقف استقر رأى الفقهاء على أن للحاكم أو الشارع المسلم أن يباشر مسئوليته من باب « التعزير » ، فيجتهد فى عقاب المخالفين أو مرتكبى تلك الجرائم الجديدة ، بالصورة التى تحمى مجتمع المسلمين ولا تخل بقواعد العدل .

أضاف كبير القضاة ورئيسهم : فيما يتعلق بالحجاب ، فنحن أمام نص قرآنى يقول عن النساء : « . . ولا يبدين زينتهن إلا لبعُولتهن » . ونحن نعتبر أن السفور ، من كشف للشعر والذراعين والساقين وغير ذلك ، يعد انتهاكا لهذا النص . فضلا عن أن فقهاء الشيعة يرون أن حجاب الفتاة واجب من سن البلوغ ، الذى هو التاسعة من العمر .

إذا كان هذا هو الموقف الشرعى الذى نتصوره ونؤمن به ، وإذا كنا بصدد تطبيق الاسلام فى ايران ، هل نتجاهل الموضوع ليظل ظاهر مجتمعنا كما كان قبل الثورة ، وأنت تعرف كم كان قدر الخلاعة والابتذال الذى أتاحه نظام الشاه ، أم نتدخل بالتوجيه لنصبغ مجتمعنا بتقاليد الاسلام وأدبه ؟

ثم قال : أن الشارع ملك للمجتمع ، ينبغى أن يتحلى بآدابه ويحترم تقاليده ، ولا نستطيع أن نقبل مقولة أن لكل واحد أو واحدة مطلق الحرية لكى يفعل ما يشاء فى الشارع . ليفعل كل شخص ما يحلو له فى بيته ، أما إذا خرج إلى الشارع فقد خرج إلى المجتمع . خرج من الخاص إلى العام . ويجب أن يلتزم بالاطار العام .

قلت : ما هو المقصود « بالتوجيه » الذى تمارسه الدولة للتخلق بأخلاق

الاسلام ، علما بأن هناك أمورا منهيا عنها لا تتحقق الا بدافع من ضمير الانسان ، ولا تملك الدولة إزاءها شيئا ، مثل الكذب والنفاق والنميمة والغش ، وما إلى ذلك .

قال : أولا نحن نعتبر أن كل ما هو متعلق بالأخلاق والآداب من الأمور التى يعزِّر فيها الحاكم عن طريق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبالحكمة والموعظة الحسنة . والدولة تقوم بواجبها قدر المستطاع ، هناك أمور تعالج بالتربية الاسلامية الصالحة ، وهناك أمور تعالج بالتوجيه والالزام الأدبى . والحجاب يدخل فى التصنيف الثانى . وما لا يدرك كله ، لا يترك كله ، وعملية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تتولاها الآن لجان الثورة فى مختلف الأحياء . وعند فقهائنا فإن لهذه العملية درجات تبدأ بالنصح والارشاد ، وتتصاعد إلى التوبيخ ، وحدها الأقصى هو « الضرب » ، إذا اقتضى الأمر ذلك . وفيما أعلم فان موضوع الحجاب عولج بالنصح والارشاد ، ولم يذهب إلى أكثر من التوبيخ فى حالات استثنائية ضيقة الحدود .

قلت : سمعت الكثير عن تجاوزات من جانب شباب لجان الثورة فى هذا الصدد .

قال : أن تطبيق تعاليم الاسلام يجب أن يتم بأدب الاسلام . ونحن لا نقر أى أسلوب فظ أو غير لائق أتبع تجاه أى فتاة أو سيدة ايرانية . لكنك تستطيع أن تتصور حماس شباب بغير حصر انخرطوا فى تلك اللجان خلال المرحلة الأولى من الانتفاضة ، وأدوا دورا هاما فى تثوير الشارع وتحريضه ضد الشاه . ثم فرحوا بالانتصار ، وتعجلوا قطف الثمار واقامة المجتمع الاسلامى ، وتصرفت كل جماعة منهم على النحو الذى أسعفهم به اجتهادهم ووعيهم . وقد فتح ذلك بابا للتجاوز والافراط ، الذى عولج فى حينه .

ثم سألنى السيد أردبيلى : هل سمعت عن تصرفات من هذا النوع لشباب لجان الثورة الآن (أول ١٩٨٥) أم أن الذين نقلوا لك الكلام كانوا يتحدثون عن الماضى . .

قلت : للأمانة ، فقد كانوا يتحدثون عن سنتين وثلاث سابقات . وقد لفت نظرى أن نسبة غير قليلة من الايرانيات وضعن الأصباغ على وجوههن فى

الشوارع ، وأن بعضهن ، فى شمال طهران خاصة . استبدلن الشادور بخمار خفيف يغطى شعر الرأس بالكاد .

قال شيخ القضاة : لست سعيدا بهذا الذى تقول ، لكنى أحمد الله !

تقاليد الحوزة فى دواوين الحكومة

كان موعدى مع السيد موسوى اردبيلى بعد الظهر . وعندما ذهبت إليه فى مكتبه بأحد ملحقات القصور المصادرة ، كان باب البناية الداخلى مغلقا ، وأمامه صف طويل من الأحذية المخلوعة . لم أفاجأ بالأمر فتلك عادة شائعة فى كثير من البيوت الايرانية ، ناشئة فى الأساس عن الشك فى طهارة الحذاء . ويقتضيك العرف أن تخلع حذاءك عند الدخول . وان كان الجديد فى الأمر هو انتقال ذلك العرف إلى المكاتب ، وبالذات مكاتب كبار المسئولين الذين يباشرون نشاطاتهم من داخل القصور القديمة والعريقة . اقترن ذلك « التطور » بمرحلة وصول الفقهاء إلى السلطة ، ضمن جملة الأعراف والقيم الأخرى التى زحفت على مختلف مواقع السلطة والادارة .

اجتزت الباب ، فاذا البهو مغطى بالبسط الصناعية (الموكيت) . وضعت البسط حيثما أتّفِق ، وفى المواجهة نصب مكتبان جلس وراءهما اثنان من الشباب الحفاة ، يخيل اليك أنه جىء بهما من الزقاق قبل لحظات ، حتى قبل أن يغتسلا !

دخلت على آية الله اردبيلى . فوجدته جالسا على مقعد مرتفع قليلا عن الأرض ، بينما آخرون جلسوا القرفصاء فوق البساط . أحدهم اصطحب معه طفلا صغيرا فى السابعة من العمر . اخترت مقعدا جلست عليه صامتا فى انتظار انتهاء حديثه مع الآخرين ، لأنفرد بالرجل وأوجه اليه أسئلتى . وجدت الجميع صامتين ينتظرون منى أن أتكلم . تبين أن الجالسين القرفصاء سيشاركوننى اللقاء . لم أفاجأ أيضا بالأمر ، فقد تكرر المشهد معى فى لقاءات سابقة مع مسئولين آخرين . بحيث لا أستطيع أن أزعم أننى أجريت لقاء « خاصا » مع أى منهم . إذ أن الشيوخ نقلوا جو « الحوزة » إلى مكاتبهم مهما عظم شأنها . حتى باتت « الحلقة » جزءا من تقاليد تلك المكاتب . فالشيخ لا يريحه ولا يسعده أن يتحدث إلى فرد ،

ولكن قلبه ينشرح ولسانه ينطلق إذا تحدث إلى جمهور . لم يكن ذلك مقصودا بطبيعة الحال ، ولكنه وضع نما واستقر دون وعى .

قضيت ساعة مع السيد أردبيلى ، كان شهود اللقاء جالسين فى صمت ، واحد فقط تدخل ليذكر بآية قرآنية . والثانى أضطر للنهوض بعدما ألح عليه طفله ليحمله إلى دورة المياه . . وإلى أن غادرت مجلس الشيخ ودخل غيرى ، كانت الحلقة لا تزال مستمرة .

فى العام الأول للثورة ، ذهب الشيخ صباح الأحمد نائب رئيس الوزراء ووزير خارجية الكويت للقاء الامام الخمينى ، على رأس وفد رسمى . توجهوا إلى مقر الامام بقم فى الموعد المحدد بهدف مناقشة بعض القضايا الهامة التى رأت الكويت أن تصارح بها قيادة الثورة . تصوروا فى البداية أنهم سيعقدون جلسة مغلقة مع الأمام ، يتبادلون خلالها الرأى حول تلك القضايا التى تشغلهم ، لكنهم فوجئوا بأن الحجرة التى جلس فيها الامام تغص بالشهود ، الذين كانوا خليطا من الزوار والمرافقين والحرس ، حتى انتهز سائقو سيارات الوفد الفرصة ، وانسلوا ليتبركوا بالامام . تحول اللقاء إلى حلقة مفتوحة لم يستطع الشيخ صباح الأحمد خلالها أن يقول كلمة مما أراد أن يفاتح به الامام . وعاد الوفد إلى الكويت كما ذهب . وظلت القضايا المعلقة كما هى !

المشهد ذاته تكرر مع الأستاذ محمد حسنين هيكل ، الذى صحبته فى لقائه مع الامام فى قم ، بداية عام ١٩٨٠ . وقتئذ كان الأستاذ هيكل يعد كتابه « مدافع آيات الله » . وذهب لمناقشة الامام فى بعض النقاط التى أعدها ، ربما ليستكمل بها حوارا جرى بينهما وقت أن كان الامام فى باريس ، وقبل العودة إلى طهران . لم يتم اللقاء بالصورة المأمولة ، لأنه تحول إلى خطاب من الامام إلى جماهير الحلقة ، رد فيه الخمينى على بعض النقاط التى أثارها الأستاذ هيكل . والأكثر من ذلك ، فإن ما تصوره هيكل حوارا أجراه مع الامام ، ليضمنه كتابه الذى سيصدر بعد عدة أشهر ، أذيع على الملأ بالكامل من تليفزيون طهران فى مساء اليوم ذاته !

فى كل لقاء لى مع المسئولين بطهران ، كانت بصمات مجتمع الدراويش تطل بصورة أو أخرى . ولأننى تعلمت من مهنة الصحافة أن أسجل انطباعاتى عن



• مواكب السائرين بالاكفان تظهر فى كل مناسبة ، وتخاطب الوعى العام بلغة يفهمها جيدا

كل لقاء ، فور الإنتهاء منه ، وقبل أن تضيع ملامحه من الذاكرة المنهكة ، فقد وجدت بين أوراقى التى عدت بها من طهران ، ملاحظات وانطباعات عديدة عن مقابلات المسئولين ، استوقفنى منها ما كتبته عن ظروف لقاء ثلاثة منهم هم : آية الله جنّتى ، عضو مجلس صيانة الدستور ورئيس منظمة الاعلام الاسلامى ، وحجة الاسلام صادق خلخالى قاضى محاكم الثورة الأشهر ، وعضو مجلس الشورى المنتخب عن مدينة قم . والدكتور أحمد أحمدى مقرر لجنة الثورة الثقافية .

كانت ملاحظاتى التى دونتها فى طهران عن لقاء هؤلاء الثلاثة على النحو التالى :

■ « ذهبت للقاء آية الله جنتى فى مكتبه بأحد قصور أسرة الشاه المصادرة . قادنى أحد الجنود عبر حديقة واسعة توسطتها نافورة جميلة . لم يفقد القصر بعض مظاهر فخامته . فجدرانه اللامعة ، وثريات الكريستال التى تشع ضياء ، والبسط الفاخرة الممتدة فوق أرضيات الرخام وخشب « الباركيه » ما زالت كما هى . وبعض قطع الأثاث ذات الطرز الفرنسية العريقة موزعة فى الأركان بعناية . لكن العين تلمح على الفور آثار « الدراويش » الذين نزحوا إلى القصر ، من فقراء الايرانيين وعلمائهم . فأحذية حرس الثورة تواجه المار عبر المدخل الأنيق ، وبعض أوانى الألومنيوم تطل من إحدى قطع الأثاث الفرنسى . كما أن الأمر لا يخلو من لمبات « نيون » ثبتت فى بعض الأركان إلى جانب الثريات الفخمة ، فى حين تناثرت بعض الأحذية المغبرة والمبللة على باب قاعة فسيحة حولت إلى زاوية للصلاة . أما صور الامام الخمينى وأقواله فهى القاسم المشترك فى كل الحجرات ، بل فى كل واحد من الجدران الأربعة لكل حجرة ، فى حين أنزلت الصور الزيتية التى رسمها مشاهير الفنانين ، ورصت فى ركن جانبى ، وقد أعطت ظهورها للعابرين » .

■ « لم يكن موعدنا مع حجة الاسلام صادق خلخالى فى ساعة محددة ، ولكنه كان « بعد صلاة المغرب » . ذهبت مع صديق إلى بيته الذى استأجره من مؤسسة الشهيد ، فى منطقة جمران شمال طهران . البيت من طابقين ، وقد أحاط به سور كبير . على ضلع السور المطل على الشارع ، والذى يبلغ طوله حوالى ٥٠٠ متر ، كتبت عبارة تقول : كل ذنبنا اننا وقفنا ضد أمريكا . بحروف ضخمة وألوان زاعقة كتبت العبارة باللغة الانجليزية على مساحة بطول نصف السور . وكتبت باللغة الفارسية على نصفه الثانى ، وبين اللافتتين كان باب البيت .

ضغط مرافقى على جرس الباب فلم يرد أحد . كرر الضغط مرتين وثلاثا ، فلم نسمع استجابة من أى نوع ، سألنا حارسا كان واقفا فى ركن مظلم من الشارع ، فقال أن الشيخ موجود ، وسيارته فى فناء البيت ، عدنا نضغط

الجرس ، ولا نتيجة . وبينما نحن وقوف فى حيرة وسط الشارع ، إذا بشخص يمر أمامنا متجها إلى بيت الشيخ . وقبل أن يصل إلى الباب انحنى على الأرض وحمل حجرا بحجم لا بأس به ، وضرب به الباب مرتين ، ثم التفت إلى مرافقى وقال : هذا هو الحل الوحيد ، فالنور مقطوع !

هبطنا درجا اكتست جنباته بالثلج الذى كان بياضه لامعا وسط الظلام الدامس ، ثم قادنا أحد الحراس لنصعد درجا آخر ، لكى نصل إلى مسكن الشيخ . خلعنا أحذيتنا ، أمام الباب ، ودخلنا إلى قاعة فسيحة خلت من الأثاث ، باستثناء بعض الحشايا والمساند التى رصت على الأرض والجدار فى ركن جانبى . كان الضوء شاحبا ، والمشهد غريبا ، بالنسبة لى على الأقل . كان هناك أشخاص تحلقوا حول طاولة مربعة ، لم يظهر منهم سوى رؤوسهم وأكتافهم ، بينما اختفت أجسادهم تحت لحاف كبير غطى الطاولة التى وضع فوقها مصباح يعمل بالغاز ، جىء به بعد انقطاع التيار الكهربائى . وفى مواجهة الجالسين وضع على الأرض جهاز تليفزيون كبير . أفهمنى مرافقى أن تلك هى جلسة الأسرة الايرانية فى أمسيات الشتاء الباردة . يضعون جمرات النار ـ أو المدفأة الكهربائية ـ تحت الطاولة ، ثم يغطون الاثنين بذلك اللحاف ، ذى الحجم غير العادى ، (يسمونه لحاف كرسى) . ويندس الجميع تحت اللحاف . يتمتعون بالدفء الذى يسرى مكتوما فى كل الأجساد ، وفى جلستهم تلك يتناولون العشاء ويتسامرون حتى موعد النوم .

كان الجالسون من حراس الشيخ ومرافقيه ، وكان إلى جوارهم جهاز راديو وتليفون وبعض أقداح الشاى . دعونا إلى الجلوس معهم . وقفت لحظة أحاول استيعاب الموقف ولكن مرافقى سبقنى وغاص تحت اللحاف . ترددت وقلت : أين سنلقى الشيخ ، فقال أحد حراسه ، بعد قليل سيجىء . . تفضل .

دخلت تحت اللحاف متحرجا ، إذ لم يسبق لى أن واجهت موقفا كهذا ، وجدتنى فيه تحت لحاف واحد مع أربعة من الغرباء ، ثلاثة منهم بلحى سوداء كثة ، تبدو عليهم خشونة وغبار القادمين لتوِّهم من جبهة القتال !

جاءوا لنا بالشاى ، ثم انصرفوا إلى أحاديثهم ، وأنا جالس أتململ ،

لا أعرف كيف سيكون الخروج من ذلك المأزق . خاصة وأنه لم يكن فى القاعة الفسيحة مكان للجلوس سوى هذا الركن .

بعد دقائق قدم علينا الشيخ من وراء ستارة كبيرة حجبت أهل البيت . فنهضت واقفا ، بأمل أن يقودنا إلى حجرة مكتبه التى فهمت أنها فى غرفة مجاورة بالطابق الأرضى ، ولكن الشيخ سلم علينا بحرارة ، وفى لحظة كان هو أيضا تحت اللحاف ، لا يظهر منه سوى رأسه ، بنظارته ولحيته وعمامته البيضاء ، ازداد حرجى ، فنحى الرجل اللحاف جانبا ودعانى للجلوس إلى جواره ، فقعدت مستسلما !

انشقت الأرض عن آخرين لا أعرف من أى ركن مظلم جاءوا . واكتشفت أن المتحلقين حول الطاولة ، الجالسين تحت اللحاف ، صاروا ثمانية أشخاص ، غير الشيخ ، وأنا ، والمرافق . وكان على فى هذا الجو أن أجرى الحوار مع الشيخ ، الذى كان يبدو بشوشا ، وفى حالة معنوية عالية ، ويتعامل مع من حوله كأنه جالس وسط أسرته . ويبدو أن ذلك شأن الشيوخ دائما ، لا يجدون أنفسهم إلا فى « مجلس » أو وسط جمهور أيا كان » .

■ « كان موعدى مع الدكتور أحمدى بعد صلاة الظهر مباشرة ، فذهبت إليه مبكرا بعض الشىء لأكسب وقتا أطول فى المناقشة معه . لكن سكرتيره بادرنى بقوله : عفوا . لقد جئت فى ساعة « نهار » وعليك أن تنتظر . ونبهت إلى أن مختلف أجهزة الدولة والمؤسسات يتوقف فيها العمل يوميا فيما بين الثانية عشرة ظهرا والواحدة ، لتناول الغداء ـ يسمونه نهار ـ ولصلاة الظهر . وهم مضطرون إلى ذلك ، بسبب الطول النسبى لفترة العمل ، التى تبدأ فى السابعة والنصف صباحا ، وتنتهى فى الثالثة من بعد الظهر .

فى مقر لجنة الثورة الثقافية كان الجميع يتناولون طعاما واحدا ، من رئيس اللجنة إلى حارس الباب . أو من الوزير إلى الخفير كما نقول . وكان الغداء عبارة عن صحن من الأرز وهو مقرر يومى ، وضعت عليه بعض الخضرة والمرق ، والتى تختلف من يوم لآخر . لكنها دائما تحتوى على ثلاثة مكعبات صغيرة من اللحم ، كل قطعة بحجم عقلة الأصبع تقريبا . والصحن بما فيه مغطى

بنصف رغيف طازج من الخبز الايرانى المعروف باسم « سانجاك » . وقد سمى كذلك لأنه يخبز على الحصى الملتهب .. وسانج هو الحصى بالفارسية .

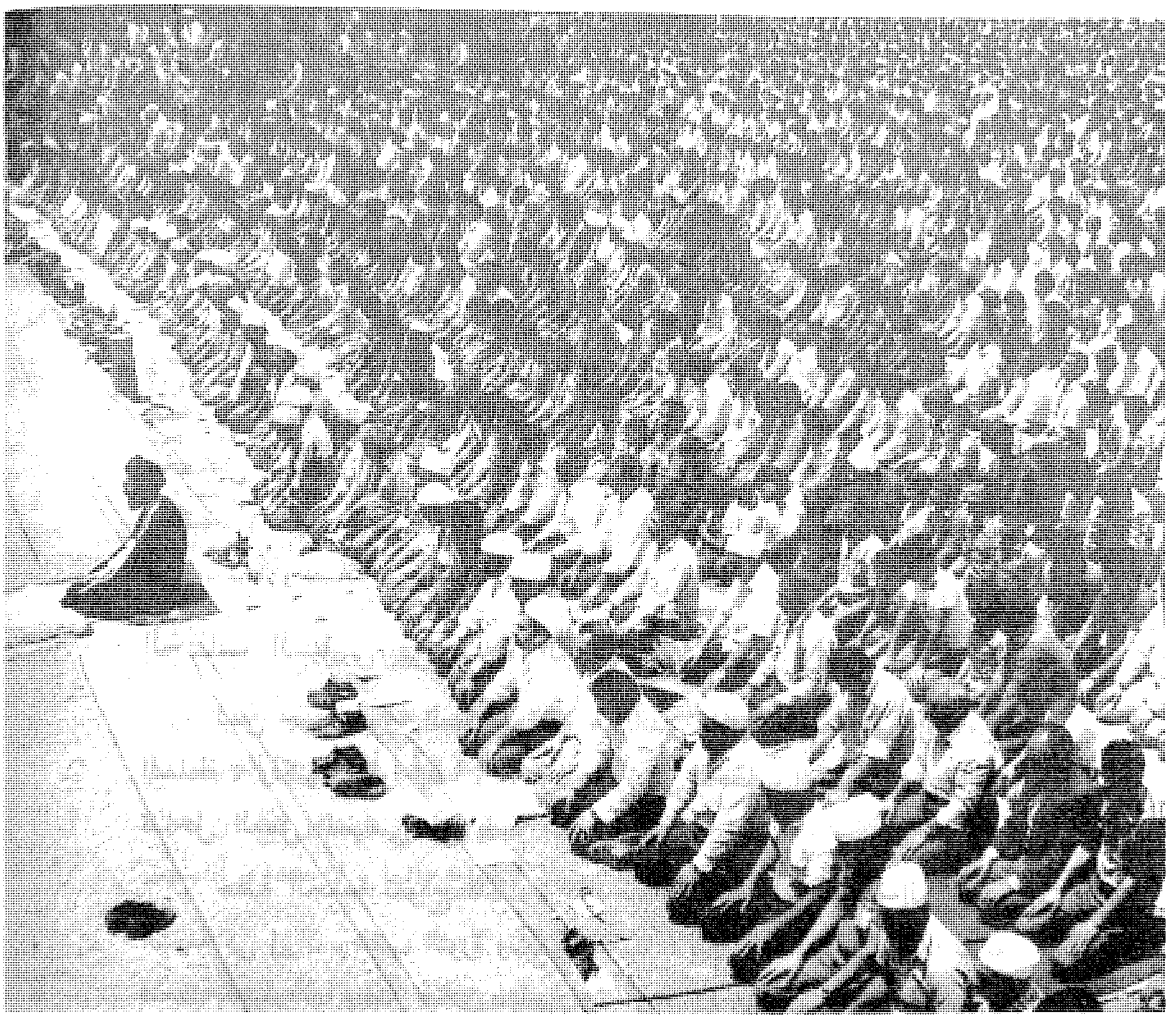
والقاعدة أن كل موظف يدفع ثمنا رمزيا لوجبة الغداء هو ٨٠ ريالا فى اليوم (حوالى سدس دولار) . ويتولى مطبخ البناية إعداد الطعام ، الذى يوزع فى صحون متماثلة على جميع العاملين فى ساعة « نهار » . الأكثرية تأكل فى مطعم مخصص لذلك . أما موظفو المكاتب الرئيسية الذين لا يستطيعون مغادرة مكاتبهم ، فانهم مضطرون للأكل حيث هم . . كان الدكتور أحمدى قد فرغ لتوه من الغداء والصلاة ، ولحقنا به على الشاى » . .

الخطاب السياسى فى صلاة الجمعة

ليس جو الحوزة العلمية وحده هو الذى نقله الفقهاء معهم إلى مواقع السلطة ، ولكنهم نقلوا أيضا « لغة » الحوزة إلى الخطاب السياسى ، ربما بقدر تداخل العمل السياسى فى باحة الحوزة .

خطبة الجمعة نموذج لذلك ، إذ منذ أعيدت صلاة الجمعة إلى مجتمع الشيعة فى إيران ـ عقب الثورة وتنصيب نائب الامام قائدا أعلى ومرشدا للأمة ـ قدمت باعتبار أنها « نماز عبادى سياسى » ، أى صلاة عبادية وسياسية . وصار منبر الجمعة منصة للتوجيه السياسى ، من فوقه تعلن المواقف وتذاع الأخبار الهامة ، المتصلة بمختلف الأمور المحلية والدولية ، جنبا إلى جنب مع الاجتهادات الفقهية والارشاد الدينى .

عادت صلاة الجمعة إلى عهدها القديم ، عندما كان الخلفاء والولاة يؤمون الناس وكانت الخطبة توجيها سياسيا ودينيا يعيش فى قلب الحاضر . فخطيب جمعة طهران هو السيد على خامنئى رئيس الجمهورية ، وهناك أئمة مؤقتون يتناوبون معه الخطاب وهم حجة الاسلام هاشمى رفسنجانى ، وآية الله السيد موسوى اردبيلى ، وآية الله مهدوى كنى ، وإن كان رفسنجانى قد صار أشهر الجميع ، ربما بحكم تنامى ثقله السياسى كرئيس لمجلس الشورى . كذلك الحال فى بقية المدن . خطباء الجمعة هم رجال القيادة إذا توفروا ، وليسوا فقط الوعاظ والمبلغين .



صلاة الجمعة منبر هام فى الخطاب السياسى ـ فى الصورة رئيس الجمهورية على خامنئى يؤم المصلين بعد ما القى خطابه

الامام الخمينى يخاطب الآخرين بنفس الاسلوب . كقاعدة ، فإنه لا يصدر بيانا سياسيا فى أى مناسبة ، ولكنه يلقى خطبة تدور فى الفلك ذاته ، أى فى الاطار العبادى السياسى . وفى خطبته تلك يعلن ما يشاء من آراء ومواقف ، وقرارات أحيانا . وسمعت من المقربين إليه أن هذا هو أسلوبه فى اجتماعاته مع رجال الدولة ، بل وفى بيته أيضا . عندما يلتقى بالآخرين من المسئولين والأهل ، فانه يستمع اليهم طويلا ، وبعد أن يقول كل منهم رأيه ، يلقى هو خطبته ، وينتهى الأمر عند ذلك الحد .

الوزراء الفقهاء يسيرون على ذات النهج ، بياناتهم السياسية أقرب ما تكون إلى خطب الجمعة . فى إحدى المرات دعا وزير الداخلية ـ وكان من أبناء

الحوزة ـ إلى مؤتمر صحفى كان الهدف منه هو الاعلان عن اكتشاف بعض النشاطات المعادية فى الداخل . لكنه نسى نفسه وظل مدة نصف ساعة يتحدث عن الفضائل والأخلاق التى ينبغى التحلى بها فى مرحلة ما بعد الثورة ، ويدعم كلامه بأسانيد من الكتاب والسنة ـ وبعد أن مل الصحفيون حديثه ، وكانوا قد أبلغوا بأن أخبارا هامة ستعلن فى المؤتمر ، تطرق وزير الداخلية إلى الموضوع الأصلى الذى من أجله استدعاهم إلى مكتبه .

لهذا السبب فيما يبدو ، فإن كثيرا من الأخبار الهامة تمر على الصحفيين والناس ، دون أن يشعروا بها ، لأنها تذاع فى خطب تتناول أمورا كثيرة ، دينية ودنيوية . ولأن الكوادر الصحفية ضعيفة ، فإن الصحف كثيرا ما تعجز عن علاج هذا الوضع ، وابراز الأخبار التى تهم الناس ، وتكتفى فى العادة بنشر نصوص الخطابات كما هى . وعلى من يهمه الأمر أن يبحث فى الخطاب عما يعنيه .

فى أواخر سنة ١٩٨٤ ، عندما حدث الصدام فى لبنان بين منظمة أمل الشيعية والفلسطينيين ، وهاجمت ميليشيات « أمل » مخيمات اللاجئين ، استغرب كثيرون صمت طهران . وكانوا قد توقعوا موقفا سريعا يدين تصرف منظمة الشيعة اللبنانيين ـ وبعد مرور أيام عدة تبين أن آية الله منتظرى ـ الرجل الثانى فى النظام ـ هاجم بشدة موقف منظمة أمل ، ولكن لأن الموقف الذى أعلنه ورد فى سياق خطبة مطولة ألقاها على بعض ضيوفه ، فإن أحدا لم ينتبه إليه فى حينه . . لا فى الداخل ولا فى الخارج .

دراويش . . ومستضعفون

مناخ التحالف بين الدراويش والمستضعفين أفرز موقفا لا يعترف لا بالرتب ولا بالدرجات . بعد الثورة ساد شعور عام بأن الطواغيت ذهبوا ، وراحت أيامهم ، وأن أوضاعا كثيرة ارتبطت بزمانهم يجب أن تزول . وكما تصور البعض أن التأنق فى المظهر من عادات الطواغيت يقينا ، وأن النظافة أمر مشكوك فى « طاغوتيته » ، فإن هناك من اعتقد أن الرتب والدرجات أيضا أوضاع طاغوتية . نظروا إليها من زاوية أنها تضع البعض فى مقامات أرفع من الآخر ، مع أن تلك دولة « المستضعفين » الذين هم فى مربع واحد .

وكما ألغت الصين الرتب فى الجيش مثلا فى عهد الرئيس ماو ، فإنهم فى إيران واجهوا مشكلة أن العسكر لم يعترفوا بأن هناك رتبا أعلى . وهو ما حدث فى الوزارات ، إذ تصور البعض أنه فى عهد الثورة لم يعد السلم الادارى رأسيا أو هرميا ، له رأس وقاعدة ، وإنما بات أفقيا ، تتساوى فيه الرؤ وس ، وليس لأحد سلطان أو كلمة على أحد آخر . فالمسئوليات واحدة ، والأسماء مجردة عن الألقاب .

أدى هذا الوضع إلى خلل فى كثير من المواقع ، اضطر معه الامام إلى إصدار قرار بما أسماه « احترام سلسلة مراتب » ، يدعو فيه جميع العاملين فى الجيش والحكومة إلى ضرورة احترام تسلسل الدرجات والمسئوليات ، لاعتبارات تتعلق بحسن الادارة وتحقيق الانضباط ، وليس لأن هناك شخصا أفضل من الآخر .

فى ظل هذا الوضع ظهر تعبير حزب الله ـ ينطقونها « اللاهى » ـ وهو لا ينصرف إلى المعنى التقليدى لكلمة حزب ، إذ لا علاقة بين كل ما نعرفه عن الأحزاب السياسية وبين حزب الله فى إيران . لأنهم يقصدون بالتعبير نماذج الناس الطيبين ذوى النوايا الحسنة ، الذين نسميهم فى بعض الدول العربية « أهل الله » . وهؤلاء منتشرون فى كل قطاع ، وأكثر القيم الجديدة التى ظهرت بعد الثورة ، تجسدت فى تصرفاتهم وسلوكهم .

مع ذلك فلم يخل الأمر من تجمعات صغيرة تعمل تحت اسم حزب الله ، وترتبط ببعض القيادات الشبابية المتطرفة ، من أمثال هادى الغفارى ، وخوئينيها .

وفى الوقت ذاته ، فقد أضيفت إلى قاموس الخطاب العام بعض الكلمات ذات الدلالات القوية ، التى استمدت أساسا من لغة القرآن الكريم ، ولكن رجال الثورة أدخلوها فى لغة السياسة والاجتماع . من هذه الكلمات على سبيل المثال : الطواغيت ، المستضعفون ، المستكبرون . ولا تخلو كلمتا المستضعفين والمستكبرين من دلالة قوية ، من حيث أن الكلمة ـ الاستضعاف مثلا ـ تعنى أن الطرف المقصود ليس ضعيفا فى الأصل ، وإلاَّ أطلق عليهم « الضعفاء » . انما الضعف مفروض عليهم . هم أقوى وأكبر ، ولكن القهر أضعفهم حتى صاروا مستضعفين . وكذلك المستكبرون . هم ليسوا كبارا كما يوهموننا ، ولكنهم

مُدَّعون للكبر ، وهم أصغر من حقيقتهم الظاهرة . وفضلا عن السياسة ، فقد باتت صفحات الشئون الخارجية فى الصحف تعترف بعبارة « استكبار عالمى » ، وهى أفضل نسبيا من كلمة « استعمار » ، التى تحمِّل الكلمة بمعانى إعمار الدول الخاضعة للهيمنة ، فى حين أنها علاقة قائمة على النهب أساسا . والمستقر فى إيران أن الشهيد الدكتور على شريعتى هو أول من أدخل كلمة « الاستضعاف » فى أدبيات الخطاب العام . وله وصف آخر لم يلق رواجا هو « الاستحمار » ، أطلقه على عمليات التجهيل السياسى والدينى . وثمة كتاب له استخدم الكلمة فى العنوان وكان اسمه « النباهة والاستحمار » !

لن نضيف جديدا إذا قلنا أن وجود الفقهاء على قمة السلطة أحدث تغييرات أخرى عديدة فى شكل أجهزة الدولة ومختلف النشاطات العامة والخاصة ، إذ لم تعد ترى فتاة غير محجبة فى أى مكتب أو متجر . وكما أصبح فى كل مرفق مكان للصلاة ، فقد بات وجود إمام ومؤذن فى كل بناية حكومية أمرا طبيعيا . وفى وقت صلاة الظهر لا تكاد تجد أحدا فى مكتبه ، ولأن الشيعة بمختلف فرقهم يتجمعون فى الصلاة كقاعدة ، فإن الموظفين يذهبون إلى المسجد مرة واحدة طوال فترة العمل ، هى ساعة الغداء أيضا ، خلالها يصلون الظهر والعصر معا .

ولكى يتحقق ذلك ، فقد طرأت أمور تفصيلية كثيرة على الحياة داخل أجهزة الحكومة ، ابتداء من تهيئة دورات المياه ، لمواجهة الوضوء فى ساعات « الذروة » ، وانتهاء بمشهد الموظفين فى الطرقات وقد انثنت كعوب أحذيتهم ، وشمروا عن سواعدهم المبللة بالمياه . وأحيانا اختفاء الموظفين قبل الصلاة أو بعدها بوقت طويل ، بحجة أنهم فى المسجد أو عند الامام !

من التغريب إلى التعريب

أخيرا فاننا نستطيع أن نرصد فى مجتمع ما بعد الثورة علامة إيجابية ـ تعنينا ـ بالغة الأهمية ، وعلامة أخرى سلبية تحتاج إلى دراسة معمقة .

فى الشق الايجابى ، يستطيع زائر إيران أن يرصد بسهولة بالغة أن النظرة اختلفت تماما تجاه اللغة العربية والعرب .

ذلك أنه طوال العهود السابقة كان استخدام اللغة العربية من الأمور التى يستنكرها المثقفون فى المجتمع . بل كان وجود المفردات العربية بنسبة ٤٠٪ من اللغة الفارسية مما أثار انزعاج واستياء مثقفى عصر الشاه ، فشكلت لجنة خاصة « لتنقية » اللغة الوطنية و« تحريرها » من « التسلل العربى » !

وفى كتب التاريخ والاجتماع كان وصول العرب إلى بلاد فارس يعتبر بمثابة « انتكاسة » للحضارة الفارسية . وهى إشارة مبطنة تتهم الاسلام ولا تتهم العرب وحدهم ، كما يقول الدكتور أحمدى مقرر لجنة الثورة الثقافية . وبشكل عام ، فقد كانت كلمة « عربى » ، مما لا يدعو إلى الاحترام ، بل أنها كانت محملة بإشارة اتهام معيب .

وعندما جاء الشيوخ حاملين راية الاسلام ، اختلفت الصورة تماما . أصبحت اللغة العربية تدرس بشكل إلزامى طوال سبع سنوات متتالية ، حتى قبل التعليم الجامعى . وسمع الناس الامام الخمينى وهو يتحدث فى أكثر من خطبة عن « الشعب العربى العظيم الذى كرمه الله بسبقه إلى الاسلام . »[٦] وأصبحت للجمعة خطبتان ، احداهما بالفارسية والثانية باللغة العربية . وصدرت فى قم مجلة « الفجر » باللغة العربية ، كما أصدرت منظمة الاعلام الاسلامى نسخة عربية من مجلتها « التوحيد » ، وظهرت فى الأسواق « كيهان » العربى . إضافة إلى مجلة « الوحدة الاسلامية » التى تصدر بالعربية أيضا . وإلى جانب المجلات التى تصدرها المؤسسات الايرانية ، فإن العرب الذين هُجِرّوا من العراق وإمارات الخليج ، لهم مجلاتهم التى يصل عددها إلى ست .

وخلال لقاءاتى مع المسئولين ، كان الذين لا يجيدون العربية يجهدون أنفسهم فى تذكر بعض العبارات والأمثال التى حفظوها فى الصغر ، غير أن بعضهم كان يتحدث العربية ، والبعض الآخر كان يفهمها منى ولا يستطيع أن يرد أو يعبر إلا بالفارسية ، التى ينطقها معتذرا لك أنه لم يتمرن بشكل كاف على النطق بالعربية .

---

(٦) راجع نداء الامام الخمينى إلى الأمة الاسلامية فى ٣١ شعبان سنة ١٣٩٩ هـ توجيهات الامام الخمينى ص ٨٩ من مطبوعات وزارة الإرشاد الإسلامى بطهران .

بعض الناقدين للنظام يغمزون من هذه الناحية ، يقولون أن إيران انتقلت من « التغريب » فى عهد الشاه ، إلى « التعريب » فى عهد آيات الله !

دخلت العربية إيران الثورة على جناح الاسلام ومحفته ، تماما كما دخلت قضية فلسطين . وهو أمر محزن أن يحدث ذلك فى ظروف لم يتوافر لها المناخ الايجابى ، الذى يسمح بتقدم تلك المسيرة بخطى أوسع ، سواء لخدمة الوحدة الفكرية الاسلامية ، أو لخدمة قضايا العالم الاسلامى .

وقد أذهب إلى أن استمرار التيار الاسلامى فى السلطة ، بصرف النظر عن رموزه ، يشكل الفرصة الأفضل لإقامة علاقات وثيقة ووطيدة مع العالم العربى . على اعتبار أن هذا التيار هو الوحيد الذى تحركه دوافع العقيدة ـ وهى الأقوى بغير شك ـ للاقتراب من العرب . فى حين أن التيارات السياسية الأخرى ، التى قد لا يشك فى وطنيتها ، هى صاحبة شعار « إيران أولا » . وهى التى تحركها الدوافع القومية والعرقية ، مما لا يؤهلها للقيام بهذا الدور إلا فى حدود « حسن الجوار » وأرضية الانتماء إلى العالم الثالث .

ليس معنى ذلك أن التيار الاسلامى جميعه منزه بالضرورة عن تلك الدوافع القومية والعرقية . فهم بشر كغيرهم فى نهاية الأمر ، ولكن ما أعنيه أن جسر العقيدة الذى يقف عليه هذا التيار يوصل بطبيعته إلى « قلب » العالم العربى ، والعكس صحيح .

فى الشق السلبى فإن زائر طهران تستوقفه كثيرا ، وتدهشه ، ظاهرة إنتشار الرشوة فى أجهزة الدولة . إذ لا يكاد يمر أسبوع حتى تنشر الصحف اليومية خبرا عن ضبط مسئول فى إحدى الوزارات وهو يتقاضى الرشوة .

قيادات الدولة تدرك حجم الظاهرة ، وترجعها إلى الضغوط الاقتصادية التى تعيشها البلاد الناتجة عن أعباء الحرب . فلم تتمكن الدولة من زيادة رواتب الموظفين بالمستوى المعقول ، وبالمقابل فإن غلاء الأسعار مستمر ، من السكن إلى مختلف السلع الاستهلاكية . على الأقل هذا هو تفسير السيد على خامنئى ـ رئيس الجمهورية ـ الذى قاله لأحد ممثلى الامام فى سياق مناقشة مشكلات الادارة الحكومية .

ثمة بُعد آخر فى القضية ، هو أن كبار الموظفين تحديدا زادت معاناتهم بعد الثورة ، لأن مرتباتهم قد خفضت . الوزير مثلا كان راتبه قبل الثورة ٦٠ ألف تومان شهريا ، أى حوالى ١٢٠٠ دولار ، وفى ظل وزارة المهندس بازركان خفض الراتب إلى النصف ، فصار ٦٠٠ دولار ، وبعد ذلك خفضت رواتب الوزراء بنسبة النصف ، حتى أصبح راتب الوزير ٣٠٠ دولار فى الشهر ، لا تكفى إيجار مسكنه فى العاصمة . أى أن الراتب هبط إلى الربُع ، هذا مع افتراض أن قيمة العملة واحدة وأن الأسعار ثابتة ، والواقع غير ذلك .

السفير كان يتقاضى راتبا قدره ٧٠ ألف تومان إضافة إلى ٣٠ ألفا بدلات ، وهو ما يعادل ألفى (٢٠٠٠) دولار فى الشهر . وقد خفض هذا الراتب عدة مرات حتى وصل إلى ٢٢ ألف تومان الآن ، تحصل منها ١٠ آلاف تومان ضرائب . أى أن صافى دخله الشهرى هو ١٢ ألف تومان ، وهى تساوى ٢٤٠ دولارا تقريبا . . وهكذا .

فى ضوء تلك الأرقام ، فإننا نستطيع أن نتصور معدلات تخفيض الرواتب فى بقية وظائف « الادارة العليا » بأجهزة الدولة . من معاون وزير إلى مدير إدارة . إذ هبطت رواتب هؤلاء ليس إلى الربُع . كما حدث فى المناصب التى كان يشغلها « الطواغيت » ، ولكن فى حدود النصف تقريبا . وتلك هى الدائرة التى يسلط عليها الضوء فى تفشى ظاهرة الرشوة ، إضافة إلى صغار الموظفين بطبيعة الحال .

تصدمك الظاهرة ، وتجعلك ترتطم بأرض الواقع بقوة وسرعة . تردك إلى حقيقة أن الناس فى المجتمع الاسلامى بشر كغيرهم من البشر ، وأن رفع راية الاسلام ليس حلا سحريا لمشكلات الناس ، رغم أنه يوفر امكانية أفضل لحل تلك المشكلات ، من حيث أن الاسلام يؤسس للضمير ولخشية الله مكانا مركزيا فى سلوك الفرد والمجتمع . وتلك رحلة شاقة لابد أن تقطع مراحلها واحدة بعد الأخرى ، وأن تسرى عليها سُنَن التكوين والنمو .

عندما تقلع بك الطائرة من طهران ، تلاحظ أن كثيرا من المحجبات قد كشفن عن شعورهن بسرعة ، وكثّفن من المساحيق ، وخلعن المعاطف الفضفاضة ، ليجلسن أمامك فى آخر « لقطة » . أن واجهة الاسلام كما رُفِعت فى طهران لم تترجم تماما إلى واقع ، وأن الطريق لا يزال طويلا أمام تحقيق الحلم ، وأنهم ـ بعدُ ـ فى بداية رحلة الألف ميل !

□ □

الفصل الحادى عشر

فى الفن وانقلاب فرهنجى

سمعت البعض فى طهران يقول أن التليفزيون الملون اختفى بعد الثورة ، وأنه عاد مرة ثانية إلى سابق عهده : أبيض وأسود ! : . . وكان هؤلاء يتندرون بخبث على الفقهاء الذين أصبحوا دائمى الحضور على شاشة التليفزيون . بعمائمهم السوداء (التى يرتديها المنتسبون إلى آل البيت ويسمون السادة) والبيضاء ، التى يرتديها غيرهم . واعتبر هذا الحضور أحد مظاهر الأزمة التى يواجهها التليفزيون وغيره من وسائل ومجالات الترويح الأخرى ، فى ظل التطبيق الإسلامى .

وقد كان بند « الترويح » من أوله إلى آخره من الأمور التى لم ينشغل بها قادة الثورة الإسلاميون ، الذين كان همهم الأول الإطاحة بالنظام « الطاغوتى » ، لكن الأمر اختلف عندما تداعت الأمور على نحو غير متوقع ، وأصبح التطبيق الإسلامى حقيقة واقعة ، ودخل فى ولاية الفقيه بند مثل « الترويح » لم يخطر لأحد على بال . وصار الجميع مطالبين بأن يتعاملوا من المنظور الإسلامى مع مختلف قضايا الثقافة والإعلام والفن .

لقد وجدت السلطة الجديدة نفسها مطالبة بتصحيح كل الخلل الذى انتقدته وثارت عليه دفعة واحدة ، وتنفيذ البديل الذى تبنته وعبأت الجماهير من أجله . وزاد الأمر حرجا وتعقيدا أن الجماهير كانت متعجلة وضاغطة بقوة ، مدفوعة فى ذلك بمشاعر فياضة وحارة . وبشوق بالغ لإحداث التغيير المنشود ، ربما لأن مذلتها كانت عميقة ، وغربتها عن دينها كانت بغير حدود .

فخلال الأشهر الأولى للثورة لم تسلم دور السينما والمسرح من غضب الجماهير الثائرة ، التى هاجمتها وخرّبت معظمها ، باعتبارها رموز الإفساد والتحلل ، وركائز للنظام « الطاغوتى » الكريه .

وفى عام الثورة الأول احتل الناس مبنى التليفزيون ، لأنهم اعتبروا برامجه متجاوزة للإطار الإسلامى . وقامت الدنيا ولم تقعد ، لأن مدير التليفزيون سمح

بعرض شريط سينمائى ظهرت فيه امرأة سافرة . (سمح بذلك لاحقا فى الأفلام الأجنبية وحدها) . وقدمت عريضة احتجاج بطول ٥٠ مترا للإمام ضد وزير الإرشاد بسبب هذه الواقعة .

ساعد على ذلك أن التليفزيون كان جهازا سيء السمعة منذ عهد الشاه ، ففضلا عن المباذل التى كان يعرضها بين الحين والحين فقد كانت إحدى قنواته تعرض الأفلام الجنسية والعارية . التى كانت تصدم الجماهير الإيرانية المحافظة الشديدة التدين . وقد أتيح لى أن أعايش تلك المرحلة ، عندما كنت بالكويت فى أواسط السبعينات ، وكان التليفزيون الإيرانى - ولا يزال - من القوة بحيث يصل إرساله إلى إمارات الخليج . وكانت تلك الأفلام تشاهد بوضوح فى منطقة الخليج ، وتحدث مفعولها الذى لا يحتاج إلى شرح أو إيضاح .

لهذا السبب ، فإن العائلات المحافظة كانت تعتبر التليفزيون شيئا مكروها وغير مستحب ، وكان الفقهاء يقاطعونه ويحرمون إدخاله إلى بيوتهم . ويذكر فى هذا الصدد أن كثيرين من سكان مدينة « قم » - ممن لا علاقة لهم بالحوزة العلمية ، كانوا يخفون هوائيات التليفزيون عندما يطلع النهار ، بينما يعيدون تركيبها أثناء الليل ، عندما يحل الظلام وتتعذر رؤية تلك الهوائيات . كانوا يستحون من الإعلان عن وجود مثل هذه الأجهزة « المشبوهة » فى بيوتهم ، التى تضمها المدينة المقدسة .

فى ظل تلك السمعة السيئة التى لاحقت التليفزيون ، ومن جراء سوء الظن التقليدى عند الفقهاء بالفنون عامة ، فقد جاءت فتوى الإمام الخمينى المبكرة بشأنها سلبية إلى حد كبير . ففى مؤلفه « تحرير الوسيلة » ، الذى صدر من جزءين وتضمن آراءه واجتهاداته الفقهية ، عدد الإمام الخمينى أربع مسائل تحت عنوان « الراديو والتليفزيون ونحوهما » - ج ٢ . ص ٦٢٩ . وكان نص فتواه كما يلى :

□ مسألة ١ - لهذه الأجهزة الحديثة منافع محللة عقلانية ومنافع محرمة غير مشروعة ، ولكل حكمه ، فيجوز الانتفاع المحلل من الأخبار والمواعظ

ونحوهما من الراديو أو مطالعة الصور المحللة لتعليم صنعة محللة أو عرض متاع محلل أو الإطلاع على عجائب الخلقة بحرا وبرا من التليفزيون ، ولا يجوز الانتفاع المحرم كسماع الغناء وإذاعته وإذاعة ما هو مخالف للشرع المقدس كالأحكام الصادرة من المصادر غير الصالحة المخالفة لأحكام الإسلام ، وعرض ما هو مخالف للشرع ومفسد لعقائد الشعب وأخلاقهم وإذاعته .

□ مسألة ٢ ـ لما كان استعمال تلك الآلات فى الأمور غير المشروعة شائعا أكثريا بحيث يعد غيره نادرا ، لا أجيز بيعها إلا ممن يطمأن له بعدم استعمالها إلا فى المحلل ولا يستعملها فى المحرمات ، ولا يجعلها فى اختيار من يستعملها فى المحرمات ، كما لا أجيز شراءها إلا فى الصورة المتقدمة .

□ مسألة ٣ ـ يحرم استماع الغناء ونحوه من الأجهزة مثل الراديو وغيره سواء أذيعت مباشرة أو بعد تسجيلها فى جهاز التسجيل .

□ مسألة ٤ ـ الأحوط ترك النظر إلى ما لا يجوز النظر إليه فى مثل التليفزيون ، كبدن الأجنبية وشعرها وعورة الرجل .

كان لابد أن يختلف الأمر بعد الثورة . ليس فقط بالنسبة للإذاعتين المرئية والمسموعة ، ولكن أيضا بالنسبة لمختلف ميادين الثقافة والفن . رغم أن التركيز على التليفزيون أشد . لأنه تحت الأعين كل يوم ، وفى كل بيت . فضلا عن أنه فى النهاية جهاز حكومى يفترض أن كل ما يقدمه هو خط الثورة الإسلامية . بعكس دور النشر أو الإنتاج السينمائى أو المسرحى ، التى لا تحسب كلها على الحكومة ، بحكم إسهام القطاع الخاص فيها .

حتى تتم القراءة بعين منصفة

وحتى تكون قراءتنا صحيحة ومنصفة للحياة الثقافية والفنية بعد الثورة ، فإننا ننبه إلى عدة أمور :

■ الأمر الأول : أن مجالات الثقافة والفنون ومختلف وسائل التعبير والتواصل مع الناس ، تتأثر بدرجات متفاوتة فى ظل أى تغيير فى البنية السياسية والفكرية للمجتمع ، بالأخص إذا انطلق التغيير من منطلقات مبدئية وعقيدية . فكل ثورة جادة لابد وأن تسعى إلى إحداث إنقلاب فى نسيج القيم الاجتماعية السائدة .

وتظل وسائط التعبير الثقافى والفنى هى أبرز الأدوات التى تستخدم فى حمل الرسالة والتبشير بالقيم الجديدة . وفى ظل الرغبة فى إحداث التغير بسرعة ، وفى ظل تراجع الإمكانيات الفنية فى المناطق التى تتفجر فيها الثورات ، فإن الثوريين عادة ما يحولون تلك الوسائط إلى أدوات للتوجيه والتعبير المباشر . وفى ظل شعارات مثل الادب الهادف أو الفن الملتزم ، تضاف مؤسسات الثقافة الى منابر الوعظ والإرشاد ـ وإذا كان الاتحاد السوفيتى قد تجاوز هذه المرحلة بشكل محدود ، إلا أن السمة الوعظية وتسييس الفن والأدب أشد وضوحا فى الصين . وفى العديد من الدول الاشتراكية الأخرى .

ويظل طبيعيا أن تبشر وسائط التعبير فى كل مجتمع بقيم النظام الذى تعبر عنه اشتراكيا كان أم رأسماليا . لكن الحاصل أن العالم الرأسمالى هو الأكثر تقدما من الناحية الفنية . الأمر الذى يوفر فرصا أفضل وأكثر كفاءة فى التبشير بقيم المجتمع ، بحيث أن الرسالة تصل عادة إلى القارىء أو المشاهد بطريق ميسور غير مباشر ودون حاجة إلى وعظ وإرشاد .

حدث ذلك فى إيران ، كما حدث مع غيرها . وإذا أضفنا إلى ذلك أن الكوادر الفنية كانت محدودة أو ضعيفة فى معظمها منذ عهد الشاه ، وأن أبرز كفاءات الصف الأول اختفت لسبب أو آخر ، فلنا أن نتصور كيف أصبح حال تلك المؤسسات . إذ باتت تعمل بكفاءات الصف الثانى أو الثالث ، وتحت الإشراف المباشر للثوريين حديثى الخبرة بتلك المجالات . ثم إن أغلب هؤلاء الثوريين هم أبناء حوزة قم العلمية !

■ الأمر الثانى : إن موضوع الفنون بوجه خاص ، من الأبواب التى تحتاج إلى إعادة نظر فى الفقه الإسلامى . إذ أن الانطباع السائد يكاد يوحى بأن أكثر الفنون التى نعرفها فى زماننا غير مرحب بها ، وتكاد تشملها مظلة الكراهة أو التحريم . ويبدو أنه منذ ارتبط الترويح بالبطالة والتحلل ، وارتبط الفن بالهبوط والإبتذال فى بعض مراحل التاريخ الإسلامى ـ العصر العباسى الثانى بالأخص ـ فإن الفقهاء تعاملوا مع الاثنين ـ الترويح والفن ـ بقدر غير قليل من الارتياب وسوء الظن . ذلك حدث عند أهل السنة والشيعة على حد سواء .

■ الأمر الثالث : إن فكر الثورة لم يتبلور فى أشياء كثيرة ، سياسية واقتصادية واجتماعية ، ناهيك عن الجوانب الثقافية والفنية . وقد لا نبالغ كثيرا إذا قلنا إن بركان السخط والغضب لا يزال يلقى بحممه إلى الآن فى مختلف الإتجاهات . ولا يزال عديد من التصرفات وليد ردود الأفعال ، بأكثر منها تعبيرا عن « الخط المستقر » للثورة . وإذا كان التليفزيون يتعرض للنقد من جانب قطاعات عديدة فى العاصمة الإيرانية ، لأنه أصبح أبيض وأسود ، أو لأنه افتقر إلى عناصر الجاذبية والتشويق ، فإن الضغوط والنقد على أشدها من جانب أركان الحوزة التقليديين ، وخطباء المساجد والحسينيات الذين يعتبرونه غير معبر بشكل كاف عن الإلتزام الإسلامى للثورة . وقد لجأ هؤلاء أكثر من مرة شاكين إلى الإمام الخمينى . وسمعت من أحد تلاميذ الإمام أنه رد على جماعة من هؤلاء المتشددين فى إحدى المرات قائلا : أعطوا لهم فرصة لكى يصححوا مسارهم (يقصد المسئولين عن التليفزيون) ودعوهم « يطنطنون » .

■ الأمر الرابع : إن السنوات التى مرت من عمر الثورة محدودة فى حقيقة الأمر ، مما يتعذر فى ظله إجراء تقييم منصف لممارستها . فضلا عن أنه يتعذر اعتبار تلك الممارسات هى الموقف النهائى أو خلاصة الرأى الأخير . إذ رغم أن الثورة دخلت عامها الثامن ، فثمة أمور كثيرة لا تزال تحت التشكيل . وعلى سبيل المثال ، فإن برامج التليفزيون فى العام السادس احتلت فيها « الكوميديا » مكانة ملحوظة ، فى حين كان هذا الجانب غائبا تماما عن التليفزيون فى العامين الأول والثانى .

التليفزيون : سمات الجد والحزن

ثمة ضوابط جرى حولها الاتفاق ، وتكاد تشكل الإطار العام للنشاطات الفنية والثقافية ، وإن كان لكل قطاع ضوابطه أو سياسته ، إلا أن ثمة قدرا مشتركا بين مختلف القطاعات وقفت عليه من خلال مناقشات مع ثلاثة من المسئولين الإيرانيين هم : حجة الإسلام محمد على التسخيرى نائب رئيس منظمة الإعلام الإسلامى ،

والسيد صباح زنجنى مساعد وزير الإرشاد للشئون الثقافية ، والسيد أنوار مساعد وزير الإرشاد للشئون الفنية .

تلفت النظر قائمة المحظورات فى تلك الضوابط ، وهى التى يمكن رصدها فيما يلى :

■ السفور ممنوع فى كافة العروض الفنية ، والإلتزام بالزى الإسلامى (مانتو إسلامى) ـ الذى يتكون من الحجاب والثوب الفضفاض الذى لا يبرز مفاتن الجسم ـ هو القاعدة والأصل الذى لا يقبل الاستثناء تحت أى ظرف .

■ الأغانى العاطفية ممنوعة ، بالأخص تلك التى تقوم على الغزل والتأمل فى جمال المرأة وودادها .

■ الغناء الفردى محظور على النساء ، بينما يسمح بالغناء الجماعى .

■ المشاهد العاطفية التى يعبر عنها بالحركات المختلفة (الأحضان وتشابك الأيدى والقبلات وما إلى ذلك) . . هذه كلها ممنوعة ، فى التليفزيون والمسرح والسينما .

■ الموسيقى التى تستثير الغرائز وتؤدى إلى تغييب الأفراد ، يسرى عليها الحظر .

■ لا قيود على مختلف الفنون التشكيلية إلا فى ناحيتين : كشف العورات ، والنحت المجسم . إذ أن فقهاء الشيعة المعاصرين يبيحون التصوير بمختلف أشكاله ، لكنهم يتحفظون على صناعة التماثيل باعتبارها من رموز الوثنية ، فضلا عن أنها تقوم على محاكاة خلق الله تعالى (أكثر فقهاء أهل السنة يؤيدون هذا الرأى ، وهناك آخرون يرون أن تلك الحجج لم تعد قائمة ، ومنهم الإمام محمد عبده) . . إلا أنهم يجيزون الحفر أو النحت ، الذى لا يجسم هيئة الإنسان كلها ، وإنما يبرز جانبا منها فقط .

■ لا مكان لأية إيماءات جنسية أو ألفاظ خارجة فى أى عمل أدبى أو حوار فنى .

فى ظل هذه الضوابط ، فإن التليفزيون ـ مثلا ـ أصبح يتسم بجدية زائدة ، وأصبح أنجح برامجه هى المسلسلات التاريخية ، والفكاهية وبرامج الأطفال .

ولأن كوادره الجديدة محدودة الخبرة والتجربة ، فإن مقدمى البرامج أقرب إلى حراس الثورة منهم إلى نجوم التليفزيون . يضاف إلى ذلك أن جرعة التوجيه والإرشاد والتثقيف الدينى أكبر من المعتاد ، الأمر الذى يجعل ملحوظة خبثاء طهران ، الذين تحدثوا عن العودة إلى اللونين الأسود والأبيض ، صائبة إلى حد كبير .

ثمة عنصر آخر أضاف مسحة من الجدية والحزن على التليفزيون ، هى أنه دأب على المشاركة فى الاحتفالات والمناسبات الدينية والثورية المختلفة ، التى يتعذر حصرها . فالمناسبات الرسمية المعترف بها على مستوى الدولة . تصل إلى حوالى ٤٥ مناسبة سنويا . بينما الاحتفالات التى تقام لآل البيت فى أنحاء إيران على مدار العام تقدر بالمئات . فلكل واحد من رموز آل البيت ـ بخاصة الأئمة **الأثنا عشر المعصومون ـ احتفالات ـ بميلاده وبموته أو شهادته ، وبذكرى الأربعين ، فضلا عن احتفالات المحرم وصفر ورمضان والعشرة الفاطمية فى جمادى الثانية ، وليالى الجمعة ، وأعصار الجمعة ، . . . وهكذا .**

أى أن جهاز التليفزيون خضع لعملية « تشييع » واسعة النطاق ، تقوم على الاحتفال المستمر بمناسبات آل البيت ، ولا يعبر عنها إلا بصيغ مختلفة من الحزن والأسى . وربما تجاوب ذلك مع مشاعر الجماهير الحارة فى بداية الثورة ، أو فى ريف إيران ، إلا أن استمرار البث على هذا النحو أثار نوعا من الملل الظاهر فى المدن بوجه أخص .

تحتل الحرب حيزا كبيرا ـ أيضا ـ من الإرسال التليفزيونى . فأنباء المعارك والبيانات العسكرية تتصدر نشرات الأخبار ، وبرامج التعبئة وزيارات المواقع والمعسكرات تبث كل يوم ، بينما هناك فقرة ثابتة فى نهاية الإرسال المسائى مع الأسرى العراقيين ، وهو برنامج يذاع باللغة العربية .

وربما من قبيل التعبئة ورفع معنويات الجماهير ، فإن نشرات الأخبار الأساسية تضم دائما فقرة عن الثورة الإسلامية فى الخارج ، وبسبب ندرة الأخبار التى يمكن أن تقدم فى هذا الإطار ، وربما أيضا بسبب ضعف الخبرة وشح مصادر المعلومات ، فإن هذه الفقرة كثيرا ما تقوم على الافتعال والاصطناع ، وأحيانا المبالغة الزائدة على الحد . ففى نشرة الأخبار ، قدم خبر طالب جامعة الأزهر

الذى دهمته سيارة للشرطة ، مما أثار الطلاب وأدى إلى تظاهرهم ، باعتباره بداية للثورة الإسلامية فى مصر . وسمعت مذيع تليفزيون طهران يتحدث عن الثورة الإسلامية فى جنوب السودان إبان حكم الرئيس السابق جعفر نميرى ، ولم تكن هذه الثورة سوى عمليات التمرد التى شهدتها المنطقة . والتى يقودها جون قرنق المسيحى الماركسى المدعوم أساسا بالنظام الأثيوبى !

من ناحية أخرى ، فإن التليفزيون يحاول أن يحدث نوعا من التوازن فى برامجه بتقديم الأفلام الأجنبية ، التى تحتل الأفلام اليابانية والألمانية المقدمة منها ، تأتى بعدها فى الترتيب الأفلام الأمريكية ثم الأوروبية الأخرى وبعد استبعاد الأفلام العاطفية والاستعراضية ، فإن قصص الحرب العالمية الثانية ، وأفلام العنف والكاراتيه ، أبرز ما يتبقى ، وأكثر ما يعرض على الناس .

السينما : بين الفن والوعظ

أزمة التليفزيون استفادت منها السينما إلى حد كبير ، إذ زاد الإقبال على دور العرض بصورة لافتة للنظر ، ففى النصف الثانى من سنة ٨٤ ، وصل عدد رواد دور السينما فى طهران (٧٥ صالة عرض) إلى ١٢ مليون شخص ، وهو ضعف الرقم الذى اعتادت تلك الدور على استقباله فى الظروف العادية . وساهم فى تحقيق تلك الزيادة بغير شك ، إغلاق الحانات ودور اللهو الأخرى التى كانت تحفل بها العاصمة .

وفى إيران كلها حوالى ٣٥٠ دارا للعرض السينمائى ، كانت تعتمد بصفة أساسية منذ قبل الثورة ، على الأفلام الأجنبية والأمريكية على رأسها . إذ أن الأفلام الإيرانية كانت محدودة العدد ، إذ لم تتجاوز عشرا فى عام ٧٧ ، وعندما بلغت الذروة لمرة واحدة ـ سنة ٧٤ ـ فإنه تم إنتاج ٩٠ فيلما إيرانيا . وبصفة عامة ، فقد كانت صناعة السينما الإيرانية تواجه ركودا مستمرا ، بسبب الزحف القوى للفيلم الأجنبى ، الأكثر تقدما وإثارة .

بعد الثورة ظل الاعتماد على الأفلام الأجنبية مستمرا ، بعد إخضاعها للرقابة وحذف المشاهد التى تتعارض مع الضوابط الموضوعة . وفى سنة ٨٤

أجيز ١٠٠ فيلم أجنبى ، أكثرها أوروبى وبعضها أمريكى أو يابانى . (لاحظ أن تركيبة مصادر الأفلام مختلفة فى السينما عنها فى التليفزيون ، لأن دور العرض ما زالت مهتمة بجذب الجمهور واختيار أسماء النجوم المعروفين فى السينما الأوروبية والأمريكية) .

يعنينا بقدر أكبر الإنتاج السينمائى المحلى بعد الثورة ، وفى ظل التطبيق الإسلامى .

ناقشت السيد أنوار ، مساعد وزير الإرشاد للشئون الفنية ، فى هذا الموضوع ، على مدى جلستين مطولتين ، بمقر مؤسسة « الفارابى » للإنتاج الفنى ، التى أنشئت بعد الثورة ، لتتولى إدارة ما قد نسميه القطاع العام فى الإنتاج السينمائى .

الرجل دارس للإخراج السينمائى فى كلية الفنون بطهران ، ويعايش التجربة منذ نجحت الثورة . ومن رأيه أن « الفيلم التجارى سهل ، بينما الفيلم الرسالى صعب للغاية » وأن هناك مشكلة حقيقية فى تقديم نوعية الأفلام التى تعبر عن توجيهات المرحلة .

فيما قاله أيضا :

ــ « اعترف بأن أفلام ما بعد الثورة لها سمة وعظية ومباشرة ، لكن عمرها محدود ، وأكثر الفنيين الكبار عندنا هاجروا إلى الخارج . ويجب أن نأخذ فرصتنا فى النضج والنمو » .

ــ « أعلم أن الناس يذهبون إلى السينما للترفيه والتسلية . وليس لتلقى الموعظة . ولكن التحدى الذى يواجهنا هو كيف نقدم لهم ما يريدون ، وننقل إليهم ما نريده ونتمناه !!

ــ ينبغى أن يظل الإنتاج السينمائى مسئولية القطاع الخاص بالدرجة الأولى ـ بينما تتولى الدولة دور مثلث الأضلاع : الرقابة ـ الحماية ـ الإرشاد والهداية . ومؤسسة « الفارابى » تحاول أن تبلور مفهوم الدولة للفن الملتزم بقيم الإسلام ، لكن ما تنتجه للسينما أو التليفزيون يمثل واحداً على عشرة من الإنتاج الفنى فى السوق الإيرانية » .

طلبت منه أن يشرح لى « بالعرض البطىء » الكيفية التى يمارس بها ذلك الدور الذى تقوم به الدولة (الرقابة ، والحماية ، والهداية) . . قال :

تتولى رقابة الأعمال الفنية لجنة فى وزارة الإرشاد الإسلامى تضم ١٥ عضوا ، بينهم واحد فقط من الفقهاء ، والباقون من الفنيين المتخصصين ، مهمتها محددة : ملاحظة ملاءمة الفيلم لقيم الثورة الإسلامية . أو عدم التصادم معها . وهم يطلعون على العمل الفنى بعد تمام إنتاجه أو إعداده .

الشق المتبقى من المهمة تقوم به مؤسسة الفارابى شبه المستقلة ، التى يديرها مجلس إدارة يختاره وزير الإرشاد . إذ أنها تتولى متابعة السيناريو ومساعدة المنتجين ، إذا لجأوا إليها . أى أن هذا « اللجوء » تطوعى وليس إلزاميا . فمن بين ٦٠ فيلما أنتجها القطاع الخاص فى سنة ٨٤ ، فإن ٢٦ منتجا فقط راجعوا المؤسسة . فى العام الذى سبقه فإن عدد أولئك المراجعين لم يتجاوز ٢٠ منتجا . . وهكذا .

أضاف مساعد وزير الإرشاد للشئون الفنية :

« نحن على يقين من أن الأغلبية الساحقة من الأفلام الأجنبية تتعارض مع قيم مجتمعنا . لذلك فنحن نحاول بأقصى جهد أن نشجع الفيلم الإيرانى ، وأن نتجاوز حالة الركود التى عاش فى ظلها طويلا فى الماضى . نحن نعمل لإنتاج ١٠٠ فيلم سنويا . بينما الحد الأدنى لإحتياجات السوق فى حدود ١٥٠ فيلما . أى أننا مضطرون لإستجلاب الأفلام الأجنبية فى جميع الأحوال وحاليا (سنة ٨٤) فإن دور السينما الـ ٧٥ فى طهران تعرض ٢٧ فيلما إيرانيا فقط ، بينما يصل عدد الأفلام الأجنبية إلى ٤٨ شريطا .

« تحاول مؤسسة الفارابى أن تقوم بمهمة « التشجيع » فى هذا الصدد . فهى تنظم كل عام (فى شهر فبراير) مهرجان الفيلم الإيرانى ، حيث يتم فيه تقديم جوائز لأفضل الأفلام فى الإخراج والتمثيل والسيناريو والمونتاج والتصوير .

« فى مهرجان سنة ٨٤ ـ حصل على جائزة أفضل إخراج ، فيلم ديار العشاق ـ أفضل تمثيل : فيلم نقطة ضعف ـ أفضل تصوير : فيلم الكابوس ـ أفضل مونتاج : فيلم الموت الأبيض ـ أفضل سيناريو : فيلم الجائزة .

« لموسم عام ٨٥ ، تم انتاج ٧٠ فيلما إيرانيا ـ وتمت إجازة ١٠٠ فيلم أجنبي ـ الأفلام الايرانية أكثرها يتناول موضوعات اجتماعية ، وبعضها أفلام تاريخية ، وبينها عشرة أفلام فكاهية أو كوميدية .

« فى الوقت ذاته تصدر مؤسسة الفارابى ـ منذ سنة ٨٢ مجلة « فيلم » ، وهى شهرية تحاول متابعة الحركة السينمائية فى العالم ، وتشجيع الحركة النقدية السينمائية للانتاج المحلى . ومجلة « سروش » أو الرسالة ، وهى أسبوعية متخصصة فى شئون التليفزيون والاذاعة .

وعلى بعد ٢٠ كيلو مترا من طهران ، تم إنشاء مجمعين سينمائيين ، أحدهما يمثل طهران القديمة ، فى العشرينات والثلاثينات ، وقد تم فيه تصوير مسلسل تليفزيونى باسم طريق الحرير (الذى كانت تسلكه تجارة الشرق والغرب فى قلب آسيا) . المجمع الثانى عبارة عن قرية عمرها ٦٠٠ سنة تم فيها تصوير مسلسل مدته ١٧ ساعة باسم « ساربداران » وهو عن أول ثورة قام بها الإيرانيون ضد المغول . . وقد تم بيع هذا المسلسل إلى التليفزيون السويدى .

بعض الأفلام التليفزيونية والوثائقية تقدمت بها إيران فى عديد من المهرجانات العالمية . وفى سنة ٨٣ ، حصل ١٤ فيلما تليفزيونيا على جوائز مختلفة فى تلك المهرجانات . « بيت السيد مقدوست » ، فيلم حصل على جائزة مهرجان مانهاين فى ألمانيا الغربية ـ « صورة مشوهة » . حصل على جائزة فى مهرجان آخر بالبرتغال ـ « توتشو » و « الأبطال » . حصلا على جائزة مهرجان تورينو فى ايطاليا ـ « النحاس معدن سياسى » ، حصل على جائزة فى كوبا وعرضه تليفزيونها ـ « تحقيق فى الجوهر » ، حصل على جائزة مهرجان جمعية الاذاعة والتليفزيون بآسيا والمحيط الهندى . . وهكذا .

وغير هذه النوعيات من الأفلام ، هناك أفلام الكارتون والعرائس التى تضطلع بانتاجها مؤسسة الفارابى ، وتوليها اهتماما كبيرا ، باعتبارها عماد برامج الأطفال . ومن أبرز أفلام الكارتون التى تم انتاجها ، فى سنة ٨٤ ، « فيلم بعنوان « مدينة الفئران » ، الذى لقى صدى واسعا وترحيبا كبيرا من جانب مشاهدى التليفزيون .

سألت الأخ أنوار عن نجوم ما بعد الثورة ، فكان رده : اننا لا نشجع مبدأ سينما النجم أساسا ، ونعتبره من بدع السينما التجارية الامريكية ، لكننا نحاول أن نجذب الناس بالفكرة والعمل الجماعي . وفي الوقت ذاته فإن أكثر نجوم النظام السابق رحلوا إلى الخارج . ومن بقى منهم لا يرحب الناس بهم . لمجرد ارتباطهم بتلك المرحلة التي يكنون لها كراهية ورفضا عميقين . ويثير الانتباه في هذا الصدد أن أحد منتجي القطاع الخاص قدم ثلاثة من هؤلاء الفنانين في فيلم باسم « برزخ » هم : فردين ، وبيك ايما نوردى ، وبهروز وثوقى . ورغم أن الثلاثة كانت لهم شعبية كبيرة في الماضي ، إلا أن الفيلم سقط . وتعرض لنقد وهجوم شديدين ، بسبب انتماء الثلاثة لمرحلة يريد الجميع نسيانها وطي صفحتها . وكانت النتيجة أن الجمهور انصرف عن الفيلم ، وأن الممثلين الأولين انصرفا عن التمثيل ، واتجها إلى التجارة .

مع ذلك ـ أضاف مساعد وزير الارشاد ـ فقد برز عدد من الفنانين خلال سنوات الثورة ، ولقوا تشجيعا جماهيريا ملموسا . ومن أبرز هؤلاء : على نصيريان ـ وعزت الله انتظامى ـ وجمشيد مشايخى ـ وأمين طارخ ، الذى لمع في مسلسل ساربداران . والأربعة كانوا من ممثلى المسرح ، واتجهوا إلى السينما وفرضوا أنفسهم على صدارة ممثليها .

العصر الذهبي لفنون الخط

الفن التشكيلي أصبحت تتصدره فنون الخط ، والتصوير الزيتي ، والملصقات والكاريكاتير .

وثمة اجماع على أن فن الخط يعيش عصره الذهبي في إيران الآن ، وسواء لأن الخط الفارسي جميل بطبيعته ، أو لأن التفنن في كتابة الآيات والأحاديث والابتهالات مما يواكب المد الديني ، أو لأن تشكيل الخطوط هو المساحة الآمنة التي يتحرك فيها تقليديا الفنان المسلم ، ازاء الشبهات المثارة حول التصوير والنحت . . أيا كان السبب فالشاهد أن الفن الخطي يمر بأزهى أيامه في مرحلة ما بعد الثورة .

فما من معرض فنى يقام على مستوى الدولة ، أوحتى على مستوى المدرسة الابتدائية إلا ولوحات الخطوط تحتل مكانا بارزا فيها . . حتى فى متاحف طهران وصالات عرضها الرئيسية ، أصبحت الخطوط القديمة والحديثة تغطى جدران أجنحتها الرئيسية .

أما التصوير الزيتى فقد ظل على مكانته المتقدمة فى الفن التشكيلى ، وإن طرأ عليه عنصران : الأول يتمثل فى جنوح أكثر الفنانين إلى رسم المناظر الطبيعية - لا الأشخاص - من الذين برزوا فى هذا الميدان وتفوقوا فيه سهراب سيهرى ورضا مافى - والثانى وهو الأهم أن الحرب فرضت نفسها كموضوع أساسى للرسم بالزيت . ورغم أن جوانب هذا الموضوع لا آخر لها ، إلا أن فكرة الشهادة ، الغائرة فى الأعماق الشيعية ، تستحوذ على اهتمام عدد كبير من فنانى ما بعد الثورة الذين دخلوا عليها من كل باب ممكن وبكل رمز ولون يخطر على البال .

الملصق لعب دورا بالغ الأهمية فى التعبير والحشد والاستنفار منذ فجر الثورة . وإن جاز لنا أن نطلق على طهران مدينة الفقهاء ، فإنه يظل من الانصاف أن نضيف على العنوان : والملصقات أيضا . إذ ليس هناك جدار فى العاصمة يخلو من ملصق أو لافتة . وقد استطاع الفنان الايرانى أن يودع فى الملصقات كل ذكائه اللماح وتعبيره النفاذ ، وسخريته اللاذعة أحيانا ، فى آن واحد . فقد ارتبط الملصق بالثورة فى كل مراحلها ، باعتباره الرسالة البليغة التى يقرؤها الجميع - حتى الأمى - فى لحظة ، وبالمجان . ولذا فإن الموضوع المستمر للملصقات هو مفاسد العهد الذى سقط وتحديات الثورة فى الداخل والخارج ، من الشيطانين الكبيرين (أمريكا وروسيا) إلى المنافقين فى الداخل ، إلى الحرب وتضحياتها .

فى هذا الفلك أيضا دار الكاريكاتير ، الذى أثبت حضوراً قويا فى أعلام ما بعد الثورة ، وكان ولا يزال ، سلاحاً ضد الأعداء والمتآمرين ، والسخرية من مختلف السلبيات السلوكية والوظيفية . ومن أبرز رسامى الكاريكاتير الذين لمعوا فى عهد الثورة هم : جواد بويان - وحسين خسرو جردى - وأبو الفضل عالى - وأمير ضرغام .

ورغم أن باب النحت لم يغلقه الفقهاء بالكامل ، عندما سمحوا بالحفر الذى لا يجسد هيئة المخلوق بالكامل ، إلا أن هذا الميدان لم يلق اقبالا من الفنانين ، على الأقل فيما هو ظاهر بالمعارض التى تقام ، والكتب والمطبوعات الفنية التى صدرت بعد الثورة .

الكتاب : نمو فى الكم وضمور فى النوع

الكتاب أحاطت به ظروف مغايرة . .

فالذين يتابعون حركة التأليف وسوق الكتاب يفرقون بين مرحلتين : مرحلة ما بين عامى ٧٩ و ٨٢ - التى كانت كل القوى السياسية نشيطة خلالها . ولها حريتها المطلقة فى التعبير عن أفكارها . والمرحلة الثانية هى التى أعقبت سنة ٨٢ ، وما زالت مستمرة إلى الآن . وخلالها تقلصت مساحة النشر ، وأصبحت مقصورة على الخط الاسلامى أو الاتجاه المحايد ، الذى لا ينتمى إلى تيار سياسى .

فيما بين عامى ٧٩ و ٨٢ ، كانت سوق الكتاب تستقبل كل ما يخطر على البال من أفكار يمينيين أو يساريين أو فوضويين ، أما فى المرحلة التالية التى أطلت بعد الصدام الدامى بين بعض الليبراليين واليساريين وبين قيادة الثورة الاسلامية ، فقد ضاقت الدائرة إلى حد كبير .

الملاحظة الثانية هى أن مؤشرات الإقبال على القراءة بعد الثورة متصاعدة بصورة مثيرة للإنتباه . فالاحصاءات الرسمية تقول أن المكتبات العامة فى سنة الثورة (٧٩) كان عددها ٢٥٠ ، ولكنها تضاعفت تقريبا فى نهاية سنة ٨٤ ، إذ وصل عددها إلى ٤٨٠ مكتبة . لكن المدهش أن عدد رواد المكتبات ارتفع من ٤٦٠ ألفاً إلى ستة ملايين ونصف مليون فى الفترة ذاتها .

إزاء هذا الاقبال على الكتاب ، كان طبيعيا أن يرتفع معدل توزيع الكتاب المطبوع من ٥ آلاف فى المتوسط ، إلى ٣٥ و ٤٠ ألفا . بل إن بعض الكتب طبع منها ٢٠٠ ألف نسخة ، لمؤلفين مثل الدكتور على شريعتى وآية الله مطهرى ، من منظرى الثورة . أدى ذلك تلقائيا إلى زيادة عدد الناشرين ، الذين ارتفع عددهم فى

الفترة من ٧٩ إلى أول ٨٥ من ٢٣٠ إلى ٥٠٠ ناشر، ٨٠٪ منهم فى طهران وحدها.

هذه الاندفاعة الملحوظة فى إتجاه الكتاب بعد الثورة يفسرها أمران :

■ الأول أن الجماهير العريضة كانت محجوبة عن الحركة الثقافية فى عهد النظام السابق، إما لأن المنابر الثقافية كانت تخاطب المدن بالدرجة الأولى، أو لأن مسار العطاء الثقافى لم يكن يلبى أشواق الجماهير ويستجيب لرغباتها، أو لأن الجماهير كانت فى حالة رفض لكل ما تصدره لها طهران من كتب ونشرات، وهى مدركة أن تلك المطبوعات إما أنها تعبر عن النظام الشاهنشاهى أو أنها تحت رقابة أدواته ورجاله (السافاك كانت هى الجهة المختصة باجازة أى كتاب محلى أو مترجم).

■ الأمر الثانى أن الجماهير الإيرانية كانت فى حالة ظمأ شديد للمعرفة عامة والاسلامية منها بوجه خاص. وحتى إذا قيل أن الناس تريد أن تتعرف من خلال الكتب على فكرة الثورة وتوجهاتها ـ وهى حجة سمعتها من أحد أساتذة طهران القدامى ـ فإن ذلك لا يفسر الرواج الهائل لكتب مؤلف مثل على شريعتى، الذى لا يحسب على رجال الثورة أو منفذيها.

لقد كان مثقفو عصر الشاه هم أبناء المدرسة العلمانية الغربية بمختلف فصائلهم اليمينية واليسارية. ولم يكن هؤلاء هم التعبير الطبيعى عن ضمير الشعب الإيرانى المسلم.. وعندما أتيح لغيرهم أن يظهر فى الساحة، منطلقا من القاعدة الاسلامية، تلقف الناس كتاباتهم وأقبلوا عليها بذلك الحماس غير العادى.

غير أنه مما يؤسف له أن شهية الجماهير التى انفتحت على نتاج العهد الجديد. لم تقابل بغذاء مشبع أو مفيد بالقدر الكافى. ولم يكن ضيق مساحة الحركة الفكرية واختفاء الرأى الآخر نسبيا هو العنصر الوحيد الذى أدى إلى تلك النتيجة السلبية، ولكن هناك سببين آخرين هما : إن الانتاج الفكرى للمرحلة بوجه عام (بعد سنة ٨٢) أصبح يدور فى فلك واحد، خط الثورة وأطروحاتها، فضلا عن أن تلك النوعية من الكتب أصبحت تجنح إلى الأسلوب الدعائى الذى يخاطب المشاعر والعواطف قبل العقل أو الوعى.

السبب الثانى أن رموز الثورة ـ وهم أصلا من أهل العلم ـ شغلوا بالأعمال السياسية والإدارية ، عن العمل العلمى والثقافى .

كانت نتيجة ذلك الوضع أن المثقفين الإيرانيين آثروا الترقب والانتظار ، فضعف اسهامهم فى المجرى الثقافى العام ، وأن منظرى المرحلة الجديدة وصناعها الأساسيين تعطل عطاؤهم الثقافى ، فحرمت الساحة من نتاج الفريقين ، وخسرت الكثير من جراء ذلك .

هذا الترقب من جانب المثقفين ، سمة عامة لازمت كل الثورات . والجنوح إلى الدعاية بحجة الالتزام أو المعالجة البناءة ، أمر ليس مستغربا ولا شاذا فى مثل تلك المنعطفات التاريخية الهامة ، خاصة إذا كان عمر التجربة محدودا ، كما قلنا .

ذلك لا يمنع أن هناك كمًّا من الكتب مغرقا للسوق وللمكتبات . فنحن نتحدث عن النوع . أيضا فإن ذلك لم يمنع من ظهور مؤلفين جدد لقوا قبولا ملحوظا عند الجماهير . منهم حسن زاده ، ومحمدى جيلانى وأمير كبير من الكتاب الاسلاميين ، وعلى معلم وحميد السيزوارى وعلى جرمارودى من الشعراء . إضافة إلى كتب على شريعتى ومطهرى ورفسنجانى (رئيس مجلس الشورى) .

وفى الوقت الراهن ـ يقول السيد صلاح زنجنى مساعد وزير الإرشاد للشئون الثقافية ـ تحتل الكتب المترجمة المرتبة الأولى فى التوزيع سواء كانت تعالج موضوعات التاريخ والسياسة والاقتصاد أو المجالات العلمية المختلفة ـ تليها كتب المؤلفين الايرانيين خاصة فى مجالات الاسلاميات أو الانسانيات والأدب والفن ـ الكتب المحققة ، التراثية والعلمية ، هى الثالثة فى ترتيب التوزيع ، تليها الكتب القديمة التى يعاد طبعها .

وربما كان أحد أسباب تفوق الكتاب المترجم توزيعيا أن الكتاب الأجنبى محظور استيراده بشكل تجارى لأسباب اقتصادية . وأى ناشر له أن يستورد ثلاث نسخ فقط من أى كتاب ، وله أن يترجم الكتاب أو يحققه وينشره بالفارسية ، كما أن له إن شاء أن يطبعه بلغته الأصلية فى داخل ايران .

ومن الكتاب المسلمين والعرب الذين راجت أعمالهم بعد الثورة ، وترجمت إلى الفارسية ، مؤلفات أبو الأعلى المودودى وسيد قطب ، ومحمد باقر الصدر ، وأشعار محمود درويش وسميح القاسم .

وليست هناك رقابة على الكتب قبل النشر . ولكن على كل من يطبع كتابا أن يرسل نسخة منه إلى وزارة الارشاد ولا يوزع الكتاب إلا بعد اجازته من جانبها . واحتمال مصادرة الكتاب قائم بطبيعة الحال ، إلا أنه ضعيف واستثنائى ، وفى أغلب الأحوال فإنه إذا كانت لوزارة الارشاد ملاحظات على الكتاب ، فانها تسجل وتضاف فى آخره ، على غرار عمليات تصحيح الأخطاء التى تلحق ببعض الكتب بعد الطباعة وقبل التجليد .

هذه الظروف التى أحاطت بالكتاب الايرانى ، لم تؤثر على نمو نوعين من المطبوعات : كتب الأطفال ، والمجلات العامة والمتخصصة .

إذ الملاحظ أن هناك نهضة غير عادية فى كتب الأطفال ، أحدثت نوعا من الاغراق للمكتبات وأكشاك البيع بالشوارع ـ أما المجلات الدورية فقد وصل عددها إلى ١٨٠ مجلة ، بينها ٣٥ مجلة علمية (بعضها يصدر من الجامعات) و ٢٠ مجلة متخصصة فى الأدب والنقد والمسرح والسينما ، وخمس مجلات للزراعة وحدها . . وهكذا . .

الثورة الثقافية : لماذا ؟ وكيف ؟

خلال الحوار الذى أجريته مع مختلف الأطراف حول الثورة الاسلامية والثقافية ، ترددت كثيرا عبارة « إنقلاب فرهنجى » . كدعوة ومطلب . ولم تكن العبارة تعنى سوى : الثورة الثقافية ، التى علمت أن لها جهازا خاصا ، ولجنة عليا يرأسها رئيس الجمهورية . وقادنى البحث إلى مقرر تلك اللجنة ، الدكتور أحمد أحمدى . وهو أحد رجال حوزة قم ، الذين انتقلوا لتدريس الفلسفة الاسلامية فى جامعة طهران قبل الثورة ، ومنها حصل على شهادة الدكتوراه .

الشعار بحد ذاته يغرى بعديد من أسئلة الاستفهام والاستيضاح ، وهو فى ظل الثورة الاسلامية بوجه أخص أشد ما يكون حاجة إلى الاستجلاء ، بعد إذ قرأنا

عن الثورة الثقافية فى خارج إيران أنها استهدفت تحويل الجامعات إلى معاهد دينية ، وإن كل ما أنجزته أنها أدت إلى إغلاق الجامعات وتسريح الطلاب لمدة عام أو اثنين !

وضعت تساؤلاتى أمام الدكتور أحمدى ، ممهدا بسؤال حول فلسفة الثورة الثقافية والدوافع التى حركتها . .

وكان رد الرجل على النحو التالى :

« فى المرحلة الشاهنشاهية كان « مهندسو » العقل الإيرانى يريدونه مبتدئا من الحضارة الفارسية ، ومنتهيا عند الحضارة الغربية ، وناسخا لكل ما هو اسلامى . بعد الثورة تغيرت الاستراتيجية . أصبح الهدف المعلن هو البدء والانتهاء بالاسلام ، والرفض المطلق للهيمنة الحضارية الغربية ، بغير انسلاخ من الجذور الفارسية ، رغم أن هذا الانسلاخ متعذر من الناحية العملية .

إزاء هذا الاختلاف الجذرى ، الانقلاب الكامل فى الواقع ، لم يكن هناك مفر من اللجوء إلى تلك الخطوة : انقلاب فرهنجى » .

« فإذا كان مفهوما أن يصبح « الالحاد » علما يدرس فى مختلف مراحل التعليم بالاتحاد السوفيتى ، جنبا إلى جنب مع المبادىء الماركسية ـ بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧ ـ فمن الطبيعى أن يكون « الايمان » ركنا ركينا فى معاهد الثورة الاسلامية بإيران ، وأن يحتل « الدين » مكان الصدارة فى مناهج التعليم بالثانوى والجامعات ، كمنطلق أحيانا أو كتعاليم ونظم ، فى أحيان أخرى .

« والثورة الرسالية إذا لم تتجاوز الأشكال إلى الأعماق ، فإن رسالتها تظل دائما فى مهب الريح . وإذا أخذنا الأمور مأخذ الجد ، فإن الثورة بمفهومها الحقيقى إذا لم تتبن فكرا جديدا ، ورؤية حضارية مختلفة ، فإنها تصبح مجرد إنقلاب على السلطة ، أو على أحسن الفروض . نوعا من « الإصلاح بالقوة » . وفى عالمنا الثالث كقاعدة ، وفى أعقاب الثورات بوجه أخص ، يظل يسيرا على السلطة أن تصدر ما تشاء من قرارات لتغيير واجهة المجتمع ، وربما بنيته أيضا . أما تشكيل العقل ، والنفاذ إلى الأعماق وصولا إلى « المنطقة الحرة » بالضرورة فى داخل الانسان فهو مما لا يمكن أن يتم بقرار أو فرمان . ذلك هو الحصن

الوحيد الذى لا تستطيع أى سلطة أن تقبض على زمامه إلا بعد عمل مكثف ودءوب لا يؤتى ثماره إلا بعد سنوات ، قد تصل إلى عقد أو اثنين أو أكثر .

« لقد كان كمال أتاتورك رمزا لأولئك الذين لم يستوعبوا تلك الحقيقة البديهية توهم أنه بمجرد أن يصدر قرارا بمنع الحجاب والنقاب ، واستبدال العمامة بالقبعة ، والعباءة بالثياب الأوروبية ، وبمجرد استبدال الحروف العربية باللاتينية ، فإنه يستطيع أن ينقل تركيا من القرن الثالث أو الرابع عشر إلى القرن العشرين ! . . ولما حاول أن يلوى ذراع التاريخ ، ويقفز فوق سننه ، كانت النتيجة أنه نقل تركيا من صدارة الشرق إلى مؤخرة الغرب ، كما قيل بحق ، ثم حول بلاده من بلد سوى الشخصية ، إلى مسخ ، لا هو شرقى ولا هو غربى !

« معامل الفكر والمعرفة ، معاهد التعليم تحديدا ، هى الساحة الرئيسية لعملية تغيير عقل المجتمع . من حيث أن المنتمين إليها هم فى نهاية الأمر ، عقول تحت التكوين .

« والأمر كذلك ، فلم يكن معقولا فى ظل الثورة الاسلامية أن تظل مدارس الثانوى والجامعات تلقن الطلاب أن الكون خلق بالصدفة ، وأن نظرية دارون فى النشوء والارتقاء هى مفتاح الحقيقة فى فهم أصل الجنس البشرى وتطوره . وأن الدين ـ مثل الزواج : ـ ظاهرة اجتماعية أفرزتها حاجة الانسان ، الذى عجز عن مواجهة التحدى المعلوم ، فاحتمى بالغيب والمجهول ، وأن الفلسفة لابد وأن تؤدى إلى إنكار وجود الله . . وهكذا .

« لم تكن معاهدنا العلمية تعكس قيم المجتمع الجديد » . هكذا قال الدكتور أحمدى . الجامعات بوجه أخص بدت كما لو كانت عضوا شاذا فى جسم إيران الاسلامية . ثقافة الغرب الليبرالى ، واليسار الماركسى ، كانت هى السائدة والمسيطرة ، على الأقل من حيث انها كانت تعكس خريطة الواقع الذى نهضت الثورة لتغييره . لقد أرادوه غربيا حقا ، ولكن اليسار الماركسى كان له وجوده الملحوظ فى أوساط المثقفين ـ لم تكن فقط مشكلة جيل من الشبان والفتيات أرادوا تغيير هويته . ولكنها أيضا كانت مشكلة فلسفة فى التعليم والمعرفة ، أفرزت كتبا ومناهج وأساتذة يعبرون عنها بدرجات متفاوتة .

ـ أضاف الدكتور أحمدى ـ كان أمامنا عدة مهام أولها تنقية المناهج والكتب من « الشوائب » العالقة بها ، وثانيها وضع مناهج تعكس قيم المجتمع الجديد ، سواء عن طريق إعادة صياغة كتب المناهج القائمة ، أوعن طريق إضافة مواد دراسية جديدة . وثالث تلك المهام هى تهيئة المناخ الجامعى المناسب لبلوغ الهدف المنشود .

فى الثانويات ـ المرحلة الثانوية ـ مضت التجربة على ذات المنوال . قررنا أن نبدأ بإزالة آثار العدوان الغربى على عقول التلاميذ ، بدءا بتغيير النظرة إلى فلسفة العلوم وانتهاء باسقاط هيمنة نظرية دارون » . هكذا قال الدكتور عادل حداد معاون وزير التربية لشئون المناهج ، الذى أضاف أنه تم خلال السنوات الخمس الأولى من عمر الثورة تأليف ٢٠٠ كتاب جديد لطلاب المدارس بمختلف مراحلها ، طبع منها فى العام الدراسى ٨٤/ ١٩٨٥ ـ عدد ٨٥ مليون نسخة .

التجربة أو المحاولة تثير أسئلة بغير حصر ، لعل أهمها وأكبرها السؤال : كيف ؟

المقرر والمعاون ـ د. أحمدى ود. عادل حداد ـ شرحا لى نقطة البدء على النحو التالى :

كانت الجامعات هى أكثر ما لفت الأنظار فى وقت مبكر ، جامعة طهران بالأخص . من بين الجامعات الثلاثين فى إيران . وخلاصة الصورة التى تبدت فى طهران أن الجامعة لها إنتماءات عديدة ، من أقصى اليمين الشاهنشاهى إلى أقصى اليسار ، الماوى أو التروتسكاوى . أما الانتماء الاسلامى فهو محدود أو محبوس . أزعجت الظاهرة قيادة الثورة ، فأصدر الامام توجيها فى منتصف عام ١٩٨٠ ، بعد سنة ونصف من نجاح الثورة بتشكيل لجنة الثورة الثقافية من سبعة أشخاص ، بينهم اثنان من الفقهاء ، ووقف الدراسة بالجامعات والمعاهد التى كانت تضم وقتئذ ١٨٠ ألف طالب وطالبة .

اجتمعت لجنة السبعة لوضع الخطوط الأساسية والاطار العام للثورة الثقافية . التى انطلقت من فكرة اشراك معاهد التعليم فى صياغة المجتمع الاسلامى المستهدف . فى الجامعات شكلت لجان فى كل كلية لمراجعة

المناهج ، وابداء الملاحظات عليها ، تمهيدا لتنقيتها . وهى مهمة اشترك فيها حوالى ٢٠٠٠ أستاذ جامعى من مختلف التخصصات ، من بين حوالى ٧٠٠٠ أستاذ هم مجموع أعضاء هيئات التدريس . الفقهاء اشتركوا أيضا فى مرحلة التقييم تلك . عشرون فقيها من حوزة قم وفى طهران ساهموا فى العملية ، وكان اسهامهم الأكبر فى قراءة مناهج الدراسات الانسانية .

بشكل عام لم تكن هناك ملاحظات أساسية على مناهج الكليات العملية ، وكقاعدة لم يكن هناك ما يتعارض مع قيم الاسلام فى كليات الطب والهندسة والعلوم والزراعة وغيرها ، ولذا سارعنا بإعادة فتح كليات الطب قبل أقل من سنة من إغلاق الجامعات ، بعدما استرشدنا بآراء الفقهاء فى حدود الحلال والحرام فى مسألة تشريح الجسد ، وفى ممارسة الرجال لعلاج أمراض النساء والتوليد ، وقد أجازوا هذا وذاك لاعتبارات المصلحة .

فى كليات الزراعة لاحظنا أن المناهج تخرج زراعيين للعمل فى المكاتب وليس فى الحقل . فقررنا أن يدرس الطالب سنتين فى الكلية بحيث يؤهل خلالها للعمل فى الميدان ، ثم يذهب إلى المناطق الزراعية ليقضى سنتين أخريين فى التدريب العملى ، ثم يعود لمواصلة دراسته حتى البكالوريوس . فى الهندسة جرى مسح لحاجات الصناعة ومشروعات التنمية ، فى ضوئه أضفنا بعض الأشياء وحذفت أشياء أخرى . وكانت أعيننا على المجالات التى كان يعمل فيها فنيون أجانب ، من الأمريكيين خاصة ، ثم تركوها ولم يعد لدينا من يستطيع مباشرة مسئوليتها . ومن قبيل ذلك مشروع إنتاج طائرات الهليكوبتر ، ومختلف أجهزة التبريد .

بعد إنجاز مثل هذه الخطى فى الكليات العملية ، أعيد فتحها تباعا ، وكانت أسبق من الكليات النظرية ، التى اكتملت عملية إعادة فتحها خلال سنتين .

الأمر كان مختلفا تماما بالنسبة للعلوم الإنسانية . كانت مراجعة مناهج تلك العلوم هى المهمة الأعسر والأصعب بل الأخطر . فكل من علوم الاجتماع والفلسفة والأدب والجغرافيا والتاريخ والاقتصاد والقانون ، يحمل شيئا من

العقيدة . وكان علينا أن نغير البرنامج والمحتوى فى كل منهج تقريبا . وكانت أمامنا مشكلة أن كل أستاذ كان فى الماضى يعرض المادة حسب عقيدته ، حتى وجدنا خليطا من الأفكار الماركسية والليبرالية والرأسمالية والاشتراكية والاسلامية فى بعض الأحيان .

مثلا : الأدب قبل الثورة كان مقطوع الصلة بكل ما ننتمى إليه كمسلمين . وكان فى جوهره غربياً أو ماركسيا . . وهذا وضع اقتضى التصحيح .

التاريخ كان يركز على القومية الفارسية ، ويعتبر الفتح العربى غزوا بربريا ووحشيا ، ويغذى الشعور المعادى للاسلام وللسان العربى . ولما كانوا يجدون أنه من المتعذر الهجوم على الإسلام ، فإنهم كانوا يصبون كل نقدهم وتجريحهم للعرب . وكان علينا أن نعيد صياغة المناهج لترتكز على تاريخ الاسلام والأئمة ، والقدر المعقول من التاريخ الإيرانى وتاريخ العالم .

علم النفس لما وجدناه يتجاهل بعض جوانب الاعتقاد . وليس فيه شىء حول النفس وبقاءها ولا حول الانسان كموجود له أبعاد دنيوية وأخروية . كان لابد من تقويم الخلل بصياغة جديدة ترسى منطق الإسلام ، وتعترف بأن للإنسان عواطف وغرائز وموروثات ، بل له جانب إلهى أيضا .

فى العلوم السياسية كانت تدرس كل الإتجاهات من اليمين إلى اليسار ، ولا يشار إلى أصول السياسة فى الإسلام ، وهو ما كان لابد أن نعطيه أهتماما خاصا ، ونضيف إليه موضوع ولاية الفقيه ، أحدى صياغات واجتهادات الفكر السياسى الاسلامى .

فى الفلسفة ، وضعنا المنهج بحيث تكون الفلسفة أداة للتحقيق وإثبات وجود الله ، وليس التشكيك فيه . وأصبحت الفلسفة الإسلامية محوراً أساسيا فى الدراسة ، وليست منهجا هامشيا يستغرق تدريسه ساعة أو أثنين كل أسبوع ، كما كان الحال فى الماضى .

فى القانون ، أعطيت مساحة أكبر للتشريعات الإسلامية فى مختلف المجالات .

فى الإقتصاد كان لابد أن يأخذ الاقتصاد الاسلامى مكانه إلى جانب مختلف

المدارس والمناهج الإقتصادية الأخرى ، من غربية وشرقية .

في علم الاجتماع كان لابد أن نغير من بعض الأسس التى روجت لها النظريات الغربية ، بالأخص تلك التى تتجاهل أعماق الإنسان ودوافعه العقيدية أو الايمانية ، وتقيم أبنية فكرية كاملة تعتمد فى تفسير السلوك والظواهر الاجتماعية على اعتبارات تسقط وجود الله والضمير من الحسبان . فليس معقولا أن تظل مناهجنا تلقن الطلاب أن الدين ظاهرة إجتماعية . منكرة أنه حقيقة أنزلت على الرسول بواسطة الوحى ، والمجتمع هو وعاؤه . وليس مقبولا أن تقوم الثورة على أنها أيضا نتيجة لتفاعلات اجتماعية او صراع طبقى ، ولا علاقة للايمان بدوافع تحريكها وتفجيرها . وليس مبررا من جانبنا قبول هذا الفصل فى الرؤية الغربية بين الحالة النفسية والقلبية للانسان ، وبين العالم الخارجى والمؤسسات الاجتماعية . كما أنه ليس مبررا أن يستمر تجاهلنا لجهود علماء المسلمين ومكانتهم فى الدراسات الاجتماعية .

فى مناهج الفنون . كان لابد أن يكون للعمارة الاسلامية والخطوط العربية وجود له وزنه . فى حين بقيت مناهج الفنون الأخرى كما هى . من تشكيلية وتعبيرية . وإن كنا قد استعنا بالفقهاء فى موضوع الموسيقى ، لضبط الحدود بين الفن الحقيقى الذى يسهم فى الترويح الراقى عن الناس ، والتسامى بمشاعرهم وأذواقهم ، وبين الفن المزيف الذى لا يستهدف سوى استثارة الغرائز وكل ما هو سلبى فى النفس الإنسانية .

الوقاية والتحصين مطلوبان . . ولكن !

قلت للدكتور أحمدى : ألا يحتاج الأمر إلى توضيح الحدود بين الحرص على تنوع الأفكار بما يؤدى إلى إثرائها فى داخل الجامعات . وبين الانزلاق فى إتجاه مصادرة الفكر الآخر ، وصب الجامعة فى قالب فكرى واحد لا يخدم حرية العلم ، ولا يخدم الحق الذى يراد بلوغه واظهاره .

قال : تلك نقطة دقيقة وهامة . ومناقشتها يجب أن تتم فى ضوء اعتبارات أربعة : أولها حالة الثورة التى مازالت تتحرك فى الأحشاء الإيرانية ومطلوب لها أن تفرز وضعا صحيا وايجابيا قدر الإمكان . وذلك يقتضى توفير أكبر قدر ممكن من

اجراءات الوقاية والتحصين فى تلك المرحلة . والاعتبار الثانى هو ظروف التحدى الشرس والضارى الذى تواجهه الثورة الاسلامية من مختلف القوى المناوئة والمعادية . وهو التحدى الذى وصل إلى حد التصفية الجسدية واسعة النطاق . كما حدث فى عمليات الاغتيال والنسف التى جرت خلال عامى ٨٠ و ١٩٨١ حيث وجدت الثورة نفسها وهى تواجه بعض المعارضين بين خيارى الحياة والموت .

الاعتبار الثالث هو ضرورة التفرقة بين تنوع الأفكار والعداء بينها . تنوع الأفكار نعتبره ضروريا للحياة الجامعية ، لكن التناقض الذى يصل إلى حد العداء سمحت به الثورة فى البداية ، وكانت جامعة طهران مثلا ساحة مليئة بمختلف أفكار اليمين واليسار . ما هو شاذ منها وما هو سوى . غير أنه عندما حانت لحظة المواجهة بين فكر الثورة وفكر الآخرين . كانت الجامعة هى الضحية . وكادت تتحول إلى ساحة قتال بالسلاح . وهو ما لم يكن ، بمقدور مسيرة الثورة أن تحتمله وهى تسعى لتثبيت أقدامها وصد موجات العداء التى أثيرت ضدها .

الاعتبار الرابع هو أن الجامعة معمل لاعداد الشباب . وليست منتدى علميا مغلقا على بعض الأكاديميين . ومن حق الدولة التى تلتزم بعقيدة معينة ، الإسلام أو غيره ، أن تضع سياسة لاعداد الشباب لتحمل مسئولية الرسالة أو العقيدة التى تنتمى اليها ، بغير قسر أو فرض . نحن نريد أن نوفر للشاب الجامعى فرصة التعرف على دينه ، واكتشاف هويته الحقيقية . وله بعد ذلك أن ينحاز إلى الفكر الذى يريده . أى أن الثورة الاسلامية تريد أن تتحمل مسئوليتها تجاه هؤلاء الشباب ، وأن تبرىء ذمتها تجاه الله وتجاه الأجيال القادمة .

إن الباب لم يغلق على الفكر الاسلامى وحده . ولكن الفكر الاسلامى تبوأ مكانته الطبيعية واسترد حقه المغتصب والمهدور فى العلوم الانسانية بوجه أخص . بينما لا تزال أبواب الجامعات مفتوحة لدراسة مختلف الأفكار الأخرى ، من شرقية وغربية . لقد أعدنا ترتيب الأولويات ، وأعطى كل ذى حق حقه . هذا كل ما فى الأمر .

حول أسلمة المناهج ، سألت مقرر لجنة الثورة الثقافية : هل كانت اللجنة تنطلق فى التزام بالفكر الاسلامى بشكل عام ، أم بفقه المذهب الشيعى . . وهل

وضع فكر وفقه أهل السنة فى الاعتبار ، من باب تقريب المسافة بين المذهبين . وهو عمل ريادى ينتظر من يتصدى له .

قال الدكتور أحمدى : لا أزعم أن اللجنة تصدت لعملية التقريب بين السنة والشيعة . ذلك شرف لا ندعيه ، وهو ما كان خارجا عن المهمة الأساسية التى أنيطت باللجنة من البداية . لكن هناك مبادىء أساسية فى الأسلام لا خلاف حولها بين أهل المذهبين ، انعكست على مختلف المناهج كلما كان ذلك مناسبا . ومن الطبيعى أن نهتم بانصاف الشيعة فى دراسة التاريخ الاسلامى . ومن الطبيعى أيضا أن نولى الفقه الشيعى اهتماما خاصا فى دراساتنا الشرعية . لكننى أحسب أن فقه أهل السنة أنصف وأعطى حقه . وبالمناسبة فإن فقه أهل السنة بمختلف مدارسهم يدرس فى الحوزات العلمية منذ مئات السنين . كما أن كلية الإلهيات والمعارف الاسلامية بجامعة طهران كان بها « كرسى » منذ العهد السابق لتدريس الفقه الحنفى ، الذى هو مذهب غالبية أهل السنة فى ايران .

لقد قررت اللجنة إنشاء جامعة إسلامية لأهل السنة . على أن يكون مركزها فى « ساننداج » عاصمة أقليم كردستان ، الذى يضم أكبر نسبة من أهل السنة . وقد بدأت الدراسة فى عام ٨٥ ـ ١٩٨٦ بكليتى أصول الدين والشريعة التابعتين لتلك الجامعة . وتم وضع مناهج الدراسة بتلك الكليتين ، واشترك فيها علماء السنة الايرانيون . وسيتم التركيز على فقه الشافعية والحنفية فقط فى كلية الشريعة ، لأنه لا يوجد بايران حنابلة أو مالكية . وإن كان ذلك لن يمنع من دراسة تعاليم هذين المذهبين فى اطار الفقه المقارن .

وسنوزع كليات جامعة أهل السنة على مختلف تجمعاتهم . سينشأ فرع فى تركمان ، وآخر فى زهران ، حيث اتباع المذهب الحنفى . وفرع ثالث فى بندر عباس ، التى يختلط فيها الاحناف والشافعية .

غير المناهج ، شغلت لجنة الثورة الثقافية بأمور أخرى عديدة فى داخل الجامعة ، أبرزها موقف الأساتذة الذين سوف يتولون تدريس المناهج للطلاب ، ثم قضية اختلاط الطلبة والطالبات فى قاعات الدرس .

بالنسبة للأساتذة كانت الصراعات التى شهدتها السنوات الأولى للثورة قد تكفلت بعملية فرز المواقف . حيث اختار كل أستاذ ممن لهم نشاط سياسى ،

الجانب الذى يلتقى معه فكريا وسياسيا ، خاصة وأن الجامعات كانت أحدى ساحات المواجهة بين الفرقاء .

من بين ٧ آلاف أستاذ . كانت أول مرحلة للفرز قد أسقطت منهم حوالى ٥٠٠ ، هربوا إلى الخارج بعد سقوط النظام الشاهنشاهى مباشرة ، لارتباط أكثرهم بعناصر النظام ، أو لأية دوافع أو مخاوف أخرى . الباقون درست حالاتهم . « وجدنا أنه لا مفر من استبعاد ٦٠ أستاذا ، كانت مختلف الشواهد تشير إلى أنهم أعلنوا مواقف رافضة للاسلام ومعادية له « كدين ونظام للدولة . عندما ثبت فى حقهم ذلك ، فانهم أحيلوا إلى التقاعد وأعطوا تعويضات مالية مناسبة » . . هكذا قال الدكتور أحمدى . ثم أضاف أن هناك أقل من مائة أستاذ آخر كان التناقض والخلاف الفكرى مستحكما بينهم وبين خط الثورة الاسلامية ، لكنهم لم ينكروا الدين ولم يظهروا له العداء . . كانوا ضد النظام القائم وليسوا ضد الاسلام ذاته . وهؤلاء قررت اللجنة أن تبقى عليهم فى داخل الجامعات ، دون أن يقوموا بالتدريس للطلاب . لقد أعتبرنا أن من حقهم أن يبقوا فى الجامعة كباحثين ينحازون إلى وجهة النظر الأخرى . ولكننا وجدنا أنه من حق الثورة ـ فى سنواتها الأولى على الأقل ـ أن تحمى خطها ، وتحول دون تمكين هؤلاء من استخدام قاعات الدرس لكى يروجوا بين الطلاب لأفكارهم المناهضة للنظام . ولهذا فقد أبقى على هؤلاء الأساتذة ، وظلوا يمارسون عملهم الأكاديمى ، من تأليف الكتب وترجمتها ، إلى اجراء الأبحاث المختلفة » .

وقال الدكتور أحمدى : إن أية ثورة تتبنى عقيدة معينة تجد نفسها مطالبة بأن تؤمن دعوتها وتحميها . وهذه من سنن الثورات ، التى سرت على غيرنا ، وسرت علينا . لكن المهم هو كيف يمكن انجاز هذه الخطوة بأكبر قدر من الالتزام بميزان العدل والقسط ، وبأقل قدر من التضحيات .

وبالنسبة لموضوع اختلاط الطلاب والطالبات فى الجامعة ، فقد كان محل مناقشة بين أعضاء اللجنة ، التى استقر رأيها على أنه طالما كانت الطالبات محجبات ، فلا مبرر للفصل بينهن وبين الطلاب ، وتستمر الأوضاع كما كانت عليه من قبل . غير أن بعض الطلاب ذهبوا إلى حد وضع حاجز خشبى فى قاعات

المحاضرات بينهم وبين الطالبات . ووصل الأمر إلى علم الامام الخمينى ، فطلب رفع تلك الحواجز ، وقال أنه لا مبرر لوجودها ما دامت الطالبات محجبات وملتزمات بظاهر آداب الاسلام . ومن الناحية العملية فإن الطلاب أصبحوا يجلسون أحيانا فى جانب من قاعات المحاضرات ، وتجلس الطالبات فى جانب آخر . وأحيانا يجلسون فى الصفوف الامامية وتجلس الطالبات فى الصفوف الخلفية . . وهكذا .

ولا يزال ملف التجربة مفتوحا لمختلف التفاعلات فى مجالات الفن والثقافة ، فالرحلة ـ أكرر ـ مازالت فى بدايتها ، وأبواب الخطأ والصواب مفتوحة على مصاريعها .

□ □

الفصل الثانى عشر

أهـــل «التســنن»

في شهر يونيو ١٩٨٥ ، تلقى أحد رجال الامام مكالمة هاتفية بعد منتصف الليل ، من مجهول رفض أن يذكر أسمه . ولكنه اكتفى بإبلاغه الرسالة التالية : لقد نجحنا فى عقد مجلس « لعن عمر » فى مكان ما قرب طهران وفرغنا منه قبل لحظات . وسوف ننتظر اليوم الذى يعود فيه احتفالنا « بقتل عمر » !

« وعمر » ، المعنى فى المحادثة هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أما المتحدث فليس سوى واحد ممن تربوا فى مدرسة التعصب والغلو . الذين لقنوا أن الخلفاء الثلاثة (أبا بكر وعمر وعثمان) اغتصبوا حق الامام على فى الخلافة بعد وفاة رسول الله . وأن سيدنا عمر بن الخطاب هو الذى أرغم الامام على لكى يبايع أبا بكر ، وأهانه وهدده بإحراق داره إذا لم يخرج للبيعة .

وكان الرد الذى أفرزته عصور الانحطاط الفكرى والسياسى هو ممارسات من ذلك النوع . لعن الخلفاء الثلاثة على المسابح حينا ، وفى حلقات تعقد خصيصا لهذا الغرض حينا آخر . وفى شهر المحرم من كل عام - فى ذكرى مصرع الحسين - كانوا يقيمون تمثالا من القش أو القماش يرمز به إلى عمر بن الخطاب ، ويتسابقون فى طعنه وتجريحه فيما يسمى « عمر كُش » ، أو قتل عمر . وقد اختصوا سيدنا عمر بنصيب أكبر من الانتقام بسبب فرية إهانته للامام على ، وارغامه إياه على بيعة الصديق .

تركة ثقيلة عند الجميع

تلك صفحة سوداء ، مما ابتلى به المسلمون منذ التشرذم الذى أعقب واقعة « صفين » الشهيرة ، التى تقاتل فيها جيشا علي ومعاوية فى سنة ٣٧ هجرية حيث غرست بذرة الانشقاق والتفتت التى هدت قوى الأمة الاسلامية وامتصت عافيتها منذ منتصف القرن الهجرى الأول ، وكان سب الأمام على بن أبى طالب فوق المنابر فى العصر الأموى (الذى أوقفه الخليفة عمر بن عبد العزيز ٦١ - ١٠١ هـ) من علامات ذلك التردى المحزن ، ثم كانت صراعات الفرق والملل والنحل

ذروته ، التى ظلت بصماتها مطبوعة على مسيرة العمل الاسلامى عبر القرون .

وكتب التاريخ الاسلامى تطفح بذكر تلك الوقائع ، التى تدمى قلب المسلم ، عندما كان السنى يقاتل الشيعى والشافعى يقاتل الحنفى . وعندما سئل أحد الشافعية عن حكم طعام وقعت فيه قطرة نبيذ ، فقال : يرمى لكلب أو حنفى . وإذ سئل حنفى عن حكم الزواج من امرأة شافعية ، فأفتى بعدم جواز ذلك « لأنه يشك فى ايمانها » ، بينما أجاز ذلك آخر ، قياسا على الكتابية . . وهكذا[١] .

وحتى بدايات القرن الحالى ، كانت لا تزال بقايا صراعات الفرق الاسلامية تتفاعل داخل معقل علمى كبير هو الأزهر الشريف ، حتى إنهم كانوا يرفضون الصلاة فى جماعة واحدة . وكان أتباع كل من مذاهب أهل السنة الأربعة . يصلون وراء امام منفصل فى صحن الجامع الكبير ، وهو وضع لا يزال مستمرا إلى الآن فى المسجد الأموى بدمشق للأسف الشديد .

وإذ استمرت خلافات الفرق الاسلامية عبر القرون ، فاشتد أوارها حينا وخفتت حدتها فى أحيان أخرى ، إلا أن خلافات السنة والشيعة أريد لها أن تظل متأججة وساخنة بصورة متصلة . وإذا افترضنا حسن النية البالغ فى الذين يجددون الحديث عن تلك الخلافات ـ وتعامينا عن كل ما يحاك للمسلمين من دسائس وما يراد بهم من شر ـ فان طرح هذه الخلافات يظل يصب في مجرى تفتيت وحدة المسلمين واجهاض أمل اللقاء الخير بينهم .

وتظل ظروف إذكاء وإحياء خلافات الفرق الاسلامية مما يحتاج إلى دراسة وتقص دقيقين،بالأخص ذلك الدور المريب الذى لعبه الصفويون فى الربع الأخير من القرن السادس عشر ، سواء لاغراق التراث الشيعى فى طوفان البدع والشعوذة ، أو لتشجيع سب الخلفاء الراشدين الثلاثة ، وحث الشيعة على زيارة « العتبات المقدسة » فى العراق ، بديلا عن الحج إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة[٢] . بنفس القدر ، فان الحملات الضارية التى لا يزال يشنها السلفيون والوهابيون على الشيعة حتى زماننا هذا ، تحتاج إلى مراجعة فضلا عن أن

---

(١) محمد الغزالى ـ دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين ص ٩٩ .

(٢) أنظر فى هذا الصدد Said Amir Arjomand-The Shadow of God and the hiddenImam-P 165

استمرارها على هذا النحو وبالأساليب المتبعة ، الكتب والنشرات والأشرطة المسجلة ، مما يحتاج إلى تبرير مقنع .

هذه التركة الثقيلة ، التى اختلطت فيها الألغام بالأشواك وبمختلف مرارات التاريخ وضغائنه المفتعلة . كانت ـ ومازالت ـ تمثل أحد التحديات الكبرى التى كان على قادة الثورة أن يواجهوها . وسواء ارادوا هم أم لم يريدوا ، فقد انفتح « الملف » السنى الشيعى بأقصى اتساع ممكن . إذ لم يحدث أن ثار الجدل حول تلك القضية طوال حكم الشيعة الزيدية فى اليمن ، الذى سقط بثورة الضباط فى عام ١٩٦١ ، ولا فى ظل النشاطات المتزايدة للشيعة الاسماعيلية ، وقاعدتهم الأساسية فى باكستان والهند ، وسواء كان السبب فى ذلك هو محدودية اتباع هاتين الفرقتين ، أو أن الثورة الايرانية حققت انتصارها فى ظروف مثيرة للغاية ، فضلا عن أنها تمت فى مناخ مد اسلامى كبير ومتصاعد ، أو أنها نصت فى دستورها على التزامها بالمذهب الشيعى الأثنى عشرى أو الجعفرى [٣] . أيا كان السبب ، فقد بات عليها أن تواجه المسألة المذهبية بمختلف تفاعلاتها وتداعياتها .

وقد جرت المواجهة على محورين أساسيين ، فى داخل ايران وخارجها :

● فى داخل ايران كان هناك رصيد التعصب الموروث بين عامة الشيعة الذى غذته مدرسة لها تراثها الفكرى المكتوب والمتداول ، ولها رموزها النشيطة فى الحوزات العلمية . وظل مطلوبا أن يكون هناك موقف واضح من أفكار وممارسات ذلك التيار ، ثم ترجمة هذا الموقف على الفور فى التعامل مع أهل السنة فى داخل ايران ، وعددهم يتراوح بين ٦ ، ٧ ملايين نسمة .

● فى خارج ايران ، كان هناك أيضا تعصب بعض فرق السنة ـ السلفيون والوهابيون فى المقدمة ـ ثم ، حلقات التشويه المستمرة على مدار التاريخ ، التى استهدفت تلويث كل ما هو شيعى ، فكرة كانت أم فردا . يضاف إلى ذلك أن أهل السنة عموما ، عامتهم ومثقفيهم ، لا يعرفون عن الفكر الشيعى إلا كل ما هو منقوص ومذموم ـ وقد لا نبالغ إذا قلنا أن الجهل بالمذهب الشيعى وفرقه يكاد

---

(٣) تنص المادة ١٢ من الدستور على أن « الدين الرسمى لايران هو الاسلام والمذهب الجعفرى الاثنى عشرى ، وهذه المادة تبقى إلى الأبد غير قابلة للتغيير . وأما المذاهب الاسلامية الأخرى والتى تضم المذهب الحنفى والشافعى والمالكى والحنبلى والزيدى فإنها ستتمتع باحترام كامل . . إلى آخر المادة .

يكون هو القاعدة فى المجتمعات السنية . وباتت الثورة الايرانية مطالبة بأن تعبر فوق التعصب والتشويه والجهل أو التجاهل ، لتقيم جسوز التفاهم والتقارب مع أهل السنة .

باختصار ، فان التحدى الحقيقى ظل يتمثل فى القدرة على تجاوز أكثر من ١٣ قرنا من عمر الزمن ، حافلة بالحساسيات ومحاولات التلغيم والتسميم ، وطى تلك الصفحة بكل أثقالها وجذورها الضاربة فى عمق التاريخ وضمائر عشرات الملايين من البشر ، خلال عدد محدود من السنوات ، تجاوز بالكاد أصابع اليد الواحدة .

هى مهمة مستحيلة ، لكن الثورة الايرانية لم تكن تملك سوى خيار التصدى لها وتحمل مسئوليتها .

على شريعتى ـ ثورة على التعصب

فى عام ١٩٦٩ ، عاد المفكر والفيلسوف الايرانى الدكتور على شريعتى من باريس إلى طهران ، مبشرا بالثورة والوحدة الاسلامية ، انطلاقا من مبادىء التشيع الأصيل الذى أسماه « العلوى » ليميزه عن التلوث الذى أصابه فى العصر الصفوى .

فى طهران أسس على شريعتى « حسينية الارشاد » وبدأ يخاطب منها جماهير الشيعة بكلام بدا غريبا على الأذهان ، مما جذب انتباه البعض ، وأثار آخرين وصدمهم .

هاجم شريعتى بشدة « التعصب » بين السنة والشيعة ، حيث قال وهو يستعيد بمرارة بالغة ذكرياته عن الحج أن بعض رجال السنة : « كانوا يعقدون اجتماعات للتنديد بالشيعة وتكفيرهم واعتبارهم رافضين . . ويحاولون اقناع الناس بأن الشيعة لا يؤمنون بالقرآن ، بل ويعتقدون بعدم وجود قرآن على الأرض . . ويذهبون إلى القول بأن القرآن غائب مثل الامام . . وأنه كان دوما فى يد الأئمة . .

ثم قال : أن الوجه الآخر لذلك التعصب ، ولتلك المحاولات غير الشريفة لتزوير الحقائق هو موقف بعض فقهاء الشيعة الذين يقولون إن العدو الرئيسى هم

أولئك السنة العمريون ، فهم أضرموا النار فى بيت فاطمة الزهراء ، وهم اغتصبوا (فدك) ـ أرض قيل أن السيدة فاطمة ورثتها عن النبى ـ لذلك فهم أسوأ من اليهود واسرائيل . وعقب على ذلك ساخرا بقوله : ماذا فعل اليهود ، هل هم الذين ضربوا بنت رسول الله وهل هم الذين اغتصبوا فدك ؟ !

وقال : إن مثيرى الفتن المذهبية لدى الشيعة ، يقدمون للناس نصوصا وأقوالا من كتاب ورجال دين « سنة » تهاجم الشيعة والامام على . . ذلك لتشويه الوجه الحقيقى للتسنن المحمدى . بينما لا يشيرون إلى أعمال تاريخية خالدة قام بها فقهاء من السنة حول تاريخ الشيعة وأئمتها . . ثم أن مثيرى الفتنة المذهبية لدى السنة يستخدمون نصوصا من بعض فرق الغلاة « الذين يرفضهم فقهاء الشيعة الحقيقيون » ليقولوا للناس بأن الشيعة غير مسلمين وهم أعداء للسنة .

أضاف شريعتى أن « التسنن الأموى والتشيع الصفوى شبيهان ، وهما يكملان بعضهما البعض ولا علاقة لهما بالتشيع العلوى الصحيح ، ولا بالتسنن النبوى الصحيح » .

وقال : إن المعركة المثارة بين الشيعة والسنة هى معركة التسنن الأموى والتشيع الصفوى ، وهى مثارة من أجل الهاء المسلمين عن معركة الاسلام ضد الصهيونية . إنها معركة تطرح قضية اغتصاب « فدك » لتلهى المسلمين عن اغتصاب فلسطين »[٤] .

ولم يكن هذا « أغرب » ما قاله على شريعتى ، ولكن الأغرب هو ما ذهب اليه من دفاع عن الدولة العثمانية . والأشد غرابة أنه هاجم بشدة الدولة الصفوية ، التى فرضت التشيع فى ايران ، حتى اعتبرها « العدو اللدود للاسلام » .

قال : ان مثقفينا ينطلقون من تقييمات غريبة للدولة العثمانية ومعروف أن تلك التقييمات مليئة بالحقد الاستعمارى ضد هذه الدولة التى شكلت لفترة تاريخية سياجا منيعا يمنع أطماعهم وحملات نهبهم . كما أن بعض المؤمنين الشيعة ينطلقون فى تقييمهم للدولة العثمانية ولدول وشخصيات اسلامية أخرى من منطلق مذهبى .

(٤) فاضل رسول ـ هكذا تكلم على شريعتى ـ دار الكلمة ببيروت ط ١٩٨٢ ص ٥٠ ـ ٥١ .

وأضاف : يا حبذا لو ظهر فى فلسطين مرة أخرى صلاح الدين (حتى وهو معاد للشيعة) فيحررها من الصهيونية والاستعمار . . ويا حبذا لو ظهر فى بلداننا مجددا أولئك السلاجقة الاشداء ، الذين هزموا الصليبيين . . ويا حبذا لو ظهر العثمانيون (رغم مساوئهم) مرة أخرى ليحرروا آسيا وأفريقيا من السيطرة الاستعمارية للغرب » . .

ثم قال إن التقييمات الشيعية (ذات النظرة المذهبية الضيقة) تعتبر العثمانيين دولة سنية ، عمرية ، منكرة للامامة مخالفة للوصاية ، غير مؤمنة بظهور إمام الزمان . . « أما مثقفونا التقدميون » فيعتبرونها « نظاما منحطا اقطاعيا غير ديمقراطى ، متعصبا من الناحية الدينية » وعقب على ذلك بقوله : قد تكون معظم هذه الصفات صحيحة ، ولكن أين التقييم الشامل ؟ وأين المسألة الجوهرية التى يضعها الجانبان فى التقييم ؟ . . « نعم إن للدولة العثمانية مساوىء ومفاسد ، بحيث لا يمكننا اعتبارها دولة قائمة على مبادىء الاسلام الصحيح والعدالة الاجتماعية . لكنها وحدت القوميات والشعوب الاسلامية فى وحدة سياسية ـ عسكرية ، كانت وحدها هى ضمانة استقلال المنطقة . . » .

. . وعندما بدأت هذه الوحدة فى الضعف والانحلال ، بدأ الغرب يفرض سلطانه ، وبدأنا نعانى من قمعه ووحشيته . . وفى مارس ١٩٢٤ ، عندما أعلنت الهزيمة الرسمية للدولة العثمانية ، هزم الاسلام كقوة سياسية وعسكرية وحضارية أمام الغرب ، وانفتح أمام الاستعمار طريق بلا عوائق لنهب الشرق ، والبلاد الاسلامية بوجه أخص » .

ومن تقييمه الايجابى لدور الدولة العثمانية انطلق مهاجما الدولة الصفوية « رغم ادعائها الاخلاص للتشيع ، بل وترويجها الرسمى له ، إلا أنه اعتبرها العدو اللدود للاسلام ولوحدة المسلمين ، إذ أن نهوض الدولة الصفوية شرق الدولة العثمانية وإثارتها المعارك ضد العثمانيين متسترة بالصراع المذهبى الشيعى ـ السنى ـ إنما كان حسب تعبيره ، ضربة غدر من الخلف وجهت للمسلمين . . وهو ما تم بتعاون وثيق بين الدولة الصفوية والدول الاستعمارية الغربية . خاصة وأن الدور الذى لعبه الصفويون كان من أهم أسباب هزيمة العثمانيين أمام حملة الغرب » .

« إن الدولة الصفوية دافعت بشكل مغالى فيه عن التشيع والاسلام ، لكنها خانت المسلمين وتعاونت مع اعدائهم ، وفتت صفوفهم » ليس هذا فحسب ، بل أن شريعتى يؤكد على أن التمسك المبالغ فيه من قبل الصفويين ، بالتشيع وترويج التعصب المذهبى الضيق الأفق ، كان مقصودا من قبل الصفويين ، لكى يقدموا للايرانيين تغطية لحربهم مع العثمانيين وجيرانهم المسلمين ، ولكى يعبئوا جيوشهم ضد المسلمين بدلا من تعبئتها ضد الأعداء المتربصين بالاسلام وبالشرق عموما »(٥) .

وفى دعوته تلك إلى الوحدة ، وحملته ضد التمذهب والتشرذم ، فإنه أشاد بحركة التقريب بين المذاهب التى نبتت فى القاهرة خلال (الأربعينيات) ، واعتبر أن فكر التقريب إنما هو « نقطة انعطاف هامة فى الفكر الاسلامى الاصلاحى » واستشهد بأقوال وآراء العديد من فقهاء الشيعة الكبار ، مثل آية الله محمد حسين كاشف الغطاء ، والشيخ الدكتور محمد جواد مغنية ، وآية الله محمد صالح الحائرى ، والسيد شرف الدين الموسوى ، ليؤكد على « أن الخلاف بين الشيعة والسنة هو خلاف بين مجتهدين من دين واحد ، يستنبطون حكما من مرجع واحد » .

ثم عقب على تلك الآراء بقوله : إن القيمين الرسميين على أمر الدين فى بلادنا فرضوا حصارا على أفكار الناس ومعلوماتهم ، وزوروا حقائق التاريخ ، وأخفوا عنا كل ما يؤلف القلوب ويجمع الصفوف . حتى قد لا يصدق بعض المتأثرين بدعايات التشيع الصفوى ، بأن أقوالا كتلك التى قال بها فقهاء الشيعة الكبار ، صدرت أيضا عن (بعض) فقهاء أهل السنة(٦) .

هذا الموقف الذى كان بالغ الشذوذ والغرابة فى الساحة الايرانية ، كلف على شريعتى غاليا « إذ تعرض بسببه لأبشع الحملات ، حتى أتهم من قبل بعض رجال الدين بأنه سنى وخائن للتشيع »(٧) .

---

(٥) المصدر السابق ص ٤٨ .
(٦) المصدر السابق ص ٥٣ .
(٧) المصدر السابق ص ٤٩ .

ولم يقف الأمر عند حد توجيه الاتهام إلى الدكتور على شريعتى . وإنما استنفرت دعوته جمهورا ليس قليلا من المتعصبين ، الذى أنشأوا « جبهة مقاومة » لفكرة الوحدة والتقارب ، عرفت باسم « ولايتى ها » (ها تستخدم للجمع فى اللغة الفارسية) وهؤلاء احتموا بولاية على ، وبفكرة التمسك بالدفاع عنها ، وقالوا بضرورة مخالفة أهل السنة والتميز عنهم ، وربما الابتعاد عنهم أيضا . حتى لا يضطرهم التقارب أو التقريب إلى التفريط فى تلك الولاية ، ونسيان فاطمة الزهراء والحسين بن على كما قالوا .

كانوا امتدادا أمينا للتشيع الصفوى .

فى بداية السبعينات ظهرت الدعوة الولائية لحركة لها قاعدتها الجاهزة بين عامة الناس ، ولها جذورها التاريخية البعيدة التى تمس جراحا أريد لها ألا تلتئم ، وضغائن مما تفنّن الجهلاء ورسل الوقيعة فى إذكائها عبر القرون . لم ينشىء هؤلاء نارا ، ولكنهم نفخوا فى نار كانت موقدة بالفعل ، واستخلصوا المر وسقوه للآخرين ، من حنظل كان مزروعا بالفعل !

تجربة شخصية : بلوشى فى طهران

تقرب لنا الصورة تجربة شخصية عاشها محمد اسحاق مدنى (٣٨ سنة) عضو مجلس الشورى المنتخب - بعد الثورة - عن منطقة سراوان فى بلوشستان وأكثر سكانها أهل سنة يتبعون تعاليم المذهب الحنفى[٨] .

فى عام ١٩٧٧ كان السيد مدنى قد عاد لتوه بعد انتهاء دراسته بكلية الشريعة فى المملكة العربية السعودية . كانت طهران مدينة غريبة عليه ، بسبب البعد الجغرافى لبلوشستان التى تقع فى أقصى الجنوب الشرقى ، حتى باتت أقرب إلى باكستان منها إلى قلب إيران . لكنه عندما قرر الذهاب إلى العاصمة الايرانية ، بعدما أتم دراسته ، ذهل مما سمعه فى مركز السيارات الرئيسى بطهران (يستخدمون فى وصفه الكلمة الانجليزية ترمينال) إذ شاهد سيارة على وشك

(٨) فى لقاء جرى مع السيد محمد اسحاق مدنى فى طهران يوم ١٩ يونيو ١٩٨٥ .

الرحيل إلى الشمال ، وقد تأهب ركابها لرحلتهم الطويلة ، وإذا بواحد فى المقدمة يقول بصوت عال : صلوا على النبى (يعبرون عنها بكلمة تكبير) فهتف الجميع اللهم صل على محمد وعلى آل محمد . بعد لحظة صمت قال الرجل : العنوا أعداء على ، فعاد الجالسون إلى الهتاف بصورة تلقائية : اللهم العن عمر (مرتين) اللهم العن أبا بكر - اللهم العن عثمان ، وأعطى سيدنا عمر الأولوية ، ونصيبا مضاعفا لأسباب مفهومة .

مجروحا وكسير القلب ، مضى الأخ مدنى لحال سبيله . لكنه ما كاد يجتاز بعض شوارع المدينة حتى لاحقته عبارات السخرية وإشارات الغمز واللمز ، إذ كشفت هيئته ، عن حقيقته ، وكونه بلوشى من أهل السنة . كانت عمامته المميزة فوق رأسه بمثابة علم ناطق بهويته . احتمل الكلام ، وصم أذنيه عن أكثره ، حتى حان موعد صلاة الظهر ، فدخل إلى أقرب مسجد لقيه ، توضأ واتجه إلى القبلة وشرع فى الصلاة . وما كاد ينتهى منها حتى وجد جمهرة تحلقت حوله . سألوه لماذا يقبض يديه على صدره أثناء وقوف التلاوة ، ولماذا لا يرسلها على جنبيه . لم يكونوا بحاجة لمن يعرفهم بأن الرجل سنى دخل إلى مسجدهم ، لكنهم أرادوا أن يشاغبوا عليه ويستفزوه ، رد عليهم . وناقشوه ، وانتهى الأمر بأن أخرجوه من المسجد !

ذهل الرجل ممّا حدث ، فقد كان مبلغُ علمِه أن فقهاء الشيعة ، القدامى والمحدثين ، فى أغلبيتهم الساحقة يبطلون الصلاة وراء السنى . لا لمجرد أنه سنى ولكن لأنهم يعتبرون وضوءه ناقصا ، وباطلا بالتالى . إذ يسلمون بأن مسح الرأس وغسل الرجلين بالطريقة التى تمارس عند أهل السنة مخالف لما يتصورونه أداء شرعيا وصحيحا . ويبنون على ذلك بقية النتائج والتداعيات . وهو نوع من الاختلافات فى فهم التقاليد الشرعية ، قائم بين مذاهب أهل السنة . كما أن مثل هذه النتائج قال بها بعض متعصبى السنة أيضا . كان السيد مدنى يعرف ذلك جيدا . لكن الذى لم يتصوره أن تصبح قضية الاختلاف فى القبض والارسال مبرراً لطرده من مسجد طهران .

لقد كانت محنته الحقيقية تتمثل فى أنه كان واحداً من الشبان الذين أصروا

على مقاومة دعوة تكفير الشيعة ، التى تبناها بعض الدعاة والوعاظ البلوش ، ممن درسوا العلوم الشرعية فى السعودية وباكستان . كما أنه ظل على موقفه وهو يدرس بكلية الشريعة فى السعودية ، حيث تعتبر قضية تكفير الشيعة إحدى الأطروحات الرئيسية فى الفكر الوهابى .

ورغم موقفه ذاك ، فقد شاءت الأقدار أن يصبح هو واحداً من ضحايا التعصب الشيعى عندما ذهب إلى طهران لأول مرة فى عام ١٩٧٧ .

وقد لاحقته مفارقات الأقدار بعد ذلك ، فعندما دارت دورة الزمن ، وانتخب معه ثلاثة آخرون ليمثلوا بلوشستان فى مجلس الشورى بعد الثورة ، فإنه بات يعيش أزمة أخرى . لأن وعاظ البلوش القدامى لا يزالون على موقفهم من تكفير الشيعة وقد ذهبوا إلى حد تكفير نواب البلوش الأربعة المنتخبين فى البرلمان ، بعدما اتهموهم « بموالاة » الكافرين الشيعة !

هل للشيعة أذناب حقا ؟

لم يكن « الخارج » بأفضل حالا من الداخل !

البعض تصور الشيعة كائنات غريبة وغير طبيعية ! . وقد تضمن كتاب « أهل الشيعة وأصولها » للعلاّمة محمد الحسين آل كاشف الغطاء ، رسالة لأحد الأدباء يستصرخه فيها لكى يقدم المذهب إلى عامة المسلمين ، بعد إذ قام بجولة فى لواء « الديلم » بالعراق فى سنة ١٣٥٠ هـ أى منذ ٥٧ سنة تقريبا . سمع فيها عن الشيعة وعن عاداتهم وأوصافهم الخلقية ومصيرهم بعد الموت ، مالا يخرج عن أساطير ألف ليلة وليلة . . مع أن مساكن الشيعة فى الفرات الأوسط ، لا تبعد عن مساكن إخوانهم السنة فى لواء الدليم إلا بضعة أميال . .

فى رسالته أيضا كتب الأديب الشيعى عبد الرزاق الحسنى ، أنه زار مصر وفلسطين وسورية فى عام ١٩٢٩ م - تقريبا - وسمع من الناس فى تلك البلدان « أن للشيعى ذنباً لا يختلف عن أذناب البهائم ، وأن لهم أرواحا تتقمص أجساد

بعض الحيوانات بعد أن تفارق أجسادهم ، وأنهم لا يعرفون الأكل مثلما تعرفه بقية الطوائف »[٩] .

لكن ذلك يهون إلى جانب تهمة تكفير الشيعة التى كادت تستقر بين العامة . وأيضا بين بعض الفقهاء من متعصبى السنّة .

فى الكويت قُدِّر لى أن أمر وقت صلاة الجمعة بأحد الأحياء القريبة من قلب المدينة . وعندما سألت صبياً صغيراً عن أقرب مسجد للصلاة ، أشار فى ناحية وقال : هنا مسجد الشيعة ، ثم أشار فى إتجاه آخر وقال : هناك مسجد المسلمين !

لم يكن الصبى متعصباً بطبيعة الحال ، لكنّه كان يردّد كلاما سمعه فى بيته أو بين أصحابه ، ينطلق من فكرة أن الشيعة ليسوا من المسلمين .

شىء قريب من هذا كتبه الأستاذ أحمد أمين فى « فجر الاسلام » ، قبل أكثر من نصف قرن . إذ قال « أن التشيع مأوى يلجأ إليه كل من أراد هدم الاسلام لعداوة أو حقد ومن يريد إدخال تعاليم آبائه من يهودية ونصرانية وزرادشتية . .

إلى أن قال : فاليهودية ظهرت فى التشيع بالقول بالرجعة . وقال الشيعة : إن النار محرّمة على الشيعى إلا قليلا . وقال اليهود : لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة . والنصرانية ظهرت فى التشيع فى قول بعضهم إن نسب الامام إلى الله كنسبة المسيح إليه . وقالوا إن اللاهوت اتحد بالناسوت فى الامام . وإن الرسالة لا تنقطع أبداً ، فمن اتّحد به اللاهوت فهو نبى . وتحت التشيع ظهر القول بتناسخ الأرواح وتجسيم الله والحلول ، ونحو ذلك من الأقوال التى كانت معروفة عند البراهمة والفلاسفة والمجوس قبل الاسلام[١٠] .

لقد سجل العلامة محمد الحسين آل كاشف الغطاء ، صاحب كتابه أصل الشيعة وأصولها ، أن أحمد أمين زار النجف الأشرف فى عام ١٣٤٩ هـ ، مع وفد مصرى ضم ٣٠ أستاذا ، بعد أن ذاع كتابه فجر الاسلام ، وأحدث صداه السلبى

---

(٩) محمد الحسينى آل كاشف الغطاء ـ أصل الشيعة وأصولها ـ الطبعة العاشرة بالقاهرة لسنة ١٩٥٨ ص ٧٣ .

(١٠) أحمد أمين ـ فجر الاسلام . ص ٢٧٦

بين علماء الشيعة . « فعاتبناه عتابا خفيفا ، وصفحنا عنه صفحا جميلا ، وأردنا أن نمر عليه كراما ، ونقول له سلاما ، وكان أقصى ما عنده من الاعتذار ، عدم الاطلاع وقلة المصادر »[١١] .

غير أن أشذ ما نشر بهذا الصدد فى العصر الحديث ، على الجانب السنى ، كان كتاب محب الدين الخطيب « الخطوط العريضة للأسس التى قام عليها دين الشيعة الامامية الاثنى عشرية » لاحظ استخدامه لكلمة « دين » التى تشير ضمناً إلى كونهم اتباع دين آخر غير الاسلام . وقد طبع فى جدة عام ١٣٨٠ هـ (حوالى ١٩٦١ م) وتكرر طبعه بعد ذلك فى السعودية أيضا ، ثم طبع فى دمشق مرتين ، وفى القاهرة صدرت طبعته الخامسة . وأعيدت طباعته للمرة السادسة بالسعودية فى سنة ١٣٨٩ ، ومنذ ذلك الحين بات الكتاب يطبع مرة كل عام ، ويوزع على نطاق واسع فى موسم الحج .

وربما كان كتاب الخطيب ، هو الوحيد من المؤلفات الحديثة التى تعرضت لموضوع الشيعة ، وعنى فقهاؤهم بالرد عليه . إذ صدر فى قم عام ١٣٨٩ هـ كتاب بعنوان « مع الخطيب فى خطوطه العريضة » ، من تأليف العلاّمة لطف الله الصافى . الذى سجل فى المقدمة أنه كتب رده على الخطيب فى سنة صدور كتابه (عام ١٣٨٠) ، ولكنه رأى « أن الأولى فى هذا العصر الذى تواترت فيه الكوارث والفتن على المسلمين ، ترك نشره ، فخفت أن يكون الجواب أيضا سببا للشقاق والضعف والفشل (بين المسلمين) . لكنه قرّر إصدار كتاب الرد بعدما وزع مؤلف السيد الخطيب على الحجاج فى عام ١٣٨٩هـ ومنذ ذلك الحين ، وحتى عام (١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م) كانت قد صدرت أربع طبعات من كتاب العلاّمة لطف الله الصافى .

يركز كتاب الخطيب على ثلاث نقط أساسية هى : القول بالاختلاف بين الشيعة والسنة فى الأصول ، وليس فى الفروع - نسبة تحريف القرآن إلى الشيعة وإدخالهم سورة يسمونها سورة « الولاية » ، تضم ٧ آيات ، تقول : « يا أيها الذين

---

(١١) أصل الشيعة وأصولها ص ٨٢ .

آمنوا بالنبى والولى ، اللذين بعثناهما يهديانكم إلى الصراط المستقيم . . الخ » - الطعن فى الصحابة وتجريحهم .

نفى الصافى اتهامات الخطيب معتمدا فى ذلك على شهادة الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر ، التى قال فيها إن مذهب الشيعة الامامية مما يجوز التعبد به شرعا ، وعلى كتابات فقهاء السنة والشيعة فى مجلة « رسالة الاسلام » ، التى كانت تصدرها من القاهرة لجنة التقريب بين المذاهب فى الفترة من ٤٨ إلى ٦٤ . وتحدّى العلامة الشيعى أن يكون فى المصاحف المتداولة بالمراكز العلمية إشارة إلى سورة « الولاية » المزعومة . وإذا كان هناك من عثر على نص بهذا المعنى فى مخطوط مجهول ، فلا ينبغى أن يحمل الشيعة بوزره . وفى سياق ردّه على موضوع الطعن فى الصحابة ، فإن آية الله الصافى أورد نصا من أدعية الشيعة الأصلية ، مثبت فى الصحيفة السجادية يقول بعد الصلاة على النبى ﷺ اللهم وأصحاب محمد صلى الله عليه وآله ، خاصة الذين أحسنوا الصحابة ، والذين أبلوا البلاء الحسن فى نصره ، وكانفوه وأسرعوا إلى وفادته وسابقوا إلى دعوته واستجابوا له حيث أسمعهم حجة رسالاته » . . أى أن يقول الدعاء « اللهم وصل على التابعين فى يومنا هذا إلى يوم الدين »[١٢] .

وقد تتابع إصدار أمثال تلك الكتب التى تطعن فى عقائد الشيعة ، منذ لاحت بوادر الثورة ، أساسا من مصر والسعودية وشبه القارة الهندية ، بعضها كان جديدا ، والبعض الآخر ، كان مما أعيدت طباعته ، من نماذج الكتب : « وجاء دور المجوس » للدكتور عبد الله غريب - « سراب فى إيران » للدكتور أحمد الأفغانى « هذه هى الشيعة ماضيها وحاضرها » ، لجابر نعمان الخضرى ، « الصراع بين الاسلام والوثنية » لعبد الله القصيمى (أول طبعة من الكتاب صدرت سنة ١٩٣٧ والثانية عام ١٩٨٢) ، « الشيعة وأهل البيت » لاحسان الهى ظهير (من الهند) . . وكان أبرز ما صدر منها ، فى عام ١٩٨٤ كتاب مولانا أبو الحسن الندوى ، الذى صدر بالانجليزية بعنوان : « الاسلام والمسلمون الأوائل ، صورتان متعارضتان » ، وفيه إشارات صريحة إلى تكفير الشيعة[١٣] .

---

(١٢) لطف الله الصافى - مع الخطيب فى خطوطه العريضة - ص ٢٥ ، ٥٩ الطبعة الرابعة (قم) - لسنة ١٣٨٩ .

(١٣) P.44 S. Abul Hasn Al Nadawi-Islam and the Earliest Muslims-Two Conflicting Portraits.

سورة الولاية سبع آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالنبي وبالولي الذين بعثناهما

يهديانكم إلى صراط مستقيم ۝ نبي وولي بعضهما من بعض

وأنا العليم الخبير ۝ إن الذين يوفون بعهد الله لهم جنات النعيم

والذين إذا تليت عليهم آياتنا كانوا بآياتنا مكذبين ۝

إن لهم في جهنم مقاماً عظيماً إذا نودي لهم يوم القيامة أين

الظالمون المكذبون للمرسلين ۝ ما خلفهم المرسلين إلا

بالحق وما كان الله ليظهرهم إلى أجل قريب ۝ وسبح بحمد ربك

وعلي من الشاهدين ۝

« سورة » الولاية المدسوسة في بعض كتب الشيعة ، والتي يحتج بها في اتهامهم بتحريف القرآن !

مكتب شيخ الجامع الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

نص الفتـــوى

التى أصدرها السيد صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر

الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر

فى شأن جواز التعبد بمذهب الشيعة الامامية

....

قيل لفضيلته :

" ان بعض الناس يرى أنه يجب على المسلم لكى تقع عباداته ومعاملاته على وجه صحيح أن يقلد أحد المذاهب الأربعة المعروفة وليس من بينها مذهب الشيعة الامامية ولا الشيعة الزيدية ، فهل توافقون فضيلتكم على هذا الرأى على اطلاقه فتمنعون تقليد مذهب الشيعة الامامية الاثناعشرية مثلا .

فأجاب فضيلته :

١ - ان الاسلام لا يوجب على أحد من أتباعه اتباع مذهب معين بل نقول : ان لكل مسلم الحق فى أن يقلد بادئ ذى بدء أى مذهب من المذاهب المنقولة نقلا صحيحا والمدونة أحكامها فى كتبها الخاصة ولمن قلد مذهبا من هذه المذاهب أن ينتقل الى غيره - أى مذهب كان - ولا حرج عليه فى شىء من ذلك .

٢ - ان مذهب الجعفرية المعروف بمذهب الشيعة الامامية الاثناعشرية مذهب يجوز التعبد به شرعا كسائر مذاهب أهل السنة .

فينبغى للمسلمين أن يعرفوا ذلك ، وأن يتخلصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معينة ، فما كان دين الله وما كانت شريعته بتابعة لمذهب ، أو مقصورة على مذهب ، فالكل مجتهدون مقبولون عند الله تعالى يجوز لمن ليس أهلا للنظر والاجتهاد تقليدهم والعمل بما يقررونه فى فقههم ، ولا فرق فى ذلك بين العبادات والمعاملات .

محمود شلتوت

... ...

السيد صاحب السماحة العلامة الجليل الاستاذ محمد تقى القمى

السكرتير العام

لجماعة التقريب بين المذاهب الاسلامية

سلام الله عليكم ورحمته أما بعد فيسرنى أن أبعث الى سماحتكم بصورة موقع عليها بامضائى من الفتوى التى أصدرتها فى شأن جواز التعبد بمذهب الشيعة الامامية ، راجيا أن تحفظوها فى سجلات دار التقريب بين المذاهب الاسلامية التى أسهمنا معكم فى تأسيسها ووفقنا الله لتحقيق رسالتها .

والسلام عليكم ورحمة الله

شيخ الجامع الأزهر

محمود شلتوت

نص فتوى الشيخ محمود شلتوت ـ وهو شيخ للجامع الأزهر ـ بجواز التعبد بمذهب الشيعة الامامية ، مذيلة بخطاب منه إلى سكرتير جماعة التقريب بين المذاهب ، لكى يحتفظ بها فى سجلات الجماعة

رسالة الاسلام : جهد على طريق التقريب

وفى إطار محاولة إشاعة الفهم والتفاهم بين الشيعة والسنة ، فقد حاول بعض فقهاء الشيعة منذ وقت مبكر أن يشرحوا تعاليم المذهب لأهل السنة ، ويوضحوا لهم الحقيقة فى الأمور التى تنسب إليهم . ومن أبرز وأقدم تلك الكتب « المراجعات » للعلامة عبد الحسين شرف الدين - وهو من شيعة جنوب لبنان - الذى شغل بالقضية ، فنزح إلى مصر فى أوائل القرن (حوالى سنة ١٩١٠ م) والتقى بأحد العلماء المصريين (أشار إليه بحرف س وقال إن اسمه سليم وكونه سنيا ، وخاطبه بلقب شيخ الاسلام ، ولعله الشيخ سليم البشرى الذى كان شيخا للأزهر ، وعمل بجد فى لجنة التقريب بين المذاهب) . . جرت بين الفقيهين محاورات ومراجعات ، توجه خلالها الفقيه السنى المصرى بالسؤال إلى العلامة شرف الدين فى ١١٢ مسألة تدور حول أصول المذهب الشيعى وفكرة الامامة ، استغرق الحوار سنتين (١٣٢٩ - ١٣٣٠ هجرية) ، ثم قدر له أن يكون موضوعا لكتاب « المراجعات » الذى صدر فيما بعد .

من الكتب الأخرى الهامة التى صدرت حول هذا الموضوع مؤلف العلامة محمد الحسين آل كاشف الغطاء ، الذى صدرت طبعته الأولى بالنجف الأشرف (بالعراق) سنة ١٣٥٤ هجرية .

وربما كانت أبرز المحاولات فى ذلك السياق ، تلك التى جرت فى القاهرة ، وتمثلت فى عدة خطى ، منها تبنى الأزهر لفكرة التقريب بين المذاهب فى سنة ١٩٤٨ ، وقد ضمت عددا كبيرا من كبار العلماء المصريين والمشتغلين بالعمل الاسلامى . وكان على رأسهم الشيخ عبد المجيد سليم شيخ الأزهر آنذاك ، وكان وكيلا للجماعة ، والشيخ محمود شلتوت الذى صار شيخا للأزهر لاحقا ، والعلامة محمد تقى الدين القمى (وهو شيعى ينسب إلى بلدة قم الايرانية ، وكان سكرتيرا عاما للجماعة) وكان من بين أعضاء اللجنة أيضا الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين ، والأستاذ حسن البنا رئيس جماعة الاخوان المسلمين ، واللواء صالح حرب رئيس الشبان المسلمين - ومحمد على علويه باشا ، وآخرون .

وقد وصف الشيخ شلتوت الاجتماعات التى كان يعقدها هؤلاء فى دار التقريب (بحى الزمالك فى القاهرة) قائلا : أنه « كان يجلس المصرى إلى الايرانى أو اللبنانى أو العراقى أو الباكستانى ، أو غير هؤلاء من مختلف الشعوب الاسلامية . . ويجلس الحنفى والمالكى والشافعى والحنبلى ، بجانب الامامى والزيدى ، حول مائدة واحدة ، تدّوى بأصوات فيها علم ، وفيها أدب ، وفيها تصوف ، وفيها فقه . وفيها مع ذلك كله روح الأخوة ، وذوق المودة والمحبة ، وزمالة العلم والعرفان »(١٤) .

وكانت مجلة « رسالة الاسلام » هى أهم ما أنجزته المجلة ، من حيث أنها ظلت حتى توقفها فى سنة ٦٤ - أى على مدى ١٦ عاما ، منبراً للحوار ووصل الجسور بين الشيعة والسنة . وقد كانت فصلية (تصدر كل ثلاثة أشهر) ويرأس تحريرها الشيخ محمد محمد المدنى الذى كان من كبار العلماء وعميد كلية الشريعة لاحقا ، بينما كان مدير تحريرها أحد العلماء الشبان (آنذاك) هو الشيخ عبد العزيز عيسى ، وزير الأوقاف لاحقا . وكان شعارها المثبت على رأس الغلاف هو الآية الكريمة : « إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون » . وعلى ظهر الغلاف ، ظلت تنشر على الدوام المادة الثانية من القانون الأساسى للجماعة ، التى تتضمن أغراضها وتنص فى فقرتها الأولى على : العمل على جمع كلمة أرباب المذاهب الاسلامية « الطوائف الاسلامية » ، الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التى يجب الايمان بها . . وفى فقرة تالية تنص على : السعى إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين ، والتوفيق بينهما .

أما كُتّاب المجلة ، فقد كانوا خليطا من علماء السنة والشيعة ، ورسائلها التى كانت تنشرها ظلت تتلقاها فى الأغلب من النجف بالعراق ، ومن قم . . وثمة إشارة فى المجلة إلى « مشروع شلتوت - القمى » . . وهو يستهدف « جمع الأحاديث النبوية ، وتفاصيل السنة المطهرة ، التى صحت فى المذاهب الاسلامية المعتبرة . والتى التقى عليها الدعاة فى شعب الايمان والعقيدة والفقه وغيرها ،

---

(١٤) مقدمة قصة التقريب للشيخ شلتوت - الجزء العاشر والأخير من تفسير مجمع البيان للطبرسى - ص ٥٧٩ .

من كل ما يفيد جمعه على صعيد واحد . . ليجد فيه المسلمون مظهرا واضحا للتقارب بينهم فى الأصول الأساسية ، التى يدينون جميعا بها ، ولا يختلفون عليها »[١٥] .

ورغم أن « مشروع شلتوت ـ القمى » لم يكتب له الاستمرار ، رغم أهميته البالغة ، إلا أن لجنة التقريب استطاعت أن تخطو فى الاتجاه ذاته خطوة جليلة ، بإصدارها تفسيرا للقرآن يلتقى عليه أهل السنة والشيعة هو : مجمع البيان لعلوم القرآن ، للامام العبد أبو الفضل بن الحسن الطبرسى ، من كبار علماء الامامية ، المتوفى سنة ٥٤٨ هجرية . وقد أعدته لجنة من العلماء ضمت الشيخ محمد المدنى والشيخ عبد العزيز عيسى وتولى الشيخ شلتوت تقديمه إلى القراء . واستغرق إصدار هذا العمل الكبير عشرين عاما كاملة ـ من ٥٨ إلى ١٩٧٨ ـ إذ استمر إصداره رغم الصعوبات التى أدت إلى وقف مجلة « رسالة الاسلام » فى سنة ١٩٦٤ . فقد ظل نشاط لجنة التقريب مستمرا ، ولم يتوقف إلا بعد قيام الثورة الايرانية (٧٩ ـ ٨٠) لسببين ظاهرين : أولهما توتر العلاقات بين نظام الرئيس السادات وقادة الثورة وقطع تلك العلاقات بعد ذلك . وثانيهما ، أن الشيخ تقى الدين القمى ـ وهو المحرك الأساسى لنشاط اللجنة من الجانب الشيعى ـ لم تكن له علاقة ناجحة مع قادة الثورة الايرانية ، أدت إلى انسحابه تقريبا ، ونقل مقره من القاهرة ، حيث أقام فى فرنسا . وقد سمعت من البعض فى طهران وقم ، أن الرجل كانت له علاقة ما بنظام الشاه . غير أن مقر لجنة التقريب قد أعيد فتحه فى عهد الرئيس مبارك ، ونقل من حى الزمالك إلى حى جاردن سيتى بالقاهرة ، ولكن نشاط اللجنة متوقف ومجمد .

وفى خط مواز لذلك الجهد ، فإن وزارة الأوقاف المصرية طبعت كتاب « المختصر النافع فى فقه الإمامية » ، ووزعته بالمجان على المسلمين . كما قررت دراسة مذهبى الشيعة الإمامية والزيدية ضمن مناهج الفقه المقارن فى الأزهر الشريف (كلية الشريعة) . واعتمد مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة مذهب الإمامية كأحد مصادر الفقه الإسلامى المعترف بها .

---

(١٥) كتاب العددين ٥٣ و ٥٤ من مجلة رسالة الاسلام (يونيو ١٩٦٣) ص ١٥٣ .

وثمة شواهد عديدة على أن جماعة الإخوان المسلمين بقيادة الأستاذ حسن البنا كان لها إسهامها فى حركة التقريب . وتشير المصادر الإخوانية إلى أن الأستاذ البنا التقى بآية الله الكاشانى فى الحج سنة ١٩٤٨ ، وأنهما « تفاهما » واتفقا حول عدد من النقاط الرئيسية . ويروى الدكتور إسحاق موسى الحسينى فى كتابه (الإخوان المسلمون . . كبرى الحركات الإسلامية الحديثة) أن عددا من الطلاب الإيرانيين الشيعة الذين كانوا يدرسون فى مصر ، انضموا إلى الجماعة . كذلك فإن أعداداً كبيرة من شيعة العراق أنخرطت فى تنظيم الإخوان هناك ـ وعندما زار نواب صفوى ـ أبرز قادة منظمة فدائيان إسلام الإيرانية ـ سورية فى عام ١٩٥٣ والتقى بالدكتور مصطفى السباعى زعيم الإخوان هناك ، أثار معه الدكتور السباعى مسألة انضمام بعض شباب الشيعة إلى الحركات العلمانية والقومية . فصعد نواب إلى أحد المنابر ، وقال أمام حشد من الشيعة والسنة « من أراد أن يكون جعفريا حقيقيا ، فلينضم إلى صفوف الإخوان المسلمين »[١٦] . والمعروف أن نواب صفوى زار القاهرة فى يناير ١٩٥٤ ونزل فى ضيافة الإخوان ، وأن الإخوان قادوا حملة احتجاج واستنكار واسعة ضد إعدامه فى إيران بواسطة الشاه فى عام ١٩٥٧ ، وجدير بالذكر هنا أن مسئول تنظيم الإخوان المسلمين باليمن الشمالى حتى سنة ١٩٨١ كان شيعيا زيديا ، وهو الأستاذ عبد المجيد الزندانى .

الموقف من السنة قبل الثورة وبعدها

غيرت الثورة من حسابات الجميع وموازينهم ، فقد أصبح المذهب الشيعى دولة ، وصار الفقهاء هم رجال هذه الدولة ، وأصحاب السلطة والقرار فيها . وكان ضروريا ـ وطبيعيا ـ أن يبدأ الجميع صفحة جديدة . وأن يتسم خطاب الجميع إلى العالم الإسلامى ، بقدر أكبر من المسئولية والإعتدال والخروج من إطار التمذهب الضيق .

لقد ظل مناخ الحوزات العلمية فى النجف الأشرف وقم وأصفهان ومشهد وغيرها ، متأثرا بمخلفات الماضى ومراراته أمداً طويلاً . كما أن الحملات

---

(١٦) سيد هادى خسروشاهى ود. عز الدين ابراهيم ـ السنة والشيعة ضجة مفتعلة ص ١٤ .

المكثفة التى شنها السلفيون والوهابيون ضد الشيعة ، وإصرارهم المستمر على تكفيرهم وإخراجهم من الملة ، كان لها أثرها السلبى ، الذى كرّس المرارات وعمّق من الجراح ، وقلة نادرة من فقهاء الشيعة هم الذين استطاعوا أن يعزلوا أنفسهم عن هذا المحيط ، وأن يحصنوا أنفسهم من الإنزلاق فى التيار العام الواقع تحت ضغوط التاريخ ، والمستفز من حملات التجريح والطعن فى الإعتقاد . ونستطيع أن نصنف من هؤلاء : تقى الدين القمى ، وآل كاشف الغطاء ، وعبد الحسين شرف الدين الموسوى .

وقلة قليلة منهم انتبهوا إلى ضرورة تجاوز فكر الحوزة التقليدى بمسلماته المستقرة فى التعامل مع أهل السنة . ويعد آية الله الخمينى رمزاً لهؤلاء . إذ أن كتاباته المبكرة كانت متأثرة بمناخ الحوزة وردود أفعالها المترسبة فى مواجهة أهل السنة .

وكتابه « كشف أسرار » الذى صدر منذ حوالى ٤٥ عاما يحمل بصمات هذا التيار إذ تضمن نقداً لأبى بكر الصديق وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب . ففى صفحة ١١٣ ـ ١١٤ ، ذكر أن أبا بكر خالف نص القرآن بموقفه من مسألة « فدك » خيبر ، وهى الأرض التى قالت السيدة فاطمة الزهراء أنها ورثتها عن النبى ، فلم يقرها الصديق على ذلك مستشهداً بالحديث الذى يقول إن الأنبياء لا يورثون ، وجاءت ملاحظته تلك تحت عنوان : « مخالفتهاى أبو بكر بانص قرآن » ، أى مخالفات أبى بكر لنصوص القرآن .

كذلك كتب تحت عنوان « مخالفت عمر باقرآن خدا » (ص ١١٧) أنه بمنعه نظام المتعة فى الزواج على عهده ، إنما خالف كتاب الله .

ورغم المكانة السامقة التى بلغها الخلفاء الراشدون ، إلا أن أحدا لم يقل بعصمة أى منهم وتظل ممارستهم معرّضة للصواب والخطأ . وإذ نشك فى أن أى خطأ ينسب إليهم يمكن أن يصل إلى حد مخالفة القرآن الكريم ، إلا أنه ليس هناك ما يمنع من غض الطرف عن ملاحظات من هذا النوع لاعتبارات عدة :

ـ أولها أنها ليست مما يمس الاعتقاد ولا هى من أصول الدين أو مما يعد معلوما من الدين بالضرورة . هى نوع من سوء التقدير أو سوء الفهم .

ـ ثانيها أنها صدرت فى مرحلة مبكرة ، وتصنف فى إطار الإفراز المتأثر بالفكر المستقر فى الحوزات العلمية ، والتراث المتراكم عبر القرون .

ـ ثالثها أن الكتاب صدر بالفارسية فقط ولم يتكرر طبعه . فى حين ترجمت كتبه الأخرى إلى العربية وأعيد طبع أكثرها عدة مرات . مما قد يحمل على أنه عدول من مؤلفه عن بعض الآراء التى وردت فيه . ورغم أنه أعيد طبعه فى قم بعد عام من قيام الثورة ، بصورة حديثة على غلافه لآية الله الخمينى(١٧) إلا أننى سمعت من آية الله على المشكينى ـ رئيس مجلس الخبراء ـ أن ذلك تم بدون علم الإمام وبغير موافقته .

ـ رابع تلك الاعتبارات أن التجاوز عن مثل تلك الهفوات المبكرة يعد مطلوباً من أجل الوصول إلى هدف أكبر ، يتمثل فى مد الجسور والبحث عن مجالات التلاقى والاتفاق لا تصيد الأخطاء وتتبع نقاط الشقاق والتنافر .

ـ خامس تلك الاعتبارات أن صاحب تلك الآراء ذاتها ، كف عن ترديدها ، وانتقل إلى موقف أكثر تقدما ، يقوم على الدعوة إلى الوحدة والإخاء بين السنة والشيعة ، كما سنرى بعد قليل .

يدخل فى هذا الإطار أيضا آراء أخرى ترددت فى طبعات مبكرة بالفارسية من كتاب « تحرير الوسيلة » لآية الله الخمينى الذى تضمن فتاواه وآراءه الفقهية ، أبطلت الصلاة وراء الإمام السنى ، ولم تجز إقامة صلاة الجمعة فى ظل غيبة الإمام . وهى آراء حذفت من الطبعات العربية للكتاب التى صدرت بعد عام ١٩٧٥ .

تثير تلك الملاحظات قضية « المعيار » الذى يقيم به موقف الثورة الإسلامية من قضية السنة والشيعة ، وأهمية الاتفاق على ضوابط لهذا التقييم ، وقبل الانتقال إلى قراءة هذا الموقف فى الواقع العملى .

إذ تفرض علينا الاعتبارات الموضوعية والعملية ـ والمصلحية أيضا ـ أن نؤيد الإتجاه إلى طى صفحة الماضى ، مع عدم إسقاط دروس تجربته التى كانت وحدة المسلمين وقضاياهم الكبرى فى مقدمة ضحاياه . وإذا كان لابد من فتح

(١٧) الكتاب صادر عن دار انتشارات ازادى بمدينة « قم » .



نموذج للمطبوعات التقليدية التى راجت فى الماضى بين الشيعه ، ويحاول البعض استخدامها فى الوقيعة مع السنة الآن . فى كتاب « تحفه العوام » اعلان عن فتاوى للخمينى وشريعتمدارى ، وفى مقدمته تجريح لسيدنا ابو بكر وعمر ، باعتبارهما « صنمى قريش » .

الحوار حول « الذى كان » فينبغى أن يتم ذلك بين أهل العلم والدراية ، وفى مجالس العلم ومنتدياته . لا بين إنصاف المتعلمين والعامة ، ولا على صفحات الصحف أو المؤتمرات الجماهيرية أو عبر الإذاعات ومختلف منابر التهيج والإثارة .

تلك الاعتبارات ذاتها تفرض علينا أن نقيم الواقع استناداً إلى مصدرين أساسيين هما :

- **ما يصدر عن رموزه من أقوال وأفعال ، وهم فى مواقع المسئولية .** فليس من الإنصاف أن يقيم موقف الثورة الإسلامية بناء على أقوال وممارسات أى فقيه شيعى فى أى مكان ، كما أنه ليس من الحكمة أن يحاسب رموز الثورة على مواقف تجاوزوها فى الماضى ، فى مراحل فكرية سابقة ، وفى إطار من المسئولية مختلف .

- **ما يصدر عن الدولة من مواقف وممارسات** الأمر الذى يخرج من عناصر التقييم رصيد الكتابات السيئة لأهل السنة ، سواء كانت فعلاً أم رد فعل ، فتلك آراء ومواقف محسوبة على أصحابها . أما الثورة الإسلامية فلا ينبغى أن تحاسب إلّا على ما صدر عنها . وهو ما يترجمه أمران : تصريحات القيادة التى ترسم الخط السياسى العام ، ثم الخطوات العملية المتمثلة فى المواقف المتخذة تجاه القضية وفى المناهج الدراسية فى مختلف مراحل التعليم .

أهم الفتاوى : جواز صلاة الشيعى خلف السنى

فى ذلك الإطار ، فإن تصريحات آية الله الخمينى فى الأشهر الأولى للثورة تشكّل علامة هامة :

■ فى عام ١٩٧٩ ، السنة الأولى للثورة ، وجّه الإمام رسالةً إلى ممثليه فى موسم الحج قال فيها :

« على الإخوة الإيرانيين وجميع الشيعة فى العالم ، أن يتجنبوا الأعمال الجاهلة التى تؤدى إلى تفريق صفوف المسلمين . وعليهم أن يشتركوا فى جماعات أهل السنة (يقصد صلاة الجماعة) . . ويلزم فى الوقوفين (عرفة

والمزدلفة) وفق أحكام قضاة أهل السنة ، حتى ولو حدث القطع بخلاف ذلك (عند علماء الشيعة) .

« إن طرح مسألة تقسيم المسلمين إلى سنى وشيعى وحنفى وحنبلى وإخبارى ، لا معنى لها أساسا . والمجتمع الذى يريد أفراده جميعا خدمة الإسلام والعيش تحت ظلال الإسلام لا ينبغى أن يثير هذه المسائل »[١٨] .

- فى موسم الحج التالى ـ سنة ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م ـ قال : إننى أمد يد الإخوة إلى جميع المسلمين الملتزمين فى العالم ، وأطلب منهم أن ينظروا إلى الشيعة باعتبارهم إخوة أعزاء عليهم ، وبذلك نشترك جميعا فى إحباط المخططات المشئومة .
- فى بيان أصدره إلى الشعب الإيرانى فى ٢١ يوليو ١٩٨٠ قال : على الاخوة الشيعة والسنة اجتناب كل اختلاف ، فالاختلاف بيننا اليوم هو لصالح الذين لا يؤمنون بالسنة ولا بالشيعة . . هؤلاء يريدون القضاء على هذا وذاك . فهدفهم هو بث الفرقة بينكم . . عليكم أن تتنبهوا جيدا أننا جميعا مسلمون وأتباع القرآن وأهل التوحيد .
- فى موسم الحج الذى يليه قال بيان الإمام : إن إثارة الخلافات بين المذاهب الإسلامية تعتبر من الخطط الإجرامية التى تدبرها القوى المستفيدة من الخلافات بين المسلمين[١٩] .

لقد تضمنت الرسالة التى وجهت إلى الحجاج فى السنة الأولى للثورة ، دعوة هى الأولى من نوعها ، من مرجع شيعى كبير ، منذ قرون بعيدة . فلم يحدث من قبل أن حث فقيه شيعى أتباع المذهب على الصلاة وراء السنة . وإنما العكس هو الصحيح ، إذ أن المستقر بين فقهاء الشيعة هو بطلان الصلاة وراء السنة . ولذا فإن كثيرين اعتبروا هذه الفتوى بمثابة « ثورة » فى العلاقات بين الشيعة والسنة . أحدثت ردود أفعال قوية فى دول الخليج بالذات التى يتعايش فيها أتباع المذهبين ، ولا يؤمون مساجد بعضهم البعض . وهو ما بدأ فى التغير البطىء بعد صدور فتوى الإمام بهذا الصدد .

---

(١٨) حول الوحدة الاسلامية ـ افكار ودراسات ـ إصدار منظمة الاعلام الاسلامى بطهران ص ١٥ .

(١٩) نظرة عامة حول الوحدة الاسلامية ـ إصدار وزارة الارشاد الاسلامى بطهران ص ١٥ .

كذلك فإن إعادة صلاة الجمعة رسميا فى جميع أنحاء إيران ، اعتبرت مؤشرا إيجابيا فى اتجاه « تطبيع » العلاقات مع أهل السنة ، من حيث أن هذا القرار أزال إحدى صور الفرقة بين أتباع المذهبين التى استقرت منذ قرون . وهو ما تحفظ إزاءه فقهاء النجف ، وعلى رأسهم آية الله الخوئى ، الذى لا يزال عند الرأى التقليدى الذى لا يجيز صلاة الجمعة فى زمن غيبة الإمام المهدى .

أصبحت الدعوة إلى الوحدة الإسلامية إحدى ركائز الخط السياسى العام فى إيران ما بعد الثورة . وحاولت مجلتا « التوحيد » و « الوحدة الإسلامية » اللتان تصدرهما منظمة الإعلام الإسلامى فى طهران أن تعبرا عن هذا الاتجاه . كما قدمت المنظمة مؤلفات عدد من كتاب أهل السنة إلى القارىء الإيرانى . ومن هؤلاء الدكتور محمد المبارك والمستشار عبد القادر عودة ومنير شفيق . وأصدرت كتاباً عن « الحج على المذاهب المختلفة » ، وآخر بعنوان « حول الوحدة الإسلامية ـ أفكار ودراسات » ، تضمن كتابات عدد من فقهاء السنة والشيعة حول الموضوع . وصدر عن وزارة الإرشاد الإسلامى كتاب « نظرة عامة حول الوحدة الإسلامية » ـ لعبد الكريم حداد . وراج فى داخل إيران وخارجها كتاب « السنة والشيعة ـ ضجة مفتعلة » ـ للسيد هادى خسروشاهى والدكتور عز الدين إبراهيم . وفى مدينة قم أعيدت بعد الثورة طباعة خمسين كتابا آخر من مؤلفات علماء وفقهاء السنة . علما بأن أمهات الكتب المعروفة عن أهل السنة منتشرة فى مختلف المكتبات ومتداولة فى الحوزات العلمية منذ أزمنة بعيدة .

ومن العلامات الهامة فى هذا الاتجاه ، مؤتمر أئمة الجمعة والجماعة الذى عقد بطهران فى الفترة من ٦ إلى ١٤ أبريل عام ١٩٨٤ ، ودعى إليه فقهاء من الجانبين ، السنة والشيعة ، كانوا يتناوبون إمامة الصلاة طوال فترة المؤتمر . وكانت قضية الوحدة محور البحوث والمناقشات . فى افتتاحه طرح السيد على خامنئى رئيس الجمهورية القضية على النحو التالى : « الوحدة الإسلامية واجب دينى إضافة إلى أنها حركة سياسية . . والمقصود من الوحدة ليس هو إزالة الاختلافات الفكرية والفقهية بين المسلمين ، وليس هو دفع المسلمين إلى اعتناق مذهب فقهى أو كلامى معيّن . فمثل هذه الاختلافات لا تحول دون وحدة

المسلمين . لقد حاول نفر من المتلبسين بلباس علماء الدين من عملاء القائمين على أمر تنفيذ عملية التجزئة فى عالمنا الإسلامى أن يشيع فكرة استحالة الوحدة بين المسلمين متذّرعاً بوجود الخلاف بين الفرق الإسلامية وخاصة بين الشيعة والسنة . وهذه (مقولة) لا تصدر إلاّ عن جاهل بالإسلام وبمعنى الوحدة الإسلامية » . . الإسلام لم يمنع المسلمين من الاختلاف فى الرأى والنظرة . فمثل هذا الاختلاف تفرضه الطبيعة الإنسانية ، لكنه رفض بشدة أن يكون ذلك باعثا على التنازع والشقاق ، والقرآن لا ينظر إلى البشر على أنهم موجودات مجهزة على اتباع قالب فكرى معين - « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلّا من رحم ربك » . والقرآن مع إقراره بهذا الاختلاف ينهى المسلمين عن التنازع الذى يؤدى إلى تبديد الطاقات وإهدار القوى الذاتية . . « وأطيعوا الله ورسوله ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم . . »[٢٠] .

وفى الاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف فى العام الهجرى ١٤٠٢ ، دعا آية الله منتظرى إلى إقامة « أسبوع الوحدة الإسلامية » فى هذه المناسبة من كل عام وفى لقاء لى معه فى بيته فى قم ، قال : إن الهدف من فكرة أسبوع الوحدة هو « تذكير المسلمين بمختلف فرقهم فى داخل إيران وخارجها بأن دينهم واحد ، وكتابهم واحد ، ونبيهم واحد وأن الذين يكرسون الفرقة بينهم لا يريدون لهم خيرا »[٢١] .

وفى مناخ كهذا ، فقد كان طبيعيا أن تصدر التعليمات بوقف إعادة طبع الكتب القديمة التى تضمنت تجريحاً لأهل السنة . والعهدة فى ذلك على آية الله على المشكينى رئيس مجلس الخبراء ، كما كان طبيعيا أن يتوقف الأئمة والمبلغون عن إثارة أى موضوع يمس أهل السنة من فوق المنابر العامة .

هذا الخط ، انعكس بوضوح أكثر فى كتب المراحل التعليمية ، التى وضعت بعد الثورة فى إطار ما سمى بالثورة الثقافية . وإذا اخترنا كتب الثقافة الإسلامية والدينية (بالفارسية هى : فرهنك إسلامى وتعليمات دينى) فإننا نلاحظ أمرين أساسيين :

---

(٢٠) كتاب مؤتمر ائمة الجمعة والجماعة - طهران - ص ٧١ .

(٢١) من حوار مع آية الله منتظرى فى قم ، تم يوم ٢٠ ديسمبر ١٩٨٤ .

ـ الأول أن ثمة كتبا خاصة للمسلمين تختلف عن كتب غير المسلمين ، والأخيرة تركّز على القدر المشترك بين الأديان ، من إيمان بالله ودعوة إلى الفضيلة والحق والخير والعدل[٢٢] .

ـ الثانى أن كتب المسلمين تختلف فى محتواها بحسب ما إذا كانت تدرس فى مناطق الشيعة أو المناطق ذات الأغلبية السنية[٢٣] . ولما كانت قضية « الإمامة » تشكل إحدى أهم الخلافات بين السنة والشيعة ، فالملاحظ أن الكتب المخصصة للشيعة تذكر أن النبى عليه الصلاة والسلام قد أوصى فى يوم « الغدير » بأن يخلفه على بن أبى طالب بعد وفاته . بينما لا تشير إلى ذلك الكتب المخصصة لمناطق السنة . وإنما تذكر الخلفاء الراشدين الأربعة ، وإن أخطأت فى إضافة « حسن » ابن الامام على ، بإعتبار أنه بويع للخلافة بعد مقتل أبيه ، لعدة أسابيع ، تنازل بعدها إلى معاوية بن أبى سفيان . ولمّا راجعت فى ذلك الدكتور عادل حداد مستشار وزير التربية والتعليم الإيرانى ومسئول المناهج بالوزارة ، قال لى : إن كتب أهل السنة وضعت بواسطة بعض « مثقفيهم » ، وأن بين الشافعية من يقول بإمامة حسن بن على بن أبى طالب .

(علمت من بعض الباحثين العراقيين أن الكتب الدراسية هناك كانت إلى عهد قريب ، تعتبر الحسن بن على خامس الخلفاء الراشدين ، لأنه بويع بعد مقتل الامام على بعدة أشهر ، وأن إدراج اسمه ضمن الراشدين كان بتأثير من تولى بعض مثقفى الشيعة لوزارة التربية فى الفترة ما بين أوائل العشرينيات إلى أوائل الثلاثينيات) .

دراسة ميدانية فى كتب ما بعد الثورة

لقد حاولت أن أتتبع ما تضمنته ١١ من كتب الثقافة الإسلامية والأدب لمراحل التعليم الثلاث (الابتدائى والإعدادى والثانوى) بشأن : الخلفاء الراشدين والصحابة والوحدة الإسلامية . وقمت بتصوير نصوص تلك الدروس عن أصلها الفارسى . وها أنذا أضعها كما هى ، مع ترجمة بالعربية ليكون الأمر واضحا أمام الجميع . وهذه هى النصوص وترجماتها :

(٢٢) تنص المادة ١٣ من الدستور على الآتى : الايرانيون الزرادشت واليهود والمسيحيون هم وحدهم الاقليات الدينية المعترف بها وتتمتع بالحرية فى أداء مراسمها الدينية ضمن نطاق القانون ولها أن تعمل وفق قواعدها فى الأحوال الشخصية والتعاليم الدينية .

(٢٣) تنص المادة ١٢ من الدستور على أن . . « لهذه المذاهب (الاسلامية الأخرى غير الجعفرية) الاعتبار الرسمى فى مسائل التعليم والتربية الاسلامية والأحوال الشخصية » .

■ كتاب « فرهنك إسلامي وتعليمات دينى » ويزه (خاص) أهل سنت ، للسنة الثانية بالمرحلة الابتدائية (دوم ديستان) تضمن على صفحة ٦٨ درسا هذا نصه بالفارسية :

درس بيست وينجم

جانشينان بيامبر أكرم (ص)

« تا وقتى كه حضرت محمد ﷺ در حال حيات بود ، إدارة أمور مسلمانان با خود ايشان بود . آن حضرت بس از ٢٣ سال بيامبرى به خواست خدا زندكى را بدرود كَفت .

مسلمانان بس از بيامبر به رهبرى شايسته وآكَاه ودلسوز كه بتواند جانشين بيامبر باشد نياز داشتند تا كارهاى خود را به او سبارند .

بعد ازوفات بيغمبر اكرم ينج نفر به ترتيب جانشينى وخلافت كردند .

أول ـ حضرت أبو بكر صديق رضى الله عنه .

دوم ـ حضرت عمر فاروق رضى الله عنه .

سوم ـ حضرت عثمان ذى النورين رضى الله عنه .

جهارم ـ حضرت على كرار كرم الله وجهه .

بنجم ـ حضرت حسن مجتبى رضى الله عنه .

اين بنج نفر را خلفاى راشدين مى نامند » .

وخلاصة ترجمة الدرس هى : خلفاء الرسول الأكرم (ﷺ) : بعد وفاة الرسول ﷺ ، أصبح المسلمون بحاجة لمن يتحمل مسئولية القيادة وإدارة أمورهم .

وقد تولّى الخلافة خمسة أشخاص (ذكر الدرس أسماءهم) ، ثم أضاف أن هؤلاء عرفوا باسم الخلفاء الراشدين .

وواضح من كلمات الدرس أن مسألة الوصية للإمام على بخلافة النبى ليست واردة ، وأن أسماء الخلفاء الراشدين ذكرت بقدر معقول من الاحترام .

■ على الصفحة ٧٠ من الكتاب ذاته درس بعنوان : خدمة الناس (خدمت به مردم) يقول كاتبه فى مقدمته إن العقيدة الإسلامية تدعونا إلى أن نكون معاونين للناس وعاملين على إسعادهم . . وفى الفقرة الثانية إشارة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (الذى يكن له التراث التقليدى عداء كبيراً) إنه كان يحمل

الطعام والتمر فى الليل إلى الفقراء والمساكين . وكل الرجال العظام فى الإسلام كانوا مثله يساعدون الفقراء ويخففون عنهم .

وفيما يلى نص الفقرة كما كتبت بالفارسية :

« حضرت عمر خليفة دوم و فرمانرواى مسلمانان بود با اين حال شبها دور از جشم مردم انبان آرد و خرما بر دوش مى كرفت وبه خانۀ بينو ايان مى برد . بزكان اسلام همه اين طور بودند ، از كمك و غمخوارى نسبت به افتادكان دريغ نداشتند ، به داد مظلومان ميرسيدند وبدون جشمداشت باداش ، مردم را به دستورهلى دينى آشنا مى كردند » .

■ كتاب الثقافة الإسلامية للسنة الثالثة الابتدائية (سوم ديستان) تضمن على الصفحة ٥٧ درسا عن الرعيل الأول من المسلمين ، وخصص الدرس لتقديم سيدنا أبى بكر على النحو التالى : كان أبو بكر جاراً للرسول ولصيقا به . وعندما نزل الوحى على سيدنا محمد ﷺ ، وكلف بالنبوة ، كان أبو بكر مسافراً . وعندما عاد من سفره زاره ، ولما حدّثه النبى عن بعثته ونبوته صدّقه أبو بكر بلا تردد « عندئذ سأله النبى : كيف وافقت على كلامى بغير دليل . فكان رد أبى بكر : لم أسمع منك شيئا كذبتنى فيه ، ولذا فأنا أثق فى أن كل ما تقوله صحيح . ولهذا أطلق عليه الرسول اسم الصديق . وصار أبو بكر الصديق فيما بعد من أعظم صحابة النبى ، وتولّى الخلافة من بعده .

وفيما يلى نص الدرس كما ذكر فى الكتاب باللغة الفارسية :

درس بيست ويكم

نخستين افرادى كه إسلام آورند
« أبو بكر »

« أبو بكر همسايه و دوست حضرت محمدّ (ص) بود . وقتى كه آن حضرت به بيامبرى رسيد . أبو بكر به مسافرت رفته بود . هنكَام بازكَشت به ديدار يار بزركَوار خود آمد . بيامبر أكرم به كَرمى با او مُصافحه كرد و خير مقدم كَفت ودر آخر او را از بيامبرى ومأموريّت الٓهى خود آكَاه كرد . أبو بكر بدون تأمّل رسالت او را تصديق نمود وايمان آورد . بيامبر تعجّب كرد كه جكَونه

بدون این که از او دلیل و نشانه ای بخواهد سخن او را قبول کرده است .
أبو بكر گفت : من هرگز حرف ناراستی از تو نشنیده ام و می داتم که آنجه بگویی عین حقیقت است . از آن روز ییامبر بزرگوار او را لقب « صِدّيق » داد و در میان مسلمانان به أبو بكر صدّيق شهرت بیدا کرد .

« أبو بكر از بزرگان أصحاب است که بعد از ییامبر به خلافت رسید (خدا از او راضی باد) » .

على الصفحة ٥٨ من الكتاب درس بعنوان الاخوة والمساواة (برادری وبرابری) « وتحت العنوان الأسطر التالية : الدين الاسلامي يقول لنا أنكم جميعا من أب واحد وأم واحدة ، وكلكم عباد الله ، وفروق اللون والعرق والقوة والضعف لا تعطيك أى ميزة أو تفوق ، والميزة الوحيدة للانسان عند الله تتحقق بطاعته ، والطائعون وحدهم هم المقربون إلى الله والنص الفارسى للدرس كما يلى :

درس بیست ودوم

برادری وبرابری

دین اسلام می گوید : همه شمار از یک بدر و مادر آفریده شده اید ، همه بندکان خدا هستید و اختلاف تراد و رنگ یوست ویا داشتن زرو زور موجب برتری و امتیاز نیست . امتیاز فقط در اطاعت از دستور های خدا است . هرکسی بیشتر خدا را یرستش کند ، نزد خدا گرامی تر است .

اسلام دین برادری وبرابری است . یعنی مسلمانان باید همه مانند برادرو خواهر نسبت به همدیکر مهربان باشند و در اهنمایی و خیر خواهی یکدیکر کوتاهی نورزند ، و آنجه را برای خود میخواهند برای دیگران نیز بخواهند .

اگر کسی را محتاج و بریشان دیدند به او کمک کنند ، اگر ناتوان و افتاده ای را دیدند ، به یاری و دستگیری او بشتابند تا خدا از آنها راضی باشد .

■ كتاب السنة الرابعة الابتدائية (جهادم دبستان) تضمن على الصفحة ٧٧ ، درساً بعنوان « خلفاء الاسلام خلفای اسلام » . . تقول مقدمته : الذين

جاءوا بعد الرسول يسمون خلفاء . وكما ذكرنا من قبل ، فانه بعد وفاة الرسول الأكرم فان خمسة أشخاص صاروا خلفاء ، وتحملوا مسئولية قيادة الأمة الاسلامية وكانوا يعيشون حياة بسيطة مماثلة لتلك التى كان يعيشها الرسول هنا سنتحدث عن أربعة منهم .

خليفة أول أبو بكر الصديق ، تحدث عنه الدرس فى اطار كتاب السنة السابقة ، مع بعض الاضافات البسيطة .

« خليفة دوم » - عمر فاروق رضى الله عنه ، قال عنه الدرس (ص ٧٩) ما يلى : ثانى خلفاء المسلمين هو عمر الفاروق . كان رجل الدولة والسياسة والفتوح ، ومن صنف الرجال الذين يتمتعون بفهم عميق لدورهم ومسئولياتهم . وكان شديداً فى الحق وفى تنفيذ أحكام الاسلام . وهو أول خليفة أطلق عليه لقب « أمير المؤمنين » على زمانه اتسعت رقعة العالم الاسلامى وشملت الفتوح بلدانا كثيرة ، مثل مصر وايران . عاش ٦٣ عاما . وبعد عشر سنوات وعدة أشهر من توليه الخلافة « مات » ودفن إلى جوار أبى بكر .

الفاروق هو الذى يفرِّق بين الحق والباطل . وقد أطلق المسلمون عليه هذا اللقب لعدالته . وكان والداً لزوجة رسول الله (السيدة حفصة) .

وفيما يلى النص الفارسى لسيرة عمر بن الخطاب المعروضة فى الكتاب :

خليفة دوم - عُمَر فاروق
رَضِىَ الله عَنْهُ

« دومين خليفه اسلامى ، عُمَر فاروق است كه مردى كاردان وكشور كَشا و با سياست بوده است . عُمَر در اجراى احكام اسلام مرد سختگَيرى بود . و اولين خليفه ايست كه امير المؤمنين لقب يافت .

« در روزگَار وى ، جهان اسلام گَسترش فراوانى يافت و سرزمين هاى زيادى فتح شد كه از آن جمله دو كشور مصرو ايران است .

« عمر مدت ذم سال زندكَى كردو در سال ٢٣ هجرى (م ط ماه ذيحجه) يس از ده سال وجند ماه خلافت ، زندكَى را بدرود كَفت و در كنار مزار أبو بكر در همان حجره ييامبر اكرم به خاكـ سيرده شد .

« فاروق » به معنى جدا كننده حق از باطل است وجون مسلمانان عمر را در بسط و توسعه عدالت مصمم وجدى ديدند او را جنين لقبى دادند .

« عمر نيز بدر زن حضرت محمد (ص) بوده است » .

■ وفى درس آخر بصفحة ٨٢ بالكتاب ذاته ، عنوانه : « سنت وجماعت » أى السنة والجماعة . . تقول كلمات الدرس : السنى هو الشخص الذى يتبع تعاليم الرسول وطريقته فى الحياة ويفعل ما كان يفعله الصحابة وآل البيت . السنة أصدقاء لأهل بيت الرسول وصحابته . إننا مطالبون بأن نتبع القرآن المجيد ، ونقدر الصحابة ونشير اليهم بكل احترام (لاحظ العبارة) .

ان أهل البيت وصحابة الرسول بذلوا كل جهدهم لنشر تعاليم الاسلام ، وضحوا بأموالهم وأنفسهم من أجل ذلك . والاسلام مدين بالكثير لتضحياتهم .

وفيما يلى النص الفارسى لهذا الجزء من الدرس :

درس بيستم

سُنَّت و جَماعَت

« سُنّى ، به معنى كسى است كه از روش و سيرت ودستور ييامبر بزركـ ييروى كند . و از جماعت أصحاب و اهل بيت آن حضرت سرمشق بكَيرد .

« سُنيّان دوستدار اهل بيت حضرت رسول وطر فدار اصحاب وياران وى هستند . ما به ييرى از قرآن مجيد بايد نسبت به اصحاب بزركَوار حضرت رسول محبت داشته باشيم و از آنان بخوبى و از روى احترام ياد كنيم .

« اين اهل بيت وياران ييامبر اكرم بودند كه باكَذشت ازجان

ومال در راه كسترش دين اسلام تلاش كردند و امروز مسلمانى ما مرهون فداكاريها ومجاهدتهاى آنان است .

وتحت عنوان « وحدت اسلامى » كان بقية الدرس الطويل ، الذى كان من أهم فقراته ـ فى السياق الذى نحن بصدده ـ فقرة تقول : الاسلام منع النزاع والفرقة بين المسلمين . لأنه إذا استمر المسلمون فى خلافاتهم وتناحرهم ، وذهبوا أحيانا إلى حد قتال بعضهم البعض ، فان أعداءهم هم الوحيدون المستفيدون من ذلك ـ ويجب ألا ننسى ذلك كمسلمين ، سنة وشيعة . فاختلاف اللغة والعرق ينبغى ألا ينسينا أننا نعبد إلها واحداً ، ونتبع نبياً واحداً ، ونصلى باتجاه قبلة واحدة ، ولنا كتاب واحد هو القرآن ، ونبى واحد هو محمد عليه السلام .

المسلمون ، السنة والشيعة ، يجب أن ينتبهوا إلى مؤامرات الآخرين ومخططاتهم ، ممن لا يريدون بنا إلا كل شر . إننا بالتعاون نستطيع أن نحمى ثورتنا وبلدنا الاسلامى .

وهذا هو النص الفارسى للفقرتين :

« بنابراين نبايد فراموش كنيم كه ما مسلمانان جه سُنّى و جه شيعه از هر نزاد و زبانى كه هستيم ، يكـ خدا را مى برستيم و از يكـ كتاب و يكـ ييامبر دستور مى كيريم و بسوى يكـ قبله نماز مى خوانيم . كتاب ما قرآن است وييامبر ما حضرت محمد (ص) است و قبله ما ، كعبه خانه خداست .

« ما مسلمانان جه سنى وجه شيعه بايد هوشيار باشيم ، ودر مقابل تحريكات بيكَانكَان وكَروههاى منحرف ومغرض فريب نخوريم و باكمكـ يكديكَر از انقلاب وميهن اسلامى خوذ نكَهبانى كنيم » .

■ كتاب السنة الرابعة الابتدائية ، المقرر على الطلاب الشيعة ، تضمن على صفحة ٧٦ درسا بعنوان « شيعة وسنى » يقول : الامام على هو أول المسلمين وأفضلهم وقد كرس حياته لحماية الاسلام . ولم يكن يخشى فى سبيل ذلك أحداً . وعلى زمن النبى كان بعض المسلمين أقرب إلى الامام على ، وخاضوا إلى جواره معارك الدفاع عن الاسلام والحق . هؤلاء المسلمون الذين التفوا حول

الامام على ، أحبوه ، وأطاعوا أوامر النبى وتعاليمه ، قال النبى عنهم للامام : أنت وشيعتك أفضل الناس (فى الجنة) . . منذ ذلك الحين وإلى الآن ، فان الذين أحبوا عليا وآل البيت وأطاعوا الله ورسوله ، يسمون « شيعة » ونحن نؤمن أيضا بأنه بعد الرسول تتابع ١٢ إماما من آل البيت ، واحدا تلو الآخر ، وهؤلاء هم أئمتنا . وقد أصبح التشيع هو المذهب الرسمى لجمهورية إيران الاسلامية .

عن السنة يقول الدرس : هناك فريق آخر من المسلمين يسمون السنة . وهم يعرفون الامام عليا بأنه الخليفة الرابع ، ويحبونه . وكل المسلمين سنة وشيعة يعبدون الله ويؤمنون برسوله ويؤمنون بالقرآن ككتاب سماوى ويعارضون الشرك وعبدة الاصنام ، ويعتبرون ذلك كفرا . . هم يتبعون أحكام وتعاليم الاسلام ويعرفون بعضهم البعض كاخوة لهم عقيدة واحدة . هم محبون لبعضهم البعض ويعايشون ويحاربون أعداء الاسلام .

أعداء الاسلام يحاولون دائما تعميق الخلافات والشقاق بين الفريقين (السنة والشيعة) والآن يعرف المسلمون ذلك جيدا ، ويدركون مؤامرات أعدائهم . ويحاولون أن يحسنوا عقائدهم كل يوم ، ويتعاونون فى معرفة الله واتباع تعاليمه . وإذ يقترب اليوم الذى يتحد فيه المسلمون ، ويقفون بصلابة أمام الكفر والضلال فى الشرق والغرب ، فان ذلك سيكون ايذانا بانتصار الاسلام على كل اعدائه .

وهذا هو النص الفارسى للجزء الخاص بأهل السنة المذكور فى الكتاب المقرر على الطلاب الشيعة :

« عدۀ دیکری از مسلمانان « سنّی » نام دارند سنّیان حضرت علی را خلیفۀ جهارم پیغمبر می دانند . و او دوست دارند . همۀ مسلمانها - جه سنّی جه شیعه - خدا رامی برستند و حضرت محمّد را رسول کرامی خدامی دانند و قرآن را کتاب مقدّس و آسمانی می دانند ، همۀ مسلمانها - جه شیعه جه سنّی - خدای یکانه رامی برستند و از شرک و بت برستی جدّاً بیزارند و آن را کفر می دانند و از احکام و دستورهای قرآن و اسلام پیروی می کنند و خود را بایکدیکر برادر و همکیش می

دانند ، نسبت به يكديكَر مهربان ودلسوزنديار و غمخوار و مهربانند ، باكمال صفاباهم زندكَى مى كنند و بادشمنان اسلام مبارزه ودشمنى مى نمايند » .

« دشمنان اسلام هميشه سعى داشته ودارند كه بين اين دو كَروه مسلمان و برادر ، جدابى و اختلاف ايجاد كنند . ولى مسلمانان ، ديكَر روشن شده اند و از هدفهاى دشمنان آكَاهند ، ديكَر از دشمنان غارتكَر خود فريب نمى خورند و روابط خويش را روز به روز بهتر و استوارتر مى سارزند و يكديكَر را در شناسابى قرآن و سفارشهاى ييغمبر يارى مى نمايند . . » .

■ كتاب السنة الخامسة الابتدائية (ينجم دبستان) لأهل السنة ، تضمن درسين ، أحدهما عن الخلفاء الراشدين (ص ٧٧) والثانى عن الامامة (ص ٨٥) والامامة تعرف فى الدرس بأنها « قيادة الدين . . والامام أو المجتهد هو الشخص الذى يقود ويرشد المسلمين » . ثم يذكر أن لدى السنة عدة أئمة أحدهم هو الامام الأعظم أبو حنيفة النعمان (مع نبذة عنه) . والثانى هو الامام محمد الشافعى (مع نبذة أخرى) . . وقد خص الدرس الفقيهين الكبيرين بالذكر لأنه لا يوجد فى ايران مالكية أو حنابلة .

فى الصفحة التالية لهما مباشرة (ص ٨٧) درس عن أئمة أهل البيت الاثنى عشر ، ثم درس خاص عن الامام الرضا (ص ٨٩) باعتباره « عالم آل البيت » .

■ كتاب الاجتماع (تعليمات اجتماعى) الذى يدرس لطلاب السنة الأولى الاعدادية ، سنة وشيعة ، تضمن درسا بعنوان : العلاقة بين أتباع المذاهب ، فى إيران (ص ٢٥) يشرح الوضع على النحو التالى :

فى أمة الاسلام هناك عدة مذاهب ، أشهرها هى : المذهب الجعفرى الأثنا عشرى ، المذهب الحنفى ، الشافعى ، المالكى ، الحنبلى ، الزيدى ، وفى إيران ، فان أتباع المذهب الجعفرى هم الأغلبية . وطبقا للمادة ١٢ من الدستور فان الاسلام هو عقيدة إيران ، ومذهبها هو الجعفرى . وهذه المادة غير قابلة للتغيير إلى الأبد ، وطبقا لهذه المادة ، فان المذاهب الاسلامية الأخرى (الحنفى

والشافعى والمالكى والحنبلى والزيدى) يجب أن تحظى بكل احترام . ولأتباعها حرية مطلقة فى أن يمارسوا كل تعاليم مذهبهم ، وأن يخضعوا لأحكامه . . إلى آخر ما ورد فى الدستور بهذا الصدد .

■ كتاب الأدب للسنة الأولى الاعدادية ، احتوى على ١٨ قصة قصيرة من كتاب « روضة الفريقين » ، لفقيه قدم إلى الطلاب باعتباره من علماء أهل السنة ، اسمه الشيخ صالح أبو الرجاء . عاش فى بلاد ما وراء النهر ومات فى سنة ٥١٦ هـ .

وعلى صفحة ٨٨ قصة عن « دهاء الامام الشافعى » فى صغره ، رواها واحد من أكبر شعراء إيران هو الشيخ فريد الدين محمد عطار النيسابورى (توفى سنة ٦١٨ هـ) .

على صفحة ٩٥ ، قصة عن « فراسة أبو حنيفة » ، منقولة عن كتاب « جوامع الحكايات » لأحد كُتّاب القرن السادس الهجرى ، اسمه محمد عوفى .

■ كتاب الثقافة الاسلامية الذى يدرس للطلاب الشيعة فى السنة الثانية الاعدادية ، تضمن درسا بعنوان « أمة الاسلام العظيمة » - امت بزرك اسلام (ص ١٢٧) تقول إحدى فقراته : هل تعرف كم عدد مسلمى العالم ؟ وهل خطر ببالك مدى القوة التى يملكونها ؟ . . عدد المسلمين هائل ، حوالى مليار شخص ، يعيشون فى انحاء مختلفة من العالم . هم من أصول مختلفة ، وألسنة مختلفة ، وفى كل مكان لهم حكومة ، وثمة حدود تفصل بينهم . وللأسف فان كل مجموعة تعيش داخل حدودها لم تهتم إلا بأمورها ولم تنشغل بهموم المسلمين وراء تلك الحدود ، وربما وصفوهم بأنهم غرباء . ولكن الاسلام والقرآن الكريم لا يؤيدان تلك النظرة . وفى الحديث الشريف : من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم . إننا إذا فهمنا هذا الحديث على وجهه الصحيح ، فهل تقبل أن يعتبر المسلمون خارج الحدود غرباء ، هل يجوز للدول الاسلامية الغنية أن تتجاهل المسلمين الفقراء ؟ .

■ كتاب الثقافة الاسلامية المقرر على الشيعة للسنة الثالثة الاعدادية ، تضمن درساً عن الشيعة والسنة على الصفحة ٢٠٣ . وتحت العنوان نص هذه هى

ترجمته العربية : المسلمون مقسمون إلى قسمين كبيرين : شيعة وسنة . ورغم أنهما مختلفان حول بعض المسائل الفقهية ، وحول قضية الخلافة بعد النبى (ﷺ) إلا أنهم يظلون مسلمين ، لهم عقيدة واحدة ونبى واحد ، ويصلون باتجاه قبلة واحدة ، ولهم كتاب واحد هو القرآن وهم أخوة متحدون فى الأصول ، ويسعون إلى تقدم واعلاء الاسلام والمسلمين .

وتحت عنوان فرعى هو : عقيدة أهل السنة حول خلافة النبى ، تضمن الدرس ما نصه : أهل السنة يعتبرون أبا بكر خليفة النبى ، ويعتقدون بأن النبى لم يوص لأحد بخلافته بعد وفاته . ولأن المجتمع الاسلامى كان لابد له من قيادة بعد النبى ، فقد أجتمع بعض المسلمين فى « السقيفة » ، وبعد عدة مناقشات أجروها اختاروا أبا بكر وبايعوه للخلافة . لماذا اختاروه ؟ لأنه من السابقين إلى الاسلام ، وكان من المهاجرين ، وعندما مرض الرسول فى مرض الموت تولى امامتهم فى الصلاة . . وقبل وفاته اختار أبو بكر عمر بن الخطاب خليفة للمسلمين من بعده . وعمر قبل وفاته ، أوصى بتشكيل مجموعة من ستة أشخاص ، لاختيار خليفة من بينهم . ونتيجة لذلك اختير عثمان بن عفان للخلافة . وبعده اختار المسلمون علياً بن ابى طالب . والذين يؤمنون على هذا السياق هم السنيون أو أهل السنة .

وعلى الصفحة ٢٠٤ ، وتحت عنوان فرعى هو : عقيدة الشيعة فى خلافة النبى ، كتب ما نصه : هناك فريق آخر من المسلمين لم يوافق على ذلك . واعتقدوا أن النبى لا يمكن أن يترك الأمة بغير قيادة . وآمنوا بأن الخلافة مما لا يستطيع أن يتدخل فيه أحد . وفى أمر هام كهذا ، فانهم يجب أن يطيعوا أوامر الرسول . ولذا فهم يؤمنون بأن الرسول أوصى لعلى بن أبى طالب بأن يخلفه بعد وفاته وقال : إن علياً هو الامام والقائد . . إلى آخر السياق فى هذا المعنى .

على الصفحة ٢٠٥ تحت عنوان « وحدة المسلمين فى مواجهة الكفر والاستكبار » ، تضمن الدرس النص التالى : كانت هذه هى عقيدة الشيعة ، وتلك عقيدة أهل السنة ، وواضح أنهم مختلفون فى الرأى حول هذا الموضوع . ولكنهم يجب ألا ينشغلوا بتلك الخلافات حتى لا ينشغلوا عن عدوهم .

والمسلمون يعرفون الآن أعداء الاسلام والقرآن ، ويدركون أن هؤلاء يريدون تعميق تلك الخلافات ، حتى يكونوا نهبا لأعدائهم . ولذلك فان

اتحادهم يعد أمرا ضروريا للغاية . إن عالم الاسلام يمكن أن يكون أمة متحدة وجسما قويا فى العالم ، إذا نجحوا فى التغلب على خلافاتهم ، واتفقوا على هدف العمل من أجل خدمة الاسلام . إن الذين يثيرون خلافات المسلمين ليسوا ابناءهم ولا أصدقاءهم المخلصين ، ولكنهم أعداؤهم .

وهذا هو نص الدرس فى الأصل الفارسى :

درس سى ودوم

شيعه و سُنّى

مسلمين به دو دستهٔ بزرگ تقسيم من شوند : شيعه و سنّى

شيعه و سنّى با اينكه در مسأله خلافت بعد از پيامبر و برخى مسائل فقهى اختلاف نظر دارند ، امّا هر دو مسلمانند ، يک دين ويک پيامبر دارندو به سوى يک قبله نماز مى خوانندو كتاب دينى و آسمانى آنان قرآن است ، متّحد و برادرندو براى عظمت و ترقّى كشور اسلام و پيروزى اسلام تشريک مساعى مى كنند .

عقيدة أهل سنّت در مورد جانشينى پيامبر جيست ؟

أهل سنّت أبو بكر را خليفه و جانشين پيامبر مى دانندو معتقدند كه پيامبر براى خود جانشينى تعيين نفرمود ، امّا مسلمانها براى اينكه نظم و انتظام امور اجتماعى ازهم نپاشد نياز به رهبرى داشتند كه جانشين پيامبر باشد ، بهمين جهت بعد از وفات پيامبر كروهى از مسلمين در سقيفه كرد آمدند و بعد از مذاكراتى أبو بكر را به خلافت بر كزيدند و با وى بيعت كردند ، جرا أبوبكر را به خلافت بركزيدند ؟ براى اين كه در اسلام سابقة طولانى دارد ، از مهاجرين است و در غار ثور همراه پيامبر بوده است و به هنكام بيمارى پيامبر در مسجد پيامبر نماز جماعت خواندخ است .

أبو بكر به هنكَام وفات جانشين براى خود تعيين نمود و عمر ابن الخطاب رابه خلافت بركزيد .

■ كتاب الثقافة الاسلامية لأهل السنة ، المقرر على السنوات من الأولى إلى الثالثة فى المرحلة الاعدادية ، وصف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى الجزء الخاص بالسنة الأولى ـ بأنه أحد عباقرة الاسلام المحنكين (ص ٤) وذكر آذان الصلاة ، محذوفا منه عبارة « أشهد أن عليا ولى الله » التى يرددها الشيعة فى الآذان (ص ٢٧) .

وفى الجزء الخاص بالسنة الثانية درس حول الخلفاء الراشدين (ص ٢٩) أعقبه درس آخر حول الامامة والاجتهاد ، نصفه حول أئمة أهل السنة الأربعة (أبو حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل) ونصفه الثانى حول الشيعة الأثنى عشرية (ص ٣٢) .

■ كتاب المعرفة الاسلامية (بينش إسلامى) للسنة الثالثة الثانوية اهتم بتقديم الرسول وصحابته على الصفحات الأولى ، ثم تعرض تفصيلا للخلفاء الراشدين ، وخصص فصلا للامامة ، بدأ باستعراض أئمة الشيعة الاثنى عشر فى صفحة واحدة (ص ٨) ، ثم فصل فى تقديم أئمة الفقه السنى الأربعة على الصفحات من ٨ إلى ٢١ قبل أن ينتقل إلى استعراض العبادات والمعاملات فى الاسلام .

شهادات معاكسة من الواقع

فى ظل الخلفيات التى مررنا بها ، وبالمعايير الموضوعية الخالصة ، فان أحداً لا يستطيع أن يجادل فى أن مناهج الدراسة تعكس مؤشرات ايجابية عديدة فى صياغة العلاقة مع أهل السنة ، فضلا عن أنها تعد خطوة كبيرة إلى الأمام لا يمكن تجاهلها أو الاقلال من شأنها .

بقى أن نعرف كيفية ترجمة تلك المؤشرات الايجابية . التى عبرت عنها التصريحات الواضحة للقيادة وانعكست بشدة على مناهج التعليم ، فى الواقع الايرانى العملى ، تحديدا فى العلاقة مع أهل السنة الموجودين فى داخل إيران ، الذين لا يتوافر إحصاء رسمى لعددهم متفق عليه ، وإن تراوحت التقديرات بين ٥ ، ٧ ملايين نسمه موزعين على المناطق الحدودية لايران مع جيرانها . البلوش

على الحدود مع باكستان ، ويقدر عددهم بمليون شخص يتبعون تعاليم المذهب الحنفي . الفرس أو الخراسانيون على الحدود الأفغانية وهم أحناف أيضا . التركمان على الحدود السوفيتية وهم حوالى نصف مليون ، وهم أحناف كذلك . الأكراد على الحدود التركية والعراقية وهم أغلبية تتجاوز خمسة ملايين ينتمون إلى المذهب الشافعي . وسكان خوزستان أو عربستان فى المناطق الجنوبية الغربية ، والجزر المواجهة لسلطنة عمان ، وعددهم حوالى نصف مليون تقريبا .

ما تحقق فى الواقع العملى ، خلال السنوات السبع التى أعقبت الثورة ، لم يكن فى مستوى طموح المسلمين السنة ، كما أنه لم يكن تعبيرا كافيا عن تصريحات وتوجيهات القيادة السياسية .

لقد أجريت مناقشات مطولة مع عديد من متعلمى السنة وممثليهم بالأخص الأكراد والبلوش ، حيث أكبر تجمعاتهم فى هاتين المنطقتين (ممثلو السنة الأثنا عشر بمجلس الشورى الايرانى بينهم ٧ عن الاكراد وأربعة عن البلوش ومندوب واحد عن التركمان[٢٤] .

وفى التقريرين التاليين خلاصة لتلك المناقشات :

■ تضمنت شهادات كل من الملا ابراهيم عبد الله ، والسيد رحيمى عضو مجلس الشورى ، أبرز ما قيل عن أوضاع المسلمين السنة فى كردستان ، ذلك أنه كتب على تلك المنطقة أن تظل بؤرة للقلاقل قبل الثورة وبعدها . فبحكم اختلافها المذهبى والعرقى وبحكم وجودها على الحدود العراقية التركية . فقد ظلت مسرحا للشغب من جانب القوى الخارجية حينا ، ومن جانب بعض الزعامات الكردية حينا آخر ، ومن جانب المتمردين الايرانيين فى أحيان أخرى . وتقليديا فقد كان العمل السياسى فى كردستان موزعا بين ثلاث قوى : الحزب الديمقراطى الكردستانى ، بقيادة اسماعيل قاسملو ، وحزب « كوميلا » الماركسى بقيادة عز الدين الحسينى ، وحزب « المساواة » الاسلامى بقيادة أحمد مفتى زاده . وبعد الثورة أضيفت إلى تلك القوى تنظيمات لمجاهدى خلق ومجاهدى الشعب وحزب تودة (ماركسيون بدرجات متفاوتة) وحزب الجبهة الوطنية برئاسة

---

(٢٤) المناقشات تمت فى طهران على مرحلتين إحداهما فى شهر ديسمبر ٨٤ ، والثانية فى شهر يونيو ٨٥ .

كريم سنجابى ، غير رجال الشاه السابقين . . وهى قوى المعارضة بعد الثورة ، التى وجدت فى تلك المنطقة النائية ، الوعرة والحدودية والسهلة الاتصال مع الخارج ، مرتكزا هاما لها .

تقليديا أيضا فقد كانت مشكلات تلك المنطقة مع السلطة المركزية فى طهران تتمحور حول قضيتين أساسيتين : أنهم أصحاب قومية كردية ، لهم مطالبهم وطموحاتهم ، التى يعبر البعض عنها باخلاص وحسن نية حينا ، والتى تستغلها القوى الخارجية فى اثارة المتاعب للنظام ، حينا آخر . ثم انهم من أهل السنة ، الذين ظلت علاقاتهم متوترة مع الأغلبية الشيعية لسبب أوآخر . وقد أضيف عنصر آخر بعد الثورة هو أن الطرف الآخر فى العلاقة ، لم يعد الأغلبية الشيعيةِ فقط ، ولكن أن السلطة آلت إلى فقهاء الشيعة أيضا . باعتبار أن النظام السابق (الشاهنشاهى) كان علمانيا فى جوهره .

فى الماضى كانت المسألة القومية والسياسية هى المثارة مع السلطة فى طهران ، وبعد الثورة أطلت المسألة المذهبية برأسها ، ودخلت إلى الساحة كعنصر جديد فى العلاقة مع السلطة . الديمقراطيون والماركسيون عنوا بالمسألة السياسية والقومية . بينما باتت المسألة المذهبية هاجسا يؤرق الاسلاميين ويثير حفيظتهم . وظلت هناك « خطوط تماس » بين ما هو سياسى وما هو مذهبى فى بعض الأحيان ، حتى صار من الصعب التفرقة بين حجم الدور السياسى والعنصر المذهبى فى بعض المشكلات والقضايا المثارة .

قضية السلطة فى كردستان من نماذج خطوط التماس بين ما هو سياسى وما هو مذهبى . فعندما تعين السلطة فى طهران والياً شيعياً على المنطقة فإنه يثير حساسية الجميع ، لأنه من الناحية السياسية يعد فرضاً لوال غير كردى على منطقة كردية ، وهو فى الوقت ذاته فرض لحاكم شيعى على منطقة سنية .

غير أن الاسلاميين المنظمين يواجهون مأزقاً دقيقاً من نوع آخر . فقد كانوا من البداية ضد النظام العلمانى الشاهنشاهى ، وكانوا من مؤيدى الثورة ، وكان تنظيم المسلمين المجاهدين الأكراد (بيشمرجه مسلمانى كرد) هو ذراع حزب « المساواة » الذى اعتبر نفسه من قوة الثورة الاسلامية . فى الوقت ذاته فإن أحمد

مفتى زاده مؤسس حزب المساواة كان يعد من المقربين لرجال الثورة ، وكانت تربطه علاقة خاصة مع آية الله منتظرى ، الذى نفاه نظام الشاه الى منطقة « سقز » الكردية ، وكان موضع حفاوة من مفتى زاده وغيره من رموز أهل السنة الأكراد .

وكانت مشكلة الاسلاميين الأكراد أنهم لم يتعاملوا مع رأس الثورة ، ولكن علاقتهم المباشرة كانت مع أدواتها وأجهزتها المختلفة . ولأن الثورة لم يكن لها كوادر ، إذ لم يؤسس الامام الخمينى حزباً تولى تربية الأتباع وأفرز الكوادر والقيادات التنفيذية . وإنما اعتمد على الفقهاء وخريجى الحوزة فى التوجيه واعتمد على الجماهير العريضة فى الشارع لتحريك الأحداث وتحدى النظام الشاهنشاهى ، لهذا السبب فإن واجهات الثورة كانت فى أحيان كثيرة تعبيرا إما عن الفكر التقليدى للحوزة ، أو الفكر السائد فى الشارع .

وكان من نتيجة ذلك أن عين الولاة على كردستان من الشيعة ـ وتحول حرس الثورة إلى تنظيم عسكرى شيعى فى المنطقة الكردية . ولأن أذربيجان بسكانها ذوى الأصول التركية ، والأغلبية الشيعية ، هى الأقرب جغرافياً إلى كردستان ، لذلك فإن الجهاز الادارى فى كردستان اعتمد على الأتراك بالدرجة الأولى ، وهو أمر زاد من تعقيد الموقف ، لأن هناك حزازات وعداوات تاريخية بين الأكراد والأتراك ، وفى المعارك التى كانت تحدث بين القوميتين فى الماضى ، فإن الأكراد كانت لهم الغلبة . وبعد الثورة ، لم تتسم السلطة بالطابع الشيعى فقط ، ولكنها أيضا توسعت فى توظيف الأتراك ، بعداواتهم القديمة للأكراد ، مما استفز الناس وأثار غضبهم بشكل مضاعف . لم تكن السلطة سنية قبل الثورة بطبيعة الحال ، ولكنها كانت بيد موظفين شيعة ، لم يكن توجههم المذهبى ظاهرا ، وهو ما اختلف بعد الثورة ، إذ طفا هذا العنصر على السطح واستبان فى سلوك ممثلى النظام .

حتى المبادرات الجيدة للثورة أفسدتها ممارسات الأجهزة التقليدية . فعندما اقترح الامام الخمينى وآية الله منتظرى إنشاء المركز الاسلامى الكبير (مركز بزرك اسلامى) لتدريس مذاهب أهل السنة فى سنندج عاصمة كردستان ، عينت الأجهزة مديراً شيعياً لهذا المركز !! وعندما أنشأ المركز الاسلامى فروعا له بأنحاء

المقاطعة يتراوح عددها بين ٦٠ ، ٧٠ فرعا ، فإن مديرى تلك الفروع كانوا أيضا من الشيعة ، لا من السنة . وهو ما أثار دهشة الكثيرين ، إذ كيف يتأتى لمدير شيعى أن يكون مسئولا عن تدريس مذاهب أهل السنة . وعندما أنشئت « حوزة » علمية لأهل السنة فى سنناج ، باسم مدارس الشيخ محمود شلتوت صاحب الجهد المشهود فى التقريب وإنصاف الشيعة ، فإن مدير تلك المدارس كان أيضا شيعياً ، كما أن مسئولها المالى والادارى كان شيعياً . المدرسون فقط هم من السنة .

من ناحية أخرى فإن ممثل الامام فى كردستان ـ موسى موسوى ـ جاء شيعياً . إضافة إلى ذلك فإن ثمة ممارسات أخرى أثارت حساسية الأكراد السنة منها مثلا أنه بات من تقاليد الشيعة أن يوفدوا الوعاظ ـ يسمونهم المبلغين ـ للدعوة بين الناس فى المواسم الدينية ، مثل شهرى محرم ورمضان . وهو أمر مقبول ومستحب إذا أحسن توظيفه . ولكن هذه السنة الحميدة أثمرت نتاجاً عكسياً ، عندما وجد الأكراد أن هؤلاء المبلغين من الشيعة ، وأن بعضهم يحاول استثمار المناسبة لتشييع المستمعين من أهل السنة .

من تلك الممارسات التى أثارت حفيظة السنة ، ما يفعله حرّاس الثورة الشيعة فى صلاة الجمعة أو فى المساجد . ذلك أنه مع العودة إلى إقامة الجمعة بعد الثورة ، وفى ظل الحاجة إلى التعبئة المستمرة فقد أصبحت الجمعة بمثابة مهرجان سياسى (نماز ـ صلاة ـ عبادى سياسى) . وقد أرسى هذا المفهوم تقاليد جديدة ، تراوحت بين تعليق صور الامام فى ساحة الصلاة ، والهتاف أو التكبير أثناء خطبة الجمعة . هذه التقاليد لم يستسغها الأكراد ، باعتبار أنها غريبة على ما هو متعارف عليه فى ممارسات أهل السنّة عموما . وعندما حاول بعض شباب حرس الثورة أن يقوموا ببعض تلك التصرفات فى المساجد الكردية ، التى كانت تقام فيها صلاة الجمعة قبل الثورة وبعدها ، فإن ذلك أساء إلى مشاعر المصلين ، الذين استنكروا ممارستهم ، وأوقفوها . وظلت تلك قضية تمثل مصدراً مستمراً للتوتر بين الجانبين .

أعرب الاسلاميون ، ممثلين فى حزب المساواة ، عن استيائهم واعتراضهم

على تلك التصرفات . مما أدّى إلى توتر العلاقة مع السلطة فى طهران ، التى كانت حساسيتها جاهزة تجاه المسألة الكردية منذ جرى التمرّد الكردى ـ الذى لم يكونوا طرفا فيه ـ بعد شهرين من نجاح الثورة فى عام ٧٩ . وأياً كانت الأسباب التى أدت إلى تصعيد التوتر وتفاقمه حتى وصل إلى الصدام المسلح . فإن الأمر قد انتهى بإلقاء القبض على أحمد مفتى زاده ، زعيم حزب المساواة ، وإيداعه سجن إيفين فى طهران عام ١٩٨١ . بينما قبض على أعداد من رجاله ووزعوا بين سجون كردستان وكاشان .

وبينما توترت العلاقة على هذا النحو المؤسف بين الاسلاميين الأكراد والسلطة الاسلامية فى طهران ، فإنهم واجهوا مشكلة أخرى مع الحزبين الكرديين العلمانيين ، الديمقراطى والماركسى . ذلك أن الخلاف فى المنطلقات الأساسية أدّى إلى الصدام بين الطرفين من البداية . حتى أن الديمقراطيين والماركسيين قتلوا خلال الفترة من ٨١ إلى ٨٤ ، حوالى ٥٠ من شيوخ أهل السنة فى كردستان . إذ أنه لا تزال لهم جيوب فى المناطق الجبلية الوعرة يغيرون منها فى الليل على بعض القرى الكردية ، فيقتلون من يجدون سواء من الدعاة والشيوخ ، أو من شباب حرس الثورة . وأيا كانت مصادر تمويلهم وتسليحهم الخارجية ، فإنهم استطاعوا السيطرة على بعض المواقع يرتكزون عليها فى إثارة القلاقل بالمنطقة .

رموز حزب المساواة ـ من بقى منهم خارج السجن ـ يعتبرون أن الديمقراطيين والماركسيين ليسوا فقط ضد الثورة الاسلامية لكنهم أيضا ضد الاسلام من الأساس ، وهذا هو الأهم والأخطر . لذا فإن الاسلاميين الأكراد يعتبرون أن موقعهم الطبيعى فى مربع الثورة الاسلامية ، لكن العلاقات الشائكة والملغومة التى نشأت بينهم وبين السلطة فى طهران وضعتهم فى موقع بالغ الحرج والدقة . فلا هم استطاعوا أن يقيموا علاقات ناجحة مع الثورة الاسلامية ، ولا هم سلموا من انتقام وغارات العلمانيين ، من أعداء الثورة وأعدائهم .

هم يرون أن ثمة إيجابيات ينبغى أن تتواصل وتستمر على وجه أفضل . فقد توقفت تماماً الأعمال العدائية التى كان يمارسها عامة الشيعة ومتعصبوهم ضد أهل

السنة . وتوافرت لهم ـ لأول مرة ـ مناهج دراسية خاصة ، وقضاء خاص ، بل سمح لهم بإصدار الكتب والطباعة باللغة الكردية وهو ما كان محظورا فى عهد الشاه . هذه المؤشرات الايجابية أفسدها التطبيق الذى اتسم بالنظرة المذهبية الضيقة ، وقصور ممثلى الثورة فى كردستان عن استيعاب الخط السياسى والفكرى الذى طرحته الرموز الأصلية للثورة .

■ الموقف فى بلوشستان صورة منه فى كردستان . وما قاله ممثلو البلوش فى مجلس الشورى ، وفى مقدمتهم محمد اسحاق مدنى ، الذى يجيد اللغة العربية ، لا يختلف إلا فى جزئيات بسيطة عما قاله الأكراد الذين لقيتهم . إذ ليس هناك حضور للبلوش السنة فى جهاز السلطة بالمقاطعة . كلهم من الشيعة الوافدين من أنحاء إيران . فى بداية الثورة قدموا مطالبهم إلى قادتها . فكلف الامام الدكتور ابراهيم يزدى الذى كان يشغل منصب وزير الخارجية ، بدراسة طلبات السنة فى تلك المنطقة . من أهم نتائج الدراسة أن قراراً صدر فى عام ٧٩ بتعيين سنى من أبناء البلوش والياً على المقاطعة ، هو السيد دانشى نروى . استشعر الناس قدراً من الانفراج لم يدم طويلا . فبعد خروج يزدى وبازركان من الوزارة فى ديسمبر ٧٩ ، أقصى والى بلوشستان بعد خمسة أشهر من تعيينه ، وعين شيعى بديلا عنه . وترك دانشى نروى إيران ، مهاجراً إلى الولايات المتحدة الأمريكية .

ممارسات المبلّغين الشيعة فى المقاطعة تثير استياء الكثيرين وكذلك شباب حرس الثورة . . تلك التفصيلات اليومية الصغيرة أحدثت ردود أفعال سلبية سحبت الكثير من رصيد الثورة عند البلوش .

زاد من دقة الموقف فى بلوشستان أن إحساسهم بالقضية المذهبية قديم وعميق ، فأكثر الدعاة ورجال الدين بالمنطقة من الدارسين فى باكستان والمملكة العربية السعودية . وفى باكستان هناك حزازات مستمرة بين الشيعة والسنة ، وفى السعودية ثمة حرب معلنة من الوهابيين على الشيعة . هؤلاء وهؤلاء يلتقون عند موقف من الشيعة يصل أحيانا إلى حد الاخراج من الملّة والتكفير . فى تربة ملغومة على هذا النحو لا يمثل السلطة فى طهران من

يعالج الموقف برفق وحكمة ، ولكن تمارس سياسات أشبه بسكب الزيت على النار ، ممّا يؤدى إلى مزيدٍ من الاشتعال والتفجير وليس التهدئة والوصل ومد جسور المودة والتراحم .

وكما أن الاسلاميين الأكراد يتعرّضون للانتقام والتصفية من جانب الديمقراطيين والماركسيين ، فإن المعتدلين البلوش تعرّضوا للاتهام بالتكفير بسبب حرصهم على إقامة نوع من التعاون الايجابى مع السلطة فى طهران . وكان فى مقدمة هؤلاء أعضاء مجلس الشورى الذين اتهمهم بعض الشيوخ « بموالاة الكافرين » الشيعة !

تحديات تحتاج إلى حسم سريع

بعد استعراض الآراء وفرز الانطباعات ، لن نكون مبالغين فى شيء إذا قلنا إن موضوع أهل السنة فى داخل إيران لا يزال يحتاج إلى مزيد من العناية والجهد . لكى تزول آثار الجراح والحساسيات القديمة ، ولكى يستشعروا أنهم جزء طبيعى من الجسم الاسلامى فى إيران . وهو الاطار الذى وضعتهم فيه تصريحات قيادة الثورة وصاغته نصوص الدستور بصورة مقبولة إلى حد كبير . ليس فقط من باب الانصاف والاستجابة لمطالب أهل السنة ، ولكن أيضا من أجل الحفاظ على الوجه الاسلامى للثورة ، وإبعاد شبهة التلون المذهبى عنها .

يقتضينا الانصاف أيضا أن نقرر بأن ثمة ضغوطا تاريخية فى إيران لا يمكن تجاهلها . هناك الرأى العام الشيعى الذى ينبغى أن يوضع فى الاعتبار ، وتعامل متطلباته بقدر كبير من الرفق واللين . وهناك هموم الحرب ومسئولياتها التى أثرت على شواغل الثورة وأولوياتها منذ عامها الأول . وهناك عمليات الاختراق والافتعال والتحريض والتهويل ، التى تحرص عليها الأطراف الخارجية الساعية إلى تعويق مسيرة الثورة والازعاج المستمر لها . وهناك مشكلة غياب كوادر الثورة التى أحدثت ثغرات لا يستهان بها ، أساءت كثيرا ـ وفى مجالات عديدة ـ إلى مسيرة الثورة ولم تحسن التعبير عنها ، حتى قدمتها أحيانا باعتبارها انقلاباً شيعيا ، وليس ثورة إسلامية . بل وربما كانت

هناك أيضا مبالغات والتباسات فى مطالب أهل السنّة ذاتهم . من ذلك مثلا ما يتعلق بموضوع « الحكم الذاتى » الذى يقوم على منطلقات عرقية وقومية ، مما قد لا يستوعبه ولا يقبله الداعون إلى « الاسلامية » بصورتها المثالية أو المبالغ فيها . وقد تكون هناك ردود أفعال سلبية لدى بعض عناصر الثورة فى طهران ، نتيجة لمواقف الأنظمة السنية فى العالم العربى بوجه أخص ، التى لا تتسم علاقات أغلبها تجاه الثورة الايرانية بالود من البداية . نستطيع أن نسوق الكثير من الأسباب والعوامل ، التى تساعدنا على فهم الموقف بالصورة التى انتهى إليها . **لكن ذلك لا يغير من طبيعة النتيجة ، ومن حاجة موضوع السنّة إلى المزيد من العناية والانتباه والجهد ، من جانب السلطة فى إيران . ذلك أنه لا مجال للأعذار فى العمل السياسى . وستظل السلطة فى كل مكان وزمان تحاكم وتحاسب بين الناس بقدر ما أنجزته من خُطى ، وليس بقدر ما أعلنته من نوايا طيبة . كما أن الانجاز سيظل يقاس بكفاءة السلطة فى الانتصار على التحديات والصعوبات وليس التذرع بها . وفى بلدٍ بعمق إيران ووعورته ، وخطورة وضعه وتجربته ، تظل مسئولية القيادة مما يَنوء بحمله الجبال . ولكن على الذين يتصدّون للمسئولية أن يدفعوا ثمنها مهما كان باهظاً أو أن يقبلوا حكم الناس والتاريخ عليهم مهما كان جائراً .**

إن من يستعرض خريطة السلطة فى إيران لابد وأن يلحظ على الفور أن ثمة غيابا كبيرا للسنة ، بالأخص فى قطاع السلطة التنفيذية ، حيث لا وزير ولا سفير ولا حتى مدير من أهل السنة . وإذا كان قضاء المناطق السنية قد أنيط بهم ، فإن حضورهم رمزى إلى حد كبير فى مجال السلطة التشريعية فعدد ممثليهم ١٢ من بين ٢٧٠ عضواً فى مجلس الشورى ، مما لا يتيح لهم فرصة التأثير حتى على مستوياتهم المحلية .

قد يرى البعض أن قضية المشاركة لا ينبغى أن تناقش من منطلق مذهبى أو طائفى . وهذا صحيح إذا كانت المشاركة قائمة بالفعل واختلافنا فى حجمها . ولكن إذا كانت المشاركة منعدمة من الأساس والاختلاف فى النوع وليس فى الحجم . فإن ذلك يفتح الباب لطرح السؤال الأساسى وهو : أين السنة فى هرم السلطة التنفيذية للثورة الاسلامية ؟ وأهمية التساؤل عن

الحضور فى هذا المجال بالذات ، تكمن فى أن « مناصب » السلطة التنفيذية تشغل بالتكليف والتعيين ، أى بقرار سياسى ، بعكس الوضع المفترض للسلطة التشريعية ، حيث يكون الانتخاب الجماهيرى هو الأصل والأساس .

عندما أتيح لى الاقتراب من الموضوع ، فى مناقشات أجريتها مع بعض القيادات الايرانية . كنت أضرب مثلا بمصر ، التى يتقارب عدد سكانها مع إيران (مصر ٥٠ مليونا وإيران ٤٨ مليونا) ، ويتقارب عدد أقباط مصر مع عدد السنة فى إيران ، اذا سلمنا بتقديرات الكنيسه التى يقلصها التعداد الرسمى الى النصف . ومع ذلك فإن مصر عرفت فى تاريخها الحديث ثلاثة رؤساء وزارات من الأقباط ، ولا تخلو حكومة مصرية من وزير قبطى على الأقل ، بالاضافة إلى أن الحضور القبطى قائم فى مختلف مواقع القيادة والادارة ، بصورة أوأخرى . كنت أقول إن تلك المقابلة تكشف بوضوح عن مدى قصور الحضور السنى فى السلطة الايرانية .

ثمة عنصر جديد بالاعتبار هنا يتمثل فى الاختلافات الهامة بين طبيعة مجتمع السنة فى إيران ومجتمع الأقباط المصريين . ذلك أن ثمة ظروفاً جغرافية واقتصادية وخلفيات تاريخية أسهمت إلى حد كبير فى إخراج « السنة » من الحياة السياسية الايرانية .

■ فقد تمركز السنة لسبب أوآخر فى أطراف إيران النائية ، وعلى شريطها الحدودى مع الدول المجاورة . وحظ المناطق النائية من العناية متواضع أومنعدم فى الكثير من بلدان العالم الثالث . إذ أن تخلف تلك المناطق هو القاعدة ، بالأخص فى ظل أنظمة كتلك التى تتابعت على إيران فى الماضى . فلم تكن قضية التنمية تؤخذ بأى مأخذ جاد ، فقد كانت تعنيها طبقات اجتماعية معينة . وفى أحسن الفروض ، فإنها ظلت تركز على تجميل المدن الكبرى فقط ، وهو ما أسفرت عنه « الثورة البيضاء » التى أعلنها الشاه فى عام ١٩٦٣ . وإذا كانت الاحصاءات تقول بأنه بين عامى ١٩٦٧ ، ١٩٧٧ ازدادت نسبة أسر المدن التى تعيش فى غرفة واحدة من ٣٦ إلى ٤٣٪ وأنه عشية الثورة كان ٤٢٪ من سكان طهران يعانون من عدم كفاية الاسكان وأنه على الرغم من

إيرادات النفط الهائلة ، فإن طهران العاصمة ظلت بغير « شبكة مجارى » ، وبغير شبكة سليمة للنقل العام[٢٥] إذا كان هذا هو حال العاصمة والمدن ، فكيف بالمناطق الحدودية والأطراف النائية ؟ .

لقد أدى وجود المسلمين السنة فى تلك المناطق إلى إسقاط مجتمعاتهم من برامج التنمية على محدوديتها ، وتضييق فرص التعليم أمامهم . حتى تراوحت نسبة الأمية فى مجتمعاتهم بين ٨٠ ، ٨٥٪ . ومن الطبيعى إزاء ذلك أن تندر بينهم الكفاءات المؤهلة تعليميا أو ثقافيا ، وأن يكون نصيب هؤلاء من الاسهام فى الحياة الثقافية ، ناهيك عن السياسية ، منعدما أو محدودا .

■ من ناحية أخرى ، فإن الصدام بين الدولتين الصفوية والعثمانية فى القرن السادس عشر الميلادى . أفرز أزمة ثقة بين الشيعة والسنة ، ألقت بظلها الثقيل على العلاقة بين أتباع المذهبين على مدار القرون التالية . فقد كان العثمانيون يخرجون شيعة العراق من الجيش ، وإن أبقوا على أحد منهم فلا يسمح له بأن يتجاوز رتبة « صف ضابط » على أحسن الفروض . أى أن عليه أن يكون جندياً يتلقّى الأوامر ، أو لا يكون . ولم يكن الصفويون بأفضل حالا من العثمانيين ، إذ أنهم استأصلوا السنة من الحياة العامة فى إيران طوال سنوات حكمهم . ورغم أن تلك خلفيات تجاوز عمرها أكثر من ثلاثة قرون ، إلا أن مخلفاتها وبصماتها كانت عميقة إلى حد سمح لآثارها بأن تظل كامنة فى اللاوعى الإيرانى .

يحتاج علاج ذلك كله إلى وقت بكل تأكيد . وقد يكون من غير الانصاف أن تطالب الثورة الاسلامية خلال سنوات سبع بأن تصفّى آثار الصراعات المذهبية ، وأن تمحو آثار التاريخ والجغرافيا ، وأن تنهض بإيران اقتصاديا وسياسيا وثقافيا . ذلك مستحيل بطبيعة الحال ، ولا شك أن المناهج التى وضعت سوف تسهم إيجابيا فى تشكيل جيل سوى من هذه الزاوية ، أعنى عقيدياً وإسلامياً .

ذلك كلّه حق . لكن يظل من إحقاق الحق أيضا أن نقرّ بأن القرار السياسى

---

(٢٥) يرفند ابرهيميان ـ أسباب ثورة ١٩٧٨ ضمن أبحاث كتاب ايران (١٩٠٠ ـ ١٩٨٠) ص ١٠٥

يستطيع أن يسهم فى تصحيح الأوضاع واختصار المسافات . وليس من الحكمة أن تظل الأمور على ما هى عليه الآن . ولمدة عقدين أو ثلاثة ، لكى نرى ثمار الجهد المبذول فى المرحلة الراهنة .

إن إشراك السنة فى الحياة السياسية ، وكفاءاتهم موجودة وإن ندرت ، يحتاج إلى شجاعة وحزم فى مواجهة ضغوط التاريخ ومخلفاته التى تعرضنا لها . وتلك خطوة ستضيف الكثير إلى رصيد الوجه الاسلامى للثورة ، فضلا عن أنها ستكون رسالة بليغة الأثر فى خطاب المحيط السنى الكبير فى العالم الاسلامى .

وذلك قرار لا تملكه إلّا قيادة الثورة ، المتمثلة فى الامام الخمينى شخصياً .

□ □

الفصل الثالث عشر

الفلسطينيون بين الحلم والحقيقة

صار العالم الخارجي ، في وعى الثورة المبكر ، مقسّماً إلى شياطين وملائكة . وإذ تعددت النماذج في مربع الشياطين ، الذى اجتمع فيه الأمريكان والروس والاسرائيليون ، فإن الثوار الايرانيين صنّفوا الفلسطينيين في صف الملائكة . وحدثت المشكلة ، أو الأزمة الحقيقية ، عندما استبانوا لاحقاً صحة شق واحد في تلك المقولة دون الشق الآخر . بمعنى أنه إذا كانت الشواهد قد توفرت على ان ثمة شياطين في دنيا السياسة ، فإنه لم يثبت بعد أن هناك ملائكة بأى صورة أو معيار . وإن وجدوا ، فإنهم لا يكونون إلا في حدود الحقيقة الايمانية ، التى تقول انهم كائنات غير مرئية ولا محسوسة !

في الوعى السياسى الإيرانى تظل « فلسطين » قضية إسلامية بالدرجة الأولى . وهذا الخيط الإسلامى هو الشيء الوحيد الذى يربط عامة المسلمين فى خارج العالم العربى بالقضية . وكان يمكن أن تظل إسرائيل إحدى دول العالم الثالث ذات العلاقة الخاصة مع الولايات المتحدة ـ كأى دولة فى أمريكا اللاتينية مثلا ـ لولا أنهم استقبلوا احتلالها لفلسطين بإعتباره اغتصاباً لأرض إسلامية ، وعدوانا على أحد ثغور الإسلام . وفى التاريخ الإيرانى الحديث ، فإن أول رد فعل لاحتلال فلسطين وقيام دولة إسرائيل فى سنة ١٩٤٨ ، خرج من جبهه الفقهاء دون غيرهم . ومؤرخو تلك الفترة يذكرون أن آية الله الكاشانى ـ الذى برز لاحقا مع مصدق فى التصدى للشاه وتأميم النفط ـ ظهر على المسرح السياسى الإيرانى لأول مرة باعتباره قائداً ومنظما للمظاهرات التى خرجت فى طهران سنة ١٩٤٨ ، تندد باغتصاب فلسطين . فضلا عن أنه قام بحملة لجمع الأموال وإرسال المتطوعين لمقاومة اسرائيل[1] .

---

(١) حامد الغار ـ دور العلماء المعارض فى السياسة الإيرانية المعاصرة ـ بحث فى كتاب إيران ١٩٠٠ ـ ١٩٨٠ ص ٧٥

تماثل فى المظلومية التاريخية

وعندما بدأت المقاومة الفلسطينية المسلحة ضد إسرائيل فى الستينيات ، فإنها حركت بقوة وجدان الشباب الإيرانى المسلم . فالأمر لم يعد فقط عدوانا على ثغور الاسلام ، وإنما بات أيضا وبعد احتلال القدس عام ٦٧ انتهاكا لمقدسات المسلمين . ثم إنهم استقبلوا الثورة الفلسطينية باعتبارها عملا جهاديا ونضاليا ألهب شعورهم . ومس فى أعماقهم أوتاراً بالغة الدقة والحساسية . فقد كان الظلم الواقع على الفلسطينيين وعمليات الإبادة والتشريد والاضطهاد التى عاشوها ، ثم المقاومة ألباسلة التى قادها شبابهم ضد العدو المغتصب ، تلك العناصر فى مجموعها أعادت إلى اللاوعى الإيرانى ـ الشيعى تحديداً ـ كل تجربة الإمام الحسين ، وكل معاناته هو وأهله . كان التماثل شديداً بين التجربتين ، حتى باتت الثورة الفلسطينية رمزاً جديداً « للمظلومية التاريخية » التى تشكل أحد أركان البناء النفسى الشيعى . بعد إذ تجمعت الشواهد العديدة على أن الفلسطينيين ماضون على طريق الحسين . فهم يحاربون الباطل بلا كلل ولا ملل أو يقتلون بلا ثمن ، ويفنون جيلا بعد جيل . حتى باتت أيامهم عاشوراء ، وأرضهم كربلاء ، كما يقولون ، منذ الأربعينيات وهم « مسافرون إلى كربلاء » !

الفلسطينيون أدركوا لاحقا تلك العلاقة الدقيقة فى سجل « المظلومية التاريخية » مع شيعة إيران . ومن هذا المنطلق خاطب ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير المسئولين فى طهران أكثر من مرة . فى لقائه مع بعض المبعوثين الإيرانيين أثناء حصار طرابلس فى صيف عام ١٩٨٣ ، قال أبو عمار ، كما سجل أحدهم فى تقريره عن الاجتماع : « أنا الحسين بن على . وها هم « اليزيديون » ـ نسبة إلى يزيد بن معاوية ـ فى الوطن العربى ، ضربوا من حولنا الحصار ، وقطعوا عنا المياه ، ومضوا فينا تقتيلا ، يريدون لنا الفناء » . . وقد كرر أبو عمار هذا المعنى فيما بعد ، فى أكثر من رسالة مكتوبة إلى القيادة الإيرانية .

للدّقة والإنصاف ، فإن عنصر التماثل فى المظلومية التاريخية أضيف باعتباره بُعداً جديداً أفرزته التطّورات اللاحقة التى شهدتها الساحة الفلسطينية ، مع توالى فصول المأساة فى سنوات ما بعد الاحتلال الاسرائيلى . وهو عنصر أضيف إلى نقطة اللقاء الأساسية ، التى تتمّثل فى الوجه الإسلامى للقضية

الفلسطينية . وقد لا نبالغ كثيرا إذا قلنا إنه بينما لعبت « المظلومية » دورها فى اللاوعى الإيرانى فإن ذلك الوجه الإسلامى للقضية ، كان له دوره الحاسم فى تشكيل الوعى وإذكائه .

وسيظل عسيراً على العالم العربى ، أن يستوعب مدى تعلّق أعاجم المسلمين بدينهم ، ما لم يدرك حقيقة المشاعر الجياشة التى تعتمل بين جنبات تلك الملايين المؤمنة . المبعثرة بين « غانه وفرغانه » بتعبير الجغرافيين العرب القدامى ، أولئك الذين تلقوا الاسلام منذ قرون ، ثم تقطعت بيننا وبينهم السبل ، بعد إذ تغيرت خرائط التاريخ وأقيمت حوائط الجغرافيا . لكنهم ظلوا قابضين على الجمر . قلوبهم تتحرّق شوقاً إلى وصل ما انقطع مع ديار الإسلام ، وأحلامهم العطشى ـ وأبصارهم ـ تعلقت بالعالم العربى . الذى هو عندهم منبر الاسلام وبيته ، وفيه كعبة المسلمين وقبلتهم .

وإذا كانت تلك هى القاعدة فيما يتعلق بأعاجم المسلمين عامة ، فإن لهذا الاعتبار ـ الاسلام ـ خصوصية أكبر ، ودوراً أعمق مما نتصّور ، عند مسلمى عديد من الدول ، ذات الأصول والأعراق المتعددة ، وفى مقدمتها إيران . فالإسلام عندهم ليس ديناً فقط ، ولكنه « وطن » وهوية أيضاً .

الناس فى إيران تختلف أصولهم العرقية ، ولغاتهم ، حتى تصل إلى ثمانية (الفرس والأتراك فى المقدمة ، ويأتى بعدهم الأكراد واللُّر والعرب والبلوش والتركمان ـ الأقرب إلى المغول) . هـذا الشتات ، يشكل الاسـلام بالنسبة له دور « الجامع المشترك الأعظم » . هو البوتقة والوعاء والحصن الذى به يحتمون من الإنفراط والتشرذم . من هنا فإن أى عدوان على الإسلام أو انتهاك لمقدساته يصبح على الفور مصدراً لاستفزاز واستثارة المشاعر الإسلامية الإيرانية ، لأنه بمثابة تهديد لحصنهم ورباطهم .

هذا الموقف يفسر الكراهية الدفينة التى يكنّها الإيرانيون للإسرائيليين خاصة . كما أنه ينبهنا إلى عمق الغضب والازدراء الذى كان يستشعره الإيرانيون تجاه نظام الشاه . إذ اعتبروا تعاونه مع إسرائيل بمثابة طعنة موجهة إلى كبريائهم واعتزازهم بدينهم ، إلى حصنهم ووعائهم .

وإذا كان الشعور بالولاء قد دفع الألوف من مسلمى الهند إلى هجرة أهلهم وديارهم إلى أفغانستان عندما خاضت بريطانيا الحرب ضد الخلافة العثمانية ، معتبرين أن بلادهم ـ وهى المستعمرة البريطانية ـ قد صارت « دار حرب » واجبة الترّك ، فإن الشعور بالانتماء دفع الإيرانيين للذهاب إلى ما هو أبعد ، إذ اعتبروا أن استمرار الاغتصاب الإسرائيلى لفلسطين بمثابة عدوان على ديار الإسلام . يظل رده من مسئولية كل مسلم . فوقفوا دون تردد إلى جانب قضية الثورة . واعتبروا منذ اللحظة الأولى أن مكانهم الطبيعى فى الخندق الفلسطينى . واستعصى عليهم ـ ولا يزال ـ أن يفهموا غير لغة النضال المسلح ضد اسرائيل ، بقدر ما أنهم لم يتصوروا لهم مكانا خارج المربع الفلسطينى .

تلك القداسة التى تعامل بها الايرانيون مع القضية الفلسطينية أسقطت على الفلسطينيين أنفسهم . فقد وضعهم الإيرانيون فى مقامات سامقة ، مع الصديقين والقديسين والمخلصين ، وتصوروهم امتداداً للصحابة والتابعين وفرسان المسلمين الأوائل . وكما أنهم لم يسمحوا لأنفسهم أن يتعاملوا مع القضية باعتبارها قضية عادية ، فإنهم رفضوا بنفس القدر أن يتصوروا الفلسطينيين أفراداً عاديين .

وهنا لابد من الاعتراف بأن هذا العمق للقضية الفلسطينية ، وتلك الخصوصية التى أحاطها الإيرانيون بها ، كانا من الأمور الخافية على الكثيرين ، ربما لأنه بسبب الكبت والقمع ، لم يتح لتلك المشاعر أن ترصد قبل الثورة . فضلا عن أن عمليات تزوير وجه إيران طوال حكم الشاه ، غيبت هذا البعد ، مع قسمات أخرى ، عن الأعين خارج إيران .

مفاجآت مقر البعثة الاسرائيلية

المثير للانتباه أن الإسرائيليين كانوا يدركون تلك الحقيقة !

ومن تتح له زيارة مقر البعثة الاسرائيلية فى طهران ، الذى أصبح مقرا لسفارة فلسطين بعد الثورة ، يدرك على الفور أن المخابرات الاسرائيلية فى إيران كانت

على وعى تام بأنها تتعامل مع محيط جماهيرى يكن لها كراهية بغير حدود ، بل أنه ينتهز الفرصة للانقضاض على من فيه وتصفية الحساب معهم .

ابتداء ، فإنهم اختاروا مقر البعثة الاسرائيلية فى شارع كاخ (القصر) ـ فلسطين بعد الثورة ـ الذى هو شارع اليهود فى طهران . ووقعوا على بناية مجاورة لعمارة من تسعة طوابق كل سكانها من اليهود ، وأقاموا فوق سطوح البناية جسراً حديدياً خفياً ، يمكن فتحه ومده إلى العمارة فى لحظات الخطر . ليتمكن رجال البعثة من الهروب السريع إلى المبنى المجاور ، والتخفى وسط سكانه « الإيرانيين » . وزيادة فى الاحتياط ، فقد حفروا خندقا فى حديقة السفارة يتصل به سرداب طويل تحت الأرض ، يؤدى إلى أحد شوارع المدينة الرئيسية (بهلوى فى عهد الشاه وولى عصر لاحقاً) .

من ناحية أخرى ، فقد كهربوا السور المحيط بالبناية من الجهات الأربع ، بحيث يصعق التيار كل من يحاول أن يجتاز السور . وصوبت الكاميرات التليفزيونية نحو الباب ، وثبتت المرايا العاكسة عليه ، حتى يمكن رصد ومعرفة كل قادم ، وفضلا عن كتلة الصلب التى وضعت فى باب البناية ، فإن أبواباً مماثلة مصنوعة من الصلب ـ الذى لا يخترقه الرصاص بطبيعة الحال ـ كانت تفصل بين مختلف أقسام البعثة (القسم السياسى والتجارى والعسكرى والقنصلى . . وما إلى ذلك) بحيث يمكن فى أية لحظة إغلاق ذلك الباب ، فينعزل القسم تماماً عن بقية أجزاء المقر . وفى داخل البناية ذات الطوابق الثلاثة ، توزعت ثلاث خزائن حديدية ضخمة ، كل منها بحجم غرفة صغيرة ، كانت تحت تصرف المخابرات الاسرائيلية (الموساد) . كما توزعت عدة مساكن لرجال البعثة ، ملتوية المداخل ومتعددة المخارج . وفى الطابق تحت الأرضى ، ثمة قاعة ذات جدران كاتمة للصوت ، قيل أنها للتدريب على التصويب وإطلاق الرصاص ، فضلا عن مخازن الطعام ، والمطابخ ذات الإمكانيات غير العادية .

لقد صمم مقر البعثة الاسرائيلية الذى ضم حوالى ٨٠ غرفة ، وزود بشبكة اتصال ضخمة (٩٩ خطاً هاتفياً غير محطة لاسلكية بالغة القوة) ، ثم حصن على ذلك النحو المدهش ، ووفرت له إمكانية الاكتفاء الغذائى لعدة أشهر ، تحسباً للحظة مواجهة الجماهير الغاضبة والمتربصة .

وعندما حانت تلك اللحظة ، حين انفجر البركان الشعبى بقوة مع أواخر عام ٧٨ وبدايات ٧٩ ، كان مقر البعثة الاسرائيلية هدفاً للجماهير التى تحينت الفرصة لتصّفى حسابها مع مختلف رموز الطغيان والمهانة والظلم . أحاطوا بالمقر/ الثكنة ، ولم تمنعهم لا الجدران العالية ولا الأسلاك الصاعقة ولا أبواب الصلب ، اقتحموا ذلك كله واجتازوه ، واندفعوا بغضبهم وثورتهم إلى داخل البناية فوجدوها خاويةِ على عروشها . فقد فزع الاسرائيليون إلى سطوح الطابق الثالث ، ومدوا الجسر الحديدى إلى العمارة المجاورة ، وهربوا بعد أن أحرقوا أوراقهم وحطّموا محطة الاتصال اللاسلكى !

اصطحبنى محدثى إلى فناء البناية ، وأشار إلى السور قائلا : هنا استشهد ١٢ إيرانياً فى تلك العملية الجسورة . صعقهم التيار الكهربائى ، وهم يجتازون السور مع غيرهم لملاحقة الاسرائيليين !

تلك الجماهير هى التى خرجت بحشودها الضخمة لاستقبال ياسر عرفات فى الأسبوع الأول لنجاح الثورة (١٩ فبراير ٧٩) . لم تصدق أن رمز الثورة الفلسطينية وصل إلى قلب طهران ، فتدافعت نحوه فى انفعال هستيرى ، وثمنا « للانتماء » الذى حبست إماراته فى الأعماق سنوات طويلة !

وهى ذاتها التى أحاطت بأول وفد عسكرى فلسطينى ، من رفاق عرفات ، المجاهدين ، سلالة الصحابة والتابعين فى الخيال الايرانى . ذهب هؤلاء إلى « مشهد » فى تلك الأيام الأولى المفعمة بالفرحة والانفعال . لكنهم أصيبوا بالدهشة والذهول وهم يرون الجماهير الإيرانية تتنازع حملهم على الأعناق والأكتاف ، وتتجاذب « الكوفيات » المرقطة التى كانوا يرتدونها ، حتى يمزقوها وهم يتنافسون على الفوز بقطع منها . كانوا يحتضنون الخرق الصغيرة بشوق الذى احتوى بين ذراعيه عزيزاً عاد إلى أهله بعد طول غياب !

كنت هناك فى تلك الفترة ، صحفيا مصريا لا ينظرون إليه بارتياح ، بسبب موقف السادات المؤيد للشاه . ولم يكن يخرجنى من المآزق سوى تدخل بعض الأصدقاء ممن يحسنون بى الظن . وكنت أرى بعين لم تخل من الغيرة والحسد ، كيف كانت بطاقة « فتح » أو منظمة التحرير الفلسطينية ، تفتح كل الأبواب وتعبر كل الحواجز وتنفذ كالسهم إلى القلوب . بينما كان أعضاء « الكوميتات » ، لجان

الثورة ، يدققون بعناية ، ليس فقط فى بطاقتى المتواضعة والمجرحه ، وانما أيضا فى البطاقات التى أصدرها مجلس قيادة الثورة لبعض الايرانيين !

وقتئذ ، كانت إيران تسترد هويتّها وتصل ما انقطع من جسور مع أصولها وانتمائها . وكان طبيعياً أن يظهر اسم فلسطين على وجه طهران كأحد قسماتها البارزة . كنت مع غيرى من العرب الذين قدموا من الكويت نستشعر أننا « أطول قامة .وأعلى هامة » ، كلما بش الناس فى وجوهنا ولوّحوا لنا بعلامة النصر التى اعتاد أبو عمار أن يشهرها فى الصور وأمام الجماهير . كانوا يردّدون على مسامعنا بين الحين والآخر الهتاف الفلسطينى التقليدى « ثورة ، ثورة ، حتى النصر » . الأكثرية كانت تنطق الكلمات مكسرة ، وبسعادة غامرة ، تحية لنا وإعلانا عن وصل المحبة وعودة الدفء إلى القلوب .

قال الراوى : عندما وصل هانى الحسن ، مستشار عرفات ليكون أول سفير لفلسطين فى طهران الثورة ، أنزلوه والوفد المرافق معه فى أكبر قصور رجال الشاه ، قصر أمير عباس هويدا ، الذى كان رئيس وزرائه الأثير طوال ١٣ عاما ، وهو القصر الذى أصبح مقراً لرئيس الجمهورية فيما بعد .

كان وصولهم فى المساء ، ووسط مشاعر الحفاوة البالغة التى أحيطوا بها ، لم ينتبه أحد إلى مسألة إعداد عشاء لهم . ولما حل الظلام وشعر أعضاء الوفد بالجوع ، علم أحد المرافقين الإيرانيين بالأمر ، فخرج ليستحضر لهم طعاما . أوقفوه عند أول حاجز أمن اقامه رجال الكوميتات فى الشارع المؤدى إلى القصر . ولما أوضح لهم حقيقة مهمته ، فوجئوا وصدموا ، حتى أغرورقت عينا أحدهم بالدموع ، وقال بأسى وهو لا يكاد يصدق : الفلسطينيون هنا فى طهران جائعون ، ولا يجدون عشاء لهم ؟ ركض الشباب يبلغون الواقفين عند الحاجز التالى ، وانتقل الخبر من حاجز إلى حاجز ، حتى شاع النبأ فى طهران ، وحدث « استنفار » فى العاصمة لمحو هذا « العار » ! !

أضاف محدثى الذى كان عضوا فى الوفد ، أنهم فوجئوا بعد ساعة بمواكب من الإيرانيين الذين هرولوا إلى القصر حاملين ما عندهم من طعام ، لم ينم أعضاء الوفد الليل بطوله ، لأنهم ظلوا يستقبلون أوعية الطعام الضخمة التى تقاطرت عليهم من كل صوب ، بعدما هب الإيرانيون يذبحون ويطبخون ويتسابقون فى

تقديم تلال اللحوم والطيور وجبال الأرز ، وسلال الفاكهة والحلوى ، إلى الوفد الفلسطينى !

فى تلك المرحلة ، عام ٧٩ ، بينما الثورة تحاول تأمين نفسها ، وتثبيت أقدامها والشروع فى إقامة النظام الجديد ، كانت قضية فلسطين إحدى شواغل القيادة الإيرانية ، وكان من نقاط البحث المبكرة فى مجلس قيادة الثورة : كيف توفر إيران الثورة أكبر قدر من الدعم المالى الثابت للثوار الفلسطينيين ، بحيث لا تضطرهم الظروف إلى طلب العون من أحد ؟ وقتئذ اقترح السيد على خامئنى ، عضو المجلس آنذاك ورئيس الجمهورية الحالى ، تقديم إحدى جزر الخليج الثلاث التى ضمها الشاه إلى إيران (طمب الكبرى والصغرى وأبو موسى) إلى الفلسطينيين ، بحيث يتولون إدارتها ويحصلون على عائد نفطها ، يستثمرونه لصالح استمرار مسيرتهم النضالية ، وبينما أيد الفقهاء الفكرة ، فقد عارضها ممثلو حركة تحرير إيران ، وعلى رأسهم المهندس مهدى بازركان . ورغم أن الاقتراح لم يقدر له أن يمر فى المجلس ، إلا أنه يعكس الروح التى كانت سائدة وقتذاك . فضلا عن أن ذلك لم يحل دون أن تجرى مياه كثيرة فى النهر ، وتنفتح الأبواب لآمال عراض لا حدود لمداها ولا لأشواقها .

قراءة فى « سِفْر الفتور »

فى شتاء طهران ٨٥ كان المناخ مختلفا . كان الجليد يغطى وجه المدينة حقا ، لكنه أيضا كان أصدق تعبير عن المرحلة التى تمر بها العلاقات الإيرانية الفلسطينية مرحلة الانفصال عن الحلم والإرتطام بالحقيقة . . ثمة تفاصيل بغير حصر ، تتعذر الإحاطة بها ، لكننا نستطيع أن نستشف الكثير من واقعتين أو مشهدين اثنين حدثا فى تلك الفترة :

■ الواقعة الأولى : حدثت فى أواخر عام ١٩٨٠ ، حينما نقل هانى الحسن من طهران ، وعاد إلى موقعه مستشاراً سياسيا لياسر عرفات . ذلك أن مشهد خروج هانى الحسن من مطار « مهراباد » لم يكن يخطر على بال أحد ممن عاشوا الأشهر الأولى من عام ٧٩ . كان آخر ما يمكن تصوره ، أن سفير فلسطين الذى لم يكن فى وداعه بالمطار سوى موظفى السفارة وعدد محدود من

الأصدقاء ، هو ذات الشخص الذى استيقظت طهران من النوم ذات ليل لتعدّ له ولصحبه وجبة العشاء .

لم يخرج هانى الحسن من طهران كما دخلها ، جاء إليها فارساً ملثماً على صهوة جواد أبيض ، مع كوكبة من المجاهدين الذين نسبوا إلى كتائب الفاتحين المسلمين الأوائل . وخرج منها « دبلوماسيا » أخفق فى مهمته فانسحب على متن طائرة بوينج ٧٠٧ أقلعت به إلى بيروت .

■ الواقعة الثانية : حدثت فى صيف عام ٨٥ ، حينما طلب السيد صلاح الزواوى سفير فلسطين فى طهران مقابلة حجة الاسلام هاشمى رفسنجانى رئيس مجلس الشورى وأحد أركان الثورة والنظام ، ليسلمه رسالة من ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير ، فطلب الرجل منه أن يبعث إليه بالرسالة معتذراً عن اللقاء ، ولكن السفير الفلسطينى أصر على اللقاء ورفض أن يسلم الرسالة إلى مكتب الشيخ رفسنجانى !

ورئيس مجلس الشورى هو الذى تردّد شهرا قبل أن يلتقى بالسفير الفلسطينى فى ديسمبر ١٩٨٤ ، وهو الذى سمعته آنذاك يقول : إن قضية فلسطين هى جزء من شرعية الثورة الايرانية .

ليست سهلة قراءة « سفر الفتور » فى الملفّ الفلسطينى بطهران ، فثمة تفاصيل وجزئيات تملأ مجلدات . وخلاصة ما يستطيع المرء أن ينتهى إليه من مجمل المناقشات المتشعبة والمطولة أن ثمة خطأً فى الفهم من البداية ، رتّب أخطاء فى الممارسات ، تداعت وتكاثرت حتى كان الذى كان !

لقد ظن الإيرانيون أن الورقة الفلسطينية فى جيبهم . بينما كان الفلسطينيون على يقين من أن الورقة الإيرانية فى جيبهم . ولما تصرف كل منهما على ذلك الأساس ، ثم تبين أنه كان مبالغاً فى ظنه ، صدم ، وأصيب باحباط بالغ !

لقد تعاملا بالمطلق فى السياسة ، ونسيا فى غمرة الاندفاع والحماس أن قوانين اللعبة كلها نسبية ! ذلك أنه عندما وصلت الأمور إلى نقطة المحك ، برزت الحسابات والتوازنات ، وأخلت بالمطلق المفترض . وعندئذ أفاق كل طرف على

الحقيقة التى غابت عنه واحتاج الأمر إلى بعض الوقت لكى تزول الدهشة ، ولا أقول السكرة .

تلك صفحة متأخرة فى باب « الخلاصة » ، لا نستطيع أن نستوعب سطورها قبل أن نعود إلى الصفحات الأولى ، بما فى ذلك تلك التى طويت أو نسيت ، رغم أن شهودها أحياء لا يزالون . أعنى أن رصد تطور العلاقات الايرانية الفلسطينية من البداية يشكل مفتاحاً مهّماً وجوهريا فى فهم الحلقات التالية من المسيرة .

شهادة الشهود هى مصدرنا الوحيد ، فذلك تاريخ لم يكتب ، فضلاً عن أن مرحلة الإبتداء هى ممّا طويت صفحته حتى كادت تنسى سطوره ومعالمه .

يقول الشهود إن العلاقات الإيرانية الفلسطينية بدأت تتبلور فى أعقاب هزيمة ٦٧ وأن جماعات اليسار والليبراليين الإيرانية كانت الأسبق إلى الإتصال بالفلسطينيين ، عبر قوى اليسار الفلسطينى ذات الحضور الملموس داخل منظمة التحرير . فى عام ٦٨ على وجه التحديد بدأ اليسار الإيرانى علاقته بالفلسطينيين فى الأردن ، وكان الهدف منها هو الإفادة من الإمكانيات الفلسطينية فى تدريب الإيرانيين عسكريا واستثمار القنوات الفلسطينية فى بيروت لصالح الحملة الدعائية ضد نظام الشاه . غير أنه بسبب محدودية حجم اليسار الإيرانى فى الخارج ، فقد ظلت تلك العلاقة مع الفلسطينيين محدودة الأثر وضيقة النطاق .

فى الوقت ذاته ، فى عام ١٩٦٨ نشرت مجلة « فتح » مقابلة مع « سماحة الإمام الأكبر ، آية الله العظمى ، مفتى الديار الايرانية ، الإمام السيد الخمينى » ـ حسب التعبير الذى استخدمته المجلة ـ فتوى أعلن فيها تأييده الكفاح الفلسطينى المسلح ، وأجاز صرف الزكوات والتبرعات والصدقات لدعم الفدائيين[1] .

كانت المقابلة تضم ثلاثة أسئلة هى :

ـ ما هو رأيكم فى إعطاء الحقوق الشرعية كالزكاة وحق الامام ، إلى المجاهدين المرابطين فى خطوط المواجهة والشرف والعاملين تحت قيادة حركة فتح ؟ افتونا مأجورين .

---

(١) دروس فى الجهاد والرفض ـ ٣٧٢ للامام الخمينى ـ ص ١٢٥

ـ الجواب « بسم الله الرحمن الرحيم ـ من الراجح ، بل الواجب تخصيص قسم من الحقوق الشرعية من الزكاة وحق الإمام ـ بما فيه الكفاية ـ للمجاهدين فى سبيل الله ، المرابطين فى خطوط الشرف والمجد ، للقضاء على الصهيونية الكافرة اللاانسانية ، واستعادة المجد الإسلامى الجريح وتعزيز التاريخ الإسلامى المشرف . وعلى كل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر ، أن يبذل كل جهوده فى هذا السبيل . . واخواننا الفاتحون ، بإذن الله العلى القدير ، رجال حركة « فتح » ومقاتليها قوات العاصفة وسائر الفدائيين الأحرار ، هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله ، تجب مساندتهم ومساعدتهم بكل الطاقات والامكانيات والله ولى التوفيق » .

ـ سأله المندوب أيضاً : بعد اشتعال أوار الثورة المقدسة فى الأرض الفلسطينية وتقديمها العديد من المنجزات النضالية بطليعتها « فتح » فما هى انطباعات سماحتكم وتوجيهاتكم . للإخوة الصامدين فى خنادق الشرف ، فى أرضنا المحتلة ؟ .

ـ الجواب « بسم الله الرحمن الرحيم ـ التوجيه الأول والأخير ، لإخواننا الصامدين المواصلة دون انقطاع فى جهادهم ، فإن الحياة عقيدة وجهاد . ومما لا ريب فيه أن الفكر الإسلامى يقضى أن الشهادة خير من هذه الحياة المخزية ، فلا سبيل لنا إذ ذاك ، إلا مواصلة النضال بكافة الطاقات والإمكانيات ، لنكسب العز والشرف لأجيالنا القادمة » . (وأورد عدداً من الآيات الداعية إلى الحشد والإعداد ، والواعدة بالنصر) ثم قال : يا رجال فتح إلى نصر من الله « وفتح قريب وبشر المؤمنين » .

ـ وكان السؤال الثالث هو : بعد تغلغل الأصابع الصهيونية ، فى كافة المؤسسات الحيوية فى إيران المسلمة ، فما رأى سماحتكم فى أنجح السبل التى تشيرون بها على شعبنا المسلم هناك لقطع الأيدى الخفية الصهيونية فى إيران حتى يتسنى لإخوتنا تقديم كل إمكانياتهم للمقاتلين المجاهدين ؟ .

ـ الجواب « بسم الله الرحمن الرحيم ـ أنجح السبل ، أن يحاول الشعب الإيرانى المسلم بكل طاقاته ، قطع كل معاملة مع الصهاينة القاطنين وغيرهم فى إيران ، وأن يستأصلوا روحياً وماديا ، وأن يضيقوا عليهم ، كل مجالات الحياة فى إيران ، فيحاربوهم حرباً اقتصادية وفى شتى المجالات ، ولكى يضطروا إلى قطع

كل علاقاتهم بإيران وشعبها المسلم حتى يتسنى للشعب تقديم كافة الإمكانيات ، روحية ومادية للمجاهدين الأحرار . وهذه الظروف المريرة ، تملى على كل مسلم ، بذل جميع الطاقات لتحرير أراضينا المحتلة ، والانتقام من المحتلين والله ولى التوفيق .

ومما لا ريب فيه ، أن واجب الشعب الفلسطيني المسلم ، هو واجب كل مسلم فى أقاصى البلاد . فالمسلمون يد واحدة على من سواهم ، يسعى بذمتهم أدناهم ، فلا طائفية ، ولا عنصرية ، ولا أية ميزة بين الشعوب المسلمة ، إلا بتقوى الله . وإن أكرمكم عند الله أتقاكم والله حسبنا ونعم الوكيل » .

طلائع الإيرانيين فى بيروت

فى أعقاب تلك الفترة - عام ١٩٦٩ على وجه التحديد - ظهر الإسلاميون الإيرانيون فى بيروت وكان أبرز هؤلاء :

- الشيخ محمد منتظرى (ابن آية الله حسين منتظرى) الذى كانت له علاقات وثيقة مع التيارات الإسلامية فى منطقة الخليج ، وباكستان ، فضلا عن قاعدته الشبابية فى إيران ، والتى كانت تضم مجموعات نشيطة فى أصفهان حيث خرجت أسرته من إحدى مدنها (نجف آباد) وقد قتل الشيخ منتظرى فيما بعد فى أحد الانفجارات التى دبرت فى طهران بعد الثورة .
- الشيخ حسن كروبى ، وهو أحد الكوادر الإسلامية التى كانت نشيطة فى الاتصال مع مجموعات الداخل فى إيران ، وكانت له خبرة خاصة فى العمل التنظيمى السرى .
- السيد محمد صالح الحسينى ، وهو عراقى الأصل ، ولكنه تسلل خارج العراق فى أوائل الستينات وتنقل بين إيران ولبنان ، ثم استقر به المقام فى بيروت ، حيث كان له دوره البارز فى عمليات تسليح الايرانيين داخل إيران . وقد قتل فى بيروت بعد الثورة . « خصوصا بعد ما عرف أنه ضابط الاتصال الرئيسى بين الايرانيين والفلسطينيين » .
- جلال الدين الفارسى : الذى كانت مهمته أن يستقبل الشباب الإيرانى ويلحقهم بدورات عسكرية وتدريبية فى معسكرات فتح وكان نشاطه موزعاً بين دمشق وبيروت ، ثم استقر به المقام فى العاصمة اللبنانية . . وبعد الثورة لم

يوفق فى ترشيح نفسه للرئاسة ـ بعدما ثبت أن أباه كان أفغانى الجنسية ـ وانتخب عضواً فى مجلس الشورى .

- عباس زمانى ، المعروف باسم « أبو شريف » ، وهو أحد المثقفين الإيرانيين الغامضين . ظهر فى بيروت مع مجموعة من التكنوقراط . وانخرطوا مع المقاومة الفلسطينية ، وقاتلوا فى عدة مواقع خاصة فى الجبل وعين طورة . وبعد نجاح الثورة الإيرانية صار رئيسا لحرس الثورة ثم عين سفيرا فى باكستان ، وانتهى به المقام دارسا فى الحوزة العلمية بقم .

هؤلاء الخمسة كانوا فى طليعة الإسلاميين الإيرانيين الذين أقاموا علاقات وثيقة مع الفلسطينيين فى آخر الستينات وبداية السبعينات . وتراوحت أدوارهم بين الاشتراك فى القتال أو الأعمال التنظيمية أو عمليات التسليح . وكانت منطلقات لقائهم إسلامية فى الأساس،من حيث أنهم كانوا يقومون بمهامهم استشعارا لمسئوليتهم فى تحرير القدس التى كانت قد احتلت فى هزيمة ٦٧ ، وبينهم من كان يتبنى فكرة « العالمية الإسلامية » مثل الشهيدين محمد منتظرى ومحمد صالح الحسينى . وبالإضافة إلى ذلك المنطلق الإسلامى ، فقد كانوا يعتبرون أن ثمة علاقات نضالية تربطهم بالفلسطينيين ، باعتبار أن الطرفين التقيا على طريق واحد ، هو طريق الثورة . وكان واضحا فى الوقت ذاته أن تنامى تلك العلاقة يستثمر فى اتجاه تدريب الشباب الإيرانى على السلاح . ضمن مخططات الإعداد لمقاومة النظام الإيرانى ، الذى التقى الطرفان عليه أيضا .

فى خطٍ مواز لذلك فإن السيد موسى الصدر ، الذى كان يوصف بين شيعة لبنان مبكراً بالإمام ، لعب بعد ذلك دوراً هاماً فى وصل الليبراليين الإيرانيين خاصة ، بالثورة الفلسطينية . ولأن علاقاته كانت أوثق مع حركة إيران ، التى هى إمتداد لجماعة مصدق ، ولأن بعض شباب الحركة كان نشيطا فى أوروبا وألمانيا فى المقدمة ، فقد وفد هؤلاء إلى بيروت وسوريا وقدمهم السيد الصدر إلى الفلسطينيين . تمّ ذاك بين عامى ٧١ ، ١٩٧٢ ، وكان أبرز الإيرانيين الليبراليين الذين شاركوا فى تلك المرحلة ، إبراهيم يزدى وقطب زاده وصادق طباطبائى .

كانت الظروف مهيأة لإتمام هذا اللقاء ، فثمة مصالح مشتركة ، وثمة مصالح أخرى لكل طرف .

فالسيد الصدر كان يخطط آنذاك لإنشاء تنظيم شيعى فى الجنوب يقود حركة « المحرومين » كما أسماهم ، فاستعان فى بنائه ببعض الكوادر الإيرانية ، واقترب من حركة تحرير إيران ، واستدعى مصطفى شمران الذى صار وزيرا للدفاع ثم قتل بعد الثورة ـ ليقوم بمهمة شكلية هى إدارة المؤسسة المهنية فى جبل عامل بجنوب لبنان . وفى وجود هؤلاء ، وبعون ودعم منهم ، ظهرت حركة « أمل » فى الجنوب اللبنانى .

فى الوقت ذاته فإن المعارضة الإيرانية كانت حريصة على أن تقيم علاقة بالفلسطينيين ، وكما قال لى أحدهم ، فإن رجال جبهة تحرير إيران كانوا ينادون بأن اقترابهم من الفلسطينيين فى ظل أى صيغة للتحالف السياسى ، سوف يكسبهم شرعية أكثر لدى الجماهير الإيرانية ، وذلك يقوى مركزهم فى الشارع وفى مواجهة النظام الشاهنشاهى .

أيضا فإن قوى الثورة الفلسطينية كانت مهتمة بالاتصال بالمعارضة الإيرانية بمختلف اتجاهاتها للضغط على الشاه الذى كان واضح الدعم لإسرائيل . وكانت تلك إحدى مهام ممثلى منظمة التحرير الفلسطينية فى أوروبا . ومن الأسماء الفلسطينية التى كان لها دور فى تلك المرحلة ، عز الدين خلف ممثل المنظمة فى باريس ـ الذى قتل لاحقا ـ والهمشرى .

يضيف شهود تلك المرحلة أن أول لقاء لياسر عرفات مع تجمع إسلامى إيرانى تمّ فى عام ١٩٧٦ فى أعقاب وفاة الدكتور على شريعتى ، الذى مات فى لندن بعد خروجه من سجن الشاه فى أعقاب وساطة جزائرية ، وهو الذى ارتبط بالثورة الجزائرية منذ أن كان يدرس الفلسفة فى باريس ، وقيل وقتئذ إنه مات مسموما بواسطة عملاء الساواك فى إنجلترا وقتئذ . حمل جثمان الدكتور على شريعتى من لندن ودفن فى دمشق إلى جوار مرقد السيدة زينب . واقترح الإسلاميون الإيرانيون فى بيروت ـ الشهيد محمد منتظرى تحديداً ـ على السيد موسى الصدر أن يقيم حفلاً لتأبينه فى ذكرى الأربعين ، وبالفعل أقيم الحفل فى مقر الكلية العاملية فى بيروت ، التى أسهم الشاه فى بنائها ، وكانت صورته تتصدر قاعة الاحتفال حينذاك ، فى تلك المناسبة التقى عرفات لأول مرة مع وجوه الإسلاميين الإيرانيين ، وتعرّف على منتظرى والفارسى وأبو شريف ومصطفى

شمران ، وألقى خطاباً فى الحفل الذى كان من خطبائه أيضاً السيد موسى الصدر والمناضل الإسلامى الفلسطينى منير شفيق مدير مركز التخطيط بمنظمة التحرير الآن .

الضباب الذى حجب الرؤية الصحيحة

فى العام الذى يليه ، خريف ١٩٧٧ ، مات مصطفى الخمينى الابن الأكبر لآية الله الخمينى ، وكانت الشواهد تشير إلى أن السافاك هى التى قتلته ، إرهاباً لأبيه وانتقاماً منه ، بعدما تعالى صوته المعارض للشاه فى النجف الأشرف . فاقترح بعض الشيعة اللبنانيين الذين كانوا على صلة وثيقة بالطرفين ، على ياسر عرفات أن يرسل إلى آية الله الخمينى برقية عزاء فى استشهاد ابنه ، وأرسلت البرقية بالفعل إلى الإمام فى النجف ، وكان ذاك أول اتصال مجاملة بين ياسر عرفات والإمام الخمينى .

فى ذلك الوقت رد الإمام الخمينى ببرقية بتاريخ ٢٣ ذى القعدة سنة ١٣٩٧ هـ وجهها إلى « حضرة المجاهد السيد ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية المحترم » وقال فيها إن ما حل بنا يهون إزاء ما يعانيه الإسلام والمسلمون ، وإننى بعد ما شهدت كل تلك الكوارث (التى ارتكبتها عائلة بهلوى) لابد أن تهون لدى المصائب ، وبعد أن شن هجومًا عنيفاً على الشاه وممارسات حكومته قال إن « القضية الفلسطينية كانت شاغلى الأساسى منذ كنت فى إيران ، وما زالت تشغلنى فى المنفى ، انطلاقا من كونها جزءاً مما تعانيه الأمة الإسلامية » .

وختم الرسالة بقوله « أملنا فى الله أن نشهد على أيديكم تطهير القدس والمسجد الأقصى من رجس الصهاينة ، وعودة الشعب الفلسطينى المسلم إلى أرضه فلسطين »(٢) .

فى تلك المرحلة كانت الثورة الإيرانية جنيناً فى بطن الغيب ، وكان الفلسطينيون يتعاملون مع مختلف فصائل الإيرانيين الذين وفدوا على بيروت

(٢) مجلة الشهيد الصادرة فى طهران بالعربية - عدد ١٤٦ بتاريخ ٨٥/٦/١٢

ودمشق باعتبارهم جميعا معارضين للشاه . ولم يكن الإسلاميون يستوقفون أحداً ، ولا كانوا يلفتون الانتباه . بل إن التعاون الفلسطيني مع المعارضين الإيرانيين كان أوضح وأكثر حرارة مع الليبراليين وجماعات اليسار .

وربما لا نجاوز الحقيقة إذا قلنا إن الرأى العام بين القوى الوطنية فى المنطقة العربية ككل ، وليس الدوائر الفلسطينية وحدها كان يهوّن كثيراً من شأن التيار الإسلامى ، بل كان يصنفه دائماً خارج مربع الثورة ، وضمن القوى « الرجعية » حتى بات هذا الانطباع من المسلّمات الثابتة والمستقرة . كانت أوصاف « الوطنية » و « التقدم » حكرا على اليسار ، ومحرّمة على الإسلاميين .

وحتى منتصف عام ١٩٧٨ حينما بدأت الأرض تتزلزل تحت عرش الشاه فى إيران ، لم تكن القيادة الفلسطينية على وعى كاف بخريطة القوى السياسية المناهضة للشاه فى تلك الفترة ، منتصف ٧٨ ، دعا ياسر عرفات إلى اجتماع لمواجهة الموقف والتحرك السريع ، حضره عدد من مستشاريه ومعهم محمد صالح الحسينى الذى كان ضابط الاتصال مع الاسلاميين الايرانيين وبعض الايرانيين من رموز التيار الاسلامى الموجودين فى بيروت . كانت الأحداث قد كشفت عن دور بارز للفقهاء فى تحريك الجماهير وتحريضهم على المقاومة . لكن الصورة لم تكن واضحة فى بيروت ، إذ لم يكن معروفاً ـ من ـ من الفقهاء يقود تلك الثورة .

يقول الشهود أن الشهيد محمد صالح الحسينى اقترح على « أبو عمار » أن يخاطب آية الله الخمينى فى مقره بالنجف ، قائلين أن خيوط الموقف بيده . ولكنه فضل ، أخذاً بالأحوط وسط الضباب الذى كان سائداً آنذاك وإزاء التقارير الغربية المتفاوتة فى تقدير الموقف ، أن يبعث برسائل تضامن وتأييد إلى كل المراجع الدينية فى قم أيضا . وكلف بعض الأشخاص من إيرانيين وفلسطينيين بحمل الرسائل . وكان آية الله الخمينى من جملة المراجع الذين تلقوا تلك الرسائل .

كان السيد هانى فحص ، وهو أحد مثقفى الشيعة البارزين فى جنوب لبنان ، وقد عمل إماماً لمسجد قرية « جبشيت » ، وهو مقيم بطهران حالياً ، هو مبعوث عرفات إلى آية الله الخمينى ، وهو حامل أول رسالة عمل من القائد الفلسطينى إلى المرجع الإيرانى فى النجف .

نشر نص الحوار لاحقاً ضمن كتاب « دروس فى الجهاد والرفض » (ص ٢١٨ - ٢٢٠) وفيه قال الإمام للسيد هانى فحص ، بعد ما تسلم منه رسالة أبو عمار :

« أننى أشكر السيد ياسر عرفات على هذه العاطفة الكريمة وأقدر مواقفه البطولية . وآمل أن يستمر فى سعيه لتسوية الصفوف ، ملفتاً إلى أن العرب بإمكانياتهم الكبيرة قادرون على أن يحققوا أهدافهم فى ظل وحدة الكلمة . ومن المؤسف أن تستمر النزاعات التى أسسها المستعمر بينهم وكانت مأساة فلسطين إحدى نتائجها . إنى ابتهل إلى الله أن ينبه الحكام العرب والمسلمين إلى واقعهم ويمكنهم من إدراك مصالح شعوبهم ومن اقتلاع هذه الجرثومة السرطانية من ديارهم وبلادهم . . وإذا ما اتحدوا فإن الأعداء وزبانيتهم لن يقدروا على مواجهتهم طالما أنهم مستمسكون بالحق ، وأمتهم سند قوى لهم . . بلغوا السيد ياسر عرفات بأنى أنظر بالتقدير الكبير إلى جهوده ومساعيه وأتمنى عليه أن يضاعف من هذه الجهود لتوحيد الكلمة حتى يتمكن الجميع من إنجاز المهمات الكبرى .

عندئذ عقب السيد هانى فحص قائلا : يا سماحة الإمام إن الأخ ياسر عرفات وإخوانه فى قيادة الثورة الفلسطينية يدركون تماماً أن تحرير فلسطين هو مهمة القوى العربية مجتمعة ومن خلفها كل الأحرار والشرفاء فى العالم ، ومع يقينهم بأن الثورة الفلسطينية هى الطليعة فإن قناعتهم أن وحدة الكلمة والجهد العربى هما الضمانة على طريق التحرير . ومن هنا سعيهم الدائم لتوحيد الكلمة ، ولتوحيد الجهد وإبقاء الاتفاق على مواجهة العدو الرئيسى فوق الخلافات .

رد الإمام فى النص المنشور : إننى أبدى تخوفى ، لأن المستعمرين يبذلون جهودهم لمنع حصول الاتفاق الجدى ، فعلى الأخوة الذين يسعون إلى ذلك أن يأخذوا بعين الاعتبار أن الأيدى العميلة لا تزال وستبقى تعمل على التخريب والتفريق . . إن أعداءنا يريدون أن تقع المنطقة فى أيديهم أسيرة بكاملها ، لتبقى ذليلة خاضعة فيتمكنوا من نهب ثرواتها ، والوحدة تهدد مصالحهم . ولذا يجب أن نبقى يقظين من مؤامرة تعيد الفرقة من جديد ، إنهم يعملون بالخفاء والعلن ، ولن يقفوا مكتوفى الأيدى . ونحن هنا فى المنطقة نملك كل المقدرات التى تمكننا من الوصول إلى حقنا وكرامتنا . . لقد كادت الدول الاستعمارية فى أوروبا وأمريكا

تركع عندما أوقفت الدول العربية ضخ النفط لمدة قصيرة . . أليس هذا دليلا على أننا قادرون ؟ لماذا لا تكون نتائج كفاحنا بنفس المستوى الذى نخوض فيه هذا الكفاح ونفس مستوى القدرات التى نملكها ؟ . . إنهم بمكرهم يعرفون كيف يتصرفون ، وكثيرا ما يعتمدون على الشخصيات المشبوهة والأيدى الخفية .

إننى أبتهل إلى الله أن يفتح عيون الجميع على الخطر ، وأن يوحّد كلمة العرب والمسلمين حتى يحققوا استقلالهم وحريتهم ، ونسأله تعالى لهم التأييد والنصر » .

وللإنصاف ، فإن الدور الحقيقى للخمينى كان غائباً عن كثيرين ، وليس عن الفلسطينيين وحدهم . يذكر سبهر ذبيح الأستاذ بجامعة كاليفورنيا فى مؤلفه « إيران منذ الثورة » أن أكثر « الخبراء » الغربيين والأمريكيين كانوا يظنون أن قيادة الجبهة الوطنية (كريم سنجابى ـ بازركان ـ د . غلام الحسين صادقى) هى القوة الحقيقية المسيطرة على تيارات المعارضة ، بل إنه يذكر أيضا أن هؤلاء أنفسهم كانوا على ثقة من تفردهم بقيادة الحركة الوطنية ، فضلا عن أن بعضا من آيات الله الآخرين فى قم ، لم يكونوا يتصورون أن الخمينى هو الذى سيقود الثورة فى النهاية ، من هؤلاء ـ يذكر الباحث الأمريكى ـ شريعتمدارى وشيرازى وهو يضيف أيضاً أنه بعد عودة الخمينى إلى إيران ، وإقامة الجمهورية الإسلامية ، بدأ الخبراء الغربيون والأمريكيون يراجعون كتاباته ويراقبون تحركاته السياسية بدقة (ص ٩) .

□

عيون المخيمات على إنتفاضة طهران

« اتصال العمل » الثانى بين أبوعمار والإمام ، كان فى العام ذاته ١٩٧٨ وبمناسبة اعتزام إسرائيل نقل عاصمتها من تل أبيب إلى القدس . وقتئذ قام ياسر عرفات باتصالات واسعة النطاق على أوسع دائرة من الزعماء السياسيين فى محاولة للضغط من أجل إيقاف هذه الخطوة . وكان مراجع الشيعة البارزون ، مثل الخوئى وشريعتمدارى والخمينى من بين الذين تلقوا تلك الرسائل . وقتئذ تلقى أبوعمار رداً من الإمام الخمينى يعبّر عن التضامن والتأييد للموقف الفلسطينى .

في ذلك الوقت ـ النصف الثانى من عام ٧٨ ـ وصل إلى بيروت قادما من النجف حجة الإسلام محتشمى تلميذ الإمام ـ ووزير الداخلية اللاحق ـ مع آخرين لدراسة إمكانية انتقال الإمام من النجف إلى لبنان أو سوريا . وكان قرار إبعاده عن العراق قد أبلغ إليه فيما يبدو ، وظل تلاميذه ورجاله يبحثون عن وجهة تالية له . وفى بيروت توجه الشيخ محتشمى إلى بيت محمد صالح الحسينى وناقش الموضوع معه ، وكان اقتراح الحسينى أن يقوم الفلسطينيون بدور فى ايواء الخمينى . . لكن الرجل ما كاد يبدأ اتصالاته بالعاصمة اللبنانية حتى جاءته رسالة من النجف تطلب منه صرف النظر عن الموضوع ، وتبلغه بأن الإمام توجه إلى الكويت (التى لم تسمح له بالدخول) ، وتدعوه إلى اللحاق به .

خلال العام ذاته كان السيد موسى الصدر قد اختفى بعد رحلته الغامضة إلى ليبيا ، الأمر الذى أحدث ردود أفعال سلبية عديدة فى أوساط الشيعة ، وبالأخص شيعة لبنان . فبعث الإمام برسالة إلى أبو عمار تدعوه لبذل جهوده لمحاولة العثور على السيد الصدر . لكن نتائج هذه المهمة لم تعرف بعد ، ولا تزال أسرار القصة كلها طى الكتمان حتى كتابة هذه السطور (يوليو ـ أغسطس ١٩٨٦) .

مع أواخر عام ١٩٧٨ ، كان الإمام قد استقر فى ضاحية « لونوفيل شاتو » ، التى أطلق اسمها فيما بعد على ضاحية جديدة لبلدة « قم » ظهرت على توسعات ما بعد الثورة .

وبينما كان الإمام يحرك الثورة فى إيران من مقره بفرنسا ، ظلت خطوط الإتصال مع مختلف القيادات السياسية مستمرة وكان الفلسطينيون ضمن تلك القوى .

كان قد استبان للقيادة الفلسطينية أن الإمام الخمينى هو قائد الثورة ، ولكن تلك القيادة لم تكن على ثقة من أن الإمام هو رجل المستقبل فى إيران . وربما فسر ذلك بأمرين :

ـ الأول أن القيادة الفلسطينية ظلت حتى عودة الامام إلى طهران ، غير مدركة لحجم التيار الاسلامى فى الثورة الايرانية . يستوى فى ذلك أنها لم تكن قادرة على أن ترى معالم الصورة بالقدر الكافى من الوضوح ، أو أنها لم تكن مهيأة لقبول فكرة أداء الاسلاميين لدور ثورى فى ظل المناخ الفكرى الذى كان سائدا آنذاك ، كما قلنا سابقا .

ـ والثانى أن رجال الامام كانوا فى ذلك الحين خليطا من مختلف الاتجاهات . كان هناك الاسلاميون بطبيعة الحال ، ولكن كان إلى جوارهم أيضا بعض الرموز الليبرالية والوطنية الأخرى (بازركان ـ سنجابى ـ بنى صدر ـ يزدى ـ قطب زاده) ولم يكن اليسار الايرانى بعيدا تماما عن تلك الدائرة . فحزب تودة الماركسى كان فى مقدمة المؤيدين المتحمسين للثورة . . ناهيك عن مجاهدى خلق وفدائيى الشعب .

فى باريس شكل الامام مجموعة عمل تتولى إدارة الاتصال مع الفلسطينيين ، كانت تضم كلًا من السيد هانى فحص ، والسيد محمد صالح الحسينى وجلال الدين الفارسى . ولم تكن للاتصالات الفلسطينية الايرانية أهمية كبرى فى تلك المرحلة ، التى كان كل تركيز الامام ورجاله فيها على إدارة الصراع فى طهران . ومع ذلك ظل « الخط مفتوحا » . فتلقى الامام رسالة من أبو جهاد عضو اللجنة المركزية لفتح ، وقدم أبو اللطف إلى باريس واجتمع بالامام فى مقره . ونقلت أكثر من رسالة شفوية أخرى من أبو عمار إلى الامام . . وهكذا .

وكان مما لفت نظر رجال الامام آنذاك أن الأميرة دينا عبد الحميد طلبت مقابلة الإمام ، وكانت قد تزوجت المناضل الفلسطينى صلاح التعمرى . ولكى تقدم نفسها إلى الإمام ، فإنها بعثت إلى مكتبه بجواز سفرها الملكى الأحمر الذى تحمله فيما يبدو منذ كانت زوجة للملك حسين . وقد اعتذر الإمام عن لقائها لهذا السبب .

لم يظهر أبو عمار بشخصه فى الصورة وقتئذ . ولكن شهود تلك المرحلة يقولون إنه كان يتابع الموقف دقيقة بدقيقة . ونقل عنه أنه فى إحدى لحظات الانفعال ، قال لأحد مساعديه وهو يشير إلى صورة للامام الخمينى : يبدو أن الأقدار تصر على أن يتم تحرير القدس بأيد غير عربية . وكان بذلك يشير إلى أن صلاح الدين الذى حرر القدس من أيدى الصليبيين ، هو مسلم كردى وليس عربيا ، وإلى الإيحاءات التى تحمله على الظن بأن تحرير القدس من الاحتلال الاسرائيلى يمكن أن يتم على أيدى الإمام الخمينى .

لم يكن أبو عمار وحده هو الذى يرقب الموقف فى طهران دقيقة بدقيقة ،

ولكن المخيمات الفلسطينية فى لبنان وسوريا كانت قد حبست أنفساها طيلة الأيام الأولى من شهر فبراير عام ٧٩ ، وهى تتابع ما يجرى فى العاصمة الايرانية . كان القلق عظيما والأمل عظيما والانفعال فى ذروته .

وليلة انتصار الثورة فى طهران انفجر مخزون المشاعر المكبوتة ، واستشعر الفلسطينيون أنهم باتوا على أبواب النصر ، فاجتاحت المخيمات موجة كاسحة من الفرحة الغامرة ، وتوالى إطلاق الرصاص فى الهواء تعبيرا عن عودة البسمة إلى الشفاه الفلسطينية بعدما احتجبت ثلاثين عاما . تعطلت مسيرة الحزن الفلسطينى فى تلك الليلة . وخشى القائد الفلسطينى أبو الوليد (سعد صايل) أن ينفلت العيار ، فأمر بوقف إطلاق النار فى المخيمات . وبلغ ذلك أبو عمار ، فاتصل به هاتفيا وقال بصوت يتهدج من الفرحة والبهجة والانفعال : هذه أول مرة تصدر أمراً خاطئا . اتركهم يطلقون الرصاص ولا تحبس فرحتهم .

وبينما كان أبو عمار يخاطب أبو الوليد من بيروت دخل عليه مساعدوه بكعكة كبيرة (تورتة) كتبت عليها : عُقبال القدس !

فى تلك الليلة كان أبو عمار ساهرا فى غرفة العمليات بمقر القيادة فى بيروت ، وكانت تشغله ثلاثة أمور : أن يجرى اتصالا بطهران ليرتب وصوله إليها فى أقرب وقت (كان مطار طهران مغلقا) ، وأن يوصل إلى قيادة الثورة الايرانية معلومات هامة تلقاها عن نشاط الموساد فى العاصمة الايرانية (مسئول الموساد فى طهران وقتئذ كان اسمه أورى لوبرانى وهو الذى عين مسئول مكتب الاتصال فى بيروت بعد اتفاق بين اللبنانيين والاسرائيليين فى ١٧ آيار/مايو !) . . وكان الشاغل الثالث للقائد الفلسطينى هو تشكيل فريق عمل على مستوى رفيع يدير العلاقات الفلسطينية الايرانية بعد نجاح الثورة .

أجرى أبو عمار اتصاله بالعاصمة الايرانية فى مساء ليلة الانتصار ، فرد عليه من مكتب الامام ، صادق قطب زاده . وعندما قال له ياسر عرفات إنه راغب فى القدوم إلى طهران ، جاءت إجابة قطب زاده مفاجئة ومحبطة له . إذ كانت خلاصة ما قاله : إن الوقت غير مناسب لاتمام الزيارة ولا داعى للتعجيل بالقدوم !

لم ييأس أبو عمار ، فأجرى بعد قليل اتصالا ثانيا بطهران ، وكان الذى رد من مكتب الامام فى تلك المرة هو الشيخ محمد منتظرى ، الذى لم ينتظر حتى يكمل أبو عمار كلامه ، فقاطعه قائلا : احضر حالا ، نحن فى انتظارك !

لم يكن هناك وقت للتحليل والمقارنة . وإن شاءت الأقدار أن تكشف الصدفة فى تلك اللحظات الأولى لانتصار الثورة ، عن التفاوت الملحوظ فى موقف كل من الفريقين تجاه الفلسطينيين ، سواء الليبراليون الذين كان قطب زاده أحدهم (وقد ظل تحجيم العلاقات الايرانية الفلسطينية أحد محاور سياسة هذا الفريق طوال فترة اشتراكه فى السلطة) أو الاسلاميون الذين كان الشيخ منتظرى فى مقدمتهم .

لم يصبر أبو عمار حتى الصباح ، فخرج من مقر القيادة فى بيروت ، وقاد سيارته بنفسه متوجها إلى دمشق . غير أن مطار طهران ظل مغلقا ، وظل بعض الأطراف هناك يعرقلون وصوله يوما بعد يوم . فى حين كان هو فى دمشق متأهبا للسفر مع وفد من أركان القيادة الفلسطينية . وكانت الطائرة الخاصة للرئيس حافظ الأسد جاهزة لنقل الجميع من مطار دمشق ، وحين قدر للرحلة أن تتم ، ودخلت الطائرة السورية المجال الجوى الايرانى ، فوجئت بأربع طائرات فانتوم إيرانية تلاحقها وتسأل عن هوية القادمين وطبيعة مهمتهم . عاش الوفد الفلسطينى لحظات عصيبة وحرجة . إذ كانت كل الاحتمالات ممكنة خلالها . ولم تتبدد سحابة القلق عندما نقلت إلى مطار طهران رسالة تقول بأن وفدا فلسطينيا رفيع المستوى على متن الطائرة . ألح مطار طهران على معرفة أسماء الوفد ، فتلقى اصرارا على رفض إعطاء الأسماء والاكتفاء بعبارة « رفيع المستوى » . وحين اتضح الموقف ، أدت طائرات الفانتوم التحية للطائرة السورية والوفد الفلسطينى ، ومضت إلى حال سبيلها .

هبطت الطائرة إلى أرض مطار طهران يوم ١٨ فبراير ٧٩ ، بعد أسبوع من وصول الامام ، حيث كان ينتظرها عرس لم تألفه القيادة الفلسطينية ، ولم تحلم به . وكان عرس المطار مقدمة لمسلسل من الأعراس التى كانت تعبيرا جياشا

وهائلا عن عمق التلاحم بين الضمير الايرانى المسلم وبين الثورة الفلسطينية ، بكل ما ترمز إليه ، إسلاميا ونضاليا .

كان ياسر عرفات هو أول جسر عربي له وزن امتد إلى طهران . وكان هو أول قيادة عربية التقت بالامام الخمينى ، وقد شاءت الأقدار أن يكون أيضا آخر زعامة عربية أتيح لها أن تجرى مثل ذلك الاتصال المباشر ، إذ لم يلتق الامام بزعيم عربى بعد ذلك ، واعتذر عن قبول اقتراح طريف نقل إليه عن العقيد معمر القذافى ، الذى طلب أن يقابل الامام ليجرى حوارا فكريا وفقهيا معه !

وبينما كانت العواصم العربية تتابع ما يجرى فى طهران بمشاعر مختلفة ، وربما متناقضة ، فإن الشيخ زايد بن سلطان رئيس دولة الامارات ، بادر بإرسال طائرته الخاصة إلى طهران ، وعليها ربحى عوض ممثل منظمة التحرير بالامارات ، لتحمل أبو عمار إلى أبو ظبى ، لكى ينقل إلى الشيخ زايد انطباعاته ورؤيته للوضع الجديد فى إيران .

مرت الأفراح على أفضل ما تكون ، وكان هناك عناق ودموع ، وسيل من الأحلام الوردية امتد بعرض الأفق المنظور ، وبطول المسافة بين طهران والقدس . وتسلم الفلسطينيون السفارة الاسرائيلية . وأعلن أبو عمار تعيين مستشاره ومساعده هانى الحسن سفيرا لدى الثورة الاسلامية ، ثم استقل طائرة الشيخ زايد وغادر سماء طهران .

ذهبت السكرة وجاءت الفكرة

لم يمض وقت طويل حتى بدأت المسافة تتضح بين الأحلام والحقائق ، سواء فيما يتعلق بالأشخاص أو بالمواقف . وكان أول ما اهتز هو تلك الصورة التى رسمها الايرانيون فى أخيلتهم للفارس الفلسطينى الملثم ، الذى يخترق الأهوال بجواده الأبيض وسيفه اللامع ، والذى هو نسل فريد من سلالة المجاهدين المسلمين الأوائل ، وثمرة تزاوج الايمان مع البطولة والورع .

لم يتصور شباب حرس الثورة الايرانى فى البداية أنه يمكن أن يذهبوا إلى مخادع أولئك الفرسان المجاهدين ليوقظوهم من أجل صلاة الفجر فيرفضون

بغضب ، ثم يغطون فى النوم حتى طلوع الشمس والضحى ! ولا دار بخيال تلك النماذج المسلمة الغضة أنه يمكن أن يشاهدوا مجاهدا فلسطينيا يحتسى كأسا من « البيرة » أو يسهر مع رفاقه«المجاهدين». يلعبون الورق حتى منتصف الليل !

كانت تلك الصور المتوالية بمثابة صدمات هائلة للشباب الايرانى الذى كان يحرسهم ، وكان هؤلاء ينقلون ما يرون إلى غيرهم وقياداتهم . وفى مرحلة كانت كل العيون تلاحقهم وترقبهم ، كانت تلك المعلومات تنتشر فى طهران بسرعة فائقة . وكان طبيعيا أن تجد من يستثمرها ويبالغ فيها ، وينسج من حولها الكثير من الأكاذيب والافتراءات .

ودون دخول فى التفاصيل وهى بغير حصر ، ودون الاساءة إلى أحد بذاته فإن القدر المتفق عليه هو أن الواجهة الفلسطينية التى استقرت فى طهران مع بداية الثورة ، لم تكن أفضل جسر أقيم للتعامل مع الثورة الاسلامية الوليدة ، ناهيك عن أنها جاءت محبطة ومجهضة للصورة التى استقرت فى أذهان الايرانيين عن المجاهدين الفلسطينيين ، التى هى مبالغ فيها من الأساس .

أيضا فإن مما هو متفق عليه أن هناك من تعمد الاساءة إلى الفلسطينيين وتشويه سمعتهم ، حتى تجاوز الأمر الحدود السلوكية والأخلاقية إلى ميدان تهريب الأموال والثروات ، غير أنه ما كان لهذه الأقاويل أن تروج لو أن الواجهة الفلسطينية آنذاك كانت أكثر وعيا بالتوجه الاسلامى للثورة ، وبدقة الظروف التى كانت تمر بها فى ذلك الحين .

ويبدو أن عدم استيعاب الطرف الفلسطينى لحجم وطبيعة التوجه الاسلامى للثورة قد بات نقطة ضعف أساسية فى الموقف الفلسطينى ، منذ لاحت بوادر الثورة ، وحتى بعد انتصارها .

وليس سرا أن مناقشات إيرانية فلسطينية مطولة قد جرت متصلة بهذا الموضوع ، إذ أن البعد الاسلامى فى تعامل الايرانيين مع القضية الفلسطينية ظل يدفعهم إلى الالحاح على الفلسطينيين لكى يعلنوها ثورة إسلامية ، ويتحركوا من منطلق جهادى عقائدى .

لم تطرح القضية بهذه الصيغة قبل الثورة ، إذ لم تكن هناك علاقة حوار بين القيادتين الفلسطينية والايرانية لسبب أو آخر ، وإنما جرت المناقشة الجادة مع الفلسطينيين حول هذا الموضوع بعد نجاح الثورة .

هنا يذكر الشهود أن أهم مناقشة بهذا الصدد جرت فى بيت آية الله منتظرى فى قم ، فى العام الأول للثورة ، وكان من حضورها حجة الاسلام هاشمى رفسنجانى وآخرون من القادة الايرانيين . وكان الطرف الآخر فى الحوار هو ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير . فى هذا الاجتماع ، الذى استمر ساعتين ونصف الساعة ، ظل أبو عمار يشرح للفقهاء الايرانيين الأسباب التى تحول دون أسلمة الثورة الفلسطينية ، وكان مما احتج به فى هذا الصدد ثلاثة أمور : الواقع الفلسطينى بمنظماته اليسارية والعلمانية ودور الفلسطينيين المسيحيين فى الثورة - والواقع العربى الذى له بعض التحفظات على ذلك الطرح ، وهى تحفظات صادرة عن أنظمة لا تستطيع الثورة الفلسطينية أن تتجاهلها - ثم تعقيدات الواقع الدولى التى قد تجد فى هذه الخطوة ذريعة إضافية لمزيد من التعنت فى رفض الحق الفلسطينى .

وإذا جاز لنا أن نغامر بصياغة العلاقة بين الثورتين الايرانية والفلسطينية ، فقد نقول : إنه فى ظل عدم توافر فرص الحوار قبل نجاح الثورة ، وفى غمار الأحداث التى تلاحقت بعد الانتصار ، فإن أحدا لم يتنبه إلى أن الطرفين يتعاملان من منطلقين مختلفين . كانت القيادة الايرانية متمثلة فى الامام الخمينى ورجاله ، تتعامل مع الفلسطينيين من منطلق إسلامى أولا ، ثم ثورى ثانيا . وكان الفلسطينيون يتعاملون مع الايرانيين ، منذ البداية ، من منطلق ثورى أولا ، وسياسى ثانيا . كانت الثورة هى نقطة الالتقاء والاتفاق ، أما البعد الاسلامى أو حسابات المعادلة السياسية ، فقد ظلت كل منهما مساحة غائمة ، لا هى محل اتفاق ولا موضع خلاف . كان الوقت مبكرا لتحديد القسمات فى كل تلك المجالات ، وكانت الأحداث الجسام التى عاشتها الثورة منذ انتصارها عنصرا أدى إلى تأجيل حسم أمور كثيرة مما أطال من عمر تلك المساحة الغائمة فى العلاقات الايرانية الفلسطينية .

هل هى حقا ثورة واحدة ؟

فى إطار المواقف ، فإن شهود تجربة السنة الأولى من عمر الثورة ، الذين قدر لهم أن يكونوا على صلة وثيقة بالعلاقات الايرانية الفلسطينية ، يرصدون مجموعة من النقاط برزت فى تلك المرحلة . وهى التى يمكن تحديدها زمنيا بفترة رئاسة المهندس مهدى بازركان لأول حكومة للثورة والتى استغرقت ٩ أشهر (من ٨ فبراير إلى ٦ نوفمبر ٧٩) .

فى مقدمة تلك النقاط ما يلى :

■ إن الطرف الفلسطينى كان حريصا على أن يوحى للقيادة الايرانية بتطابق المواقف فيما بين الثورتين . كان يخاطبها من منطلق « نحن وأنتم واحد » وثمة تصريح لأبو عمار فى أوائل عام ١٩٧٩ قال فيه : ليستا ثورتين وانما ثورة واحدة . ليسا قائدين وإنما قائد واحد ، هو الامام الخمينى . وفى أصفهان ومشهد وقف هانى الحسن خطيبا وقال « إن القرآن دستورنا والحسين هو المثل الأعلى للشباب الفلسطينى ، والخمينى هو زعيمنا وقائدنا » .

■ إن الاسلاميين فى القيادة الايرانية لم يكفوا عن طرح مسألة « أسلمة » القضية الفلسطينية ، وكانت لهم ملاحظاتهم على دور وتأثير فصائل اليسار الفلسطينى . وإزاء ذلك لم يبد الطرف الفلسطينى غضاضة من مخاطبة الشيوخ الايرانيين بلغتهم ، فكانت رسائل أبو عمار إلى طهران تفيض بالمشاعر الاسلامية التى أسعدت الايرانيين ، ولكنهم صدموا عندما ذهب هانى الحسن فى زيارة لبيروت ، وخطب قائلا : إن الخمينى فى إيران ومنجستو هيللا ماريام فى أثيوبيا ، هما رمزا الثورة فى هذا العصر ! نسفت تلك العبارة كل ما بنته رسائل ياسر عرفات « الاسلامية » . وبدأوا يتنبهون إلى أن الطرف الفلسطينى معنى بقضية الثورة وحدها .

■ لاحظ الاسلاميون فى القيادة الايرانية أن الطرف الفلسطينى مد جسورا قوية مع القيادات السياسية الأخرى فى طهران . بالأخص قوى اليسار بمختلف

درجاته . [في ديسمبر ٨٤ ، قال حجة الاسلام هاشمي رفسنجاني رئيس مجلس الشورى لصلاح الزواوي سفير فلسطين في طهران . وهو يشير إلى تلك المرحلة ، «لقد جعلتم السفارة الفلسطينية وكرا للأعداء والمناوئين وهو ما يعبر عن حساسية الفقهاء واستيائهم المبكر ، الذى لم يعلن عنه فى حينه] . . ورغم أن التقييم المحايد يبرر قيام علاقة للسفارة الفلسطينية مع مختلف التيارات السياسية بإيران ، إلا أن موضع الملاحظة هو أن الطرف الفلسطيني ظل يتعامل مع الاسلاميين باعتبارهم « إحدى » القوى ، غير منتبه إلى كونهم « القوى القائدة » .

■ لاحظت القيادة الايرانية أن الطرف الفلسطيني يحاول أن يلعب دور الوسيط بين طهران ومختلف العواصم العربية . وعندما التقطت طهران تلك الاشارات ، كان ظن رجالها أن الفلسطينيين سوف يبذلون مساعيهم من المربع الايرانى ، باعتبار أنهم والفلسطينيين طرف واحد ، ولم يخطر على بال طهران أن الطرف الآخر ينطلق من موقع مغاير ، ويتصرف باعتباره قابضا على الورقة الايرانية ، وليس واقفا فى المربع أو الصف الايرانى .

■ استاء الامام الخمينى من تصريحات فلسطينية رسمية حول الغزو السوفيتي لأفغانستان ، اعتبرها ممالئة للغزو . وقد حدث أن كان القائد الفلسطيني « أبو جهاد » فى طهران مشاركا فى مؤتمر لحركات التحرير . وأبدى رغبة فى الاجتماع مع الامام الخمينى ، الذى لم يظهر استجابة لهذا الطلب . وعندما ألح عليه بعض المقربين إليه لاتمام المقابلة قدم إليهم قصاصة من صحيفة تضمنت تصريحا لأبو اللطف مسئول الشئون الخارجية بمنظمة التحرير ، حول السوفييت فى أفغانستان ، وقال : أسألوه ما هذا ؟ . . ولم يكن لدى أبو جهاد ما يعلنه حول الغزو السوفيتي ، يسمح بتحسين الموقف .

ـ ثارت بعض الحساسيات من جراء تصرفات صغيرة تدور فى مجملها حول المدى الذى يمكن أن يذهب إليه كل طرف وهو يتحدث عن شئون الطرف الآخر ، كأن يبدى الإيرانيون ملاحظاتهم على تصرفات بعض القادة الفلسطينيين ، واتصالاتهم بالقوى المختلفة . وكأن يطرح الفلسطينيون بعض التحفظات على تعيينات جرت فى قيادة حرس الثورة ، أو يطالبون باعتماد تقاريرهم وتقديراتهم

السياسية بدعوى أنهم « الأعرف » والأكثر دراية وخبرة . إلى آخر تلك القضايا التفصيلية التى نشأت عن تصور كل طرف أن الآخر معه على طول الخط .

والطرف الإيرانى له حساباته

وإذ انصبت أكثر الملاحظات على الموقف الفلسطينى ، فإن ثمة أربع ملاحظات أخرى يسجلها الشهود على الموقف الإيرانى :

■ **أولى تلك الملاحظات أن الطرف الإيرانى كانت له حساباته وتحالفاته ، التى فرضتها ظروف المرحلة والمصلحة فى آن واحد** . فقد أقام علاقات وثيقة مع النظام السورى ، الذى كان موقفه من الإسلاميين يتسم بالعنف والقمع ، كما أن إطار التحالف امتد إلى ليبيا بصورة أقوى (فى يونيو ٨٥ وقع حجة الإسلام هاشمى رفسنجانى اتفاقا للتحالف الاستراتيجى ـ العسكرى ـ مع ليبيا) . وليس خافيا على أحد عمق الخصومة التى يكنها النظام الليبى للإسلاميين . وفى حين أقام الطرف الإيرانى علاقاته تلك بناء على تقديرات المعادلة السياسية ، فإنه أخذ على الفلسطينيين ، وأبو عمار بالأخص ، أنه يحدد مواقفه أيضا فى ضوء حسابات تلك المعادلة وتوازناتها . أى أن الإيرانيين ارتضوا لأنفسهم منطلقا ، وأرادوا أن يحرموا الفلسطينيين من استخدامه ، وطالبوهم بأن تكون حساباتهم ثورية خالصة ، بصرف النظر عن أى اعتبار . فى حين أن القيادة الفلسطينية تظل فى الوضع الأكثر حرجا ، من حيث إنها محاصرة بالوضع العربى العام ، وليست دولة كإيران لها مجالها الأوسع فى حرية الحركة .

■ **ثانية تلك الملاحظات أن التحالف الإيرانى السورى كان دائما على حساب الرصيد الفلسطينى** . ذلك أن الحسابات السورية كانت ـ ولا تزال ـ تسعى إلى أن تكسب الورقة الفلسطينية إلى جانبها . وكان يهمها باستمرار ألا تقوى شوكة منظمة التحرير حتى تظل بحاجة إلى الحماية السورية . ويظل مفتاح حل أو تسوية القضية الفلسطينية بيد دمشق . ولذا فإن النظام السورى لم يبد سعادة إزاء تلك العلاقات الوثيقة التى نشأت بين القيادتين الإيرانية والفلسطينية فى بداية الثورة . فضلا عن أن سجل التدخل العسكرى السورى فى لبنان تزامن توقيته مع تنامى الدور الفلسطينى فى بيروت .

كان الإصرار على استقلال القرار الفلسطينى يعنى صداما مستمرا مع القيادة السياسية السورية ، ولذلك فإن القيادة الفلسطينية كانت تبحث دائما عن طرف يجنبها الاحتواء من جانب دمشق . وكان الحل الأمثل هو الإحتماء بالتضامن العربى ، وهو ما تعطيه القيادة الفلسطينية اهتماما بالغا . وبعد نجاح الثورة الإيرانية ، فإن الفلسطينيين شعروا بأن التقارب مع طهران يمكن أن يعزز مركزهم ، ولكن اللقاء الذى تم بين طهران ودمشق أعطى مردودا سلبيا على الجانب الفلسطينى ، وأسهم فى إضعاف الفلسطينيين فى مواجهة الضغوط السورية الشديدة ، فضلا عن الوضع العربى العام . وهنا ينسب إلى ياسر عرفات قوله أن عددا من القادة فى طهران « باعوا » علاقاتهم الفلسطينية لحساب علاقتهم مع سوريا . حتى ذهبوا بعيدا فى مدح نظام دمشق ، والتقليل من شأن كفاح الثورة الفلسطينية ، وتجاهله أحيانا .

■ ثالثة تلك الملاحظات أن القيادة الإيرانية لم تفهم تماما حقيقة العلاقات الفلسطينية العربية ولم تكن واعية بالظروف المعقدة التى تفرض نفسها على القيادة الفلسطينية وتحتم عليها ألا تنفصل عن الموقف العربى ، فالفلسطينيون موزعون جغرافيا على العالم العربى سواء كان ذلك على الصعيد البشرى العادى أو الصعيد العسكرى (بعد توزيع القوات الفلسطينية على ٦ دول عربية) أو حتى على مستوى الدعم المالى والاقتصادى . أى أن هناك ألف سبب يجعل من فكرة الانخلاع من الواقع العربى أمرا شبه مستحيل . إذ لابد أن يحدد الفلسطينيون مواقفهم دون أن يتجاهلوا الخريطة العربية .

■ رابعة تلك الملاحظات أن الإيرانيين لم يكونوا على إستيعاب كاف لتطورات الوضع العربى ، التى هى فى مجملها أقرب إلى السلب منه إلى الإيجاب ، ذلك أنه حتى قرب نهاية الستينيات كانت للجماهير العربية قيادة متمثلة فى جمال عبد الناصر . وكانت قيم النضال ضد الاستعمار والثورة لاستخلاص الحقوق مما تبناه الشارع العربى ووقف وراءه .

كان للجماهير العربية حضور ، فضلا عن أنه كانت ثمة قيادة تعبر عن ضمير تلك الجماهير وطموحاتها . ابتداء من السبعينات تغيرت تلك الصورة ، غاب الرمز وغاب دور الشارع . وظهرت خريطة من القيم السلبية الجديدة فى

الواقع العربى ، تتبنى الإنحياز إلى المعسكر الغربى من ناحية ، وترفع شعارات الإقليمية والتجزئة من ناحية أخرى . وبدأت فى العالم العربى مرحلة « الأنظمة » التى تعاظم دورها على حساب دور الشارع والجماهير . هذه الظروف فى مجموعها كان لها تأثيرها الضرورى على القيادة الفلسطينية . كان لابد لتلك القيادة أن تتعامل مع الواقع العربى بمتغيراته السلبية ، إذ لم تكن فى موقف يسمح لها لا بتحدى هذا الواقع ولا بتغييره . وهذا ما لم تدركه القيادة الإيرانية ، وحاسبت الفلسطينيين من منطلق خاطىء تماما ، منفصل عن تلك المتغيرات فى الواقع العربى .

قضية الرهائن: صفقة خاسرة

ظلت الأمور تسير على هذا النحو إلى أن ظهرت فى الأفق قضية احتلال السفارة الأمريكية بطهران منذ ٤ نوفمبر عام ١٩٧٩ . ومن جملة الأمور التى أثيرت وقتئذ موضوع التوسط لدى حكومة الثورة الإيرانية ، للإفراج عن الرهائن . وهو ما سعت فيه جهات عديدة ، لكن سعيها لم يكلل بالنجاح ، لأن الإيرانيين لم يكونوا على ثقة من حقيقة دوافع تلك الجهات .

لم تسارع القيادة الفلسطينية إلى تأييد عملية احتلال السفارة . وقد خيب ذلك أمل عدد من القيادات الإسلامية فى إيران . وعوضا عن ذلك فقد تعجلت القيادة الفلسطينية فى وساطتها لإطلاق الرهائن ، ووضع الورقة بيدها . وكانت حساباتها الخاصة بإحتمالات ردود الفعل الأمريكية مبالغا فيها للغاية ، حتى أنها تصورت أن الأمر يمكن أن يصل إلى حد الغزو واحتلال إيران .

ولسبب أو آخر ، فلم يدرك الطرف الفلسطينى أن للثورة الإسلامية الإيرانية أهدافا تريد تحقيقها من وراء احتلال السفارة . ومن ثم تستطيع منظمة التحرير أن تشارك فى قطف تلك الثمار ، بعد تحقيق تلك الأهداف وليس قبلها . كانت القيادة الفلسطينية تنطلق فى تحركها من منظورين : الأول الخوف على الثورة من ردود الفعل الأمريكية التى تصورت أنها يمكن أن تصل إلى الغزو ، والثانى إجبار القيادة الأمريكية على الاتصال بمنظمة التحرير ، إن لم يكن الاعتراف بها ، مقابل إنهاء مشكلة رهائن السفارة .

تحرك الفلسطينيون فى اتجاه الوساطة بالفعل . وأرسل أبو عمار موفدا خاصا لتلك المهمة ، هو أبو الوليد (العميد سعد صايل مسئول غرفة العمليات المركزية) . ووصل المبعوث بالفعل إلى طهران التى كانت قد تلقت إشارات توحى بطبيعة مهمته .

وفى مطار طهران كان هناك بعض المسئولين الإيرانيين بانتظاره مع مسئولى السفارة الفلسطينية . وقبل أن يغادر الرجل قاعة كبار الزوار بالمطار كان قد أفهم بأنه من مصلحة العلاقات الإيرانية الفلسطينية ألا يفاتح أحدا فى مسألة الوساطة . وهو ما حدث بالفعل .

خلال الساعات الأولى التى أعقبت وصوله ، كان أبو الوليد قد أدرك أن طهران توقعت من الفلسطينيين موقفا آخر . وقرر أن يصرف النظر على المهمة التى أوفد من أجلها . وعندما التقى مع قيادة الحزب الجمهورى الحاكم فانه لم يشر إلى الموضوع ، وجرت المناقشات فى أمور مختلفة وبعيدة تماما ، وهو ما حدث أيضا عندما اجتمع مع أبو الحسن بنى صدر .

وعاد أبو الوليد إلى بيروت مقتنعا بأن الحسابات الفلسطينية تجاه القضية لم تكن صحيحة . ولابد أنه نقل انطباعاته تلك إلى ياسر عرفات ، الذى بعث لاحقا برسالة شفويه إلى الامام الخمينى تحاول ايضاح الموقف الفلسطينى أو الاعتذار عن الخطأ الذى جرى فى تقدير الموقف .

وكان من بين التعقيدات التى ظهرت فى تلك المرحلة أيضا أنه عندما قررت طهران الافراج عن بعض الأمريكيين السود الذين كانوا بين الرهائن ، فان هانى الحسن سارع باذاعة تصريح قال فيه إن ذلك جاء نتيجة لوساطة فلسطينية . ولما لم يكن ذلك صحيحا ، فان مكتب الامام الخمينى أصدر بيانا كذب فيه تصريح السفير الفلسطينى ، مما أعتبر أول اعلان مبكر عن اختلاف المواقف بين الايرانيين والفلسطينيين .

وكان من جراء ذلك كله ، أنه عندما حان أوان حل مشكلة الرهائن ، كانت العلاقة الفلسطينية الايرانية قد أخذت تتدهور . وظهر التباعد بين الموقفين واضحا مما جعل « ورقة » الوساطة تفلت نهائيا من يد ياسر عرفات ، لتذهب إلى الجزائريين .

غضب أبو عمار وأبدى استياء شديدا ، وبعث عدة رسائل بهذا المعنى إلى القيادة الايرانية التى كان ردها أن رجال الثورة الاسلامية لا يزالون يظنون أنهم والفلسطينيين شىء واحد ، لكن الفلسطينيين يقدمون أنفسهم اليهم أحيانا باعتبارهم شيئا مختلفا !

فى تلك الفترة كانت وزارة المهندس بازركان قد استقالت وجاء بنى صدر رئيسا للجمهورية فى فبراير ١٩٨٠ ، واستمرت رئاسته لمدة ١٧ شهرا وكان أهم حدثين شهدتهما المرحلة بخلاف موضوع الرهائن هما : الحرب العراقية الايرانية (سبتمبر ١٩٨٠) والمواجهة الحاسمة بين الاسلاميين وبين الليبراليين وقوى اليسار التى بلغت ذروتها فى منتصف عام ١٩٨١ .

اختيار عرفات ازعج طهران

ويستطيع كثيرون أن يدركوا بطبيعة الحال صعوبة ودقة موقف القيادة الفلسطينية ازاء موضوع الحرب . إذ كانت الحسابات الفلسطينية كلها لا تحتمل انخلاع أبو عمار من الموقف العربى ، كما أنها لا تحتمل الحياد ، فضلا عن أنها ترفض أى اقتراب من ايران فى تلك النقطة . فاختار ياسر عرفات أن يقف فى صف معارضة الحرب والعمل على وقفها . وكانت وجهة نظر القيادة الفلسطينية نابعة فى الدرجة الأولى من حرصها على التوازن بينها وبين سوريا . لأن تقليص الدور العراقى بسبب الحرب ، بعدما تقلص الدور المصرى فى أعقاب اتفاقيات كامب ديفيد ، سوف يؤدى إلى اخراج منظمة التحرير من لبنان وسوريا . وهذا ما حدث فعلا ، وهو ما يفسر ، وفق رأى بعض القياديين الفلسطينيين ، اصرار ياسر عرفات المستمر على وقف الحرب ، وعودة مصر إلى الصف العربى ، باعتبار أن ذلك ضمان لاعادة التوازن إلى المعادلة العربية بعد الثمن الغالى الذى دفعه فى صيف ١٩٨٢ وخريف ١٩٨٣ ولا يزال يدفعه إلى الآن .

هذا الاختيار أزعج طهران ، وكان بمثابة جرح جديد أصاب علاقاتها مع القيادة الفلسطينية . ولن نبالغ إذا ما قلنا إن هذا الجرح لا يزال ينزف إلى الآن حتى إنه لم يعد بوسع أحد أن يتجاوزه أو يتجاهله .

تزامن ذلك مع مرحلة الصراع الداخلى والحاد الذى حدث فيما بين الاسلاميين من رجال الامام ، وبين القوى الأخرى فى داخل ايران ، وطبقا لمعلومات الشهود الفلسطينيين فان تقارير هانى الحسن كانت تصب فى اتجاه حسم الصراع لصالح قوى المعارضة ، موحية بأن استمرار رجال الامام فى السلطة محدود الأجل . وللانصاف فان تلك القوى كان لها وجودها الملحوظ فى شوارع طهران ، مع بدايات عام ١٩٨١ ، وكان ظاهر الأمور يوحى بتعقد وضع الاسلاميين إلى حد احتمال الانقلاب عليهم . وهو ما كانت تغذيه مختلف التقارير الصحفية والوكالات العالمية . وربما عزز اقتناع هانى الحسن بتلك النتيجة صلته التى توثقت مع قيادات اليسار الايرانى ، كيانورى ورجوى بوجه أخص . وهنا يقرر الشهود أن الجسور التى أقامها السفير الفلسطينى مع فصائل اليسار باتت بمضى الوقت أقوى بكثير من جسوره مع الاسلاميين من رجال الامام . لم يتعمد الرجل ذلك بطبيعة الحال . لكن تلك كانت حدود طاقته . فلا هو كان قادرا على أن يستوعب موقف رموز الخط الاسلامى ، ولا كان قادرا على أن يخاطبهم بلغتهم . رغم أن هانى الحسن كان شديد القرب من الامام خلال الأشهر الأولى للثورة . إذ أنه على مدى ثلاثة أشهر تقريبا بعد نجاح الثورة ظل الامام يستقبله كل يوم ثلاثاء ، لمدة ساعة أو اثنتين على الأقل ، ليتابع معه تطورات الموقف داخليا وعربيا ودوليا .

كان من نتيجة التقديرات الخاطئة أن راهنت القيادة الفلسطينية على قوى المعارضة ولم تراهن على معسكر الامام . هنا يسجل الشهود أيضا أن القيادة الفلسطينية تعجلت فى الاختيار ، خلافا لسياسة فتح التقليدية ، التى كانت تؤثر الانتظار دائما ازاء الصراعات ، ثم تحدد موقفها بعد ذلك فى ضوء مبادئها أو مصالحها ، لكنهم يضيفون أن تقارير سفارة فلسطين فى طهران كانت ضمن العوامل التى عجلت بالمراهنة على المعارضة . مما وضع القيادة الفلسطينية فى مأزق بالغ الحرج ، عندما رجحت كفة رجال الامام فى النهاية . الأمر الذى كان ينبغى أن يؤدى إلى نقل هانى الحسن من طهران ليعود إلى موقعه ـ مرة أخرى ـ مستشارا سياسيا لعرفات .

المنعطف الرابع فى العلاقات الايرانية الفلسطينية تمثل فيما اعتبرته طهران

دخولا ضمن محور القاهرة عمان ، فى النصف الثانى من عام ١٩٨٤ . وهو ما ترجم باعتباره علامة على التخلى عن منطق الثورة والنضال المسلح ، والالتحاق بمسيرة الحلول السلمية ، التى لم تخل من التجريح ، كما أنها ليست فوق مستوى الشبهات . حتى بدا الأمر كما لو أن كلا منهما بات يتحرك فى واد مختلف عن الآخر ، بل ويمضى باتجاه معاكس للآخر .

ثمة أشواك أخرى تراكمت فوق الجسور الايرانية الفلسطينية ، بفعل تصرفات اعتبرتها طهران مسيئة أو جارحة ، وكان يمكن تجنبها بقليل من الحكمة وحسن التصرف . هم يقولون مثلا ، إننا إذا قدرنا موقف ياسر عرفات من مسألة الحرب ، وتفهمنا حساباته ، هل كان ضروريا أن يكون حضوره فى بغداد بتلك الكثافة التى نلاحظها . أما كان ينبغى أن يراعى شعورنا ، ويوفد من يشاء من رجاله إذا لزم الأمر ، بدلا من أن يذهب بنفسه إلى هناك بين الحين والآخر ويسخو كثيرا فى مديح الرئيس صدام حسين . ألم يتنبه إلى أنه بذلك يسبب لنا حرجا أمام جماهيرنا ، التى حملته على الاعناق يوم جاء ، ثم إذ هى تفاجأ به يطل عليها من شرفة طرف آخر نحن فى حالة حرب معه منذ سنوات .

يقولون أيضا : أليس جارحا لرجال الثورة الايرانية وماسّا بشعورهم ، اللقاء الذى تم فى باريس (أوائل سبتمبر ١٩٨١) بين هانى الحسن ومسعود رجوى ، رئيس منظمة مجاهدى خلق ، التى قادت ضدنا حملة تصفية دموية فى طهران . ولا يزال الرجل يحلم بذلك ويخطط له . وإذا كان هذا اللقاء ضروريا ، ولابد منه لمصلحة فلسطينية نجهلها ، هل كان من الضرورى أن يكون طرفه هو أول سفير للثورة الفلسطينية فى طهران . وهل كان من الضرورى أن يعمم النبأ على كافة وكالات الأنباء ، لتعلنه على القاصى والدانى ؟ . . (بسبب هذا الاجتماع بين هانى الحسن ورجوى ، ألغى موعد كان محددا للسفير الفلسطينى فى طهران ، صلاح الزواوى ، لكى يلتقى بالامام الخمينى يوم ٦ سبتمبر ١٩٨١ . . وكان حجة الاسلام هاشمى رفسنجانى هو الذى رتب هذا الموعد ، وبسببه أيضا استدعى السفير الفلسطينى إلى الخارجية الايرانية بطهران ، وقضى هناك ٣ ساعات ، ثم اضطر لمغادرة العاصمة الايرانية ، حيث استمرت غيبته عنها مدة ستة أشهر) .

يقولون أيضا : بعد توقيع اتفاقيات كامب ديفيد ، تلقينا رسالة عاجلة من ياسر عرفات لكى نسارع إلى قطع العلاقات مع القاهرة ، وألح فى ضرورة اعلان ذلك قبل اجتماع مؤتمر قمة بغداد ، ليكون موقفنا ورقة يضغط بها على المؤتمر ويخرج منه بقرار جماعى ، وقبل أن يبحث الموضوع فى مجلس قيادة الثورة أو مجلس الوزراء ، ورغم تحفظ بعض السياسيين من رجال الجبهة الوطنية الذين كانوا شركاء فى الحكم ، فان الامام استجاب لطلب عرفات على الفور ، وأصر على أن يعلن وزير الخارجية الايرانى (كريم سنجابى) قرار قطع العلاقات بعد ساعات من تلقى الرسالة ، وهو ما تم فى مساء ٣١ أبريل ١٩٧٩ .

يضيفون فى طهران : كيف نفسر لجماهيرنا الآن عودة أبو عمار للقاهرة بعد كل الرحلة التى قطعناها معه ؟ وكيف نبرر وجوده المكثف فى عمان ، وهو يعلم قدر الدعم الذى تقدمه الأردن للعراق فى حربها ضدنا ؟

أسئلة عديدة من هذا النوع تطرحها طهران حول موقف القيادة الفلسطينية ، كلها تنطلق من النقطة ذاتها : الشعور بأن ايران الثورة شىء ، وفلسطين الثورة « شىء آخر » .

وغير الأشواك التى تراكمت على الجسور الايرانية الفلسطينية ، فثمة ألغام زرعت على تلك الجسور بقصد وبسبق اصرار . إذ سعت بعض الأطراف العربية الحليفة لايران والتى لها خصوماتها وحساباتها مع قيادة منظمة التحرير ، إلى تعميق الهوة وتوسيع الفجوة بين طهران والفلسطينيين ، بواسطة معلومات ملفقة وغير صحيحة ، كانت تنقل إلى القيادة الايرانية أولا بأول ، مستثمرة المناخ المُواتى ، وحالة العتب والاحباط التى يستشعرها الايرانيون تجاه القيادة الفلسطينية .

فى شهر ديسمبر ١٩٨٤ ، زار طهران أحد الرموز القيادية فى منظمة التحرير . وأتيح للرجل أن يعقد بعض جلسات المصارحة مع المسئولين الايرانيين . وخلال المناقشات ذهل الرجل من كم المعلومات المغلوطة التى نقلت إلى طهران حول الوضع الفلسطينى وموقف القيادة فى أعقاب الغزو الاسرائيلى للبنان ، ومن عمليات المقاومة فى الجنوب اللبنانى . وبينما تصورنا

صمود بيروت ودور الفلسطينيين فى التصدى للغزاة عملا بطوليا ، فان الصورة التى نقلت إلى طهران بهذا الصدد كانت معاكسة تماما . حتى أن دهشة الرجل كانت مزدوجة ، إذ لم تكن فقط ناشئة عن حجم المغالطات والتلفيقات فيما نقل ، ولكن أيضا لأن الطرف الايرانى كان مستعدا لتصديقها .

ومع ذلك فلابد أن يذكر للقيادة الايرانية أنها لم تتورط فى الانحياز إلى أى من المحاور الفلسطينية التى ظهرت فى الساحة ، بالأخص ذلك المحور الذى ضم معارضى عرفات ، فيما سمى باسم « جبهة الانقاذ » التى تبلورت فى دمشق خلال عام ١٩٨٤ ، وربما كان السبب الأساسى فى عدم مساندة ايران للمنشقين هو أنهم كانوا أساسا من فصائل اليسار ، ونسبة الماركسيين بينهم ليست قليلة . بحيث لم تر فيهم القيادة الايرانية « بديلا » يستحق الدعم والتأييد . ولذا فقد لا نجاوز الحقيقة كثيراً إذا قلنا إن موقف طهران العازف عن الدخول فى لعبة الانشقاق ، لم ينطلق من حب لعرفات ، وانما جاء تعبيرا عن رفض أوكراهية لتوجهات المنشقين . مما أوقع السياسة الايرانية فى موقف دقيق ، فلم تعد مستعدة لمواصلة التعامل مع منظمة التحرير ، ولا هى مستعدة لدعم المنشقين !

وهذا الموقف لم يسعد السوريين ، الذين انتظروا من طهران تأييداً لدمشق التى تبنت موقف المنشقين ، أوحركتهم فى قول آخر ، وقد سمعت من أحد المسئولين الايرانيين قوله أن سوريا اعتبرت موقف طهران « خذلانا » لها ، وأن هذا الموضوع نوقش بين بعض المسئولين فى العاصمتين أكثر من مرة . وكان من مطالب السوريين أن تسلم سفارة فلسطين فى طهران إلى « جبهة الانقاذ » ، ولكن طهران عارضت الفكرة ورفضت الاستجابة لذلك المطلب .

هل هو الحب أم المصلحة ؟

إن جانبا من أسباب الفتور فى العلاقات الايرانية الفلسطينية نابع من اختلاف حسابات القيادة الفلسطينية ، سواء على صعيد علاقاتها بالأنظمة العربية أو صعيد التزامها بالنضال المسلح سبيلا للدفاع عن فلسطين القضية ، ناهيك عن فلسطين الثورة .

وإذا نحينا موضوع أسلمة القضية ، الذى لم يجر الاتفاق حوله ، فسوف نجد أن جذور « الفتور » ترجع إلى ذلك الشعور الذى استقر فى أعماق كل طرف بأن الآخر له دائما مختزلا فكرة أن كل طرف له استقلاله وتميزه فى النهج والأهداف والسياسات .

وإذا غضضنا الطرف عن دوافع تلك العلاقة ، وهل هى « الحب » فى جانب أم « المصلحة » من الجانب الآخر ، فإننا لن نبرىء الطرف الفلسطينى أيضا من تعلقهم بفكرة أن إيران الثورة يجب أن تكون لهم . ولم يكن أبو عمار يخفى فى أحاديثه ولقاءاته أنه يريد ـ بنص تعبيره ـ « الورقة الإيرانية » كلها ، وليس طرفا أو جانبا منها فقط . حتى أنه عندما ذهب إليه فى بيروت اثنان من شيوخ طهران حاملين معهما مبلغ خمسة ملايين دولار ، فإنه اعتذر عن عدم قبول المبلغ . وهو اعتذار تكرر أكثر من مرة ، أمام عروض متعددة ، بينها عرض لتقديم حصة من البترول إلى المنظمة لكى تتولى بيعها لحسابها فى السوق العالمية ، بمبلغ كاف يقدر له أن يصل إلى خمسة ملايين أخرى . وعرض آخر بتقديم مبلغ مماثل لمؤسسة الشهيد ، التى يباشر مسئوليتها أبو جهاد .

كان إصرار أبو عمار على رفض الدعم المالى من جانب القيادة الإيرانية منسجما مع الموقف الذى اختاره ، وعبر عنه أكثر من مرة لمن حوله . فهو لم يكن بحاجة إلى دعم مالى إيرانى ولكنه كان يريد « الورقة الإيرانية كلها » .

وككل مسرح سياسى ، فإن مضى الوقت وتلاحق الأحداث وضغوطها ، قد أفرز تفاعلات لا تعد بالضرورة تعبيرا عن إرادات الأطراف واختياراتهم . وفى النصف الثانى من عام ١٩٨٥ ، مع اقتراب نهاية العام السادس للثورة ، فإن أحدا لم يعد ينازع فى أن القيادة الإيرانية قد أدخلت المعادلة السياسية فى حساباتها وأن قضية الحرب مع العراق احتلت الأولوية المطلقة فى شواغلها واهتماماتها ، بحيث بات يقيِّم أى طرف عربى أو إسلامى أو دولى ، أو حتى محلى بمعيار موقفه من الحرب إيجابا أو سلبا .

وبالمثل فإن التطورات المتلاحقة أفرزت تفاوتا فى المواقف تجاه القضية الفلسطينية على المسرح السياسى الإيرانى ذاته . ولقد كان موقف الليبراليين المبكر يقوم على تقليص العلاقات الإيرانية الفلسطينية . رغم أن هؤلاء لم يعودوا

شركاء فى السلطة ، إلا أن لهم امتداداتهم فى مختلف الأجهزة ، وفى مقدمتها وزارة الخارجية ، التى يرى كثيرون أنها تتعامل مع القضية الفلسطينية بقدر من التحفظ ليس قليلا ، ورغم أن الخارجية تنفذ القرار السياسى ولا تصنعه ، إلا أن ضغوطها تظل قائمة ، سواء فى توجيه مسار القرار السياسى ، أو تعويق تنفيذه .

وفى استعراضنا لمواقف القيادات السياسية الإيرانية ، فإننا نجد أن ثمة قاسما مشتركا بينهم ، يتمثل فى عدم الرضا عن سياسة ياسر عرفات ومنظمة التحرير . وفى التعبير عن هذا الموقف ، أصبح السيد على خامنئى رئيس الجمهورية يذهب إلى حد الاقتراب من الموقف السورى وتبريره . أما حجة الإسلام هاشمى رفسنجانى رئيس مجلس الشورى فإنه يرى أن الموقف الفلسطينى « يكبله » مما لا يتيح له فرصة التحرك الإيجابى تجاه القيادة الفلسطينية . وبينما يصنف الرجل ضمن المربع الأكثر تفهما للواقع الفلسطينى ، فإنه لا يخفى عتبه على سياسة عرفات . وقد سمعته مرة يقول : إن قضية فلسطين جزء من شرعية الثورة الإيرانية ، لكن عرفات لم يترك لنا مجالا للوقوف معه .

وبالنسبة لآية الله منتظرى ، الرجل الثانى بعد الإمام ، فهو عند الجميع الأكثر تعاطفا وودا . إذ لا يزال مكتبه وبيته فى قم مفتوحين للقاء الفلسطينيين . فضلا عن أنه لا يزال يمثل مركز الاتصال الأساسى بين القيادة الإيرانية والفلسطينية . وهو صاحب فكرة إنشاء جامعة للفلسطينيين فى إيران ، التى دعا إليها فى عام ١٩٨٤ فى ظل توتر العلاقات بين الطرفين ، ولكن الأجهزة البيروقراطية ، وعناصر التعويق فى المؤسسة السياسية الإيرانية ، لم تحرك المشروع باتجاه التنفيذ .

حرب المخيمات وحسابات الإمام

هذا التفاوت فى طبيعة مواقف القيادات الإيرانية ، انعكس على سياسة طهران تجاه « حرب المخيمات » فى لبنان ، التى شنتها منظمة « أمل » المحسوبة على الشيعة ضد الفلسطينيين فى شهرى مايو ويونيو ١٩٨٥ ، بحجة نزع سلاحهم . فقد صدرت أقوى إدانة من جانب آية الله منتظرى ، الذى قاتل ابنه

الشهيد محمد مع الفلسطينيين قبل الثورة ، فألقى فى قم خطابا عنيفا هدد فيه « بفصل تلك الفئة ـ أمل ـ من الشيعة » . ووصف الذى جرى فى لبنان بأنه « عمل لا إسلامى » ومؤامرة يجب أن يكف الذين شاركوا فيها وأن « يتوبوا ويستغفروا » . فى الوقت ذاته فقد أوفد مبعوثا إلى دمشق وبيروت ـ هو آية الله كروبى ـ للضغط من أجل حل المشكلة على وجه السرعة . وقد رفض كروبى أن يلتقى بالسيد نبيه برى رئيس « أمل » ، وهو طلب كرره أكثر من مرة ، إحتجاجا على مسلكه .

من ناحية أخرى ، فإن رفسنجانى ألقى خطبة للجمعة حذر فيها من التيارات السياسية المشبوهة فى لبنان ومن مؤامرة الشيطان الأكبر وعملائه لإيجاد التشرذم فى المنطقة » . وعندما تحدث السيد خامنئى فى خطبة لاحقة للجمعة فإنه لم يذهب بعيدا عن الموقف الذى أعلنه منتظرى ورفسنجانى ، لكنه ركز على وقف « سفك الدماء » بين المتقاتلين ، دون أن يشير بوضوح إلى الطرف المعتدى . وكان خامنئى يعبر بصدق عن موقف الحكومة والأجهزة الرسمية ، التى لزمت الصمت طوال خمسة أيام بعد بدء الإعتداء على المخيمات الفلسطينية ، ثم بدأت تتحدث عن « وقف القتال » « وتجنب إستمرار نزيف الدم » . وهو موقف بدا خاضعا « للحسابات » أكثر منه ملتزما بالمبادىء . إذ كان واضحا الدور السورى فى دعم أمل ، فضلا عن أن تلك الأجهزة وضعت فى إعتبارها أن « أمل » هى فى النهاية منظمة شيعية .

سألت أكثر من خبير ومطلع فى طهران : ما هو موقف الإمام ؟ .

كان الرد المتكرر هو أن الامام حريص على أن يمثل عنصر التوازن بين مختلف التيارات والقوى ، وأن ما يشغله بالدرجة الأولى هو استمرار تماسك الجبهة الداخلية لمواجهة ظروف الحرب مع العراق . تجلى ذلك مرة أثناء الزحف الإسرائيلى على بيروت عام ٨٢ ، وعندما كانت القيادة الفلسطينية مهددة بالسقوط فى أيدى الاسرائيليين . وقتئذ طرحت فكرة إرسال متطوعين إيرانيين إلى لبنان فتقدم للتطوع عشرات الألوف من الإيرانيين ، بينهم ٣٠ ألفا من قم وحدها . وأبلغ خامنئى سفير فلسطين استعداد بلاده لارسال ٤٠ ألف متطوع بأسلحتهم الثقيلة . وكانت العراق قد أعلنت استعدادها لوقف القتال إذا اشتركت إيران فى الدفاع عن اللبنانيين والفلسطينيين ، وقد ذهب بالفعل ١٥٠٠ من رجال حرس الثورة إلى

البقاع لكن معوقات ظهرت بعد ذلك حالت دون مواصلة إرسال المتطوعين ، أهمها اعتراض تركيا على استخدام أجوائها لهذه المهمة . وفيما كانت الجهود تبذل لتذليل تلك العقبة ، ألقى الامام خطبة فى شهر يونيو ٨٢ ، قال فيها أن تلك الحرب الجارية فى لبنان إنما هى محاولة لإنقاذ النظام العراقى ، وصرف النظر عن العدوان على الثورة الاسلامية فى ايران . حسمت الخطبة الموقف ، الذى جمد ولم يتقدم خطوة واحدة ، بعد إرسال الدفعة الأولى من المتطوعين الذين لا يزالون هناك إلى الآن .

الواقعة الثانية حدثت فى يونيو ٨٥ ، وقتال « أمل » للفلسطينيين فى بيروت كان قد بلغ ذروته . وبينما تكلم مختلف رموز النظام ، منتظرى ورفسنجانى وخامنئى ، فإن الإمام التزم الصمت . وقيل وقتئذ أنه معتكف فى الأيام العشرة الأخيرة من شهر رمضان . ولما أنتهى الصيام خرج الإمام من اعتكافه ، وألقى خطابا فى « حسينية جمران » ، بعد صلاة العيد . وفيما توقع منه كثيرون أن يعلن موقفا تجاه ما يجرى فى لبنان ، فإن الإمام لم يشر إلى الموضوع من قريب أو بعيد ، وكان جل تركيزه فى الخطاب على دلالة المظاهرات المؤيدة للحرب مع العراق ، التى خرجت فى يوم القدس (آخر جمعة فى رمضان) .

كنت أحد الذين استمعوا إلى خطبة الامام فى صبيحة ذلك اليوم (٢٠ يونيو) ولم أستطع أن أخفى دهشتى من تجاهله لما يجرى فى لبنان ، ليس فقط لأن الفلسطينيين هم ضحيته ، ولكن لأن الجانى منسوب إلى الشيعة . ونقلت انطباعاتى إلى صديق خبير بالسياسة الايرانية ، فكان رده أن الإمام له حساباته وتوازناته ، وإذا كان قد التزم الصمت ، فإن مبادرة آية الله منتظرى ليست بعيدة عنه ، ورغم اعتكافه طوال الأيام العشرة الأخيرة من رمضان ، فإن خط الاتصال الوحيد الذى ظل مفتوحا معه ، هو هاتف الشيخ منتظرى .

أضاف الخبير الإيرانى ، أن حسابات الإمام تقتضيه أحيانا ألا يتصدى بنفسه لبعض القضايا ، وفى تلك الحالة فان آية الله منتظرى يتولى الأمر بالاتفاق مع الإمام ونيابة عنه .

وفيما تستمر التفاعلات والضغوط على المسرح السياسى الإيرانى ، فإن القدر الذى اتفق عليه هو تجاهل الإشارة فى وسائل الاعلام الرسمية إلى منظمة تحرير فلسطين ، واستخدام عبارة الثورة الاسلامية فى فلسطين لتقوم مقامها .

يبدو أن اليأس أدركهم من أسلمة الثورة الفلسطينية ، فقرروا فى النهاية أن يقوموا بذلك بأنفسهم ، عبر الاذاعة والتليفزيون ، حتى إشعار آخر ! !

□ □

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٨٧ / ٥٥٨٢

مطابع الأهرام التجارية القاهرة ـ مصر



بطاقة أول زيارة لايران بعد الثورة فى فبراير ١٩٧٩ ، وهى صادرة عن الهيئة الاسلامية الكويتية لتهنىء الإمام الخميني . وقد تضمنت الاسم والوظيفة (صحفى) مع اشارة إلى أن حاملها ضمن الوفد المرافق لصحبة الاستاذ المهرى ، ممثل آية الله الخميني بالكويت

هذا الكتاب ..

عندما أبلغت بعد صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، بأن بعض الدول العربية لم تسمح بدخوله أو عرضه فى أسواق الكتب السنوية التى تنظمها ، لم أستطع أن أخفى شعورا بالإحباط لأول وهلة وفهمت لاحقا أن السبب الأساسى للحيلولة دون تداول الكتاب فى تلك الدول هو أنه يتحدث بلغة مختلفة عما أصبح يسمى عندنا « بالخط الإعلامى » وهو مصطلح مهذب يعنى أنه على الجميع أن يستقبلوا المعلومات والمعارف فى مجرى معين وباتجاه معين ، ولهدف مرسوم .

وقد كنت أعلم مسبقا أن الكتاب خارج الخط ، حتى أثبت فى مقدمة الطبعة الأولى أنه « نوع من السباحة ضد التيار » وأكرر اعترافا هنا بأن معالجتى لمادة الكتاب كانت أكثر انحيازا إلى المعرفة المجردة ، وأقل التزاما بالخط المرسوم ، الأمر الذى أظنه مما يحسب للكتاب ولا يحسب عليه . لأن هذا النهج يترك الحكم والتقييم للقارىء ، ولا يلزمه مسبقا بحكم طرف أيا كان موقعه أو سلطانه .

وقبل أن تنفد الطبعة الأولى ، علمت أن دولة البحرين سمحت بدخول الكتاب وبيعه فى الأسواق .. واعتبرت تلك بادرة إيجابية تشير إلى أنه لايزال هناك من يقدم قيمة المعرفة على قيود الخط .

وبعد ما صدرت الطبعة الثانية ، قدر لى أن أقوم بزيارة لبعض الدول الخليجية ، التى التقيت فيها بشرائح عديدة من المثقفين . وإذا بى أفاجأ بأن كل من لقيته قرأ الكتاب واقتناه ، وبأن غاية ماحققه الحظر المفروض أنه حال دون بيع الكتاب فى المكتبات العامة ، بينما أثار فضول الكثيرين ، ودفعهم إلى السعى بطرق شتى للحصول عليه . مما هيأ الفرصة لمزيد من الرواج للكتاب الذى انطبقت عليه مقولة : إن كل ممنوع مرغوب — أى أن الذين منعوا الكتاب خدموه ولم يحجبوه .

وعندما أبلغت أن الطبعة الثانية قد نفدت ، ومن بعدها الطبعة الثالثة ، وأن مركز الأهرام للترجمة والنشر بصدد إصدار هذه الطبعة الرابعة ، قلت : تلك شهادة أخرى من القراء تنتصر لقيمة المعرفة ، وتتمرد ضمنا على « الخط » وأهله .

وهى شهادة من القراء حقا ، لكنها شهادة لهم أيضا .

الحمد لله !

فهمى هويدى

مركز الاهرام للترجمة والنشر ـ مؤسسة الاهرام
التوزيع فى الداخل والخارج : وكالة الاهرام للتوزيع ش الجلاء ـ القاهرة
مطابع الاهرام التجارية ـ قليوب ـ مصر

ايران
من الداخل

الطبعة الأولى
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م

الطبعة الثانية
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

الطبعة الثالثة
١٤٠٨هـ - ١٩٨٨ م

الطبعة الرابعة
١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - القاهرة
تليفون : ٧٤٨٢٤٨ - تلكس : ٩٢٠٠٢ يوان

غلاف
عبد الغنى أبو العينين

المحتويات

الصفحة